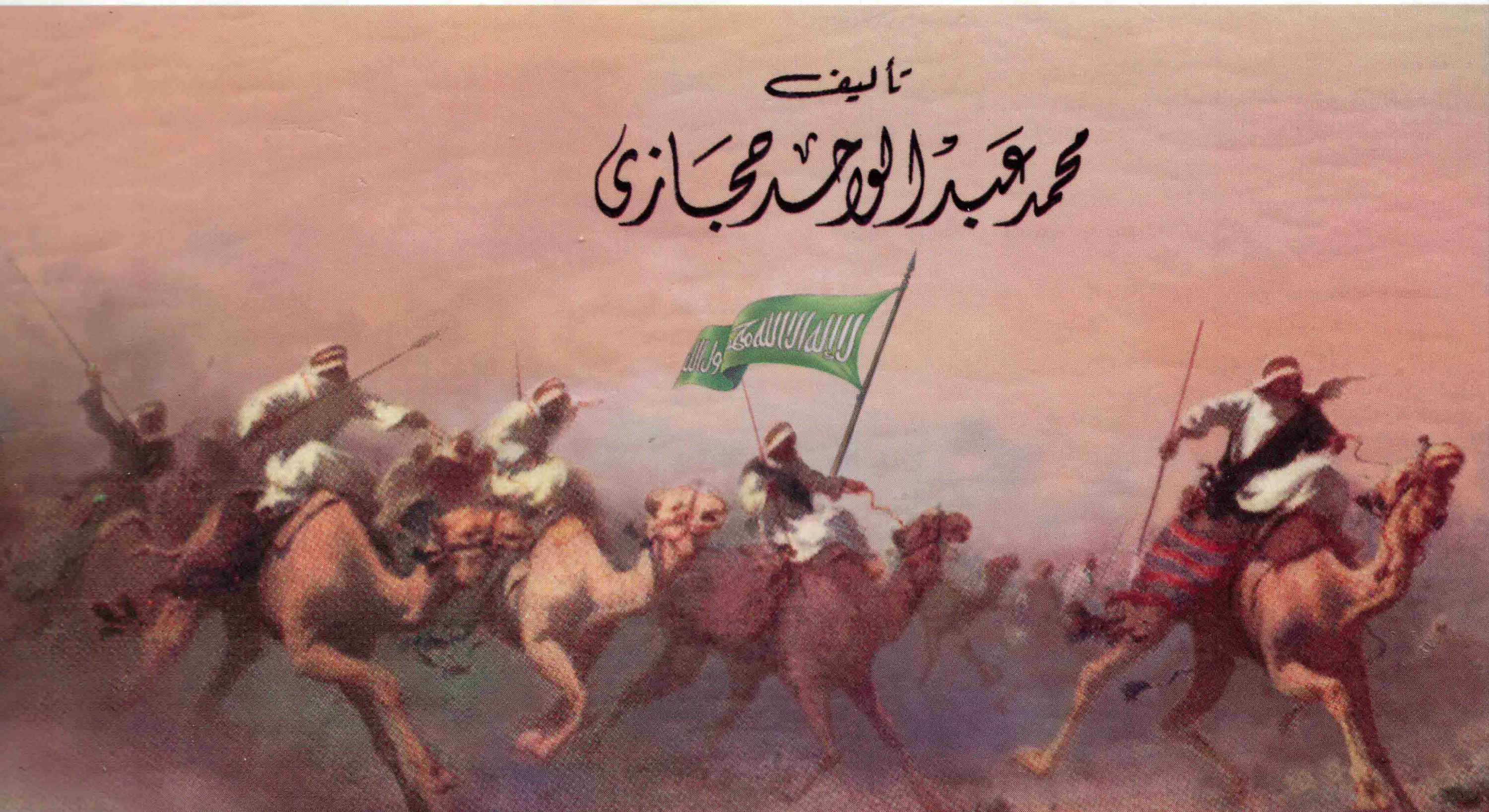
العسكرية الإسلامية

منذ فجر الإسلام

تأليف
محمد عبد الواحد حجازى



مكتبة الإيمان
بالمنصورة ت ٢٢٥٧٨٨٢

الْعَسْكَرِيَّةُ الإِسْلامِيَّةُ

مُنْذُ فَجْرِ الإِسْلامِ

محمد عبد الواحد حجازي

مكتبة الإيمان

الطبعة الأولى

١٤٣٠ / ٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٥٢٣/ ٢٠٠٩

مكتبة الإيمان

المنصورة: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

الإسلام عقيدة الحياة

الفصل الأول

الإسلام عقيدة الحياة

كلٌّ يحيا الحياة على شاكلته . . وكلٌّ يعمل على شاكلته . .

ووفق هذا اختلف كل إنسان عن الآخر فى فهمه للحياة وغايته منها وغايتها منه ، واختلف تبعًا لهذا منهاج عمله وطريقة أدائه وما ينشده من وراء المنهج والطريقة .

وكان لابد أن تحيا كل حضارة على شاكلتها وفقًا لشاكلة الحياة التى رأت أنها أنسب لها وأخلق بها ، فكان أن اختلفت الحضارات وتباينت فى خصائصها الظاهرة والباطنة حتى قيل : إن لكل حضارة روحًا تتميز بها عن غيرها من سائر الحضارات وإن وقع امتزاج بينها فى ظاهرة من ظواهر الاجتماع أو العمارة أو مسلك من مسالك الأخلاق أو شعيرة من شعائر العقيدة فضلا عن امتزاج التجارة والصناعة .

فإذا كان كل يعالج الحياة ، ويعمل فى الحياة على شاكلته ، وإذا كان لكل حضارة حياتها المنفردة ، أو شاكلتها الروحية الخاصة بها ، فإنه لمن البداهة أن يختلف فكر المفكرين عن الحياة من حيث كيفية إحيائها والمثل الأخلاقية الواجب تمثلها عند الإحياء أو اصطناعها أساليب للإحياء .

فمن قائل : إن الدنيا عقل فيجب على الإنسان أن يحياها بالعقل ، والعقل وحده ، ومن قائل : إن الدنيا عاطفة فيجب على الإنسان أن يحياها ويحييها بالمبادئ الأخلاقية الأساسية التى يتحقق بها الواجب ، ومن قائل : إن الدنيا عدم والخير للإنسان أن يحياها بأنانية اللامبالاة فلا يحفل بما يجرى ولا بما يجب أن يجرى . فحسبه أن يحيا يومه بل لحظته ، بل دنياه هو . . ومن قائل : إن الحياة صراع بين وحوش ضارية ، فعلى المرء أن يكون وحشًا ضاريًا بين غابة البشر

يُهاجم قبل أن يُهاجَم ، ويُخاتِل قبل أن يُخاتَل ، ويغدر قبل أن يُغْدَر به ، فلا يرحم أحداً ؛ لأنه إن كبا ، فالويل له من عدوه ، يتكالب الجميع عليه لينتزع منه ما وفر ودبر .

وأيا ما كانت أفكار المفكرين ومذاهبهم أو فلسفاتهم ، وأيا ما كانت نظريات علماء الاجتماع أو الأخلاق أو رجال السياسة وأصحاب السلطان المهيمنين على مصالح العباد والمسيطرين على مصائرهم والموجهين لهم ، أيًا ما كانت أفكار هؤلاء جميعًا ، فإننا لن نظفر بمنهاج كامل متكامل للحياة فى أسسه ومبادئه ، وبهدى من روحه يحيا الناس الحياة وهم آمنون لا يزعجهم حاضر ، ولا يقلقهم غد، وهم آمنون من الحيرة واليأس والقنوط ، بل هم في رخاء من العيش وثراء فى الفكر وإخلاد إلى الأمن والأمان .

نعم ، لن نظفر بمنهاج كامل متكامل للحياة بين تلك الأفكار والمذاهب .. على تطاول وتنوع التاريخ الحضارى للبشرية ـ نطمئن إليه أو يطمئن الناس إليه اطمئنانًا كاملاً .

ألا إنه الإسلام .

ولقد يقال : إن هذا لون من ألوان التعصب لعقيدة الإسلام .. وللتعصب أنانيته واحترابه .

ولكل عقيدة متعصبوها الذين يقولون مثل هذا القول فيحسبون ، بل يعتقدون أن عقيدتهم هى عقيدة الحياة ، وأن ما عداها انجراف وفساد ، أو أن ما عداها تخريف وتجديف .

ولذلك فإننا درءاً لذلك الاتهام وما يدور حوله ، فإننا نعرض منهاج الإسلام فى الحياة ، فى أسسه وقواعده الأصلية من حيث ماهية الحياة والغاية منها ، والسبيل أو السبل فى تحقيقها كما أراد بارئها جل شأنه .

وأول هذه القواعد هى « الأمانة » : وذلك هو التقدير الأعلى والتقويم الأكرم

للوجود الإنسانى وللوجود الكونى بعامة ؛ فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

فالأمانة هنا هى الأمانة الوجودية للإنسان أو أمانة الوجود الإنسانى ذاته ، فكأن الإنسان قد فرض على نفسه أن يحمل أمانة وجوده الذاتى وأمانة الوجود الإنسانى مسئوولا مسئولية إيجابية كاملة عن الأمانة التى قبل حملها ، فهو إذ يحقق فى ذاته الصفات الإنسانية فإنه يكون مسئولا عن كل عمل يُكلَّف به أو يتعرض له سواء ، أكان عظيم القيمة كبيرًا يقع في دائرة التأثير ، أم كان ضئيل القيمة لا يتجاوز تأثيره إلى غيره من الذوات أو غيره من الناس .

وكذلك يرتفع القرآن الكريم بالذات الإنسانية إلى التكريم الذى لا تكريم فوقه، وبالوجود الإنسانى الذى يتمثل فى البناء الحضارى إلى المقام المتسامى الذى لا تسامى فوقه ،وإذا كانت الأمانة هى أمانة الوجود الذاتى والوجود الإنسانى فإنها توجب العمل الذى يحققها تحقيقا إنسانيًّا ، أى تحقيقا حضاريا ، وتلك هى المخاطرة الإنسانية الوجودية التى عبرت عنها الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ ، ولا تتحقق الأمانة بجانبيها الجزئى والكلى إلا بالعمل ، وتلك هى القاعدة الثانية فقال سبحانه : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥] .

وإذا قبل الإنسان حمل الأمانة الوجودية الكونية فقد صار مكلفًا بضرورة العمل لتحقيقها فى ظواهرها وبنيانها ، ولذلك جاء الأمر بالعمل في كونه فريضة واجبة لا محيد عن تحقيقها فقال سبحانه : ﴿ اعْمَلُوا ﴾ .. فواجب العمل هنا واجب كونى شمولى بكل معانى ودلالات العمق والشمول ، فالعمل أيًّا كان نوعه ودرجته ومكانته ، يراه الله ، ويراه رسول الله ﷺ ويراه المؤمنون ، وتلك هى الدرجات الثلاث لكونية العمل الحضارى ، فمعنى أن الله سبحانه يرى العمل، أنه جل شأنه يراه فى تحقيقه لأمانة الوجود التى حملها الإنسان ، وذلك

من حيث العمل بما قررته شريعته من طرائق للبناء والإعمار أو للإصلاح والتقويم، وكذلك يراه رسول الله ﷺ ، أو قائد الأمة ، وكذلك يراه المؤمنون أو المجتمع ممثلا فى قياداته أو أصحاب الرأى فيه .

والرؤية هنا تكون من حيث حسن العمل وكفاءته وضرورته ، وكذلك من حيث آثاره القريبة والبعيدة لا لتوكيد كونية العمل ، أو كونية الأمانة الوجودية فحسب ، ولكن أيضًا لتمحيص العمل فى ذات الوقت ، لتجعل الإنسان ينظر فيما يصنع ؛ ليتأكد إن كان محققاً لوجوده ووجود أمته ، وليتأكد إن كان فيه خير له ولأمته ؛ وليتأكد إن كان قد أقام عمله على شريعة من أمر الله أم لا ، ثم إنها (أى الرؤية) تستنهضه ، ليعمل لا ليتوكل أو يتكاسل ، أو يقف موقف اللامبالاة من العمل وما يفرض من تبعات ، ولهذا فقد جاءت عبارة : ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ وكأنها النذير الذى يذكر ويحذر فيرتد الإنسان إلى ذاته ليحاسبها محاسبة ذاتية قبل أن يحاسبها ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ . ولهذا جاءت الفاصلة : ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لتجعل من الأمانة الوجودية للإنسان مسئوولية كونية يُحاسب الإنسان على النهوض بها كما يحاسب على كيفية أدائها .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة شمولية فى معناها ودلالتها يخاطب بها الفرد والجماعة والأمة والإنسانية كلها ، إلا أن القرآن الكريم قد خص الفرد ذكرًا كان أم أنثى بواجب العمل وإحسانه ، وهنا يأتى المعنى والدلالة فيقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣] ، فإحسان القول والعمل الصالح والإسلام إلى الله هى مقومات تحقيق الأمانة ، أو أن يكون العمل صالحًا لصاحبه وصالحًا لغيره ، ولن يكون حسن القول والعمل كاملاً بغير الإسلام ، ذلك ؛ لأن الإسلام إلى الله وشريعته بحسن القول يصلح العمل وتستقيم حياة المجتمع والأمة .

ثم يأتى التخصيص مبينًا لكل من الذكر والأنثى ضرورة العمل الصالح القائم على الإيمان فيقول سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] فلا تفرقة بين الذكر والأنثى فى جزاء العمل طالما كان عملا صالحًا ، ونجد الآية الكريمة تقرر لصلاحية العمل مصدرًا واحدًا أو قاعدة واحدة يجب أن يقوم عليه ويصدر منه ، هذا المصدر الواحد هو الإيمان : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فحين يكون الإيمان هو مصدر العمل وقاعدته ، فإن الإسلام إلى شريعة الله والقيام بما أمر يكون تلقائيًا وعن حب هو اليقين الذى لا يخالجه شك ولا يهزه ارتياب . وهذا ما يجعل صاحبه يفوز بجزاء عمله فى الحياة الدنيا مغانم وفيرة من الخير والرضوان مما يفضى إلى الإحساس برخاء العيش وطيبه .

والقاعدة الثالثة : أن الحياة ابتلاء وجهاد ومجاهدة وصبر ومصابرة ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف:٧] فإذا كانت الأرض قد ازدانت بكل ما عليها وكانت هي موطن حياة الإنسان ، وكانت حياة الإنسان قد فطرت على حب الشهوات التى زينت فيها وزينت لها فإنه أمر طبيعى أن تكون حياة الوجود الإنسانى فى موقف التجربة التى لا تنتهى أو موقف الابتلاء الدائم ، فحين تقول الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ فإن معنى هذا أن قد هيئت للإنسان حياة الإغراء بالزينة والجمال بالنزوات والشهوات ؛ ومعنى هذا أيضًا أن الإغراء لن ينقضى إلا بانقضاء بواعثه فى جسد الإنسان . . ثم تأتى كلمة ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ لتجسد طبيعة حياة الإنسان وطبيعة وجوده ، فهو أبدا فى مشقة وجودية مع ذاته ومع غيره ، مع حياته ومع الحياة ، وهو أبدًا على تجربة جديدة أو اختبار جديد لأن فطرته أبدا على استشراف الجديد لا يفرغ لها تطلع ولا يموت لها دافع .

وليس قصارى الابتلاء إغراء فقط ينحو فيه المرء بضميره وخلقه وسلوكه ، وليس قصارى الابتلاء محنة يجتازها المرء بغير أن يفقد إيمانه بالله ، ولكن الابتلاء هنا شمولى يضم كافة النوازع الفطرية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية التى يتطلع إليها الإنسان ويرجوها ، وذلك كله من أجل تحقيق ظاهرة حضارية بالعلم

والعمل؛ ولذلك جاء قوله سبحانه : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ليؤكد أن الابتلاء هو ابتلاء العمل الذى تزكو به الحياة وتتحقق به إمكانات الفطرة الإنسانية فى ظواهر حضارية .

فالعالم فى موقف ابتلاء ، والسياسى فى موقف ابتلاء ، والقائد العسكرى فى موقف ابتلاء ،والطبيب فى موقف ابتلاء ، وكذلك الزارع والصانع والتاجر والموظف فى موقف ابتلاء ، بل إن كلا من الزوج والزوجة فى موقف ابتلاء .

وموقف الابتلاء بعامة ذو ثلاث درجات متكاملة :

١ ـ نظرة تقويمية للماضى .

٢ ـ نظرة تقويمية للحاضر .

٣ ـ نظرة تقويمية للمستقبل يبنى على إثرها تحقيق الإمكانية أو تحقيق الهدف المرغوب .

والابتلاء فى جوهره وروحه هو ابتلاء الإيمان ، وابتلاء الإيمان هو أساس كافة أنواع الابتلاء ، فهو باعثها ومحركها ومصحح مساراتها إذا انحرف بها صاحبها انحراف الإفساد والإضلال أو انحراف عدم الاهتداء إلى قصد السبيل ، فابتلاء الإيمان هو التجربة الوجودية الكبرى التى كتب على الإنسان معاناتها ، ولقد قال سبحانه مبينًا للناس حتمية هذه التجربة وضرورتها : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢، ٣] فليس يكفى أن يؤمن الإنسان بالله ، وليس يكفى أن يؤمن الإنسان بكتبه ورسله واليوم الآخر ، وليس يكفى أن يؤمن بشريعته ، وأنها وحدها قوام الوجود وعليها وحدها يقوم البناء الاجتماعى قويًا متماسكًا ومستقرًا آمنًا ، ليس يكفى ذلك كله ما لم يُفتن الإنسان بفتنة العمل ، وفتنة العمل فتنة وجودية حضارية ، فالمسيرة الحضارية للأمة والجماعة تؤدى تلقائيًا إلى متطلبات جديدة وغايات جديدة تصيب الإنسان بدرجات من الحيرة والقلق أو بحالات من

التشتت الذهنى والضياع الإيمانى لتناقضها مع ما تأخذ به من أسباب الحياة وأسباب المعيشة سواء أكانت مذاهب فكرية أو اجتماعية أو نظمًا اقتصادية ، فموقف الفتنة هنا هو من صميم التدافع الحضارى للحياة الإنسانية ، ورغم هذا فإن الناس سرعان ما ينسونه ويغفلون عنه ، بل يصبح بينهم وبينه حجاب صفيق من اللامبالاة أو عدم الاكتراث .

إذن فالآية الكريمة إذ تذكر وتنذر فإنها فى نفس الوقت تهتك ستار الوهم الذى يخدر الوعى والشعور فضلا عن الأبصار ، فإذا الإنسان مخدوع فيما يعمل أو يصنع ، مخدوع حتى فيما يقول ، فكانت هذه العبارة الكريمة : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا ﴾ هى التى ترد الناس بل الإنسان إلى ذاته ووعيه فإذا هو حصيف ومدبر يقظ ، ثم يأتى ختام الآية الكريمة بما هو من صميم الإيمان ، فالإيمان ليس مجرد قول يقال ، ولكنه حياة ، والحياة هى المعاناة الروحية من أجل البناء والإعجاز ، فتقول الآية : ﴿ وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ .

وما كانت قضية الإيمان قضية معاصرة ، وما كانت قضية الأمانة الكونية بالتالى قضية معاصرة سواء أكانت معاصرة لعالم الماضى أو لعوالم الماضى ، أو كانت معاصرة لعالم الحاضر أو لعوالم الحاضر ، لكنها قضية الأزل والأبد ، فمن يوم أن خلق الإنسان وهو بالعقيدة مفتون وللعقيدة مفتون ، ومن يوم أن خُلق الإنسان وهو بالحضارة مهموم وللحضارة مهموم ؛ لأن عقيدة الإيمان بالله سبحانه هى قضية الحضارة أو فريضة الاستخلاف التى كلف الله خليفته بها . وهى التى جاء فيها : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة: ٣٠] ولذلك فقد جاءت الآية الكريمة لتبين أن قضية الإيمان هى القضية الكونية أو القضية الحضارية الكبرى ، فليس إنسان الحاضر هو وحده المطالب بها، وليس إنسان المستقبل هو وحده المطالب بها ، بل إنه إنسان الأبد ، إن أجيز هذا التعبير ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣] .

ومن هنا كانت القاعدة الرابعة : هى احترام الحياة ..

ذلك أن وجود الإنسان على الأرض أو فى الأرض ليس لهوا ولا عبثًا ، فهو ما خُلق إلا ليكون خليفة ربه ، فيؤدى بأمانة الإيمان ما هو مكلف به من إنشاء وإعمار وتجديد وإصلاح ، فالهزل أو الصغار مما لا يعرفه الإيمان بالله ؛ ولذلك كان قول القائلين : إن الدنيا ملهاة كبرى أو مهزلة كبرى هو من الصغار الذى لا يليق بعقل الإنسان فضلا عن وجدانه ورهافة شعوره ، بل إنه لدليل على ضحالة الفكر وغثاثته فيما يتصور ويفكر ، ومن هنا جاء النذير والتحذير من أن يحيا الناس دنياهم غير حافلين بأسس الإيمان أو قواعد الإيمان ؛ أو غير حافلين بشريعة الإيمان شِريعة الحِق والعدل ، وذلك أن العبث هنا هو التقويض الذى لا مفر منه للبناء الاجتماعى أخلاقيًّا وسلوكيًّا إذ تضيع الحقوق بين مجون العبث وأنانية الحقد الذى يدفع صاحبه إلى الزيغ عن الحق وربما أضرّ التابعين له إن كان من ذوى الوجاهة أو المكانة الاجتماعية المحسوبة إلى اقتفائه فيما يفعل إن لم يكن أنكى مما يفعل ، فالعبث لا يتفق إذن والوجود الحضارى للإنسان لأنه من أعدى أعداء البناء الاجتماعى والبناء النفسى للفرد ، ولذلك حذر القرآن الكريم من العبث وأنذر العابثين بالعذاب الشديد ؛ فقال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] .

وعندما ننظر إلى آثار العبث وفاعلياته فى البيئة الاجتماعية من هذه الجوانب فإننا نجده مدمرًا لها كل التدمير ، ومفسدًا لها كل الإفساد ، وذلك هو الضلال البعيد الذى حذرت منه الآية الكريمة ، ونلاحظ هنا أن التحذير جاء فى صورة تبعث فى الوجدان الإحساس بخطورة العبث ورهيب مآله ؛ فقالت الآية الكريمة : ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ ، وإنه لمن العصى بل من المعنت حقًّا أن تحاول إقناع العابث بالأقدار والمقدرات بضلال سعيه وفساد عمله ، كما أنه من العصى ، بل من المعنت الذى لا نظفر من ورائه بثمرة صالحة أن تحاول أن تبصر الباغى على الغير بأن فى عمله ظلمًا ، أو تحاول أن تصرف القاسى عن قسوته ، وإن كان

لا يضار بها سواه ، فإن جادلته وقرعته بالحجة المقنعة فقد يقرعك هو بحجة داحضة وفق منطقه الذى يفهم به الدنيا ، وربما لم يجد حجة أو حيلة يواجهك بها مواجهة الإقناع ، أو حتى مواجهة المراءاة والمخادعة ، فلا تجد منه سوى الإصرار على فعله أو سلوكه ، وهكذا بدون تبرير أو تعليل ، وذلك هو ذروة العبث أو ذروة الفساد واختلال الموازين الإنسانية فى الحقوق وشعائر الحياة .

وهذا هو ما أوضحه القرآن الكريم على أنه صفة أو آفة من الآفات الحضارية التى تفسد الذات الإنسانية فتفسد ما تصنعه أو تقيمه ؛ فقال سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦] ، فالحق تبارك وتعالى ينبه الناس فيقول لهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ هل ننبئكم عمن هم أولئك الذين خسروا أنفسهم وأعمالهم الخسران المبين؟ هل نخبركم عمن هم لا يجنون من وراء أعمالهم سوى البوار والضياع والحسرة ، أو أولئك الذين لا يجنون من وراء كدحهم سوى الندم والعدم ؟ من هم إذن ؟ هنا تقول الآية الكريمة : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وتصور هذه الآية الكريمة الطبيعة النفسية والسلوكية التى تحدد فعل وحركة من فقدوا الإيمان بالله أو من أفرغ عملهم من روح الإيمان بالله ، فهى تصفهم بأنهم : ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ وكلمة « ضَلَّ » فى حد ذاتها توحى بمعنى الزيغ عن الهدى ، بل إنها بجرسها الموسيقى تعطى الإحساس بكثافة طريق الانحراف أو طريق الفساد، وبأنه مدلهم الرموز والإشارات يجوس صاحبه خلاله وهو على غير هدى أو بينة ، ثم تنضم كلمة : « سَعْيُهُمْ » لتصور أو لتجسد طبيعة حركة الضلال ؛ فلم تقل الآية : « ضل عملهم » لأن العمل محدد بشكل وغاية معلومة ، ولم تقل « ضل فعلهم » لأن الفعل هو ذات الحركة وذات الحركة لا تدل على الغاية

المقصودة ، أما كلمة « سَعْيُهُمْ » فهى تؤكد الدأب فى الحركة والإصرار عليها ودوامها ، كما تؤكد أنها حركة إلى الأمام بقصد الحصول على شىء أو اغتنامه أو تحقيق وجوده هذا .

أما الجانب الثانى فهو أن لفظة : « سَعْيُهُمْ » تجسد تنوع الأعمال وتباينها بتباين أعمال الضالين وتنوع وظائفهم وحرفهم ، وكذلك تنوع أهدافهم وغاياتهم ، ثم تأتى عبارة « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » لتبين أن الحياة الدنيا وهى محط الوجود الإنسانى والعمل الحضارى ، هى المجال والهدف معًا ، أو هى الوسيلة والغاية . فإن سلم العمل فى الحياة أو سلم اصطناع الوسيلة فى إقامة بناء حضارى حسبما أرادت الشريعة القرآنية أو حسبما توجب مبادئ الإيمان بالله ، فإن الحياة الدنيا أو الحضارة تكون صالحة للتعبير عن الإنسان الذى استخلف على أمانة الأرض ، ومن ثم فهو يحقق إمكانات أو شهوات فطرته وهو ضمين بأن تجربته أو تجاربه ستثمر ما يحيى الحضارة ويزيدها تأصلا ، ويزيد إنسانها تفتحًا لتحقيق ما يراوده من أحلام حضارية ـ إن أجيز هذا التعبير ـ فى شتى مجالات الحياة الإنسانية .

ولكن الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا لا يحسبون أنفسهم على ضلال ، ولا يحسبون أنهم منحرفون عن سواء الحق ، ولا يحسبون أنهم أساؤوا إلى المجتمع أو أساؤوا إلى الإنسان ، فحذقوا الأول وأفسدوا الثانى على نفسه ، إنهم كما تقول الآية الكريمة : ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ وتلك هى الطامة الكبرى التى ما إن تحيق بمجتمع أو أمة أو طائفة حتى يتفشى الفساد بأنواعه ودرجاته فى البنية الاجتماعية ولا يكون بينها من علاقات تربطها وتضبط قواعد تعاملها سوى الأنانية والانتهازية والإكراه ، وليس هناك ما هو أشقى من مجتمع ولا أتعس من أمة أصيبت بأولئك : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ولنستقرئ تاريخ الحضارات أو تاريخ المجتمعات فى تطور أحوالها من القوة إلى الضعف ، ومن الازدهار إلى الفساد والانهيار فسوف نجد أن علة الضعف أو الانهيار هو سيادة أخلاق الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم

يحسنون صنعًا ، وأظهر ظواهر هذا الفساد هو أن يشيع بين طبقات الناس وهم خطير ، فحواه أن كل ما يعمله أى منهم هو الصواب الذى لا ينفذ إليه الباطل وهو الصدق الذى لا تداخله فرية ، وهو الحق الذى لا يدحضه تفنيد ، فالحاكم قد يكون طاغية دكتاتوراً يقيد بأجهزته التنفيذية الظاهرة والسرية حرية الشعب ، بل حرية الفرد فى فكره وعمله وأمله ولقمة عيشه وموطن إقامته ، يقيده بقيود تقتل فيه إرادة العمل وإرادة الحياة ثم يقول له : إنه إنما يريد له الديموقراطية الصحيحة ، والحرية الصحيحة ، وطريقة التفكير الصحيح وأسلوب العمل الصحيح ، وفئات القائمين بالنشاطات الصناعية يزيفون ويغشون فيما يصنعون من أدوات وآلات ، أو منتوجات غذائية ويخدعون أنفسهم قبل أن يخدعوا غيرهم فيتوهمون أنهم يجاهدون فى سبيل إقامة صرح صناعى قوى عتيد ، والواقع أنهم يفسدون الأخلاق الاجتماعية قبل أن يفسدوا الصناعة والمصنوعات ، ونقول مثل هذا عن الأعمال التجارية التى يتربص أصحابها بالأزمات والاختناقات التى تمر بها الأمة فإذا هم يخفون السلع ولا يظهرونها إلا على إيقاع من الجشع الخبيث ، فيأخذون ثمن السلعة من جيوب الناس أضعافًا ظانين ظن السوء أنهم أحسنوا الصنع حين أرغموا الناس على أن يبتاعوا منهم وفق ما اشتهت أنفسهم . وأيضًا نقول مثل ذلك عن المشتغلين بالفنون كالغناء والتمثيل . . فليس يعنيهم جودة ما يقدمون من حيث التسامى الذى يحيى النفوس ويبعث فيها حب الحياة فضلاً عن سائر الأحياء، ويبعث فيها الأمل ، وإن ضاقت بها سبل العيش وعانى أصحابها من مضانكها الكثير ، لا يعنيهم ذلك كله إنما يعنيهم مخاطبة الغرائز أولا ، ثم مخاطبة الفئات السطحية التى يشوقها معابثات هذا الدعة والفراغ وذلك بغية استنزاف أحوال العابثين المخدوعين ونقيس على سائر سبل المعاش التى ينال منها الناس أرزاقهم ومناعم حياتهم .

ونلاحظ فى هذه العبارة الكريمة : ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أنها قالت : « يَحْسَبُونَ » ولم تقل : « يتوهمون » أو « يظنون » لأن الوهم ضلال غير متعين

فى ذهن صاحبه ، و«الظن» وهم محدود بما هو « مظنون » ولكنه غير بيِّن القسمات واضح المعالم . أما كلمة « يحسبون » فهى وإن كانت تعنى الوهم إلا أنه وهم محسوب ، والمحسوب مدروس من حيث قيمته ومميزاته وآثاره . وهذا هو ما يتطلبه السعى فى الحياة فليس السعى خبطًا على غير هدى ولكنه طريق مرسوم لهدف مقصود . . ثم تأتى عبارة : « **أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** » لتصور الطبيعة النفسية لذلك الحسبان أو الوعى المحسوب . فالحسبان هنا دليل على يقين ثابت أو عقيدة راسخة بأن صاحبه قد أحسن الصنع وأجاد ، وهذا اليقين الثابت أو العقيدة الراسخة تعطيه ما يشبه المناعة من الاعتقاد بأية حجة أو بينة ، أو مناعة من التبصر الذاتى أو تقبل المراجعة الغيرية .

وما هو أكثر من هذا أنهم كفروا بآيات الله سبحانه فى السموات والأرض وفى أنفسهم ، بل كفروا بآياته فى التشريع والتنظيم .

مثل هؤلاء يمثلون الكارثة المحققة لإنسان الحضارة وحضارة الإنسان وذلك هو الكفران غاية الكفران . . فماذا يكون جزاؤهم ؟

يقول سبحانه : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾ [الكهف: ١٠٥] .

لقد فقدوا وزنهم الذى كان لهم فى حياتهم ، وإنه للوزن الذى بلغوه بالبغى والتزييف والتمويه المحكم المصنوع ، وأصبحوا فى موقف الذلة والمهانة ، يعبر عن هذا قوله تعالى : ﴿ **فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾ ومعنى لا يُقام لهم وزن ـ أى وزن ـ أنهم فقدوا كل قيمة ومنزلة ، وفقدوا كل حرمة وشفاعة ، وكيف لا يفقدون وهم قد أفسدوا الحياة الدنيا بفساد إيمانهم وخانوا الأمانة التى كُلِّفوا بتحقيقها فى الأرض ، أمانة الوجود الحضارى الذى يعمر الدنيا ، ويزيد إنسانها إيمانًا وقوة ورسوخًا فى العلم ؟ وهنا تأتى الآية الكريمة التى تمثل الاتهام والجزاء ؛ فالاتهام هو العبث بالحياة الدنيا ، والهزء بآيات الله ، أما الجزاء فهو جهنم يصلونها وذلك هو الجزاء العادل فقال سبحانه : ﴿ **ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا**

وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٦] .

والقاعدة الخامسة : أن الانكفاء المادى أو الإيمان المادى بالحياة أو بالوجود الدنيوى وحده مدمر للحياة والإنسان والحضارة ، وإذا كانت هذه القاعدة على مثل هذه الدرجة من الخطورة فقد يقول بعض الجَدليين المماحكين بالخلاف ، إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يمحق الله أولئك الماديين الكافرين فيخلص الدنيا من شرورهم وآثامهم ؟ ونقول : إن رحمة الله شملت كل ما فى الوجود وأنه سبحانه أسبغ نعمته على كل ما هو كائن ، وهذا من قدرة الله ورحمته بمخلوقاته . .

الأمر الثانى : أنه لو حدث لحرم التطور الحضارى مما يقدمه أولئك الماديون الذين لا يعرفون سوى الجانب المادى من أفكار وعلوم وصناعات ، الأمر الثالث : أن محق الماديين يفقد المسيرة الحضارية عملية التدافع الحيوى للتطور الذى يقتضى التمايز بين الأطوار والاعتبار بها اعتبار عملى ينفع فى العمليات الإبداعية للظواهر الحضارية ، واعتبار فكرى ينفع فى إعادة التقويم وتصحيح موازين الفكر والعلم والأخلاق .

فلننظر إذن فيما قررته الآيات البينات من القرآن الكريم ، يقول سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦] . فالآية الأولى تبدأ بهذه العبارة : « مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا » فهاهنا تصوير كامل شامل للحياة الدنيا بما عليها من ضروريات وكماليات . . تجسيد للحياة فى نضارتها وما يرجوه الإنسان منها وما يشتهيه فيها ، إنها لم تقل: « مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » فحسب ولكنها أضافت إليها « زِينَة » هذه الحياة وجميل متعتها وبهجتها ، وبذلك جمعت طرفى الشهوة البشرية أو الرغبة البشرية فى الحياة ، فمن الناس من يريد الحياة الدنيا فحسب يسعى إلى أن ينال فيها ما يقيم أوده ويستر عورته ولا تجعله يمد عينيه أو يديه إلى ما بأيدى الناس ، يكفيه من خيرها القليل الذى يشبعه ويشبع أولاده ويستره ويستر أولاده ، ولكن من الناس -

وهم الكثرة ـ من لا يريدون من الحياة مجرد الكفاف أو ما يغنيهم فلا يحوجهم إلى شظف العيش أو يدنيهم منه ، ولكنهم يريدون من الحياة زينتها التى تعشقها نفوسهم وتتطلع إليها نواظرهم ، وما هى زينة الحياة ؟ أليست هى الشهوة إلى النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ؟ أليست الزينة تفاخراً بالمناصب والمراتب والجاه والسلطان ، أو تفاخراً بالحظوة لدى أصحاب الجاه والسلطان ؟ أليست الزينة تفاخراً بالأعمال والأموال ؟ ومن ثم يكون فى قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ تكامل وشمول لكل مظاهر النعمة والبهجة فى الحياة الدنيا .

ثم يأتى العطاء الإلهى فى استجابة الإنسان حتى وإن لم يؤمن بغير الدنيا وحدها ، فيقول سبحانه : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴾ فها هو ذا العطاء الإلهى فى فيضه الجزيل الرحيم فتقول الآية : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ أى: أن شهواتهم تجد تحقيقها كاملا غير منقوص وأعمالهم التى يسعون بها لتحقيق أطماعهم فى الأموال لا تفشل ولا يصيبها الخسران ، بل إنهم ليحققون بها أرباحًا من وراء أرباح ، ويحققون بها شهرة تتجاوب بها الآفاق ويحققون بها سيطرة على الدولة ونظامها وسياستها فيوجهونها بما يخدم مصالحهم ويرسخ قواعدهم ، ثم تأتى الآية الكريمة بما هو ذروة النعمة السابغة والعدل الكامل فتقول : ﴿ وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴾ أى أن جهودهم التى يبذلونها ويتكلفون الكثير من النصب والتعب وربما أرغمتهم على أن يضحوا من أجلها بالأرواح فضلا عن الأموال ، جهودهم تلك لا تضيع هباء ، وتضحياتهم تلك لا تذهب سدى ، ولكن الله سبحانه وهو العادل الرحيم ، لا يظلمهم فيما بذلوا وقدموا ، ولا يخذلهم فيما طمعوا واشتهوا .

وهنا تأتى الآية الثانية بالجزاء العادل الذى يستحقه أولئك الذين لم يؤمنوا إلا بالدنيا ، بشهواتها وزينتها ، ولم يعملوا إلا للدنيا ، لشهواتهم وزينتهم ، فيقول سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ ﴾ وذلك المصير الرعيب قد يثير

التساؤل : ولَمَ وقد وفَّاهم الله أعمالهم ولم يبخسهم شيئًا ؟ وقد مكنهم الله مما رغبوا فيه واشتهوه ؟

ونقول : إن شهوات الفطرة حين تسيطر على الفكر والشعور بحيث تحجب الإنسان عن التطلع إلى ما وراءها وتدبر عواقبها ، فإن الإنسان وهو بطبيعته حقود أنانى وظلوم كنود ، فإنه لا يشبع تلك الشهوات ، ولا يسعى إلى تحقيقها إلا بمنطقه هو منطق الأنانية ، منطق الحقد، منطق الظلم ، منطق الاشتهاء الذى لا يرتوى ، ومن شأن هذا كله أنه يجعل من يرد الحياة الدنيا وزينتها أو الذى سيطرت عليه شهوات الفطرة ، على فكره وشعوره ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر، لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يفرض العمل بشريعة الله ، وشريعته سبحانه عدل ومساواة وإحقاق للحقوق ، ونظام إنسانى متكامل بين طبقات المجتمع ، لا يضيع فيه حق الفرد ، ولا تضيع فيه الجماعة ، فتُستلب منها حقوقها إضعافًا لها وإذلالا لصالح الفئة المتسلطة أو الفئة الباغية .

ولا تجدن امرءًا سيطرت عليه شهوات الدنيا ، وأصبح مهمومًا بها دون غيرها فلا يؤمن بسواها محركًا له وباعثًا وخالقًا إلا وكانت علاقاته الإنسانية بالناس ، كيفما كانت ، قائمة على أساس المنفعة المادية ، فأولياؤه وأصفياؤه هم الذين ينفعونه ماديًّا ، فالمودة معهم هى المودة النفعية ، والمجاملة معهم هى المجاملة النفعية ، والإيثار بينهم هو الإيثار النفعى . وهكذا . .

ولذلك فإن الوشائج المادية حين يغلظ وجودها بين الناس على هذه الصورة، وتتغلغل حتى تنفذ إلى بواطن اللاشعور ، فإنها سرعان ما تنقلب إلى عداوة ضارية إذا ما رثت أسبابها أو انقضت بواعثها ودواعيها ، وبين المودة النفعية والعداوة النفعية يقوم صراع أعمى بين الناس يؤذن بتخريب البناء الاجتماعى وتقويضه ، إذن فلماذا لا يستحق أولئك الذين هاموا بالدنيا وكأنها معبودهم الذى لا يؤمنون بسواه جزاء النار فى الآخرة؟ ولكن فما بال ما صنعوا وأنشؤوا؟ وما بال ما عملوا وحققوا من إنشاءات عمرانية صناعية أو تجارية ؟ هل يثابون عليها ؟

وكيف يثابون وقد كانوا علة شيوع البغى والتناحر وخراب الضمائر وضياع الحقوق بين الناس ؟ هنا تقول الآية الكريمة : ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا ﴾ أى لا يُثابون عليه ، ولكن إذا كان ذلك هو مصيرهم وجزاؤهم عند ربهم ، فما هى القيمة الحضارية لما أنشؤوه من ظواهر مادية ، بل من ظواهر أخلاقية ونظم اجتماعية ، ألم يكن ما أقاموه وشيدوه ، وما أعمروه وأغنوه بالحركة الحضارية قائمًا على الغدر والغيلة والتدليس ؟ وقائمًا على التزييف والمخادعة والافتئات على الحقوق حتى ضاعت فيها مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد والمستقبل الحضارى للأمة ؟ إذن فهو الباطل وإن تعاظم بعمائره وبناياته ودعاواه ، وهنا تأتى الآية الكريمة بما هو فصل الخطاب أو بالحكم الذى ينزل عليه منطق التاريخ الإنساني ويؤكده؛فيقول سبحانه: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وما كان الاكتفاء المادى أو الإيمان المادى بالحياة مجرد هوى طارئ يصاب به الفرد ، أو يصاب به المجتمع فى بعض أطواره أو مراحله لا يلبث أن يرتد عنه بعد فترة فيعود إلى رشده الفكرى والأخلاقى والدينى ، ولكنه إيمان وعقيدة ونظام له أسسه وأركانه وله أهدافه وغاياته أو هو مصير ووجود ولذلك ، فإن الصراع يكون دومًا محتدمًا حتى وإن لم نسمع له جلب أو ضوضاء ودخل هذا الصراع ما يغشى العيون ويزكم الآناف بين أصحاب العقيدة المادية في الحياة أولئك الذين يسعون إلى السيطرة على أرزاق الناس وأقواتهم ـ وبين الذين يسعون إلى إشاعة روح الحق والعدل على أساس من شريعة الله التى لا تبخس الناس أشياءهم ، إذن فالصراع هنا صراع إيمانى فى لبابه : الأولون يؤمنون بالدنيا أو بالوجود المادى ولا شيء سواه ، والآخرون يؤمنون بشريعة الله ، شريعة الحق والعدل والرحمة ، يقول سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢] .

وبناء الفعل : « زُيِّنَ » للمجهول يجسد إيمان الكافرين بأن الحياة الدنيا لها فى نفوسهم منزلة العقيدة العميقة الراسخة فى سواء أفئدتهم .

وإذا كانت مزينة على هذه الصورة ، وبهذا العمق فلا ريب فى أن ينشب صراع بينهم وبين المؤمنين بالله الآخذين بشريعة الحياة ، وهنا يلجأ الكافرون أو المؤمنون بالنفع المادى إلى سلاح السخرية فتقول الآية الكريمة : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ والسخرية ليس معناها الهزء اللفظى فحسب، ولكنها تعنى العداء المرير أو الحقد المرير الكامن فى النفوس ، فتترجم عنه بالسخرية العملية إن أجيز هذا التعبير ، ونقصد بالسخرية العملية أن النفعيين بإدلالهم المادى على النفوس الخائرة يستطيعون أن يكونوا سببًا فى بوار تجاراتهم أو انهيار صناعاتهم أو سد أبواب العمل ومجالات الارتزاق فى وجوههم ، إذن فليست الغاية من سلاح السخرية الهزء بالقيمة والحط من القدر بكلمات قوارص فحسب ، ولكنها ـ أى السخرية ـ سلاح من أسلحة التدمير النفسى بإشاعة اليأس والقنوط فى نفوس المؤمنين بالله علهم يفرون من الميدان أو ينضوون تحت لواء كفرهم عبيدًا مسخرين.

إن الآية الكريمة تستنهض إرادة الإيمان فى نفوس المؤمنين بالله تثبيتًا لهم على الحق الذى شرعه الله لعباده ، وإن كابدوا فى صراعهم مع الأنانية المادية مكابدة لا يجنون منها سوى مضاعفة الشظف والحرمان ، ولهذا كان جزاؤهم هو الرضوان الأوفى ، فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ثم تأتى خاتمة الآية الكريمة : ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لتقرر حقيقة التدافع بين طرفى النزاع الاجتماعى : المؤمنين والماديين الذين آمنوا بأن المنفعة المادية هى القيمة الكلية المطلقة فى الوجود فهى لديهم الإله المعبود ، وتقول الآية للماديين : إن أموالكم ومشروعاتكم الاقتصادية ومكانتكم الاجتماعية بين الناس ، ذلك كله من فضل الله لا من فضلكم أنتم ، ولا بمهارتكم أنتم ، ولا بتدبيركم أنتم . . فإذا كنتم تحسبون أن فيض الثراء الذى يدخل إليكم إنما مرده ومرجعه إلى عبقريتكم فأنتم واهمون ، إنما هو من فيض الله الذى يرزق بغير حساب وأنتم ممن يشاء ، أما المؤمنون المجاهدون الذين يسعون إلى إحقاق الحق وإشاعة العدل على شريعة من أمر الله

ويلقون فى جهادهم حربًا ضارية من الكافرين فإن الله سبحانه يثبتهم باليقين الثابت بأن الرزق هو رزق الله فلا يبتئسون بما ناله الكافرون من مكانة أو هيمنة ، بل إن عليهم أن يصبروا ويصابروا . . فهذه هى مشيئة الله الذى يفتنهم بما يثبت أقدامهم ويمحص إيمانهم ويدنيهم من النصر على عدوهم ، فغدًا يكون الرزق رزقهم والدولة دولتهم : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وإن فى قوله سبحانه : ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ ، و ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لما يبعث فى نفوس المؤمنين لا الثقة واليقين فحسب ، ولكن أيضا الاستبشار بالغد والتفاؤل بالمستقبل وللاستبشار والتفاؤل دروهما الفعال فى إشاعة الاطمئنان الذى يعين على التدبير وإحكام خطة العمل ، وفرق بين استبشار وتفاؤل المؤمنين المتقين ، واستبشار وتفاؤل الجاحدين المنكرين لكل حق ، الطامعين فى كل حق . . فالأولون يستبشرون بالحياة ويتفاءلون ويعملون بهذه الروح ، ولذلك فإن جهادهم قد يطول ويطول ، ومع ذلك فإنهم لا يسأمون أو يضجون لأنهم يعملون لتصحيح موازين الحياة بالنسبة لهم ولغيرهم ، ومجتمعهم وتصحيح موازين المجتمع وقيمه تقتضى المصابرة والمطاولة لأنهم ـ أى المؤمنين ـ إنما يصارعون قيمًا ويصارعون نفوسًا أو يصارعون نظامًا اجتماعيًّا له تقاليده وقواعده الأخلاقية والسلوكية التى تتطلب الكثير من المدافعة والمقاومة ، وكَمَ لا تتطلب ذلك كله وكل عمل يحققه الجاحدون النفعيون إنما يصدر عن اقتناع به وثقة فيه وطموح إليه ؟ قال سبحانه : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر:٨] .

وإذا كان الجاحدون المنكرون لكل حق والطامعون فى كل حق مستبشرين متفائلين بحياتهم ، فإن بغيهم الانتهازى يتميز بالسرعة فى تحقيق مآربهم والحصول على ما استحلته أعينهم ، وكأنهم يخشون الظلام الذى يعيشون فيه ، أو كأنما هم على رقبة وارتياب من الذين يسلبونهم أو يستغلونهم وإن كانوا ضعافًا لا يستطيعون مواجهة بغيهم ، وفى ذلك يأتى القرآن الكريم بتجسيد حيوى لطبيعة

طمع النفعيين الباغين على الحق وعلى سلامة البناء الاجتماعى وكذلك جزاؤهم على عملهم ، كما جسد سعى المؤمنين فى إقامة البناء الاجتماعى على منهاج من شريعة الله ؛ فيقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:١٨ ـ ٢٠] . فحين تقول الآية الكريمة : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ فإن هذا لا يعنى أن المرء يريدها مجرد إرادة فحسب ، ولكنه يريدها فى عجلة وسرعة ، وكأن لديه إحساسًا بأنه يأخذ ما ليس من حقه ، فهو من ثم يريد أن يختلسه اختلاسًا قبل أن يراه أصحابه . وهنا تأتى الاستجابة الإلهية لترد لهفة المتعجل المتسرع فتقول الآية : ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا ﴾ ثم تقرر الآية أن كل شىء بأمر المشيئة الإلهية فليس كل من يتعجل الحياة الدنيا ولا يؤمن بسواها تُعَجَّل له فيوض النعمة زواخر الخير ، فسبحانه يعطى من يشاء ، ويحرم من يشاء ، وذلك بقدر وتقدير حكيم . ولما كان علم من يريد العاجلة أو من يريد الحياة الدنيا ولا يؤمن بسواها يؤدى إلى هدم البناء الاجتماعى وتقويضه وإذلال إنسانه واستعباده وتمزيق كيانه الوجودى نفسًا وفكرًا ، فإن الجزاء الرهيب الرعيب يكون كفاء ذلك الإفساد المبين فيقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٨] .

ثم تقول الآية الكريمة : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فإرادة الآخرة تعنى إرادة نعيم الله وحسن جزائه وفيض رحمته حين يقوم الحساب . . وإرادة الآخرة تعنى الإيمان بالله ربًّا واحدًا لا شريك له ، وإرادة الآخرة تعنى أن شهوات الدنيا لا تسيطر على الإنسان فتضله عن الإيمان بالله ، وهنا تبين الآية الكريمة أن إرادة الآخرة ليست مجرد انفعال ، ولكنها حركة وفعل محقق لإمكانات لم تكن موجودة وكان يجب إيجادها ؛ فتقول الآية : ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ فكأن للآخرة سعيًا خاصًّا بها وحدها ؟ نعم ، إنه تحقيق شريعة الله فى العمل والإصلاح والتقويم ، وتحقيق شريعة الله فى البناء والإعمار ، وتحقيق

شريعة الله فى معاقبة من أفسد وخرب ، وتحقيق شريعة الله فى رد اعتبار التكريم والتقدير للإنسان . .

فهذا هو سعى الآخرة ، ولا سعى سواه .

ثم تأتى عبارة : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لتحدد نوعية السعى إلى الآخرة : فقد يسعى إنسان سعى الآخرة ، وقد يسعى نظام اجتماعى سعى الآخرة فيحقق إنجازات ومشروعات عمرانية واقتصادية وثقافية ولكنه لا يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ومن ثم فإن سعيه يكون منقوصًا معيبًا وخطرًا فى نفس الوقت ، وربما كانت مخاطره أبشع من مخاطر الذين أرادوا العاجلة صراحة ، ولهذا جاء شرط الإيمان لا ضابطًا للسعى ولا مقومًا له فحسب ، ولكن أيضًا لتصحيح المقومات النفسية والأخلاقية للفرد حتى يكون عمله عبودية خالصة لله وحده ، وفى هذا تأتى الفاصلة بما هو التكريم الإلهى للإنسان ؛ فتقول الآية الكريمة : ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإسراء:١٩] ثم تقرر الآية التالية حقيقة من حقائق العقيدة وصفة من صفات الحق سبحانه وهى أن الوجود نعمة من الله ، وأن رزق الإنسان من فيض بره وعطائه الذى أفاء به على بنى آدم ، لا فرق بينهم حسب ألوانهم وأجناسهم ومراتبهم فى الحياة ؛ فقال سبحانه : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء: ٢٠] إذن فحسب المنهج القرآنى لا يستوى الذين يريدون العاجلة وهم أولئك الذين احتواهم التفكير النفعى الأنانى ، والذين يسعون إلى العمل بشريعة الله ؛ وصدق الحق سبحانه حيث يقول : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر:١٩ ـ ٢٢] .

القاعدة السادسة : أن فريضة الإيمان بالله تفرض على الإنسان أن يستجيب لداعى الحياة ، فهذا هو الواجب الذى تفرضه الأمانة التى حملها الإنسان ، وما الأمانة إلا فريضة الوجود الإنسانى فى الأرض على أن يكون الوجود عبودية خالصة لله وحده ؛ قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ

لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤] .

فحين يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فإنه يدعو بالخاصية الأولى والأولية والمحور الرئيسى للوجود الإنسانى والحياة الإنسانية ، إنها خاصية الإيمان، ولباب الإيمان حب ويقين . فكأن القرآن الكريم لا يدعو بدعوة القهر والإرغام ، ولا يدعو بدعوة التسلط والبغى ، ولكنه يقول لهم : ﴿ اسْتَجِيبُوا ﴾ والاستجابة فى ذاتها هى تلقائية الحب الواعى . وما الحياة فى ذاتها ، فى أطوارها وتطوراتها ، وتقدمها وارتقائها وتعدد مظاهرها ، وثراء ألوانها إلا تلقائية الحب الواعى ، وعلى هذا فإن الاستجابة دلالة على الوعى الحى والشعور الحى بالحياة ، ومن ثم كان قوله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ هو الدعوة المنطقية التى تتفق وطبيعة الإيمان . وفى نفس الآن فإنه سبحانه يُبصِّر الإيمان أو تلقائية الحب الواعى بخطر التقاعس عن الاستجابة الوجدانية المؤمنة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤] فإذا استجاب المؤمنون لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم فإن الحياة تكون لهم بغير شك وإن حياتهم تكون راسخة شامخة ؛ يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] .

فالاستجابة الإيمانية فى نُضارها عمل صالح تزكو به الحياة ويُكرَّم به الأحياء، وتكون فى جوهرها عبادة لله سبحانه ، فالله سبحانه يعد المؤمنين ، وهذا الوعد فى ذاته دلالة التعظيم الذى ليس فوقه تعظيم ، ودلالة التكريم الذى ليس فوقه تكريم ، الله الواحد القهار ومن بيده ملكوت كل شىء يعد عبده الفانى ؟ أى رحمة تلك ؟! وأى عظمة قدسية تلك ؟!

ولما كان الإيمان ، أو تلقائية الحب الواعى لا يكون كاملا ولا يتحقق وجوده إلا بتحقيق إمكانات الفطرة ، فإن العمل الصالح هو الضرورة الحتمية المطلقة

لتجسيد الإيمان ، بل لتجسيد الوجود الإنسانى كوجود حضارى له قيمه الإيمانية ؛ ولذلك جاء قوله سبحانه : ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مقولة حيوية لابد منها لاستكمال شرط الإيمان ، وننبه هنا إلى أن « العمل » الذى تقصده الآية الكريمة ليس المقصود به ـ كما هو شائع بين جمهرة الناس ـ العمل الصناعى أو الاقتصادى أو العمرانى فحسب ، لكنه يشمل فضلا عن هذا كل ما يتفتق عنه ذهن الإنسان وخياله من أنواع الظواهر الحضارية المختلفة ، إنه يشمل كافة الأعمال الفكرية والعلمية والفنية ، فبغير مقولة العمل الصالح لن يكون الإيمان ناقصًا فحسب أو قاصرًا فحسب بل سيكون ضربًا من الأنانية النفسية السلبية التى لا تغنى شيئًا وليكون ضررها أشد إفسادًا للوجود الإنسانى ، ولذلك فقد جاءت الآية الكريمة بالأسس الرئيسية التى تضمن للوجود الحضارى أو البناء الحضارى تأصله وقوته واستمراره .

فشرط الحياة الحرة الكريمة ، وشرط الحضارة الأصيلة المعطاءة لما فيه خير الإنسان هو أن يتحقق الإيمان بعمل الصالحات ، وإن شرط قيام الريادة أو القيادة الحضارية أو الحضارة العالمية التى تمسك بمقاليد الحياة الإنسانية هو أن يتحقق الإيمان بعمل الصالحات ، وهذا ما أوضحته الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فالاستخلاف فى الأرض هو الريادة أو القيادة العالمية للحضارة الإنسانية .

ولما كان هذا الاستخلاف قائمًا على أساس الإيمان بالله والعمل بشريعته ، فإنه لأمر منطقى أن تكون قوة البناء أو قوة العمل من قوة الإيمان الذى فرضه وشرعه. وهذا معناه أن عقيدة هذه الحضارة تتأكد كقوة عالمية لها وزنها وخطرها فى العالم كله ؛ ولهذا جاء قوله سبحانه : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ دلالة على أن تحقيق دين هذه الحضارة الذى ارتضاه الله لها يكون لا أمرًا مؤكدًا فحسب ، لكنه يكون أيضًا القوة المهيمنة على الحياة وهى التى تعز الإنسان ويعتز بها ؛ وهذا ما يشى به قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ فالتمكين قوة

وإعزاز وتكريم فوق الريادة والقيادة .

وبهذين المقومين : الاستخلاف فى الأرض أو الرسوخ فيها والهيمنة على مقدارها ، وقوة العقيدة وتأصلها المعز ، يتحقق ما تسعى إليه أية حضارة من الحضارات أو شعب من الشعوب . . وربما سأل سائل : وأين استمرارية الحياة هنا؟ أين ما يدل على انتشارها انتشاراً حيا ؟ ونقول : إن الحياة الحضارية حين تنشأ من الإيمان وبالعمل القويم الذى يرضاه الإيمان ويحققه فى نفس الآن .

وحين يصير دين هذا الإيمان قويا مكيناً مرهوباً من أعدائه المتربصين به ولو كانوا من أهله الخارجين عليه . فإنه لا يجسر أحد على أن يفكر فى التآمر عليه أو إضرام الفساد فيه ، ولا يجرؤ أحد على أن يفكر فى مهاجمة أرضه أو غزوها واحتلالها أو بعض أجزاء منها وهو آمن ، وهذا مما يعطى إنسان هذه الحضارة الثقة الآمنة فى أنه في حمى إلهى ورعاية ربانية ، فيقبل على أعماله الحضارية فى اطمئنان ورخاء ؛ فلا خوف من الحاضر ولا إشفاق من المستقبل . فهو يتطلع باستمرار إلى إبداع ما يسعد الناس ويثرى ظواهر الحياة ومجالاتها ، ويتطلع باستمرار إلى تحقيق ما يراود خياله من آيات علمية تكون من عوامل زيادة تطلع الفكر إلى اقتحام ميادين علمية لم يسبق اقتحامها فتسفر البحوث والتجارب عن مخترعات جديدة يصبح استعمالها من عوامل ريادة اجتناء الخير وتهيئة أسبابه، وفى نفس المجال ترتفع فنون الثقافات فوق صخب الحياة المادية لتصبح آيات على حب الحياة . . وحب الإنسان ، وتراتيل شكر وعرفان لبارئ الأرض والسماء .

وإن فى قوله سبحانه : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ تذكرة بالمحور الأساسى للوجود الإنسانى وهو أن تكون العبودية لله وحده خالصة منزهة عن أدنى أثارة من أثارات الشرك غير المباشر ؛ لأنه كما تؤكد وقائع التاريخ بعامة ـ كثيراً ما يفتن الإنسان بذاته أو بعلمه أو بماله أو بسطوته وقوته فيداخله إحساس جارف من الغرور فيظن أنه قد أصبح قادراً على أن يسخر العلم كما يشاء ، فيقول باسمه للشىء كن . . . فيكون . . وربما أصابت فتنة الفكر والعلم والقوة من ليس

لهم بسطة فى العلم أو الصناعة أو السلطان فيهرعون إليهم ويستسلمون لمشيئتهم. . وهنا يأتى التقويم الإلهى لأولئك المتألهين بأنهم حرب على الحياة التى أرادها خالق الحياة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] .

تلك هى المبادئ الستة العامة وقد جاء بها القرآن الكريم متكاملة لتصوير ماهية الحياة والغاية منها والسبيل إلى تحقيقها .

• • •

الفصل الثانى

الجهاد فى الإسلام

عقيدة ... وشريعة

الجهاد فى الإسلام

عقيدة ... وشريعة

الفصل الثاني

الجهاد فى الإسلام

تمهيد

حين نقول إن الإنسان قد حمل أمانة الوجود عن طواعية واختيار ، فإن هذا القول يظهر متناقضًا فى نظر بعض الناس إذ كيف يحمل الأمانة الكونية الكبرى والتكليف فى حد ذاته فرض وإلزام ، إن لم يكن فيه إرغام مع أنه لا سبيل إلى التحرر منه فالسؤال نقول : إن هذا التكليف إنسانى حر ؟

ولكننا نقول : إن من أقبل على النهوض بتحقيق موضوع أو تنفيذ مشروع إنما يقبل على حمل أمانة التنفيذ أو التحقيق وفق الشروط المقررة لذلك المشروع ، ومن ثم فهو يصبح ملتزمًا بها خاضعًا لما توجبه الشروط من وسائل فى المعالجة ونظم فى التحقيق والتشييد ، وبذلك الالتزام فهو لا يستطيع أن يتنصل من تبعة ما التزم به ، لأنه إنما قبله عن اختيار حر ، وكذلك فإنه لا يستطيع أن يأخذ ببعض ما التزم به دون البعض الآخر ، وإلا فإنه يعد مخالفًا يستحق جزاء المخالفة . وكذلك فإنه لا يستطيع أن يمارى فيما كلف نفسه به أو كلف به غيره ، أو أن يزيف فيه أو يدور حوله بالتمويه والمخادعة ، لأنه سواء زيف أو خادع أو موّه ، فهذه كلها ألوان من النكوص أو الهروب تستحق العقاب الرادع الذى يرد النفس إلى سواء السبيل ، إذن فلا ظلم هنا ولا جبر عصوف بحرية الإنسان وكرامته ، وكذلك لا قهر يدُعُّ الإرادة ويحطم الفكر .

وبهذه الروح حمل الإنسان الأمانة الكونية للوجود وحُمِّل برسالته الوجودية ليحقق بها إمكاناته فى الأرض تحقيقًا حضاريًا يؤهله لأن يكون خليفة ربه الذى استخلفه فى الأرض ليعبده فيها ويذكر فيها اسمه .

فإذا كان الإنسان هو أسمى الكائنات الحية : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ

تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] .

ويتميز بإمكانات ليس لها نظير فى سائر الكائنات الحية ، هى إمكانات العلم أو إمكانات الفكر ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] .

وهى إمكانات الدوافع الفطرية ؛ فقال سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ [آل عمران: ١٤] .

وإذا كان الكون قد زين للإنسان فهو بين المنفعة والجمال ؛ فقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦] .

وإذا كانت الأرض قد زينت للإنسان ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف: ٧] .

إذا كانت تلك هى مقومات الحياة والوجود الإنسانى . . وما هية الرسالة الإنسانية وغايتها ، أفلا يجب على الإنسان أن يحافظ على مقومات الوجود الإنسانى ليضمن نهوضه برسالته ؟

أفلا يجب على الإنسان أن ينهض بأمانة وجوده ؟

هنا تأتى فريضة الجهاد فى سبيل الله بدهية وجودية تحتم على الإنسان أن ينهض بتكاليفها ، وما تقتضيه من مشقات وتضحيات . .

فمع « الجهاد فى سبيل الله . . عقيدة وشريعة » .

• • •

على هامش العلاقة بين اللغة والمجاز :

من الخصائص العبقرية للغة العربية أنها لغة المجاز ، ومعنى المجاز هنا أن الكلمة فى أصلها اللغوى ترتفع من الاستخدام المعاشى الضيق المحدود أو من رمز من رموز الطبيعة المحيطة والعلاقات الاجتماعية المتوارثة وما قد يستجد منها بين الناس بتغاير أحوالهم ، وهنا تأخذ اللفظة أو الكلمة معنى جديداً مغايراً لما كان له من قبل أو بنفس المعنى القديم مع اختلاف الدلالة ، هذا فى الوقت الذى تختلف فيه أشكال إعراب اللفظة بين الفتح والضم والكسر .

وهذا ما جاءت عليه كلمة « الجهاد » فقد ورد فى مادة « جَهِد » بلسان العرب ما يلى :

* الجَهد ، والجهد : الطاقة . والجَهد : ما جَهِد الإنسان من مرض أو أمر شاق .

* وقال ابن الأثير : قد تكرر لفظ الجَهد والجُهد فى الحديث : وهو بالفتح المشقة ، وبالضم الوسع والطاقة .

* وجُهِد الرجل إذا هزل .

* وجَهَد دابته جَهْدا وأجهدها : بلغ جَهْدها وحمل عليها فى السير فوق طاقتها .

* وقال الجوهرى : جَهَدتُه وأجهدته بمعنى . . قال الأعشى :

فجالستها وجال لها أربعٌ جَهَدْنا لها مع إجهــادها

* وقال الأزهرى : الجَهْدُ بلوغُك غاية الأمر الذى لا تألو على الجهد فيه : تقول جهدت جَهْدى واجتهدت رأيى ونفسى حتى بلغت مجهودى .

* والجهد : الغاية ، قال الفراء : بلغت به الجهَدَ أى : الغاية .

* وأجهد الشيب : كثر وأسرع ، قال على بن زيد :

لا تُؤاتيك إن صحوت وإن أجْـ   هَدَ فى العارضين منك القتير

* والجُهد : الشىء القليل يعيش به المقل على جَهْد العيش . . وفى التنزيل : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩] .

* وقال أبو عمر : المجاهد والجهاد : الأرض المجدبة التى لا شىء فيها .

* وجهِد عيشهم بالكسر أى نكِدَ واشتد .

* والاجتهاد والتجاهد : بذل الوسع والمجهود .

* وجهدت الطعام : اشتهيته . . والجاهد : الشهوان .

* والجهاد بالفتح : الأرض الصلبة ، وقيل : هى التى لا نبات فيها .

* والجهاد : الأرض المستوية ، وقيل : الأرض الغليظة ، وتوصف به فيقال: أرض جَهاد .

* والجِهاد : محاربة الأعداء ، واستفراغ ما فى الوسع والطاقة من قول أو فعل .

بعد هذه التفاسير الميسرة والمتنوعة ننتقل إلى «الجهاد» فى مصطلحه الإسلامى كعقيدة وشريعة حيث تتكامل فيه المعانى النفسية والأخلاقية والاجتماعية والتى هى موضوع بحثنا . . .

• • •

أ ـ الجهاد النفسى

مقومات الجهاد النفسى :

قال الحق سبحانه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨] .

تتمثل فى هذه الآية الكريمة الطبيعة الوجودية والنفسية والأخلاقية التى فُطِر عليها الإنسان والتى هى فى إطارها المحور الرئيسى الذى يدور عليه الوجود الإنسانى فى كل أطواره التاريخية ومظاهره الحضارية . ففى صفتى الفجور والتقوى اللتين ذكرتهما الآية تدور البواعث الفطرية للاشتهاء والنزوع ، فالفجور اشتهاء لا ينقطع اشتهاء يتصف بالعدوانية على الحقوق فى شهوانية تسخر العقل ، بل إنها لتطمس فاعليته من أجل الحصول على ما يشتهى المرء ويريد . .

ويتقابل الاشتهاء الفَجُور بالتقوى ، وليست التقوى هنا كما قد يتوهم كثيرون مجرد عكوف مستسلم لا شأن له بما يجرى ولا شأن له فيما يُصْنع ، ولا شأن له فيما تسير إليه الأمور ، ولكنما التقوى هى النهج الروحى والعملى الذى يُرْجع الإنسان إلى الرشد والصواب ؛ فيصلح ويقوم ويستبعد ويجدد ويبدع لا فى مجال المصالح العملية فحسب ، ولكن أيضا فى مقتضيات الفكر والعلوم والسلوكيات . . فهذان الطرفان لا يفتران إذ هما قواما الطبيعة البشرية ، أجل ، لا يفتر أبداً الصراع بينهما ، أحيانا يتغلب الفجور وأحيانا تتغلب التقوى ، وهكذا أبداً سرمداً بغير انتهاء .

لكنما النصر فى خاتمة المطاف والفوز الذى يزكو به الوجود الإنسانى ويسمو فى تصوره وفكره وشعوره وإحساسه بالغير ، بل العمل على التواصل الحضارى بالغير إنما يكون بالتقوى عقيدة دينية وشريعة أخلاقية وسلوكيات لا تحيد ولا تتحيف ، وإنما يقوم المجتمع على أساس من موازين القسط .

ومن هنا كان الوجود الإنسانى فى مشاقة وجودية لا تنقطع ولا تهدأ ، أو

مكابدة وجودية لا تنقطع ؛ فقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد : ٤].

ولعل ذلك الاشتهاء المحتدم لشهوات الحياة ، والتى تتغلب على فكر الإنسان وعقله ، بل إنها لترين على قلبه فتطمسه عن وعى الحقيقة هو الذى يجعل الإنسان فى موقف الاحتراب الذى يحتم عليه أن يحاصر شهواته ، ويخفف من غلوها وإلحاحها عن وعى وبصيرة ، لتسلم له أوقاته وحياته ، وليسلم له مجتمعه وهو فى مضطرب شؤونه ، ولتسلم له حضارته وإنسانيته .

إذن ، فالإنسان أبدًا فى موقف المجاهدة النفسية مع ذاته الخاصة وغيره من الذوات الاجتماعية . وليس النصر دوما حليف ذلك الجهاد ، فالكثير من الناس يهزم فى مجاهدته لشهواته فهو يخضع لتسخيرها بغير إدراك سليم ، وتلك حقيقة الفطرة البشرية التى يصعب إنكارها ولقد أوضحها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر : ٢] .

وإذا كانت نفس الإنسان أمَّارة بالسوء ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يوسف : ٥٣] .

وإذا كان الإنسان كنودا لربه ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات : ٦] .

وإذا كان الإنسان فى خسران متصل ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر : ٢] .

وإذا كان الإنسان يبقى على الغير فى بهتان وكفران ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

وإذا كانت شهوات الدنيا هى التى تضرم فى نفس الإنسان الرغبة فى السطوة والسيطرة واستنزاف الخيرات بغيا وقهرا ، كان الشيطان من وراء ذلك يزين ويحرض ويوسوس للإنسان أن يصطنع من أنانية أهوائه سلوكًا وقانونًا وتقاليد يفرضها على الغير . . إذا كان شأن الإنسان على هذه الشاكلة فإننا لا نملك إلا أن

نقول : إن مجاهدة النفس والهوى ومن ورائهما الشيطان الذى هو ألد أعداء الإنسان حيث قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [يوسف:٥] هى ـ أى مجاهدة النفس ـ الدرجة الأولى من الجهاد ؛ بل إنها لباب كل جهاد إنها تفرض الوقوف أمام شهوات النفس بالإعلاء أو الإبدال حتى لا تدمر كيان الإنسان فى نفسه ومجتمعه وأمته إن جهاد النفس مطلوب أمام نزوات النفس ورغبتها فى الاستعلاء واغتصاب ما بأيدى الناس ، وجهاد النفس مطلوب أمام القوى التى تتربص بالأمة وتريد القضاء عليها واختدامها لأهداف مدبرة . فما لم يقهر المؤمن نفسه التى بين جنبيه ، ويكبحها عن التعلق بالدنيا والاستغراق فى شهواتها ومناعمها ، لما تمكن أن يدخل معركة يحقق فيها النصر وكيف وقد شغلته الدنيا عن الجهاد فى سبيل الحق والعدل ، وشريعة الحق والعدل .

وللخطورة القصوى والأهمية العظمى لمجاهدة النفس ما قاله رسول الله ﷺ فقد روى الترمذى عن فضالة بن عبيد أن النبى ﷺ قال : « **المجاهد من جاهد نفسه ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه** » وفى حديث أبى ذر عند ابن النجار أن النبى ﷺ قال : « **أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك فى ذات الله عز وجل** » .

وليست مجاهدة النفس مجرد الامتناع عن اقتراف السيئ من الأفعال ، سواء فى حق الذات أو فى حق الغير ، سواء أكان هذا الغير فردًا أم جماعة أم الأمة بأسرها إنما يكون الامتناع عن علم بأمور الدين وقيمه وآدابه . فعلى الإنسان أن يجاهد فى سبيل معرفة أمور دينه وما تجيزه وما تحرمه . .

ولقد جاء أبو حامد الغزالى [(١)] بأروع تصور وأوضحه وأدقه عن العلاقة الحيوية المتكاملة بين ثالوث الخسران الذى يوجب المجاهدة النفسسية ، وهو : الشيطان والشهوة والوسوسة وعلاقتها بالقلب . . فقد قال : والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحًا متساويًا ليس يترجح

---

(١) كتاب : « إحياء علوم الدين » تأليف : أبى حامد الغزالى (٣/ ٢٤) .

أحدهما على الآخر ،وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والانكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة أظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عن الشيطان ومعدنه ؛ لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ، ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لا جرم لمن يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة . ولذلك قال رسول الله ﷺ : « **ما منكم من أحد إلا وله شيطان** » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « **ولا أنا إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير** » .

وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة ، فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغى ، وإلى الحد الذى ينبغى فشهوته لا تدعو إلى الشر ، فالشيطان المتدرع بها لا يأمر إلا بالخير ، ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس ، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله ، وأقبل الملك والهم والتطارد بين جندى الملائكة ، والشياطين فى معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثانى اختلاسًا .

وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة وإطراح الآخرة ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذى هو مطرح أثر الملائكة . . إن القلب الخالى عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ [الحجر: ٤٢] فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ، ولذلك سلط الله عليه الشيطان ؛ وقال تعالى : ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ** ﴾ [الفرقان: ٤٣]

وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله .

فكأن مجاهدة الهوى تعنى فيما تعنى واجب التبصر والاستنارة بمبادئ الإسلام وهداه وبيناته حتى يعيش الإنسان حياته وهو آمن من وسوسات الشهوات وإنه للجهاد الأكبر كما وصفه رسول الله ﷺ بعد أن تحقق للإسلام النصر على الكفار والمشركين فقد قال عليه السلام : « **رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** ».

• • •

ب - جهاد الحرب والقتال

١ - لا عدوان ولا إكراه :

ليس من عقيدة الإسلام ولا شريعة الإسلام العدوان على الغير أو استعباده والتنكيل به . إنما عقيدة الإسلام عبادة الله وحده ، ومن شريعته التواد والتراحم والتعاطف على شرعة الحق والعدل . والقرآن الكريم فى هذا يذكِّرُ بالأرومة الأولى التى خرج منها بنو آدم . فالناس جميعا شعوبًا وقبائل على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومبلغهم من الحضارة والسلم الاجتماعى ، أينما قطنوا وحيثما وجدوا ، هؤلاء جميعا تربطهم وإن لم يشعروا أواصر الأرحام فتؤلف بينهم كأنهم أسرة واحدة . . وفى هذا تزكية لمقام الإنسانية من ناحية وتبصرة الأبناء آدم ليكون التواصل الإنسانى من عملهم ودأبهم ؛ فقال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾ [النساء:١] ، وتقديرًا لهذه الآصرة الإنسانية وحفاظًا عليها فقد وردت كلمة : « التقوى » فى عبارتين : « اتقوا ربكم» والثانية: « اتقوا الله » فالأولى فى مقام الخلق والتكوين ، والثانية فى مقام المساءلة والمحاسبة . وذلك من الإعجاز الفكرى والبيانى للقرآن الكريم .

أما وقد جعل الله الناس شعوبًا وقبائل ، فإن هذا لا يعنى وقد أصبحوا موزعين فى أنحاء الأرض وهم مختلفون فى أعمالهم ومشاغلهم وأطماعهم

وتطلعاتهم وثرواتهم وتفاوتهم فى القدرة على البطش والعدوان ـ إن هذا لا يعنى أن يكون حافزًا مضريًا على العدوان طمعا فيما يملكه الغير حتى ولو كان لا يمتلك سوى بدنه ، إنما يجدر بالناس أن يرجعوا إلى أصلهم الأول بمعنى أن يكون التعارف هو السياسة التى تكون عليها العلاقات بين الشعوب والقبائل ، والتعارف تآلف وتقارب وتعاون ، والتعارف علم ومعرفة وتأثير وتأثر . كذلك ينقذ الناس أنفسهم من صراعات الحروب ومذابح الاقتتال وبؤر الرق والعبودية . . أليس معنى ذلك أن تكون ثمة وحدة عالمية على خير ما يكون ، وآمن ما يكون وأكرم ما يكون ؟ أليس معنى ذلك أن الإسلام دعا إلى الوحدة العالمية بين الشعوب قبل أن تعرفها أوربا بما يزيد على ألف عام ؟ وتلك هى الحقيقة التاريخية التى لا يمكن إغفالها أو إنكارها ؟ قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

وإذا كانت تلك هى عقيدة الإسلام من حيث نظرته العالمية إلى الأمم والشعوب ، وما ينبغى أن تكون عليه العلاقات فيما بينها وفق المفهوم الإسلامى والروح الإسلامية ، فليس من الغريب ولا من الاعتساف أن يجعل الإسلام من عقيدته منهاجًا للدعوةِ إلى سبيل الله ، فكأنه يدعو إلى الوحدة العالمية على أساس التعارف الدائم القائم على التقوى . والتقوى هى الميزان القسط للتواصل بين الأمم والشعوب مهما تعارضت مصالحها واختلفت .

وانطلاقًا من هذه الحقيقة التاريخية الحضارية قامت الدعوة إلى الإسلام على منهاج التفاهم التفاوضى المندرج لا التناحر والاحتراب ؛ فقال سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

وإذا كانت تلك هى سياسة دعوة الإسلام إلى الإسلام ، فهل من المنتظر أن تستجيب شعوب العالمين لها ، أو على الأقل تحسن بها الظن هذا فضلا عن إحسانها الظن بأية دعوة للإصلاح ؟ لا ؛ لأن إحسان الظن ليس من الطبع

الخالص للناس وهذا ما يثبته القرآن الكريم ويؤكده ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:١١٦] . وإذا كان الإضلال إفسادًا ، فقد حرم الله الفساد وأنذر المفسدين ، فقال سبحانه : ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة:٦٠] ، وقال سبحانه : ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود:٨٦] .

تلك من معانى دعوة الإسلام التى بشر بها محمد ﷺ الناس أجمعين ، فلا حرب ولا عدوان ، ولا قهر ولا إذلال ولكن رحمة للعالمين ، فقال سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] ومن البداهة بناء على ما جاءت به دعوة الإسلام أن الإسلام لا يكره أحدًا على أن يؤمن به ؛ فقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] .

وقال سبحانه : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ [الشورى:٤٨] .

وقال سبحانه : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥] .

وقال سبحانه : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١، ٢٢] .

وقال سبحانه : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

إذن فعقيدة الإسلام لا تُكْرِه الناس على الإيمان بها ، وفى هذا الشأن قال الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ : إنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانًا شافيًا قاطعًا للمعذرة قال بعد ذلك : إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للكافر فى الإقامة على كفره إلا أن يجبر ويقسر على الإيمان ، وذلك مما لا يجوز فى دار الدنيا التى هى دار الابتلاء ، إذ إن فى

القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان .

وإذا كان الله تعالى قد حرم الإكراه فى الدين فإنه حرم ما يتكامل معه وهو الاعتداء على الغير ؛ إلا أن يكون الغير هو البادئ بالاعتداء ؛ فقال سبحانه : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] وفى هذه النقطة قال الشيخ محمد عبده فى تفسيره لقوله تعالي : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ﴾ كان المشركون يبدؤون المسلمين بالقتال لأجل إرجاعهم ولو لم يبدؤوا فى كل واقعة لكان اعتداؤهم بإخراج الرسول من بلده وفتنة المؤمنين وإيذائهم ومنع الدعوة ، كل ذلك كان كافيًا فى اعتبارهم معتدين وأيضا قال الشيخ عبد الله غوشة من كبار علماء الإسلام : « فقتال النبى ﷺ كان مدافعة عن الحق وأهله ، ولذلك كان تقديم الدعوة شرطا لجواز القتال وإنما تكون الدعوة بالحجة والبرهان لا بالسيف والسنان ، فإن منعنا من الدعوة بالقوة بأن هدد الداعى أو قتل فعلينا أن نقاتل لحماية الدعوة لا للإكراه على الدين » .

ثم يقول فى سياقه : « وإذا لم يوجد من يمنع الدعوة ويؤذى الدعاة أو يقتلهم أو يهدد الأمن ويعتدى على المؤمنين فإن الله تعالى لا يفرض علينا القتال لأجل سفك الدماء وإزهاق الأرواح ولا لأجل الطمع فى الكسب » .

• • •

٢ ـ فريضة الجهاد .. أسبابها ومقوماتها :

يصبح الجهاد فريضة واجبة التنفيذ بتبعاتها من حمية لا يصيبها التردد أو الإرجاء تخوفًا أو مهادنة ومسالمة ، وذلك إذا ما اعتدى جائر على حمى الإسلام فى دياره وأوطانه ، لانتزاع خيراتها وثرواتها ولإخضاع شعوبها لتكون طوع أمر ذلك الجائر المستعمر ، فتكون من ثم درعًا للمستعمر يدرأ عنه غيره من المنافسين فى حلبة الصراع الاستعمارى .

فكأن الجهاد قد فرض للدفاع عن ديار الإسلام وقداسة الإسلام فى أخلاقه

وآدابه وفضائله وعلومه وخبراته . . بل لدفع من يريدون أن يغيروا المسيرة الإنسانية للإسلام مجسدة فى قرآنه وشريعته ويرغموه بشتى سبل الإرغام والإغراء على أن يغير هويته وكيانه ، فهنا يجب أن ينهض المسلمون لمقاتلة من يعتدون عليهم فى عقيدتهم وشريعتهم وفضائلهم وفى أهلهم وضعفائهم ؛ فقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] .

والمجاهدة لا تعرف إلا سبيل الله ولذا ، فإنه لا يعرف القتل من أجل القتل أو التعذيب والانتقام ، ولذلك كان سفك الدماء مكروهًا عنده لا يقترفه ما لم يكن ذودًا عن الإسلام وحماية لأرض الإسلام ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الطبيعة الوجودية والأخلاقية للمجاهد المسلم فقال سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] ولضرورة الجهاد وخطورته على الكيان الإنسانى ولما له من قداسة وهو فى مقامه الإنسانى الذى أوضحه القرآن الكريم فقد جاء مقرونًا بالصلاة والزكاة والحج والعمل الصالح فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨] ومن الافتراء على الإسلام أن يقال : إن هاتين الآيتين توحيان بأن الإسلام يشتهى الحرب فهو يتربص بكل من خالفه ، وليس هناك ما هو أبشع من ذلك الافتراء ، فالإسلام لا يشتهى الاعتداء ، ولكن حسبه أن يكون يقظًا لأعدائه ، معدًا لهم ما يستطيع من قوة ومن رباط الخيل ولاسيما أنه مستهدف لأطماع متعددة ، ولذلك فإنه على خطر شديد تحاك ضده المؤامرات ، فمن حقه أى من حق شعوبه أن تحمى نفسها فتعد

عدتها للرد والدفاع ، وإلا فماذا نقول عن التكتلات العسكرية المتعادية فى الشرق والغرب بدافع من سوء الظن وبسط الهيمنة الاستعمارية ؟ إذن أليس من حق دول الإسلام أن تعتصم بحبل الله ، ولا تحسن الظن تماما بتلك التكتلات ، بل تكون هى سيدة نفسها وواعية لذاتها ؟

إذن فالجهاد واجب لا محيد عنه ولا نكول ، ولهذا فلابد من بعث حمية الجهاد فى نفوس المجاهدين وإعدادهم إيمانيًا للقتال ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦] .

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم: ٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾ [النساء: ٨٤] .

وقال سبحانه : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٤ ـ ٧٦] .

وفى هذا المقام يحذر القرآن الكريم من دعاة الرضا بالأمر الواقع أو المداراة ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٣] .

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء : ٧٧] .

أما المجاهد فهو لا يخشى بأس عدوه ، ولا يخشى ما يروِّج عن نفسه أو يروج له الانهزاميون ، وهذا من مقومات الإيمان التى يحرص الإسلام على أن يبثها فى رجاله ، فقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤] .

وينضم إلى زمرة الداعين إلى مداراة العدو خشية بأسه أولئك الذين يتباطؤون متعللين بمعاذير واهية ، وتلك آفة تصيب حمية الجهاد بالوهن ، وإنها لشعبة من شعب النفاق فصلها القرآن على نحو جامع شمل المعاذير التى يصطنعها الراغبون عن الجهاد طمعا فى المكاسب المادية وهذا فى بيان تأديبى سياسى لما ينبغى على الرسول أن ينتهجه فى إدارته لمعارك القتال .

فقال سبحانه : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٨١ ـ ٩٠] .

والإسلام ليس دين تجبر وإعنات ، لكنما الرحمة هى عماده وسياسته ، ومن هذا المبدأ فإنه يستثنى فريضة الجهاد من الضعفاء والمرضى والذين يعجزون عن المشاركة العملية ، وقد حددهم القرآن الكريم فقال سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢] .

ثم يعاود الدستور القرآن تبيان حقيقة وأهداف الذين يجبنون عن القتال ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٣ ـ ٩٦] .

وإلى جانب هؤلاء فلا يمتنع أن يكون هناك بعض الموالين للعدو مندسين بين الجماهير يشيعون الذعر والخوف منه فيروجون من الشائعات ما يكون أشد فتكًا من قدرات العدو ، ولهذه الخطورة فإن القرآن الكريم حذر من أولئك المتواطئين ومن على جديلهم ممن نسميهم « الطابور الخامس » فالقرآن يحذر أولا ممن يظاهرون العدو ؛ فقال سبحانه : ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ

الْمَصِيرُ ﴾[آل عمران:٢٨] أما « الطابور الخامس » فمما جاء فى التحذير منه قوله سبحانه : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[المجادلة:٢٢] ،ولقد وصف القرآن الكريم أولئك المتآمرين المستخفين؛ فقال سبحانه : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[المجادلة:١٩] .

هكذا دستور القرآن الكريم فى حماية الجهاد من المثبطين والناكصين والمرجفين بالتخاذل والتراجع وإيثار المسالمة وما هو من معينها من الدعوات الانهزامية ، فكأن القرآن الكريم يصون إرادة الجهاد التى هى إرادة القتال من كل ما قد يتسلل إليها من آفات الانهزامية المؤدية إلى التراجع والخوف ، ومن ثم فإن إرادة القتال إذ تصان بهذا المنهاج وإلى هذه الدرجة ، فإن الإسلام أمر المسلمين أن يكونوا جادين غير هيابين فى هجومهم على عدوهم فيواجه منهم غلظة القتال وغلظة الإصرار الذى لا يتراجع بل هو فى اندفاع مخطط محسوب ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[التوبة:١٢٣] .

ولكن الغلظة القتالية والجسارة فى الإقدام لا تغنى عن نبالة الجهاد الإسلامى فالإسلام يحرِّم أن يتعرض المسالمون الذين يعلنون ألا شأن لهم بالحرب لأى أذى أو ضرر ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[النساء:٩٤] .

ها هو ذا المجاهد وقد أصبح مهيئًا من حيث الغاية والهدف والحدود والمشروعية إلا أنه من الضرورى أن يتحقق عنصران رئيسيان هما عماد الجهاد

وعدته ووسيلته لا يتحقق بغيرهما ولا يدوم بدونهما وهما : المال والنفس .

فما هو موقف الإسلام من كل منهما ؟ وكيف يكون الجهاد بهما ؟

٣ ـ الجهاد بالمال والنفس :

نستهل هذا الموضوع ـ وهو متكامل مع سابقه تكاملاً عضويًّا ضروريًّا . فللجهاد فى سبيل المكانة العليا التى تسمو على كل أعراض الدنيا إذ على أساسه تقوم الدعوة ، وعلى أساسه تُصان أرض الإسلام فلا يطمع فى المسلمين طامع أيا كان مقصده وهدفه ، من أجل هذه المكانة التى لا تساميها مكانة أخرى ولا تلحق بها قال سبحانه : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة : ٢٤] .

من أجل هذه المكانة المصيرية العليا والتى هى منطلق الوجود الإسلامى فى الحياة كان رسول الله ﷺ دائب الحث على الجهاد وبيان فضله على المسلم والوجود الإسلامى .

فعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « **لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها** » .

وعن أيوب قال : قال رسول الله ﷺ : « **غدوة أو روحة فى سبيل الله خير مما طلعت عليه الشمس وغربت** » رواه أحمد ومسلم والنسائى والبخارى .

وعن أبى عيسى الحارثى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار** » .

وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم** » .

وعن أبى هريرة ، قيل : يا رسول الله ، ما يعدل الجهاد فى سبيل الله عز

وجل؟ قال : « **لا تستطيعونه** » . فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك يقول : « **لا تستطيعونه** » وقال فى الثالثة : « **مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت لآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله** » .

وعن أبى سعيد الخُدْرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **يا أبا سعيد ، من رضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا وجبت له الجنة** » . فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها علىّ يا رسول الله ، ففعل ثم قال : « **وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض** » ، قال : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « **الجهاد فى سبيل الله** » رواه مسلم والنسائى .

وروى أن رسول الله ﷺ بعث جيشًا فيهم عبد الله بن رواحة فتأخر ليشهد الصلاة مع النبى فقال له النبى ﷺ : « **والذى نفسى بيده لو أنفقت ما فى الأرض ما أدركت فضل غدوتهم** » .

وسئل النبى ﷺ : أى الناس أفضل ؟ فقال : « **مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله** » رواه الخمسة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **وفد الله ثلاثة ، الغازى ، والحاج ، والمعتمر** » رواه مسلم .

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : « **ألا أخبركم بخير الناس؟ رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله** » رواه الترمذى .

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم** » رواه أحمد والنسائى وصححه الحاكم .

وقال ﷺ : « **إن هجوم الكفار أشد عليهم من وقع النبل** » .

عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **ليس شىء أحب إلى الله**

من قطرتين وأثرين : قطرة من دموع فى خشية الله وقطرة من دم تراق فى سبيل الله. أما الأثران فأثر فى سبيل الله ، وأثر فى فريضة من فرائض الله » رواه الترمذى .

مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته لطيبها ، فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « **لا تفعل ، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ، اغزو فى سبيل الله . من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة** » .

وعن أسلم بن عمران قال : غدونا من المدينة نريد القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد ، والروم ملصقون ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مه مه ، لا إله إلا الله يلقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : إنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا : هل نقيم فى أموالنا ونصلحها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ [البقرة:١٩٥] فالإلقاء بأيدينا إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد . رواه أبو داود .

وقال ﷺ : « **من قاتل فى سبيل الله (تعالى) فواق ناقة لتكون كلمه الله هى العليا وجبت له الجنة** » .

وقال ﷺ : « **ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى ، اللون لون الدم والريح ريح المسك** » .

وروى أبو داود أن النبى ﷺ قال : « **سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله** » .

ولعل مراده ﷺ أن السائح فى الأرض يريد رزقها كما قال تعالى : ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾ [الملك:١٥] أو يريد استطلاع أحوالها وأمره مرغوب فيه مستحسن والمجاهد ينال ذلك كله ولكن رزقه يكون من غنائم الدنيا أو غنائم

الآخرة ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] .

هكذا الجهاد كما جاء به القرآن الكريم حاثا ومزكيا كفريضة لابد منها . .

هكذا الجهاد كما حث عليه وزكاه رسول الله ﷺ . . ماذا نقول ؟ إنما الجهاد الخالص يكون عبودية خالصة لله وحده ، فيه يكون المجاهد فى درجة من التهيام الإيمانى الذى يسمو على ما يكون عليه المتصوفة فكأنه فى مقام الوجد الصوفى ، وتلك عليا مراتب الوعى الإيمانى بالجهاد فى سبيل الله ، وإنما لرهبانية الجهاد ، إن أُجيز هذا التعبير .

روى السرخسى فى شرحه لكتاب « السير » للإمام محمد بن الحسن الشيبانى أن النبى ﷺ قال فيما رواه معاوية بن قرة : « **فى كل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد** » ويقول السرخسى تعليقًا على هذا الحديث : ومعنى الرهبانية التفرغ للعبادة وترك الاشتغال بعمل الدنيا وكان ذلك فى الأمم الخالية بالاعتزال عن الناس والمقام فى الصوامع . فقد كانت العزلة فيهم أفضل من العشرة . . ثم نفى ذلك النبى ﷺ بقوله : « **لا رهبانية فى الإسلام** » وبين طريق الرهبانية لهذه الأمة بالجهاد ففيه العشرة مع الناس والتفرغ عن عمل الدنيا والاشتغال بما فيه سنام الدين، وقد سمى رسول الله ﷺ الجهاد سنام الدين ، وفيه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو صفة هذه الأمة وفيه تعرض لأعلى الدرجات وهو الشهادة فكان أقوى وجوه الرهبانية ، ذلك رأى السرخسى فى الموازنة التى عقدها بين رهبانية النصارى والجهاد فى الإسلام ، وصواب الرأى أن المجاهد يتشابه مع الراهب فى ثلاثة أمور ويختلفان فى أمر ، أما الأمور المتشابهة فهى :

أولاً : اعتزال أهواء الناس جملة والخروج عن الحياة التى يحياها الناس لأنفسهم آكلين شاربين متمتعين بمترفات الحياة ولذائذها ، فكلاهما يكون منه هذا

الاعتزال .

ثانيًا : أن الراهب يعتزل الناس والمجاهد التقى الذى ينال شرف الجهاد بترك أولاده وامرأته متجهًا بذلك إلى الله وحده وهذا عبادة .

ثالثًا : والثالث أن كليهما قسم نفسه لله ، فالراهب فى زعمه يترهبن ليسمو فى نظره إلى الروحانية التى تقربه إلى ربه فيما يحسبه ، والمجاهد قدم نفسه فعلا لله ليحمى دينه وليحمى الحق الذى أمر الله جل شأنه بنصرته .

أما موضع الافتراق ، فالراهب يعتزل الناس فائدة لنفسه أما. المجاهد فيترك الناس ليحمى دينه وينفذ أمر ربه ، فالأول عبادته فى نظر صاحبها فى دائرة وجوده الشخصى لا تعدوه ، الثانى وهو المجاهد فى دائرة النفع العام والأول عبادته لا تخلو من أثره والثانى عبادته كلها إيثار .

وللجهاد عنصران هما عماده إذ لا يمكن أن يتحقق فى عملياته ونتائجه المطلوبة بغير أن يتوافرا بما يهيئ للجهاد ويعين عليه وهما : المال ، والنفس .

أما عنصر المال فإن القرآن الكريم قدمه على الجهاد بالنفس فى آيات كثيرة . . ولكنه فى نفس الآن يبين الطبيعة الفطرية للنفس البشرية بصفة عامة ، فالقرآن الكريم فى بيانه المحكم يصور النفس الإنسانية ، وهى على فطرتها الأولية التى لا يمكن أن تتخلى عنها تمامًا أو أن تتخلى عن جزء كبير منها أو أن تتهاون فيها بصفة عامة .

فالخليقة البشرية للنفس الإنسانية أنها تتميز بصفة رئيسية من صفات الأحياء بعامة وإنها لصفة « الشح » فقال سبحانه : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء:١٢٨] .

فالطبيعة البشرية ضنينة بما تشتمل عليه من إمكانات فهى لا تبوح إلا بقدر ، قد يضؤل ويضؤل إلى الحد الذى قد يمتنع فيه الإعطاء . فالنفس البشرية إذ هى شحيحة بطبعها فإنها لا تجود إلا بالقليل ، وكأنها بهذه الأنانية تصون وجودها

وتبقى على حياتها ، فهى من ثم فى موقف الابتلاء المتصل ، والابتلاء معاناة لمشقة التفضيل وضغط المراوحة بين المنح والمنع والقبول والرفض والقلق المساور لكل تلك الأحوال . وكلها من المشاق النفسية التى تؤدى إلى اليأس والضيق أو إلى التفاؤل والاستبشار وإذا كانت النفس تبتلى فى أموالها فهى كذلك تبتلى فى ذاتها فى مواقفها الأخلاقية وتقاليدها الاجتماعية وتقلبات السياسة والاقتصاد فى وطنها . . فلابد أن يكون للمرء بإزائها موقف معين ، حتى ولو كان هو موقف اللامبالاة وها قد جاء القرآن الكريم بهذه الحقيقة الوجودية النفسية للطبيعة البشرية فقال سبحانه : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

وإذ يكون الإنسان فى موقف الابتلاء المتصل أو موقف الإغراء المتصل ، فإنه لمن الحق على الإنسان أن يصون نفسه ووجوده وحياته ، وما يعمل أيا كانت نوعية العمل وصبغته . ففى الصيانة من هذه الأوجه يكون فلاحه ، فقال سبحانه : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] . ومما يلاحظ على هذا النسق البيانى أن الفلاح (المفلحين) يعنى ما هو أكرم وأجزل وأدنى إلى التفتح للاطمئنان من كلمات مثل : النجاح ، والفوز ، والربح ، والكسب .

ويقوم العمران الحضارى ، بل يقوم وجود الإنسان حتى فى أصغر دوائره الاجتماعية على عنصرين متكاملين هما النفس والمال ، فإن لهما الضرورة الكاملة فى الجهاد لحماية الإسلام وديار المسلمين وكذلك لحماية الدعوة إلى الإسلام والذود عنها فى عقيدتها وشريعتها ،وهذا ما حثت عليه الآيات البينات مؤكدة وملزمة ، فمن جانب التكامل الضرورى بين المال والنفس حيث يأتى المال مقدما ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وقال سبحانه : ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [التوبة : ٨٨] .

وقال سبحانه : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[التوبة : ٤١] .

وقال سبحانه : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾[النساء : ٩٥] .

وقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾[التوبة : ٢٠] .

ومن الضرورى أن يقدم المال على النفس ؛ لأن عمليات الجهاد القتالى لا تقوم ولا تنشأ ولا تتهيأ لخوض معاركها بغير السلاح الذى يجب أن يكون متوافراً لجند الله ، ومعنى التوافر هنا أنه ينبغى أن يكون للقوات المسلحة مصانعها التى تنتج السلاح الذى تحتاجه فلا يكون جل اعتمادها على الدول الصناعية المنتجة للأسلحة ، فقد لا تبيعها الأسلحة ذات القدرة التدميرية الهائلة ، ومن ثم فهى تتمسك بأسرارها لها وحدها ، هذا فضلا عن أن المال لازم لا لتوفير السلاح ولا للقيام بالبحوث التى تحقق تطويره فقط ، ولكن المال لازم أيضا لرواتب الجند وإطعامهم وتوفير الكساء لهم ورعايتهم صحيا ، ولازم أيضا لإجراء المناورات القتالية لكافة فروع الأسلحة.

إذن فعلى أبناء الأمة الإسلامية أن يتضافروا جميعًا لتوفير ما تحتاجه قواتهم المسلحة من أموال فلا يبخلون أو يشحون ،وإذا أصبحت تلك العملية من مسئولية الدولة فإن على أبناء الشعب ألا يحاسبوا الدولة فى شأن ميزانية قواتها المسلحة لأنها أعلم بها وأخبر ، ولأن للمال دوره الرئيسى فى عمليات الجهاد ، فقد جاءت الآية الكريمة حاثة على ضرورة إعداد الأسلحة للجهاد . وإنها لفريضة ملزمة لا محيد عنها ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[الأنفال : ٦٠] .

ولخطورة المال ودوره الرئيسى فى عمليات الجهاد وإعداد القوات المسلحة فإن

القرآن الكريم يخصه منفرداً بذاته وذلك لتجسيد خطورة الحاجة إليه .

فقال سبحانه : ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ [الحديد: ١٠] .

وقال تعالى فى فضل الإنفاق فى سبيل الله : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

وقد زكى رسول الله ﷺ الجهاد بالمال فهو عنده من الفضائل العليا التى على المؤمنين أن ينالوا شرفها .

فعن زيد بن ،خالد الجهنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **من جهز غازيًا فقد غزا ومن خلف غازيًا فى سبيل الله فقد غزا** » رواه الترمذى ، والبخارى، ومسلم . .

وعن خريم بن فاتك قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أنفق نفقة فى سبيل الله تعالى كتبت له بسبعمائة ضعف** » رواه الترمذى وحسنه والنسائى . وجاء رجل بناقة مخطومة فقال : « **هذه فى سبيل الله** » فقال رسول الله ﷺ : « **لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة** » رواه مسلم والنسائى وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من احتبس فرسًا فى سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة** » رواه البخارى.

ويروى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **من لم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق** » .

٤ ـ ما يجب أن يكون عليه المجاهد :

جهزنا الأموال الطائلة ، اشترينا الأسلحة ، أقمنا مصانع للسلاح .

جهزنا جندنا على أحدث أساليب القتال وأمهرها .

جهزنا خطتنا التى تمكننا من أن نصد عدونا ونقهره .

فهل فى كل ذلك ما يغنىَ ؟

لا ، إنما يبقى أهم عنصر فى عملية الحرب . . يبقى الجندى نفسه . يبقى الإنسان . . وللإنسان المجاهد فى تصور الإسلام صفات خاصة لا بد أن تتوافر فيه ويُنَشَّأ عليها وبغيرها يستحيل أن يكون إنسانًا مسلمًا مجاهداً . إنه آنئذ لن يكون أكثر من حيوان شرس حسبه أن يصوِّب سلاحه ليفتك بعدوه ثم يسلبه ما يشاء .

ولقد وجدنا أن الصفات الخاصة التى لا بد أن تتوافر فى المجاهد خمس صفات هى : الإيمان ـ الصبر ـ الإخلاص ـ الحب ـ الطاعة .

أ ـ الإيمان :

حين ننظر فى الإيمان من حيث لبابه وحقيقته فإننا نجد أنه روح كل شىء ، وكل عمل وفكر وخيال وتصور . فبغير أن يؤمن الفرد بضرورة ما يعمله وينفذه فلن يتم له شىء ، وبغير أن تقوم فكرة المفكر وخيال الفنان على الإيمان بما يفكر فيه أو يتمثله فلن يكون ثمة فكر ولن يكون ثمة فن ، إذن فبغير الإيمان لن يتحقق للإنسان وجود ، ولن يتحقق للإنسان حياة ، ولن يتحقق له تحصيل شىء كبر هذا الشىء أم صغر ، عظم هذا الشىء أم كان ساقطًا تزدريه الأعين وتعافه الأنفس .

وتتأكد ضرورة الإيمان وخطورته حين نعلم أنه حتمية كونية ووجودية وحضارية ، ومحور هذه الضرورة الإيمانية وغايتها هو الإيمان بالله وحده ، وهذا معناه أن قضية الوجود الإنسانى هى قضية الإيمان بالله وحده ؛ فما هو الإيمان ؟

الإيمان اعتقاد وجدانى متمكن من قلب الإنسان ومسيطر على إرادته ومتحكم فى بصيرته ، وإذ تكون هذه هى ماهية الإيمان ، فإنه لمن البدهي ألا يكون فى الإنسان على أجزاء كأن يكون هناك مثلا ثلاثة أرباع أو ثلث إيمان أو ربع إيمان . . ولكن إما أن يكون الإيمان كاملا أو لا إيمان ، ذلك لأن أية ثلمة أو ثغرة فى الإيمان

كفيلة بأن تفسده ، فتفسد حياة الإنسان ويتقوض البناء الاجتماعى لا محالة .

وبناء على هذا فإن قضية الإيمان فى القرآن الكريم قضية كونية إنسانية واحدة تجمع الوجود الإنسانى بكل قضاياه ومقوماته فى وحدة متكاملة . فالإيمان فى القرآن الكريم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؛ قال سبحانه : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

فالرسول ﷺ آمن ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ﴾ أى آمن بما جاء به القرآن الكريم من عقيدة وشريعة ، وهذا الإيمان أوجب عليه وعلى المؤمنين ضرورة الإيمان : ﴿ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وهذا أمر طبيعى فرسالة التوحيد واحدة فمن آمن بالله وحده ، فإن عليه أن يؤمن بملائكته وكتبه ورسله ؛ ذلك لأن ملائكته سبحانه رسله إلى أوليائه ، وكتبه منهاج شريعته إلى عباده ، ورسله هم الدعاة إلى الحق والمنذرين به ، فإذا أنكر قوم وجود رسول من الرسل ، أو أنكروا رسالته فقد أنكروا وجود الله سبحانه ، وأنكروا بالتالى أن الشريعة التى جاء بها الرسول هدى ورحمة ، إذن فلا تفرقة بين الرسل : ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ وهنا يأتى الرد الإيمانى للمؤمنين فتقول الآية : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ .

والسمع إيمان ، والإيمان طاعة ، والطاعة عمل ومجاهدة .

وفى العمل يخطئ المرء ويصيب ، وقد ينحرف عن الجادة مرات ، ولكنه يعود بعد التصحيح والتصويب إلى قصد السبيل ، ولذلك كان رجاء المغفرة من الله سبحانه إيمانًا به وحده وبملائكته وكتبه ورسله ، وهنا تقول الآية الكريمة : ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وإذا كان الإيمان اعتقادًا وجدانيًا متمكنًا من قلب الإنسان ومسيطرًا على إرادته ومتحكمًا فى بصيرته فإن محكه ومعياره هو العمل ، فبغير العمل يظل الإيمان مجرد إمكانية وجودية تفرض على الإنسان ضرورة التحقيق ، تحقيقًا لإمكاناته

وتطلعاته ، ويقرر القرآن الكريم هذه الماهية الإيمانية ، فيقول سبحانه : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] .

فالآية الأولى تقرر أن ماهية الإيمان ليس قصاراها قولاً يقال ، أو كلامًا يُحاك، وليس قصاراها أصداء طاغية وضوضاء صارفة للفكر ، محيرة للعقل ، موهنة للإرادة ، وإن من يظن أن هذا هو الإيمان فإنما هو واهم ضال . وتعبر الآية الكريمة عن هذا الوهم فتقول : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا** ﴾ فهاهنا تجربة وجودية إيمانية هى تجربة الإنسانية كلها ، يفرضها إيمانها بالله سبحانه ، وتفرضها طبيعة إمكاناتها الفطرية وتطلعاتها الحضارية . لذلك كان لابد من المعاناة عند تحقيق الإنسان لإمكاناته ، وليس المعاناة هنا بالشيء الهين ولكنها قاسية صعبة لأنها تفرض على الإنسان أن يعالج من المشكلات ويواجه من الصعوبات ما قد لا يتصوره خياله ، ولهذا فإن الآية الكريمة تجسد التجربة الإيمانية للإنسان تجسيداً شموليًّا فتقول : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا** ﴾ .

فهذه العبارة : ﴿ **وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** ﴾[العنكبوت: ٢] تصور طبيعة الوجود الإنسانى؛ فالوجود الإنسانى تجربة واختبار وعمل ، والعمل جسارة فى اقتحام المجهول ، والتعرف على ما يضمره أو ما يستقر بداخله ، واقتحام المجهول عمل من أعمال الفكر والعلم ؛ لا يتم له معنى ولا يتحقق له مبنى بغير الممارسة التجريبية العلمية لما يهتدى إليه العقل ، وعلى هذا فإن كلمة « يفتنون » تجسيد حى لحرية الفكر وحرية الإرادة معا فى تآصر عضوى مصيرى ، وفى الفتنة يقع الخطأ ويقع الصواب ، وفى الفتنة يقع الزيغ ويقع اليقين ، وفى هذا المعترك يكشف الإنسان عن حقيقة إيمانه بالله ومداه ؛ إذن فكأن الفتنة هى التجربة الحضارية فى عمومها وشمولها .

وربما كانت الفتنة تعنى الازدهاء والتكبر الذى يسببه ما قد يحققه الإنسان من تفوق فى عمل من أعماله ، فيكون ازدهاؤه سببا فى أن تختل موازين القيم فى

تصوره هو أمثاله فتختل موازين العلاقات الاجتماعية بين الناس ، وأن تختل نفسية كل امرئ سواء غنم من الفتنة أم لا كانت وبالا عليه .

تلك ماهية الإيمان فلا إيمان بغير فتنة ، ولولا فتنة الحياة بأوجهها ما تم عمل ولا قام بناء ولا عرف الإنسان ذاته وقيمة ذاته ، ولا حريته وقيمة حريته ، ولا عمله وقيمة عمله ، ولما تدافعت الحضارات شعوبًا وقبائل فى تعارفها أو تناحرها؛ وفى هذا تقول الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنبكوت: ٣] .

إذن فصدق الإيمان بالله فى صدق اجتياز ابتلاء فتنة الحياة بالعمل على هدى من شريعة الحق التى هى إعمار للحياة وإصلاح لها وتقويم للإنسان وإزكاء لإمكاناته .

وإنه لخطر على الإيمان من حيث صدقه وسلامته أن تُشْكل عليه صروف الحياة حين يكون عليه أن يواجه محنها أو فتنها ، فإنه لمن أخطر الأخطار أن يعتصر القنوط إيمان الإنسان ؛ يقول سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنبكوت: ١٠] .

فهذه الآية الكريمة تبصر بالخطر الأكبر الذى يتعرض له الإيمان بالله وبالتالى تتعرض له إرادة عند الإنسان ، فما أسهل الادعاء بالإيمان بالله ، تقول الآية الكريمة : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ ولكن محك الإيمان بالله هو ألا تهن إرادة الإيمان التى هى إرادة الحياة ، وإذا كانت إرادة الحياة توجب حرية الفكر وحرية العمل ، فإن هذا يلزم الإنسان بضرورة الاشتباك مع الغير لتشاجر المصالح واختلاط الأوطار وتنافر النوازع والتطلعات ، هذه الضرورة تسبب احتدام الصراع الذى يسوده البغى والشراسة و ،هنا يحدث الابتلاء الفعلى للإيمان الذى هو إرادة الحياة . فالإيمان بالله يلزم الإنسان باتباع منهاج القرآن الكريم فى فكره وعمله وسلوكه وعلاقاته مع الغير ، لأن فيه خيراً لأمته وكرامته فإذا أوذى فى جهاده هذا

وصبر وصابر على شريعة من أمر الله فذلك هو الإيمان .

ولكن يحدث فى كثير من الأحيان أن يخشى الإنسان مغبة الصراع مع الغير ، أو أن يذعن لما أرغم عليه أو يمارى مظاهرة للباغى المتجبر ، آنئذ يفقد إيمانه بالله ، وإذا فقد إيمانه فقد حريته وفكره وإرادته ، وانعكس ذلك على فكره وسلوكه وتقديره للمواقف والناس ، وإذا صار الإنسان إلى هذه الدرجة من الضَّرع وخشية الناس ألا يكون بهذا قد : ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ ؟

إذن فحياة الإنسان فى الإيمان بالله ، والإيمان بالله عمل بشريعته ، وفى العمل بشريعته تأصيل لفكره وحريته وصلاح دنياه ؛ قال سبحانه : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ الكهف: ٢] ويحدد القرآن الكريم الصفات الأخلاقية والنفسية والسلوكية للمؤمنين؛ فيقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٢، ٣] .

فحين تقول الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فإن هذا معناه :

ـ أن الإيمان محله القلب ودلالته فإذا تغير القلب تغير الإيمان لا محالة .

ـ أن تفتح القلب للحياة تفتحًا شموليًا نابع من الإيمان بالله .

ـ أن المؤمن يتميز بالوعى اليقظ والشعور الحى المتوفر لكل همسة من همسات الوجود ، وظاهرة من ظواهره على أنها دلالة على وحدانية الله وقدرته وعظمته ورحمته بعباده .

ـ هذا الوعى الدائم للقلب وما يكون عليه من شعور إيمانى يقظ يجعله فى حضور دائم مع الله . فإذا ﴿ ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : قلوب المؤمنين . والوجل إشفاق مزاجه الإجلال والحب .

ـ إن هذا الإجلال والحب أو الوجل لا يرهب الإنسان فى إيمانه ، ولكن يزيده شوقًا ، ويزيده تفتحًا للإقبال على آيات الله للمعرفة والإدراك فكأنه ينير للإنسان سبل المعرفة ومجالاتها .

ماذا نقول ؟ هل نقول إنه بالإيمان تتحقق الحرية كفعل هو الإبداع والابتكار ، ويتحقق للإنسان وجوده وكيانه ؟

نعم ، هو كذلك ، ومن ثم فإنه كلما أوغل القلب المؤمن بالله فى إدراك ظواهر الحياة ، أوغل فى التعرف على خصائصها لاختدامها فى نفع حياته وحضارته ، ولذا يكون يقينه بأنها من صنع وتدبير الخالق الحكيم العليم فيزداد إيمانه بربه ويزداد حبه له وبذلك ينمو شعوره بذاته وكيانه وحريته . وهنا تقول الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ومعنى آياته هنا ، آيات القرآن الكريم التى تذْكرُ آيات الله فى خلق السموات والأرض وما فيها من ظواهر . وإذا كان إيمان المؤمنين يزداد كلما تُليت عليهم آيات الله فإنه لمن البدهى أن تزداد حريتهم وتزداد دوائر أعمالهم وميادينها ، نعم ، وتزداد تبعة تلك الحرية وتكاليفها. وهذا ما تقرره الآية الكريمة كصفة من صفات المؤمنين ؛ فتقول : ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فالتوكل هنا هو أشمل معانى الحرية وأسماها ، ذلك لأنه أى التوكل يحرر الإنسان من تبعية التسلط والبغى ، ويحرره من تبعية الاعتماد على الغير كأنه هو ربه ورازقه ، وتحرره من عقم التقاليد والأعراف الاجتماعية التي تسخر فكره وشعوره وخياله بل إرادته فى تنفيذ ما تأمر به من سيء الفعال ، وتحرره من الخوف من الغد أو المستقبل أو المجهول .

هذا التحرير ، هو تحرير عمل وتحقيق لا تحقيق اعتزال وقعود عن البناء والعمل . تحرير يقوم على شريعة الإيمان بالقرآن الكريم ، الذى أعطى الفطرة الإنسانية خير ما يحقق إمكاناتها ووجودها ويشبع شهواتها ورغباتها بغير قهر أو قمع ، وبغير ترخص أو إسفاف . ولكنه التحقيق السليم الذى تتوازن فيه الأحوال

بما يعمر الحياة ويصلح شؤون الناس فى كرامة طهور .

وإذا كان المؤمنون ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وكان التوكل يعمق ويوسع من معانى الحرية ويتسامى بمقاصدها وأفعالها ، فإنه لابد أن يكون التوكل مشفوعًا بما يدل عليه ويؤصله ، وبما يطهره مما قد يصيبه من أوضار العمل وآثام السلوك التى تعوقه أو تنحرف به عن الهدف المنشود ، إذن فإقامة الصلاة من صفات المؤمنين فتقول الآية الكريمة : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾ فهم من ثم على حمد دائم لله الرحمن الرحيم ، وعلى تطهير دائم لأعمالهم وسلوكهم ، وتقويم دائم لمسار حريتهم وفكرهم ، وفى رجاء دائم إلى أن يهديهم الصراط المستقيم .

وإذا كانت الصلاة حمدًا لله وتطهيرا للأعمال ، وتقويمًا لمسار الحرية والفكر ، وتطلعًا إلى أن يهدى الله الصراط المستقيم ، فإن للصلاة مظهرًا اجتماعيًا عامًا أو دليلاً اجتماعيًّا عامًّا ، وإنه الإيثار والبذل بغير تحسر أو نضوب فى الأريحية فتقول الآية الكريمة : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ لا صدقة أو إحسانا فحسب ، ولكن أيضًا إسهامًا فى كل عمل يكون فيه إصلاح لعمارة البناء الاجتماعى وترقيته وتقويته .. وإفشاء الخير بين ربوعه وإعزاز إنسانه وتكريمه .

إذا كانت تلك هى مكانة الإيمان ودوره فى وجود الإنسان فإنه شرط الجهاد ، فالله تبارك وتعالى يخاطب المجاهدين باسم الإيمان ؛ فقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٦] ، والله سبحانه يدعو المؤمنين باسم الإيمان لداعى الجهاد ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤] . ويدعو القرآن الكريم المؤمنين بأن يجاهدوا فى الله حق جهاده ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] . والمؤمنون فى جهادهم مؤيدون بنصر الله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤] ومن صفة المؤمن فى جهاده أنه لا يخشى الموت ، إنه يسعى إلى الاستشهاد لينال رضوان ربه ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] . إن الإيمان يدعو المجاهد إلى أن يهجر الحياة الدنيا بمتاعها وزخرفها وزينتها فقال سبحانه : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

فالمؤمن فى جهاده يخلف الدنيا وراءه ويحرص على شىء واحد هو حماية الإسلام والدعوة إليه وهى دعوة التوحيد التى تكون فيها الحياة الحضارية على أكرم ما يكون وأرحب ما يكون لا يُضام فيها الفرد ولا تهدر فيها إنسانية الإنسان ، والغاية من وراء كل غاية كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وذلك خير تقويم لرسالة الجهاد القائم على الإيمان بالله الذى قررت شريعته موازين القسط فى البناء والإعداد والتصحيح وموازين القسط فى تقويم الإنسان والحياة الإنسانية بأسرها .

وفرق شاسع وبعيد بين أن يؤمن المرء بمذهب سياسى أو اجتماعى أو أن يؤمن بقومية خاصة ، وهو فى ذلك بين الأطماع والأثرة والبغى والتردد . وذلك هو شأن النظم السياسية العالمية والإقليمية وما تخرج حروبها إلا عن أهداف الاستعمار التى يدبر لها ويخطط ، ومن هنا فإن عسكريتها تهدف إلى تحقيق ما يعينها فى أطماعها الدولية ولذلك فإن جنودها يحرصون - ولو بالانتحار - على العودة إلى حياتهم المدنية وألا يعودوا إلى السلاح مرة ثانية . لكنما المسلم فى إيمانه بعقيدته ورسالته يتمنى أن يعود إلى الجهاد مرات ومرات ، روى عن رسول الله ﷺ : **«تضمن الله تعالى لمن خرج فى سبيل الله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى فهو علىَّ ضامن أن أدخله الجنة ، والذى نفس محمد بيده ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم وريحه ريح مسك . والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله عز وجل أبدًا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة فيتبعوننى ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل»** رواه الثلاثة والنسائى .

وكم نتمنى فى زماننا ونحن ندعو إلى الجهاد الإسلامى القويم السليمَ لا إلى الإرهاب الدموى الإجرامى العقيم ـ كم نتمنى أن يحذو المجاهدون حذو أعرابى جاء إلى رسول الله ﷺ فآمن به وصدقه ، ثم قال له : أهاجر معك، فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه ، فكانت غزاة غنم فيها النبى فقسم عليه السلام وقسم له، فقال الرجل: ما هذا ؟ فقال : « **قسمته لك** » . قال : ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى هنا ، وأشار بيده إلى حلقه ، بسهم فأموت فأدخل الجنة . فقال :« **إن تصدق الله يصدقك** » ، فلبثوا ثم نهضوا فى قتال العدو فأتى به إلى النبى محمولا قد أصابه سهم حيث أشار . فقال النبى : « **أهو هو ؟** » قالوا : نعم ، قال : « **صدق الله فصدقه** ». ثم كفن فى جبة النبى ثم قدمه فصلى عليه . فكان مما قاله مما ظهر من صلاته دعاؤه : « **اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك ، فقتل شهيداً ، وأنا شهيد على ذلك** » أخرجه النسائى .

وإن الإسلام ليوصى المؤمنين بأن يكونوا واعين بصراء بمن حولهم وما حولهم وبمن يزاملونهم فى القتال ، فلا يتركوا آذانهم يعبث بها المثبطون والمترددون والوجلون وهذا ما ينبه إليه القرآن الكريم ، فقال سبحانه مبينًا حقيقة أولئك جميعا بالموازنة مع المؤمنين الصادقين : ﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٤ ـ ٤٩] .

• • •

ب ـ الصبر :

كل عمل من أعمال الحياة أو المعاش بحاجة إلى الصبر ، كبر هذا العمل أو صغر ، عظم هذا الشيء أو قلّ وضؤلت قيمته والعائد الذى يمكن أن ينتفع به .

فلننظر إلى رب الأسرة الذى يعول أطفاله فإنه يصبر فى عمله صبرًا يكلفه الكثير من المشاق والمضانك ليوفر لهم ما يحتاجونه من طعام وملابس وعلاج ، إذا مرض أحدهم فكم يتكلف فى علاجه ؟ وفى مجال تعليمهم كم يصبر ؟ وكم يعانى حتى يتخرجوا فى معاهدهم أو جامعاتهم ؟ أفلا يفرض عليه ذلك العبء أن يدبر المال اللازم للتعليم ، وفى التدبير صبر وإصرار ؟

ونقول مثل ذلك عن الطالب نفسه ألا يفرض عليه مستقبله الذى يتمناه أو يتطلع إليه الجد والاجتهاد والصبر فى تلقى العلم واستيعابه ؟

والعالم فى أى فرع من فروع العلم ملزم بفضيلة الصبر فى إجراء التجارب والبحوث حتى يخرج بنتائج تنفع الناس ويتوقعون منها الفوائد. هكذا الصبر . والصبر إصرار واستمرار .

ولما كانت الحرب تسبب الكثير والكثير من المشاق ، فذلك ما هو معلوم فهى تدمر وتفتك وتخرب ما استطاعت التخريب ، وتفسد ما استطاعت الإفساد وتسفك من الدماء ما يطوله سلاحها بغير أدنى اعتبار للمسالمين المنتحين جانبًا ، فالجميع سواء فى جحيم القتال كل تلك الأحوال التخريبية تحدث فى النفوس الخوف والاضطراب والخشية من المصير المجهول ، وهذا يفرض على المجاهد مهما نزل بأرض وطنه من كوارث قتالية من الصبر الإيمانى عدته وسلاحه وأن يُرجع ما قد يصيبه إلى قدر الله وحده ، وأن الله لن يضيع عمله أبدًا .

ولقد جسد القرآن الكريم مواقف الابتلاء التى توجب الصبر فى القتال والصبر على العدو فى قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] وقال سبحانه : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

وتأتى مواصفات الصبر فى ضوء القرآن الكريم على أكرم مقام إنسانى ، فهو ليس الصبر على شهوة من شهوات الدنيا ، أو مغنم من المغانم التى يحرص الناس على اقتنائها والتنافس حولها ، فلقد جاء الصبر فى القرآن الكريم مقترنًا بالتقوى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ والتقوى تراحم وإحقاق للحق ، والتقوى عدل وتعاون ، ثم هى عبودية لله وحده ، فكأن الصبر بهذه الصفة يبوئ المجاهد الدرجة العالية من الشجاعة والإقدام فلا يرتجف ولا يهن ، بعد هذا نقول إن الصبر على أربع درجات لكل درجة مناسبتها وضرورتها القتالية :

فالدرجة الأولى : وهى الإقدام الجسور بغير تردد تملأ صاحبها الغيرة والحمية بغير أدنى اكتراث بما قد يصاب به أثناء القتال ، ونضرب لذلك مثلا بالزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ ، فعندما تعذر على العرب فتح حصن باب ، فإنه تسوره وألقى بنفسه فيما وراء الحصن ، وفتح الحصن بتلك المخاطرة التى غالبت النفس . وقد ناط القرآن الكريم الغلب على الأعداء أيا كانت كثرتهم بالصبر ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ [الأنفال: ٦٥] .

الدرجة الثانية : وهى التى يستحر فيها القتال وتعنفُ قصفاته ويصبح الجند فى هول بئيس ، فهنا فإن على المجاهدين أن يعتصموا بالصبر ، فالصبر هو المخرج والرجاء ؛ فقال سبحانه هاديًا ومحذرًا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥ ، ١٦] هكذا جزاء من يَفْرق من القتال ، إنه رهيب رعيب .

وعند جمهرة من الفقهاء أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر ، والآية

السابقة تؤكد ذلك ، ولقد جاء فى كتاب « شرح السير الكبير » : والفرار من الزحف من أكبر الكبائر على ما قال ﷺ : « **خمس من الكبائر لا كفارة لهن** » وذكر فى الحديث منها الفرار من الزحف وقال : « **إن من أعظم الموبقات الشرك بالله وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات ...** » .

الدرجة الثالثة : الصبر عندما يتحقق النصر للمؤمنين إذ تلوح بوادره ، ففى الموقف يكون المجاهدون أحوج إلى الصبر والإصرار ، فلا يغترن المجاهد بأن نصره قد أصبح قاب قوسين أو أدنى ، بل إن عليه أن يتأكد من أن نصره قد جاء بالنتيجة التى خرج من أجلها ، ولنأخذ العبرة مما وقع فى غزوة أُحد ، فإن الرماة الذين كانوا يحمون الغزاة المجاهدين من ورائهم ، لو كانوا قد صبروا ولم يندفعوا لاستلاب المغانم ما أصاب المسلمين ما أصابهم فكان الحرج الشديد الذى حاق بالمجاهدين الذين صبروا وصابروا ، لأن من كانوا وراءهم لم يصبروا .

الدرجة الرابعة : على الشعب أن يكون صفًّا واحدًا ويدًا واحدة وراء قواته المجاهدة يدعمها بما هى فى حاجة إليه ، ولا يضن عليها بما يلزمها متحملاً ما قد ينزل به من خسائر ، وكأنه يقاتل مع مجاهديه ليصد العدو الذى طمع فى غزو أرضه أو اعتدى على جزء منها ، إن وحدة الشعب دعامة لقواته المجاهدة وإن صبره لازم ، فلا يتململ ولا يضيق صدرا ؛ وفى هذا قال سبحانه : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٤] .

إذن فالفيصل فى إحراز النصر هو الصبر القائم على التقوى ، فلا يخشى بأساء ولا يهاب ضراء ، فذلك هو البر أجمل البر ؛ يقول سبحانه : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٧] . بمثل هذا

الصبر لم يخش المسلمون بأس عدو ، لا فى عُدَدِه ولا فى عديده وما أزعجهم كثافة فرقه . نذكر لذلك مثلا أنه عندما تكاثر جند الفرس على المسلمين فأراد عمر أن يذهب ليقود الجيش ، فاستشار بعض الصحابة فقال له على رضوان الله عليه: « إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة وهو دين الله الذى أظهره وجنده الذى أعده وأمده حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعد من الله والله منجز وعده ، وناصر جنده ، ومكان القيم من الأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام تبعزق الخرز ، ثم لم يجتمع بحذافيره ، والعرب وإن كانوا قليلا هم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع ، فكن قطبًا واستدر الرحى بالعرب ، وأصلهم : دونك نار الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع من العورات أهم إليك مما بين يديك ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا هذا أصل العرب ، فإن قطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك ، فأما ما ذكرت من سير القوم إلى قتال المسلمين ، فإن الله تعالى أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عدوهم ، فإنا لم نقاتل بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالصبر والمعونة» .

إن الصبر فى الجهاد يعنى احتمال المشاق ، وما أكثر مشاق الحروب وفداحة ما تحدثه فى المقاتلين . إذن فالجهاد يعلم المقاتل أن يستعين بما يعينه ومن يعينه فى حرب وإن أصابه منه رهق ، قال ابن عمر عن أبيه الفاروق رضى الله عنهما : «كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عامله بالشام : انظر من قبلك فمرهم فلينتعلوا وليحتفوا » وما ذكره السرخسى فى التعليق على ذلك الخبر : أى ليمشوا أحيانًا فى النعال وليحتفوا أحيانًا ليتعودوا ذلك كله ، وهذا معناه أن التعود على احتمال المشاق يعود الجند الخشونة التى تحمى من الاستنامة إلى الدعة والاسترخاء. جاء فى شرح السرخسى أن أبا بكر الصديق نصح جند المسلمين بألا يركنوا وقال: وإياكم والأشر ، ورب الكعبة لتأشرن : والأشر نوع من الطغيان فقال سبحانه :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾[العلق:٦ ، ٧] والأشر فى دلالته الخاصة نوع من الفرح المصحوب بتنعم واستعلاء ، وإن ذلك ليترتب عليه أمران :

الأول : ألا يبذل الجندى أقصى ما لديه من قوة ولذلك لما أعجب المسلمون كثرتهم فى حنين انهزموا .

الثانى : طغيان مع استرخاء العزائم .

ألا إن توالى النصر وتوالى البطر والأشر يؤدى إلى الترفه والتنعم ، ولذلك قال أبو بكر فى موقف آخر : « والله لتألمن من النوم على الصوف الأذربى كما يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان »(١) .

ألا إن غلبة الترف موهن لإرادة القتال عند المجاهد ، فهو ـ أى الترف ـ يفقده الصبر ويفقد الحمية ولا تورثه سوى التهرب من القتال ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۞ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[هود:٩ ـ ١١] .

والصبر ليس معناه جهامة أو عبوسًا ، أو فظاظة أو جلافة ، ولكنه يترفع عن ذلك بخلائق الرجولة الصادقة ففيه تعاطف إنسانى وتقارب ودود . فالصبر الحسن يحسن العمل ؛ فقال سبحانه : ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[هود: ١١٥] . والصبر الجميل يقرب البعيد ويحقق المستحيل ؛ فقال سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ۞ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۞ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾[المعارج: ٥ ـ ٧] .

● ● ●

---

(١) الصوف الأذربى : نسبة إلى أذربيجان .حسك السعدان : شوك حاد .

جـ ـ الإخلاص :

الإخلاص توأم الصبر ، فالمرء لا يُقْبِل على عمل ما لم يكن قد آمن به ، ولا يؤمن به ما لم يصبر على ما يكلفه به ويحوجه إلى أن يتغلب على ما قد تثار فيه من مشكلات ، وصعوبات ولا يتم الصبر بمعنى أن المرء لا يكون صادقًا فيه إلا إذا كان مخلصًا ، على هذا فالإخلاص مبدأ ضرورى من مبادئ الجهاد من حيث الإيمان به والصبر على تبعاته ومشقاته .

فالله سبحانه قرن العبادة بالإخلاص فقال جل شأنه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢] .

وقال سبحانه : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ١٤] .

فبغير الإخلاص فى الجهاد يصبح الجندى مجرد آلة حسبها أن تطلق قذائفها ، حسبها أن تدمر وتقتل ، وبغير الإخلاص يضل القائد عن وضع الخطة الصائبة لمهاجمة العدو حتى وإن أحرز نصرا ، فإنه سيكون نصرا منبتًا لأنه قاصر على موقعه ولحظته ، لذا فكم حث رسول الله ﷺ على ضرورة أن يتكامل الصبر فى الجهاد مع الإخلاص فى الأداء . فعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله ؟ قال : «**من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** » رواه الخمسة .

وقال رجل : يا رسول الله : أرأيت رجلاً يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال: «**لا شىء له** » ، فأعادها ثلاث مرات : « **لا شىء له ، إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا له وابتغى به فضله** » رواه النسائى وأبو داود .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتى به فعرفه الله نعمها فعرفها ،**

قال : فما فعلت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكن قاتلت أن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى يلقى فى النار » رواه أحمد ومسلم .

وعن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال : « **الغزو غزوان ، فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام وأنفق الكريمة وياسر الشريك واجتنب الفساد فإن نَبْهَه (انتباهه) ونومه أجر كله ، وأما من غزا فخراً ورياءً وسمعة وعصى الإمام ، وأفسد فى الأرض ، فإنه لن يرجع بالكفاف** » رواه أحمد وأبو داود والنسائى .

وعن الحارث بن مسلم التميمى عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فلما بلغنا المغار (موضع الغارة) استحثثت فرسى فسبقت أصحابى فتلقانا أهل الحى بالرنين (صياح حزين) ، فقلت لهم : قولوا لا إله إلا الله تحرزوا ، فقالوها . فلامنى أصحابى وقالوا : حرمتنا الغنيمة بعد أن بردت فى أيدينا . فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذى صنعت فدعانى فحسن لى ما صنعت ثم قال : « **ألا إن الله قد كتب لك بكل إنسان كذا وكذا من الأجر ، ثم قال: أما إنى سأكتب لك كتابًا أوصى بك من يكون بعدى من أئمة المسلمين** » ففعل وختم عليه ودفعه إلى . . فلما قبض الله تعالى رسوله ﷺ ، أتيت أبا بكر بالكتاب ففضه وقرأه وأمر لى وختم عليه . ثم أتيت به عمر ففعل مثل ذلك . ثم أتيت به عثمان ففعل مثل ذلك ، قال مسلم : فتوفى أبى فى خلافة عثمان . فكان الكتاب عندنا حتى ولى عمر بن عبد العزيز ، فكتب إلى عامل قبلنا : أن أشخص إلى مسلم بن الحارث التميمى بكتاب رسول الله ﷺ الذى كتبه لأبى . قال : فشخصت به إليه فقرأه ، وأمر لى وختم عليه ، ثم قال : أما إنى لم أبعث إليك إلا لتحدثنى بما حدثك أبوك به ، قال : فحدثته بالحديث على وجهه .

• • •

د ـ الحب :

إن الحيوية الإنسانية تتجسد فى فطرة واحدة هى الحب ، وللحب المقام الأكرم فى وجود الإنسان ، وهذا ما يذكره القرآن الكريم مبينًا ومفسرًا ، فخلق الإنسان شمولى يضم كل صور أعمال الإنسان . فكأن الله جل شأنه يهدى الناس بالحب إلى الحب . ومن هنا فالفطرة الإنسانية كما خلقها الله هى بطبيعتها محبة ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧] .

إذن ، فالحب دليل الإيمان بالله ؛ فقال سبحانه : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ [آل عمران: ١٩٦] .

فباسم الحب لا يحب الله المعتدين ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

وباسم الحب لا يحب الله الظالمين ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٧] .

وباسم الحب لا يحب الله المختال الفخور ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء: ٣٦] .

وباسم الحب لا يحب الله المفسدين فى الأرض ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧] .

وباسم الحب يحب الله أن يكون إنفاق الإنسان على نفسه وعمله من المال الطيب ؛ فقال سبحانه : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] .

وفى الجهاد فى سبيل الله فإن الله يحب باسم الحب أن يكون جيش معدًا ومنظمًا حسب ما يلزم من القتال فلا ارتجال ولا فوضى ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤] .

تلك هى الضرورة العليا لخليقة الحب بالنسبة للإيمان بالله ،وبناء النفس الإنسانية ، وعمارة الأرض بالحضارة الإسلامية والدفاع عنها إذا ما جار عليها جائر أو بغى عليها باغ ممن يحيكون المؤامرات على الإسلام وديار المسلمين .

من هنا يمكننا أن نقول : إن الحب هو المعيار الذى تقاس به درجة الإيمان والصبر والإخلاص فى الجهاد . فهذا خيثمة أبو سعد يريد الخروج مع النبى ﷺ فى غزوة بدر ، فيأتى ولده سعد يجادله فى أن يخرج هو بدلاً منه وأخيراً يستهمان فتخرج القرعة فى نصيب ولده سعد ، فيأتى إليه أبو خيثمة ، ويطلب منه أن يؤثره عليه فى الخروج ، فيقول له سعد : « والله يا أبت لو كان ما تطلبه منى غير الجنة لفعلت».

ولقد خرج سعد مع رسول الله ﷺ واستشهد فى غزوة بدر ، وقال خيثمة عند الخروج إلى غزوة أحد فى السنة الثانية : « لقد أخطأتنى وقعة بدر وكنت والله عليها حريصًا حتى ساهمت ابنى فى الخروج ، فخرج فى القرعة سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها ويقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا » ثم قال : « وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقًا إلى مرافقته ، وقد كبر سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى ، فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة ابنى فى الجنة » فدعا له الرسول فقتل بأُحد شهيدًا .

وها هو جابر بن عبد الله يخلفه أبوه على أخوات له سبع ويذهب الوالد إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ فى غزوة أُحد ، ويقول لولده جابر : « يا بنى ، لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذى أوثرك على نفسى بالجهاد مع رسول الله ﷺ فتخلف على أخواتك فتخلفت عليهن » وقد استشهد والد جابر فى غزوة أحد ، ففاضت روحه إلى ربها راضية مرضية . . وقد قال فيه ﷺ : « **ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع** » .

وروى أن رسول الله ﷺ لما حث المؤمنين فى غزوة بدر الكبرى على الصبر

والثبات للوصول إلى النصر والظفر العاجل وثواب الله الآجل ، وأخبرهم بأن الله قد أوجب لمن استشهد فى سبيله جنة عرضها السموات والأرض . قال أحد الصحابة : بخ بخ يا رسول الله . قال: « **ما يحملك على قولك : بخ بخ ؟** » قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « **فإنك من أهلها** » . فأخرج ثمرات من قرنه (جعبته) فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة . فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قتل .

ومن بشارات الحب للجهاد أن رسول الله ﷺ وهو يستعرض الجيش رأى بين جنوده أطفالاً صغاراً ، فردهم ، ولكن فتى صغيراً اسمه رافع بن خديج أخذ يتطاول على أطراف أصابع قدميه ليوهم الرسول ﷺ أنه بلغ مبلغ الرجال ، فيرضى عنه ﷺ ويتركه بعد أن قيل له إنه رام ، فلما أجاز رافعًا قيل له : يا رسول الله : إن سَمُرة (بن جندب الفزارى) يصرع رافعًا فأجازه ، وردَّ أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم لصغرهم .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شهداء يجاهدون مع رسول الله ﷺ فلما توجه عليه السلام إلى أحد أراد أن يخرج معه فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ** ﴾ [الفتح:١٧] فأتى عمرو رسول الله ﷺ ، فقال : إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك ، والله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة . فقال له رسول الله ﷺ : « **أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد** » . وقال لبنيه : « **وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة** » فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أُحد شهيدًا .

وهناك نوع من الحب يسمو على حب الجهاد غير أن درجة خاصة وإنها لدرجة الاستثناء الخاص ، إن أجيز هذا التعبير وهو حب الوالدين . . ولقد قال فيهما سبحانه : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ**

أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] .

وهناك أحاديث عن رسول الله ﷺ عن أفضلية بر الوالدين على الجهاد ، وعن وجوب استئذانهم فى الجهاد .

ففيما رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : « **الصلاة على وقتها** » . قلت : ثم أى؟ قال : « **بر الوالدين** » . قلت : ثم أى ؟ قال : « **الجهاد فى سبيل الله** » .

وما رواه البخارى والنسائى وأبو داود والترمذى وصححه عن عبد الله بن عمر ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فاستأذنه فى الجهاد ، فقال : « **أحى والداك؟** » قال : نعم . قال : « **ففيهما فجاهد** » .

وما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه قال : أتى رجل فقال يا رسول الله : إننى جئت أريد الجهاد معك ، ولقد أتيت وإن والدى يبكيان . قال : « **فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما** » .

وما رواه أبو داود عن أبى سعيد أن رجلا هاجر إلى النبى ﷺ من اليمن ، فقال : « **هل لك أحد فى اليمن ؟** » فقال : أبواى ، فقال : أذنا لك ؟ فقال : لا ، قال : « **ارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما** » .

وما رواه أحمد والنسائى عن معاوية بن جاهمة السلمى أن أبا جاهمة أتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله أردت الجهاد وجئت أستشيرك . فقال : « **هل لك من أم ؟** » قال: نعم . فقال : « **الزمها فإن الجنة عند رجليها** » .

وما أخرجه ابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو . قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن أفضل الأعمال ، قال : « **الصلاة** » ، قال : ثم مه ؟ قال: « **الجهاد** » ، فإن لى والدين ، فقال : « **آمرك بوالديك خيراً** » ، فقال : والذى بعثك نبيًا لأجاهدن ولأتركنهما . قال : « **فأنت أعلم** » .

ويشترط فى الأبوين أن يكونا مسلمين فإن لم يكونا مسلمين فلا حاجة لاستئذانهما فى الجهاد ، وإذا كان الوالدان مسلمين وكان هلاكهما متحققًا بتركهما بحيث يكونان ضعافا جدا غير قادرين بخدمة أنفسهما بحال ، وليس هناك من يقوم بخدمتهما سوى ولدهما فعندها يبقى الابن عندهما حرصا على حياتهما .

وفى هذا غاية الحب فى الجهاد . والإيمان بالجهاد . .

هـ ـ الطاعة :

الطاعة فريضة واجبة على المؤمنين فبغيرها يستحيل أن يكون ثمة إيمان . ففى الطاعة كما جاء فى القرآن الكريم تتمثل العبودية لله وحده وفيها وجبت الطاعة دستوراً ونظامًا للمؤمنين عليهم أن يهتدوا به ففيه خيرهم وفلاحهم وفيه حريتهم التى تعينهم على العمل والبناء والإعمار ، وذلك على هدى ورشاد من أمر الله وشريعته وأمره قاطع لا سبيل إلى الالتفاف حوله أو الإغضاء منه ـ وشريعة الله سمحة جلية تتيح للمؤمن حرية العمل وحرية التفكر والتدبر .

وفريضة الطاعة لله إذ هى واجبة مطلقة الوجوب فقد جاء بها القرآن الكريم على نسق تدريجى لتحسم كل أمر من أمور الإنسانية وقضية من قضايا وجودها ، فقد قال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ [النساء:٥٩] .

ففريضة الطاعة هنا جاءت على درجات متكاملة لا يمكن فصل درجة عن الأخرى ، فطاعة الله أولاً توجب طاعة رسوله ﷺ ، وطاعة الرسول توجب طاعة أولى الأمر . فإذا وقع تنازع فى قضية من قضايا المسلمين فإنها تُرد أولا إلى الله ورسوله ، وذلك هو معيار الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهذا المنهاج هو طريق الخير وطريق الصواب فى التصحيح والتأويل .

على هذا فطاعة أولى الأمر يجب أن يكون لها وزنها فلا ينبغى عصيانها أو

الخروج عليها ، أما حين يحدث ثمة اختلاف فى تصريف أمر من أمور المسلمين فإن على الجميع أن يلتزموا بطاعة الله ورسوله خشية البوار والخسران ، لذلك حذر القرآن الكريم من فتنة التنازع لما لها من خطر لا شك فيه على مصير المسلمين . فالتنازع كفيل بأن يضعف قوة المسلمين فيبدد شملهم ويذهب وجودهم فقال سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

وتلك قاعدة من ألزم القواعد للجهاد فى سبيل الله وقد جاءت مقترنة بضرورة الصبر، وإنه للصبر الذى لن يخذله الله أبدا فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ويؤخذ من فريضة الطاعة كما جاءت فى القرآن الكريم وإمكانية تصحيح مواقف المسلمين على أساسها ، أن الطاعة من الضروريات العليا للجيش أو القوات والمسلحة بعامة . فالطاعة الكاملة للقيادة العسكرية كبرت هذه القيادة أم صغرت واجبة حتى ولو كانت القوة مؤلفة من ثلاثة جنود ، فإن أقدمهم يكون هو القائد إذا تساووا فى الرتبة فيكون أمره واجب التنفيذ بغير أدنى اعتراض ، ولذا فإن من العبارات العسكرية التقليدية : « نفذ الأمر الأخير ولو كان خطأ » ما يعنى الطاعة للقيادة .

وإن من معانى الطاعة العسكرية الحرص على التدريب على السلاح وإتقان فنون القتال . ولقد قال رسول الله ﷺ عن الطاعة وصلتها بالجهاد : « **من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى** » رواه البخارى من حديث أبى هريرة . وفيه زيادة عن البخارى : « **وإنما الإمام جُنَّة (وقاية) يقاتل من ورائه ويُتقى به ، فإن أمر بتقوى الله وعدل ، فإن له بذلك أجراً ، وإن قال بغيره فإن له منه** » وقال ﷺ : « **من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية** » البخارى كتاب الأحكام . وقال ﷺ : « **السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا**

سمع ولا طاعة » البخارى - كتاب الأحكام .

إذن فكأن القتال قد شرع مع كل بر وفاجر ؛ فعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاث من أصل الإيمان ، الكف عمن قال : لا إله إلا الله ، لا نكفره بذنب ولا نخرجه عن الإسلام بعمل . والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . والإيمان بالقدر ...** » رواه أبو داود وحكاه أحمد فى رواية ابنه عبد الله .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ قال ، قال رسول الله ﷺ : « **الجهاد ماض مع البر والفاجر** » .

وعن جابر عن النبى ﷺ قال : « **لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة** » .

نعم ، طاعة الأمير أو القائد فى الحرب واجبة ، إلا فى معصية إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فعن على رضوان الله عليه قال : بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فعصوه فى شىء ، فقال : اجمعوا حطبًا ، فجمعوا ، ثم قال : أوقدوا ، فأوقدوا ، ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا وتطيعوا ؟ قالوا : بلى، قال : فادخلوها ، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار ، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه وطفئت النار . فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « **لو دخلوها لم يخرجوا منها** » وقال : « **لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وإنما الطاعة فى المعروف** » .

ولمخالفة أوامر القائد شأن له خطورته المحتومة على سير المعركة . ومثال ذلك غزوة أحد فعندما خالف معظم الرماة أمر رسول الله ﷺ وهجروا مواقعهم التى حددها لهم ليحموا ظهور المسلمين ، واندفعوا لانتهاب الغنائم ظنا منهم أن المعركة قد انتهت ، وأن الهزيمة لحقت بالمشركين الذين فروا هاربين ، ولحظتها اندفع خالد

ابن الوليد ـ وكان لا يزال على الشرك ـ فتعقب المسلمين وهزمهم هزيمة شديدة .

والطاعة تفرض على المجاهد أن يدأب على التدريب على سلاحه فلا يغتر لحظة واحدة عنه أو يرجئه إلى حين ، إن التدريب والطاعة فيه والصبر عليه يبعث فى إرادة المقاتل ونفسه حمية القتال عن خبرة ودراية بالسلاح الذى يستخدمه وما أكثر أنواع الأسلحة فى عصرنا ، ولقد كانت قوة الرمى هى السلاح المؤثر على عهد رسول الله ﷺ .. روى مسلم فى صحيحه عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **ألا إن القوة الرمى** » قالها ثلاثا .

وعن سلمة بن الأكوع قال : مر رسول الله ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون فى السوق (التناضل : الترامى للسبق فى إصابة الهدف) ، فقال : « **ارموا يا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميًا ، ارموا وأنا مع بنى فلان** » . قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ : « **ما لكم لا ترمون ؟** » قالوا :كيف نرمى وأنت منهم ؟ فقال : **ارموا وأنا معكم كلكم** » رواه أحمد والبخارى .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **من عُلم الرمى ثم تركه فليس منا** » رواه أحمد ومسلم .

وعن عقبة بن عامر أن النبى ﷺ قال : « **إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه الذى يحتسب فى صنعه الخير ، والذى يجهز به فى سبيل الله والذى يرمى به فى سبيل الله** » . وقال : « **ارموا واركبوا ، فإن ترموا خير لكم من أن تركبوا** » . وقال : « **كل شىء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة : رمية عن قوسه ، وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق** » رواه الخمسة .

وعن عمر بن عنبسة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من رمى بسهم فهو له عدل محرر** (أى من رق العذاب) » رواه الخمسة وصححه الترمذى .

وعن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ ، قال : « **ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه** » .

آمنا وصبرنا .. وأخلصنا .. وأعددنا وتدربنا .. وأطعنا .. وحانت لحظة القتال فعلينا إذن أن نتوكل على الله فهو معيننا وناصرنا ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٤٩] .. وقال سبحانه : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:٥١] .

ويقول المجاهدون: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة:٤] .

٥ ـ النصر أو الشهادة :

ها هم المجاهدون وقد أشرفوا على الاشتباك مع العدو .. إنهم يتجهون نحوه ليردوا كيده عن عقيدتهم وأعراضهم وديارهم وأمانتهم نحو الحضارة الإنسانية .. وإن من حقهم علينا أن نكرِّمهم ونبعث فيهم حمية الجهاد ونقول لهم : إن الله معكم وإننا معكم . فلا تخشوا بأسًا ولا رهقًا .

إن تكريم المجاهدين عند ذهابهم إلى الميدان تقليد إسلامى علينا ألا نغفل عنه أو ننساه ، لقد سنه رسول الله ﷺ للمسلمين وقواتهم تأخذ طريقها إلى ميدان القتال ، عن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لأن أشيع غازيًا فأكفيه فى رحله (أساعده عليه) غدوة أو روحة أحب إلىّ من الدنيا وما فيها** » رواه أحمد وابن ماجه .

مشى رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد (بقيع الغرقد مقبرة المدينة المنورة) ثم وجههم (أى جند المسلمين) ثم قال : « **انطلقوا باسم الله** » وقال : « **اللهم أعنهم** » يعنى النفر الذين وجههم إلى كعب بن الأشرف . رواه أحمد .

وعن عبد الله الخطمى رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا أراد أن يستودع الجيش قال : « **أستودعكم الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم** » رواه أصحاب السنن بسند صحيح .

وكذلك صنع أبو بكر الصديق رضى الله عنه مع أسامة بن زيد وهو ذاهب لقتال أعداء الله ، فقد مشى أبو بكر إلى جانب أسامة وهو راكب وغلب الحياء

أسامة أن يرى أبا بكر الصديق ، وهو الشيخ الجليل أن يسير إلى جانبه ودابته من ورائه يقودها عبد الرحمن بن عوف فقال: يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن. . قال أبو بكر : والله لا تنزل ووالله لا أركب ، وما علىّ أن أغبرِّ قدمى فى سببيل الله ساعة » ، فلما آن له أن يودع الجيش قال لأسامة : « إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل ، فأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبى بكر . .

منتهى التكريم والتبجيل ، وغاية التواضع والإيمان . .

وإذا كان تكريم المجاهدين واجبًا عند توجيههم إلى الميدان ، فهو واجب كذلك عند عودتهم من القتال منتصرين وقد أدوا واجبهم ، وهذا ما نفعله اليوم عند عودتهم إذ نقيم لهم المهرجانات والاحتفالات ونكرمهم بالأنواط والنياشين . ومما نذكره فى هذا المقام أن السائب بن زيد روى أنه لما قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك خرج الناس يتلقونه من ثنية الوداع وهى عقبة بطريق المدينة نحو الشام كانوا يودعون المسافر إليها ويستقبلونه عندها فيستحب توديع المسافر واستقباله عندها .

وإذا كان التكريم مطلوبًا عند توديع الجيش الذاهب ومطلوبًا كذلك عند أوبته، فإنه لمن الإيمان أن تكون قلوب المجاهدين ذاكرة لله سبحانه تدعوه ولو همسًا فى صدورهم أن ينصرهم الله ويمكنهم من عدوهم ، فالدعاء عند القتال سلوك إيمانى مرغوب بل مطلوب ، فعن عبد الله بن أوفى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ فى بعض السياحة التى لقى فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس فقال : « **أيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف** » ثم قال : « **اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم** » رواه الثلاثة .

وفى يوم الأحزاب دعا رسول الله ﷺ فقال : « **اللهم منزل الكتاب سريع الحساب وهازم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم** » رواه الشيخان والترمذى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا غزا قال : « **اللهم أنت عضدى ونصيرى ، بك أجول (أدفع كيد العدو) وبك أصول ـ أحمل على العدو ـ ، وبك أقاتل** » رواه أصحاب السنن بسند حسن .

ولأبى داود أن رسول الله ﷺ قال : « **اثنتان لا تُردان : الدعاء عند النداء وحين البأس حين يلحم بعضهم بعضًا** » .

ولقد دعا رسول الله ﷺ ربه يوم بدر فقال : « **اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد** » .

وسواء نحن فى التكريم أو الدعاء ، أو التحريض ، فكلها إعداد إيمانى لخوض المعركة . . وأزفت آزفة الجهاد . .

• • •

الشهداء أحياء عند ربهم

ودارت المعارك والله سبحانه ينادى المجاهدين فى قرآنه الكريم فيقول لهم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد:٧] .

ويقول لهم : ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ** ﴾ [آل عمران: ١٦٠] .

ويقول لهم : ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠] أجل ، ثم كان نصر الله . .

ومن الطبيعى أن يسقط فى المعارك قتلى وجرحى ، أما من فقدوا أنفسهم من المسلمين فليسوا على درجة سواء مع قتلى أعدائهم فقتلى المسلمين لهم الجزاء الأوفى والأكرم من الله سبحانه فهم شهداء وليسوا أمواتًا كسائر الأموات ؛ فقال جل شأنه : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)**

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١] .

وليس هناك ما هو أرفع من ذلك المقام ولا أسنى من ذلك التكريم ؛ ولقد قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] .

وللمكانة العليا التى جعلها الله سبحانه للشهداء فإن الرسول ﷺ كان دائب الإشادة بالاستشهاد والحض عليه .

فمما رواه الترمذى عن جابر رضى الله عنه قال : لقينى رسول الله ﷺ فقال لى : « **يا جابر : ما لى أراك منكسرًا ؟** » فقلت : يا رسول الله استشهد أبى يوم أحد وترك عيالا ودينا ، قال : « **ألا أبشرك بما لقى الله به أباك ؟** » قلت : بلى يا رسول الله . قال : « **ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا فقال : يا عبدى تمنى علىَّ أعطك ، قال : يا رب تحيينى فأقتل فيك ثانية . قال الرب عز وجل : إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون** » ، قال : وأنزلت الآية .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : إنا قد سألنا عن ذلك فأخبرنا أن أرواحهم فى حواصل الطير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش فاطلع إليهم ربك اطلاعة ، فقال : «**هل تريدون شيئًا فأزيدكم ؟ فقالوا : ربنا وما نستزيد ونحن فى الجنة نسرح حيث شئنا ؟ ثم اطلع عليهم الثانية فقال : هل تستزيدون شيئًا فأزيدكم ؟ فلما رأوا أنهم لم يتركوا قالوا : تعيد أرواحنا فى أجسامنا حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل فى سبيلك مرة أخرى** » وزاد فى رواية : « **وتقرئ نبينا السلام وتخبره عنا أنا قد رضينا ورضى عنا** » رواه الترمذى .

ولقد بين الرسول ﷺ فى الكثير من الأحاديث أن الشهيد يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليموت مرة أخرى وذلك لما شاهده من أفضال الشهادة وكرمها فعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى** » رواه الخمسة .

وللنسائى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله : يا بن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يا رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن . فيقول : أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات** » وذلك لما يرى من فضل الشهادة .

وعن أبى عميرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لأن أقتل فى سبيل الله أحب إلىّ من أن يكون لى أهل المدر والوبر** » (البادية والحاضرة) وللشهداء امتيازات متميزة تقديراً لهم وتكريمًا .

عن راشد بن سعد رضى الله عنه عن رجل من الصحابة أن رجلا قال : يا رسول الله : ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ فقال : « **كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة** » أخرجه النسائى . . وهذا امتياز للشهيد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة** » رواه الترمذى والنسائى والدارمى . وهذا امتياز آخر للشهيد .

وروى أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قال : « **يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته** » رواه أبو داود والترمذى . وهذا امتياز آخر للشهيد .

ويفوز الشهيد بأعلى مقامات الجنان فعن أم حارثة بنت سراقة أنها أتت النبى ﷺ فقالت : يا نبى الله ألا تحدثنى عن حارثة ، وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب (لا يعرفه راميه) فإن كان فى الجنة صبرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، قال : « **يا أم حارثة ، إنها جنان فى الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس**

الأعلى » رواه البخارى .

وقد أخرج الحاكم من حديث أنس رضى الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله أرأيت إن انغمست فى المشركين فقاتلتهم حتى قتلت ، أإلى الجنة ؟ قال : « **نعم** » فانغمس الرجل فى صف المشركين فقاتل حتى قتل .

وفى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قتلت ؟ قال : « **فى الجنة** » فألقى ثمرات كن بيده ثم قاتل حتى قُتِل .

وروى الترمذى بسند حسن عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **عرض علىّ أول ثلاثة يدخلون الجنة : شهيد ، وعفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه** » .

وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : « **يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء (العاملون) ثم الشهداء** » .

وعن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **عجب ربنا عز وجل من رجل غزا فى سبيل الله ، فانهزم أصحابه فعلم ما عليه ، فرجع حتى أهريق دمه ، فيقول الله عز وجل لملائكته : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ومشفقة مما عندى حتى أهريق دمه** » رواه أبو داود بسند صحيح .

وعن البراء رضى الله عنه قال : جاء رجل من بنيِ النبيت (قبيلة من الأنصار)، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل فقال النبى ﷺ: « **عمل هذا يسيراً وأجر كثيراً** » .

وروى ابن إسحاق فى المغازى عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : لما التقى الناس ببدر قال العوف بن الحارث : يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟ قال : « **أن يراه غمس يده فى القاتل يقاتل حاسراً فنزع درعه ثم تقدم فقاتل حتى قُتل** ».

وعن عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس أعينهم إليه يوم القيامة هكذا** » ، ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته فال : فما أدرى قلنسوة عمر أم قلنسوة النبى ﷺ ؛ « **ورجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو كأنما ضرب العدو جلده بشوك طلح من الجبن أتاه سهم غرب** (لا يعرف من رماه) **فقتله فهو فى الدرجة الثانية ؛ ورجل مؤمن خلط عملا صالحًا وآخر سيئًا لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الثالثة ؛ ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة** » رواه الترمذى .

إذن فالمجاهد فى سبيل الله له أمنية واحدة هو أن ينال الشهادة فى سبيل الله عقيدته ، فذلك غاية ما يحرص عليه وأكرم ما يتمناه ، ولا يؤلمه شىء قدر ما يؤلمه أن تتخلى عنه ، وخير مثال لذلك ما قاله خالد بن الوليد عن نفسه فقد قال: « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء» .

• • •

الاستشهاد وتكفير الذنوب

هل إذا استشهد المجاهد فى سبيل الله ، فهل استشهاده يكفر عنه جميع ذنوبه حتى الدَّين ؟ أم أن الدين حالة ذات وضع خاص ؟

نستبين الحقيقة فيما ورد من أحاديث لرسول الله ﷺ .

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **يغفر الله للشهيد كل ذنب إلا الدين ، فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك** » رواه أحمد ومسلم .

وعن أبى قتادة عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال ، فقال رجل : يا رسول الله : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفر عنى خطاياى ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « **نعم ، إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر** » . . ثم قال رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ قال أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفر عنى خطاياى ؟ قال رسول الله ﷺ : « **نعم ، وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك** » رواه أحمد ومسلم والنسائى والترمذى وصححه .

وفى تقدير بعض العلماء أن المدين لا يخرج إلى الجهاد حين يكون فرض كفاية (أى متطوعًا) إلا بإذن دائنه لا سيما إذا كان الدين حالا ، أما إذا كان مؤجلا ففيه خلاف ، غير أن بقاء الدين فى ذمة الشهيد لا يحجب أجر الشهادة ، بل هو شهيد مغفور له كل ذنب إلا الدين ، أما حين يكون الجهاد فرض عين أى وجب على جميع أفراد الأمة المشاركة فيه ، فإن من حق المدين الخروج إلى الجهاد رضى الدائن أو أبى .

• • •

جهاد النساء

للمرأة مكانتها فى الإسلام . . فقد نالت حقوقها كاملة غير مغبونة فيها :

حقها كإنسانة لها ما لها من حقوق . . وعليها ما عليها من واجبات .

وحقها كأم لها ما لها من حقوق . . وعليها ما عليها من واجبات .

وحقها كزوجة لها ما لها من حقوق . . وعليها ما عليها من واجبات .

وكذلك كأخت . . وجارة . . وزميلة عمل .

الرجل والمرأة صنوان ، من أرومة واحدة ؛ فقال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١] . وليس من الإيمان ولا من الإسلام أن تبخس المرأة فى أى حق لا سيما حق المعاشرة الطيبة مع زوجها ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:١٩] .

وقضى الله سبحانه بأن تبايع النساء كما بايع الرجال ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة:١٢] .

وقد أوصى الرسول ﷺ بالنساء أجمل إيصاء وأكرمه . . فقال ﷺ :

« **خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائه** » .

« **ما أكرم النساء إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم** » .

« **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » .

« **ما زال جبريل يوصينى بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن** » .

فهل للمرأة ولها هذه المكانة أن تجاهد فى سبيل الله ؟

وكيف يكون نوع جهادها ؟

هل عليها أن تقاتل كما يقاتل الرجل ؟

هل لها عمل خاص فى الجهاد يتفق وطبيعتها وفطرتها ؟

هل هناك موقف قتالى محدد يحتم عليها بل يفرض عليها الاشتراك فى القتال؟

إن الأحاديث الشريفة التى قال الرسول ﷺ هى خير ما يجيب على هذه التساؤلات ويهدينا سواء السبيل .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله ، على النساء جهاد ؟ قال : « **نعم ، جهاد لا قتال فيه هو الحج والعمرة** » رواه ابن ماجه .

إلا أن للمرأة عملاً خاصًا فى الجهاد عبرت عنه الأحاديث الشريف الآتية :

فعن أنس رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ ولقيت رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم ، وإنهما لمشمرتان أى خدم سوقهما (أى الخلاخل) تنقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغانهما فى أفواه القوم ، ثم ترجعان متملآنهما ثم تجيئان فتفرغانهما فى أفواه القوم . رواه الشيخان .

وعن أنس أيضا : كان النبى ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه فيسقين الماء ويداوين الجرحى » ، رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

وقالت الربيع بنت معوذ رضى الله عنها : كنا نغزو مع النبى ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة. رواه البخارى .

وقالت أم عطية رضى الله عنها : غزوت مع النبى ﷺ سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى رواه مسلم .

أما حمل النساء للسلاح أثناء القتال فإنهن حملنه دفاعًا عن أنفسهن ، أما إذا وجد أن لا بد من أن يشاركن فى القتال إلى جانب الرجال فليس عليهم أن يتأخرن.

أخرج مسلم من حديث أنس : أن أم سليم اتخذت خنجرًا يوم حنين وقالت للنبى ﷺ : اتخذته إن دنا منى أحد بقرت بطنه .

أما نسيبة بنت كعب أم عمارة فقد شهدت الحرب مع رسول الله ﷺ وشهدت أختها وزوجها زيد بن عاصم بن كعب وابناها حبيب بن زيد ، وعبد الله بن زيد، وابنها حبيب هو الذى أخذه مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة فجعل يقول له : أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أفتشهد أنى رسول الله ؟

فيقول : لا أسمع ، وجعل يقطعه عضوا عضوا حتى فى يده ، لا يزيده على ذلك ، إذا ذكر له رسول الله ﷺ آمن به وصلى عليه ، وإذا ذكر له مسيلمة قال : لا أسمع ، فخرجت إلى اليمامة مع المسلمين فباشرت الحرب حتى قتل الله مسيلمة ورجعت بها باثني عشر جرحا بين طعنة وضربة .

ولقد قالت أم عمارة نسيبة بنت سعد بن الربيع كانت تقول : دخلت على أم عمارة فقلت لها : يا خالة ، أخبرينى خبرك فقالت : « خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه والدولة (الغلبة) والريح (النصر) للمسلمين . فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى عنه القوس ، حتى خلصت الجراح إليَّ » فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور ، فقلت : من أصابك بهذا ؟ فقالت : ابن قمئة أقمأه الله . ولما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل بقول : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربنى هذه الضربة فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان » .

وبسبب قتال نسيبة الشديد يوم أُحد روى أن رسول الله ﷺ قال يومئذ : «**لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان** » وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال ، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جُرِحت ثلاثة عشر جرحا ورجعت من أحد مهشمة جدا ، ثم فى ثانى الأيام نادى منادى رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد (وقع) فشدت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم ، قالت ضمرة : « لقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح حتى أصبحنا فلما رجع رسول الله ﷺ من حمراء الأسد ، لم يصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازنى يسأل عنها فرجع إليها فأخبره بسلامتها فسر بذلك .

وعن عبد الله بن زيد المازنى قال : جُرحت يوم أحد جرحًا فى عضدى اليسرى ضربنى رجل كأنه الرقل (النخلة الطويلة) ولم يعرج على ومضى عنى

وجعل الدم لا يرقأ ، فقال رسول الله ﷺ :« **اعصب جرحك** » ، فتقبل أمى ومعها عصائب فى حقويها (وسط الجسم) وقد أعدتها للجراح ، فربطت جرحى والنبى ﷺ ينظر إليها ، ثم قالت : انهض يا بنى فحارب القوم . فجعل رسول الله ﷺ يقول : « **ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟** » قال : وأقبل الرجل الذى ضربنى ، فقال رسول الله ﷺ : « **هذا ضارب ابنك** » ، فاعترضت أمى له فضربت ساقه فبرك فرأيت النبى ﷺ تبسم حتى بدت نواجذه ثم قال : « **استقدت يا أم عمارة** » ثم أقبلنا عليه بالسلاح حتى أتينا على نَفَسِه (انقطع نفسه) فقال النبى ﷺ : «**الحمد لله الذى أظفرك فأقر عينك من عدوك ، وأراك ثأرك بعينك**» .

وقال عمر رضى الله عنه عن نسيبة : سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم أحد: « **ما التفت يمينًا ولا شمالا إلا وأراها تقاتل دونى** » .

وعن عبد الله بن عاصم قال : شهدت أحدا مع رسول الله ﷺ ، فلما تفرق الناس عنه دنوت منه وأمى تذب عنه فقال :« **يا بن عمار** » ، قلت : نعم ، قال: « **ارم** » فرميت بين يده رجلا من المشركين بحجر وهو على فرس ، فأصبت عين الفرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعلت أعلوه بالحجارة حتى نضت عليها منها وقرأ (أى مات) ، والنبى ﷺ ينظر ويتبسم ، فنظر إلى جرح بأمى على عاتقها . فقال : « **أمك أمك ، اعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ، لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك** (يعنى زوج أمه) **خير من مقام فلان رحمكم الله من أهل بيت** » فقالت أمى : ادع لنا يا رسول الله أن نرافقك فى الجنة . فقال : « **اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة** » . قالت : فما أبالى ما أصابنى من الدنيا .

هذا هو حظ المرأة من الاشتراك فى الجهاد وإنه لحظ عظيم . . .

• • •

الفصل الثالث

سياسة الجهاد

الفصل الثالث

سياسة الجهاد

أ ـ العبقرية العسكرية للجهاد الإسلامي:

العسكرية فطرة عربية:

من البدهيات التى لا يمكن التشكيك فيها أو التغاضى عنها أن العقيدة قوة يستحيل استبدالها بقوة أخرى لمن لا يحوزها ، وإن كانت قوة العقيدة بمفردها لا يمكن الاكتفاء بها عن الخبرة والاستعداد ، ولذا فإنه يعسر أن تعرفنا أسباب اختلاف الفوز باختلاف الخطط والقواد ، فإذا جئنا إلى تقويم الفطرة العسكرية العربية بناء على هذه البدهية فإننا نعرض أطوار العسكرية العربية منذ فطرتها الأولى . فالصوز الشائعة فى أذهان الكثرة الغالبة من الناس عن البادية أن حروب الصحراء التى كانت تنشب بين قبائلها وبطونها لم تزد عن كونها مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقسى والمقاليع وذلك على غير نظام وعلى غير منهاج تقليدى يمكن أن يفضى إلى فن يتعلمه طالبه ، وينتقل كميراث اجتماعى له أهميته إلى الأخلاف الذين يأتون بعد ذلك .

إذن فالتصور الذائع عن حروب البادية أنها عبارة عن مباغتات لشراذم من المغيرين تنقض بسرعة خاطفة ، ثم تُدْبِر بما حملت أو غنمت ، وذلك أقصى ما تعرفه البادية من فن الحرب ، سطوة مباغتة ثم فرار مباغت ، وتلك صورة مضللة لمن يريد أن يتعرف على قدرة البادية على الحروب الكبيرة فضلاً عن المناوشات الصغيرة ، وإنه لمن الخطأ التسليم بهذه الصورة ؛ لأنه ليس من الصواب ولا من الصدق أن نستهين بالرياضة التى تُدَرب عليها الأجيال المتعاقبة ؛ إذ أنها تدرب عليها كسنة اجتماعية لا غناء عنها ، وحتى لو صح أن تلك المناوشات التى تعرف اليوم بما يسمى بحرب العصابات ، هى كل ما حذقه أهل البادية أو أهل الصحراء

فإنها كانت تقوم على نظام كفن من فنون القتال لم تستغن عنها الجيوش إلى يومنا هذا .

إذن ، فمما لا جدال فيه أن أجيال الصحراء فى تعاقبها قد انتهجت حروب العصابات التى كانت القبائل تسهم فيها وهى بين معتدية أو معتدى عليها ، وكأن حياة البدوى كانت هى المعنية آنئذ بما جاء فى التوراة : « يده على كل إنسان ويد كل إنسان عليه » . . بذلك أصبح البدوى على ملكة مطبوعة يمكن أن نطلق عليها بغير غلو : « حاسة الحرب » ، أو اليقظة الداعية إلى الميدان ؛ وإنها لليقظة التى لم تتخل عنه فى ليل أو نهار . فهو دائب على توقع الهجوم عليه فى أية لحظة . فكان أن أخذ أهبته وحيطته بالاستعداد للنضال بقلبه وسلاحه وغيرته .

« وحاسة الحرب » تلك ، أو ملكة الفن القتالى لم يكن لأبناء المدن أن يكسبوها وهم غير مُبَاغَتين بالإغارة فى لحظة من ليل أو نهار ، وكيف وهم آمنون فى مدنهم بفضل حماية ملوكهم ؟ ، فهم من ثم لا يهبون إلى ميدان القتال إلا فى الحين بعد الحين ، ولذا فهم لا يتدربون على القتال إلا على فترات محددة أما فى أغلب الأوقات فهم لا يقتربون منه .

على أن أهل الصحراء يكتسبون من حروب العصابات فى أجيالهم المتعاقبة مزايا نفسية عميقة الأثر ، إذ يصبح الصبر على الفرار من خصالهم وأن أفئدتهم تصبح صامدة على احتمال الفرار والإدبار الذى يصبح فى ذاته فنًا من فنون الحركات القتالية فى كل معركة يخوضونها ، فالفرار أو الإدبار ليس هزيمة يُرْدع فيها القلب وينزعج الوجدان حتى إن صاحبها ليظن أنه قد خسر كل رجاء ، ولم تبق له من حيلة إلا الاستمرار فى القتال غير التسليم .

فمقاتل الصحراء يظل على أهبته لاستئناف القتال سواء فى إقباله أو إدباره ، وسواء كان له رجاء فى النصر أو لم يجد منها إلا أن يفوز بالنجاة ، وكأنه فى حركاته وهو بين التقدم والتأخر ، أو بين الانتقال من الشمال إلى اليمين ـ يجرى على خطة مرسومة يقتفيها ببصيرة سليمة ، بل كأن تلك التحركات على اختلاف

اتجاهاتها من طبائعه التى فطر عليها منذ وجوده الأول .

ومن هنا أصبح فى مقدور القواد العرب فى الغزوات الكبيرة أن يسيطروا على فرق الجيش إذا أصابته هزيمة وذلك فى عدة سويعات ، وأن يتفادوا الخذلان ، وذلك مما يصعب على الجيوش المنظمة أن تعالجه فى غير زمن طويل .

ومن الحقائق العسكرية أن العصابات المغيرة وهى علّى دأبها فى مرانها الطويل تكتسب علمًا بأصول الاستطلاع والمباغتة والتبييت والمخاتلة وتقدير اللحظات التى يجب التراجع والإفلات ، ورغم أن كل تلك التحركات تتصف بالبساطة إلا أنه مما لا مناص منها فى ميادين القتال كبرت أم صغرت ، هذا إذا فرضنا أن حروب العصابات هى كل ما أتقنه عرب الصحراء من فنون القتال فى تاريخهم القديم ، وهذا مما لا يصدق إطلاقًا مع الفطرة العسكرية عند العرب ، فالعرب كانوا على خبرة ودراية فى الحروب التى نشبت بينهم كانوا يعرفون كيف يعبئون الجيوش بعشرات الآلاف على اختلاف الأسلحة والأقسام ، ويذكر لنا التاريخ أن جيش الغساسنة الذى حارب المنذر بن ماء السماء كان فيما يقرب من أربعين ألف مقاتل بين راجل وفارس وكان يضم فى صفوفه راكبي الخيل وراكبي الإبل وحاملي السيوف وحاملى الرماح والمصوبين للسهام والنبل والمصوبين للحراب والحجارة .

وسواء الغساسنة أو المناذرة فقد كانوا أصحاب ملك شامخ لا يصعب عليهم أن يسيروا تلك الألوف الهائلة إلى الميادين ، ولكن القبائل لم تكن على مثل ذلك الثراء القتالى ، إن أجيز هذا التعبير ، فكان حسبها أن تسوق الألوف للقاء ما يماثلها وهى على عدد لا يرتفع كثيرًا فوق الجيش فى عصرنا الحديث ، فمثلاً قبيلة مذحج واجهت تميمًا يوم الكُلاب الثانى بثمانية آلاف ، ووقع بين الفريقين من تحركات الاستطلاع والتمويه والهجوم والمطاردة وهو ما يضم عناصر النضال التى لا غنى عنها فى أى زمان .

إلا أن البادية لم ينقصها علم الحرب كما علمته أمم الحضارات العليا فى

عصور الجاهلية القريبة ، فكانت غسان مجاورة للروم تنخرط معهم ضمن الفرق المتطوعة فى حالتى الدفاع والهجوم ، وكان ملوك الحيرة قريبين من الفرس يخدمون فى كتيبتين من الجيش الفارسى هما : الشهباء ، والدوس أو «الدوشير»، بمعنى الأسدين شعار الدولة الفارسية ، أما جند الشهباء فكانوا من أبناء فارس وجند الدوس من أبناء القبائل العربية ، وإنه لتكفى هذه المقاربة أو هذه القدوة لالتقاط الفنون التى يحتاج إليها العربى فى تعبئة الجيوش ولليقظة للمباغتات التى عليه أن يتقيها وهو يواجه التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة . وقد تمثل ذلك التطعيم الحربى فى وقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على الدولة الفارسية . فقد كان العرب فى هذه الموقعة أبرع فى القيادة وأشمل دراية بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية فلم يهملوا أية وسيلة من وسائل الاحتياط اللازمة أو أن يصطنعوا حيلة يجدونها نافعة قبل أن يشتبكوا مع الجيوش الفارسية فبعثوا الطلائع للاستكشاف ورصدوا العيون للمراقبة ، وقسموا قواتهم إلى ميمنة قام عليها بنو عجل ، وميسرة قام عليها بنو شيبان ، أما القلب فقد تولاه بطون من بكر يقودهم زعيمهم المحنك هانئ بن مسعود ، وفى نفس الوقت بعثوا إلى قبائل العرب المنضمين إلى قوات الفرس برسل يذكرونهم بعروبتهم وأصلهم ويبعثون النخوة فى إرادتهم ويزينون لهم ضرورة التقهقر عن أصحابهم الفارسيين عند ذروة الالتحام ، فاقتنعت إياد بالفكرة وصدقت فى وعدها فانفلتت من المعركة فى اللحظة الحاسمة .

وفى صبيحة يوم المعركة الحاسمة جاء الفرس تصحبهم أفيالهم وفرقهم المدرعة، إلا أن قادة العرب لم يفزعهم الجيش الفارسى وهو فى عدته السابغة لكنهم أخذوا يتشاورون فيما يصنعون وذلك فى « مجلس حرب » ، فقال ربيعة ابن غزالة السكونى : « لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن تكردسوا كراديس فإذا أقبلوا على كردوس شد الآخر » . . وقال حنظلة بن ثعلبة: « إن النشاب الذى مع الأعاجم يفرقكم فإذا أرسلوا لم يخطئوكم فعاجلوهم اللقاء

وابدؤوهم بالشدة » . . وقال يزيد بن حمار : « اكمنوا لهم كمينًا » . . فما كان منهم إلا أن اتخذوا مكمنهم فى مكان يقال له : « الخبيئ » وأسروا إليه ألا يظهر إلا عندما يشتد أوار القتال بين العسكرين ، آنئذ تفر قبيلة إياد من صفوف الأعاجم وفى نفس الوقت يأتى للعرب المدد , وبهاتين الضربتين المتكاملتين يعجز الفرس عن الصمود , وفى نفس الوقت عمد القادة العرب إلى أن يثيروا حمية جندهم وفرسانهم فيجازفوا بأرواجهم ولا ينكصوا على أعقابهم , ولإثارة الحمية إلى أعمق مداها فإن حنظلة بن ثعلبة عمد إلى وضين راحلة امرأته ـ أى حزامها ـ فقطعه وعمل مثل ذلك مع رواحل النساء الأخريات فقطع وُضنهَا جميعًا فسقطت على الأرض واندفع فى قومه يصيح فيهم : « ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته». وأخذ السيافون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتتمكن أيديهم من تحريك سيوفهم عند المواجهة .

ولم يتوان الخطباء والشعراء عن التشجيع والحث . وصاحوا بصوت واحد : «المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره » .

وكالمعهود دائمًا قبل اشتباك القوات أخذ بعض الفرسان من الجانبين يتبارزون. وفجأة وقع الالتحام واشتد الوطيس ، وظهر الكمين فى موعده المحدد ولحظتها فرت إياد تجر خلفها أولئك الذين ملكتهم الحرة من الصدمة التى لم تكن متوقعة . وهنا انقض الكمين على قلب الجيش الفارسى ، فكان أن نزلت الهزيمة القاصمة بالجيش الفارسى ، وكان النصر لأوفر الفريقين نصيبًا من الفن العسكرى ، وإنه للجيش العربى الذى كان يرجحه الجيش الفارسى فى السلاح وكثافة الجند .

فما هو السبب فى انتصار العرب فى يوم ذى قار ؟ إن الغلبة ترجع إلى غلبة اليقظة على الغفلة ، والكفاية على العجز ، والخفة على الفخامة ، وللفن الحربى الصحيح على النظم التقليدية العقيم جدواها ، والعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة . ولم ينقص العرب وسيلة من الوسائل التى تمكنهم من إحراز النصر .. وعندما تعرض العسكرية العربية فى خبرتها وكيفيتها القتالية وأساليبها فى التحرك

الميدانى على علماء الحرب فإننا نجدهم يقرون أن العرب كانوا من اليقظة والوعى القتالى بحيث أنهم - أى علماء الحرب - لم يجدوا ثمة خطأ فى خططهم إلا وعالجوه ببصيرة نافذة وحنكة مقتدرة .

ويمكننا أن نحدد خلاصة العسكرية العربية وهى فى نضَارها صفوة التدريب العسكرى لا نستثنى من ذلك عصرنا الحديث . وتتركز الخلاصة فى النقاط الآتية:

١ - أهمية الاستطلاع .

٢ - رسم الخطة .

٣ - تنظيم الجيش فى مواقفه .

٤ - تنظيم الجيش فى حركاته .

٥ - إذكاء العزيمة فى نفوس الجند العرب .

٦ - إضعاف العزيمة فى نفوس جند العدو .

وحين نستعيد قراءة تاريخ العسكرية عند الفرس والروم نجد أن ما تميز به الطرفان من حيث أنواع الأسلحة والعدد اللازمة وما أحيط بها من تفخيم وتهويل قد حجب حقيقة ومبلغ القدرة على الحصار والحرب من بعيد ، فالحروب الماضية تخبرنا أن بعض الفرسان الشجعان كانوا يترجلون ليسددوا ضرباتهم بإحكام ولتتاح لهم حرية الحركة ، وكانوا كذلك لا يستعينون بما عليهم من دروع إذ كانوا يتخلصون منها ، ومن أثقالها لاسيما فى أيام الحر الشديد ، وكذلك عندما تصادفهم أماكن وعرة تثقل حركتهم وهم فى دروعهم الغامرة ، وأيضًا كان بعض الضباط النبلاء يستعينون بخدمهم ليحملوا لهم دروعهم إلى اللحظة التى يحتاجونها ، وقد جاء فى كتاب فيجيتيوس Vegetius ، إنجيل الحرب عند الرومان القدامى أن الجنود كانوا يتبرمون بالدروع الثقيلة ، ويتمنون أن لو تخلصوا منها حتى يكونوا أحرارًا فى الحركة لاسيما حين تلزمهم المعركة بأن يقتربوا من المواقع التى يُطلق منها السهام والنبال والحراب الطويلة .

أما الميزة التى تفرد بها العرب على سائر جيوش دول الحضارة أنهم أخذوا بالطريقتين ، طريقة حرب العصابات التى اكتسبوها بفضل نشأتهم البدوية ، وطريقة الجيوش فى إدارة الحروب . فهم قد تفوقوا فى حرب العصابات بفضل التدريب المتصل والطويل ، ثم أخذوا ما استطاعوه من فنون الحرب من الدول الكبرى على أيامهم ، وبذلك كسبوا الطريقتين التى لا غناء عنهما فى الحروب وبذلك وهبوا القدرة على إحكام تنظيم جيوشهم فى سرعة حتى وإن أصابها اضطراب أو اختلاط ، وعلى هذا فلم يكن العرب يتقيدون بفن واحد من فنون الحرب فهم يتلاءمون وما تحتاجه التحركات الميدانية ، فالعرب إذن يختلفون عن كل من الفرس والروم الذين تمسكوا بطريقة القتال بالجيوش النظامية وما لها من تقاليد مرعية وأصول آلية لا يجوز الخروج عليها أو استبدالها .

أما القبائل العربية التى سكنت الحواضر أو المدن فقد أخذت بالحظ الأوفى من كل طريقة سواء جاء الاكتساب بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود ، وما تفرد بتلك الميزة إلا القبائل القرشية التى كانت تقيم فى مكة عاصمة العواصم العربية التى نالها شرف الريادة فى الناحية الأدبية والثقافية كما تجمع فيها المزايا المحمودة والمعارف المشهودة والصفات العالية التى كانت موزعة بين أبناء الجزيرة العربية . هذا فضلاً عن أن كان لها الرئاسة المدنية التى كان يخضع لها الجميع .

ومع هذه المميزات العسكرية التى فُطر عليها العرب ونالوها بالمران الطويل وكذلك بالاقتباس والتقليد المحكم القادر على التصرف والتغيير . مع هذا كله فقد كان العرب موزعين متفرقين فكانوا بحاجة إلى الوحدة التى تجمعهم وتؤلف بينهم وتجعلهم خير أمة أخرجت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله فكانت رسالة محمد ﷺ . أجل فكان الجهاد فى سبيل الله .

من القيادات العليا للعسكرية الإسلامية :

مسيرة البحث تفرض علينا أن نقدم شاهدًا تاريخيًا واقعيًا للعسكرية

الإسلامية. وشاهدنا هو خالد بن الوليد الذى تجسدت فيه العسكرية الإسلامية فى أعظم خصائصها وأكبر مميزاتها وأكرم مناقبها التى تفوقت بها على جهابذة الحرب والقتال على مسيرة التاريخ الحضارى للإنسانية ، لا نقول هذا جزافًا أو من باب التفاخر ادعاء وبغير حق ولكنها الحقيقة التى يعز التصدى لها بالإنكار .

لقد كان خالد بن الوليد يتحلى بخصائص القائد العظيم المفطور على النضال، والخصائص التى تحلى بها هى الشجاعة والنشاط والصبر واليقظة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير وحضور البديهة ، ومن صفاته القيادية أنه لم يكن يضع الخطة فى موضعها من التنفيذ إلا لحظة التنفيذ ، فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس ، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما كان يحارب أحيانًا بغير كمين ، وكان فى تحركاته يراوح بين التمويه والمفاجأة والسرعة ؛ وذلك حسبما تقتضيه التحركات الميدانية التى كان يطلع عليها بنفسه ، وكان يؤمن بأن الأوفق فى إنزال الهزيمة بجيوش العدو أن يمزقها فتتناثر أشلاء فى ميدان القتال ، وذلك خير من الحصار والاحتلال . كما كان يؤمن بأن الخبرة قوة وسلاح ، فجاء حرصه على أن يستطلع تحركات العدو وأخباره من حيث العدة والسلاح وفي نفس الوقت يموه على العدو بما لا يمكنه من أن يعرف شيئًا عن تحركاته بما يعينه على أن يحتمى من بأسه أو يحصل على فائدة تعينه .

وعن وعى بتأثير الكلمة القوية فى نفوس الجند ، فإنه لم يغفلها طالما وجد تأثيرها فى إذكاء حمية جنده وتأثيرها السلبى على جيش عدوه ، وكان هو بذاته وشخصيته يمثل الهيّبة الأدبية التى تملأ نفوس الجند بالقوة الفدائية التى لا تخشى سيوف العدو ، ومن هنا كان فى طلعته ما يوحى لجنده بأن النصر قريب ، وأن الهزيمة بعيدة غاية البعد طالما هم تحت قيادته ، أما جانب العدو فكانت شخصية خالد والمعرفة بأنه هو قائد جيش المسلمين كفيلتين بأن يحدثا رجفه في عزيمته ، فيفقد الثقة فى النصر . ومن فقد الثقة فقد مزية الطمأنينة والثبات .

وبفضل قوة الكلمة وعمق تأثيرها فى عزائم أنصاره فإن خالدًا كان يذكى قوة

إيمانهم وسمو طموحهم ، فكان يتوجه بالعظات قبل القتال وأثنائه ، ولا يغيب عنه وهو فى معترك القتال حيث يضرب ويطعن ويوجه ويراقب أن يتنقل بين صفوف رجاله لاستثارة عزائمهم وليشجعهم على الاقتحام والالتحام والمصاولة ، وأثناء تحركاته تلك كانت تصدر منه الكلمة بعد الكلمة وكأنها ضرب من القتال ، ومن كلماته المألوفة عند القتال : « إن الصبر عز . وإن الفشل عجز ، وإن الصبر مع النصر » . وإلى جانب هذا كان يحرص على إثارة المنافسات بين جنده فيدعوهم إلى التنافس لتجديد الحيوية فى عزائمهم فضلاً عن عزيمة حب الفخار المنبثقة عن الإيمان الذى يعمر القلوب .

وكانت الغيرة على العرض المدد القوى الذى استنهض به خالد حمية الجهاد فى نفوس رجاله وهم مقبلون على الموت ،ولهذا ـ وفى هذا الجو الإيمانى المشحون بإرادة القتال ـ كان الرجل الفرد يقوم فى قتاله بما لا يقدر عليه عشرات .

والحق أن القوة الأدبية التى تميز بها خالد بن الوليد كانت السيف الذى روع به المستبدين والطغاة الجبابرة الذين رفعتهم جيوشهم إلى مقام الأرباب بينما رعاياهم فى حكم قطعان الماشية حسبها أن تُساق إلى القتل لا القتال فإذا أصابتها الهزيمة أصابها الخوف بعد أن فقدت الثقة فى قائدها ، آنئذ يكون الفرار هو خير انتصار .

ومن مزايا العسكرية العربية التى استمدها خالد من فطرة أهله فى تاريخهم الطويل مع القتال والنضال أنه ـ وقد أشرنا إلى هذا من قبل ـ كان هو الذى يخلق فنون الحرب التى يقتضيها الموقف العسكرى ، وإنها لميزة من الميزات العسكرية العليا . جاء فى كتاب : « فن الحرب(١) اليوم » : عند بحث هذه المسألة ينبغى أن نحضر فى أذهاننا أنه مع استثناء قليل لم يكن ثمة إلا نوعان من السلاح سيطر على حومة القتال وهما السلاح المقذوف والسلاح الضارب أو القارع ، أى النبل أو السهم أو الرصاصة من جانب والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر .

---

(١) كتاب : « فن الحرب اليوم » War Fare Today ، تأليف : الأميرال باكون ، والجنرال ملر ، ومارشال الطيران باتريك بلا يفير

ومجمل ما يقال بعد هذا أن الصف هو أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف وأن الكردوس أنسب الأوضاع لتطور السلاح الضارب ، لأن الرماة بالقذائف يحتاجون إلى مدى مكشوف ، وإنما يتأتى الضرب فى العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات » .

وما كانت هذه المعلومات لتصل إلى خالد بن الوليد ولكنها لم تغب عن قريحته الملهمة ، فكان يقاتل فى الصفوف إذا كان فى الصفوف الوفاء بالمطلوب ، وعلى هذا النهج كان يقاتل بالكراديس إذا كانت الكراديس هى الألزم فى القتال ، وفى هذه النقطة يستطرد الكاتب فيقول : « يتضح مما تقدم أنه فى حملات السلاح الضارب هناك أمران ضروريان وهما : الاستطلاع وكتمان الحركات والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو ، ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك وتوقع الهجمية من أى موضع تكون » .

ثم يصف المؤلفون عملية الاستطلاع وفق ما هو قائم فى عصرنا فيقولون : «وعلى هذا يجرى الاستطلاع من الهواء قبل الحركات الأولى وفى خلالها وتتقدم الكراديس أثناء ذلك على نظام المعركة ، أى على النظام الذى تتألف منه حين تدعى إلى الهجوم » .

وكان خالد على هذه السليقة عند الاستطلاع وكذلك وهو فى مسيره وهو على : « التعبئة الكاملة » ، التى كان يهجم بها عند الصدام مع العدو ثم يلتحم به ساعة يجب الالتحام ، ثم هو لا يطيل فى موقف التقاذف بالنبال والسهام لأن الالتحام هو الأجدى .

وجاء أيضًا فى كتاب : « الأسلحة وفنون التعبئة [1]» : « إن سرعة الحركة وقوة الإصابة وتدبير الوقاية هى الآن كما كانت فى كل زمان بعض مفاتيح النصر

(١) كتاب : « Weapons and Tactics » الأسلحة وفنون التعبئة » تأليف : ونترنجهام Wintringham .

التى لا شك فيها ، فإذا كسبت المعارك أحيانًا بالمفاجأة أو التركيز فى الموضع الحاسم وفى الوقت اللازم أو المناورة البارعة ، فهذه المزايا إنما تستمد مباشرة من التفوق فى سرعة الحركة أو فى قوة الإصابة أو فى تدبير الوقاية » .

وخالد بن الوليد لم يلجأ فى تعبئته لجيوشه إلى هذا الأسلوب من التقسيم حين يتأكد من سرعة الحركة باقتحام الصحراء الرعيبة ويتأكد من وقوع المفاجأة بهذا الاقتحام ، كما أنه كان يثق بالسلامة عندما كان يحارب وظهره إلى الصحراء أو كان ينطلق وراء جيش لحقت به الهزيمة فهو متخاذل قد أفقدته الهزيمة تماسكه فهو فلول متدابرة .

ولخبير الحرب « ليدل هارت » كتاب بعنوان : « فن سوق الجيوش(١) » استخدم فيه أسلوب التورية ، قال فيه : « إن التحرك فى الوجهة المتوقعة يحفظ توازن العدو ، ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة . وفى الحرب ـ كما فى المصارعة ـ إنما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل بتوازنه باستنفاد قوتك أنت استنفادًا لا يناسب الجهد الذى يلقاه خصمك . ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة إلا بفضل الرجحان الكبير فى قوتك على نحو من الأنحاء . وقد يضعف الحسم فى النتيجة مع ذاك ، وعلى نقيض هذا ينبئنا التاريخ العسكرى فى جميع العصور لا فى عصر واحد أن جميع الحروب الحاسمة على التقريب أن. الإخلال بتوازن العدو نفسيًّا وماديًّا هو المقدمة التى لا محيض عنها للقضاء عليه» .

ولقد كانت عملية الإخلال بتوازن العدو هو أحرص ما يحرص عليه خالد بن الوليد فكان يهجم من جهتين أو ثلاث جهات ، أو يفاجئ عدوه من حيث لا يحتسب ، أو يهجم بكمين يصيبه باليأس الذى يفقده صوابه ، أو يحاصره بحيث لا يمكنه التخلص من الحصار ، ولكل هذه الأساليب الكفاية فى أن تزلزل الأقدام

---

(١) كتاب : The strtegy Of Indirect Apprach تأليف : Liddel Hart ليدل هارت .

وتربك التوازن ، ولكن العبرة ليست فى الزلزلة أو الإرباك فكم حدث ذلك فى السلم والحرب منذ أقدم العصور ، إنها أى العبرة تتمثل فى معرفة الوقت ومعرفة التنفيذ . فإذا عرفنا هذه الأسس الثلاثة فقد عرفنا الخصائص التى يجب أن تتجلى فى القواد الملهمين .

وهذا آرثر برنى Arthur Birnie فى كتابه : « فن الحرب » The Art Of War ، يعقب على الحروب التى دارت بين الفرس واليونان ؛ فيقول : « كانت قوة الفرس جنوداً قائمة على الخيالة والرماة وكانت طريقتهم فى القتال أن يمطروا العدو سهاماً ثم يجترفوه بحملة من الفرسان فى الوقت اللازم ، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين ، وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين، وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين . لكنها خابت مع اليونان وكانت التبعة فى خيبتها على ضعف فرق المشاة الفارسية ، فإذا ما استطاع الجند الإغريق أن يقتربوا ـ وكل شىء يتوقف على هذا ـ تناولوا المشاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة » .

ولو أخذنا هذا التقويم معياراً لنا لكان علينا أن نقول إن الذى أفشل أسلوب الفرس مع اليونان هو الذى أفشلها مع العرب من أيام ذى قار إلى أيام خالد بن الوليد ، لقد كان هجومه عن قرب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الحصن الذى رد عن قواته طلقات الرماة وطعنات الفرسان وطرقات الفيلة فى بعض المعارك.

ومما كان يؤمن به خالد أصدق إيمان وأرسخه أن الالتحام بالعدو وأجدى وأنفع صنوف القتال للجندى الذى يدافع عن عقيدة فيكون سلاحه هو السلاح الخفيف ، وهكذا جاء قتال خالد مع الفرس والروم على أسلوب الالتحام فكانت انتصاراته العظيمة . وهذا ما انتهى إليه تصور « ونترنجهام » فى كتابه : الأسلحة وفنون التعبئة » ، وهو الذى ذكرناه من قبل ، فما قاله : « إن بعض الجماعات الإنسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التى يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب إلى السماء فإنها تنتظم على سنن فحواها أن التغيير لا ينبغى

وأن العادات المأثورة كلها حسنة قويمة ، وأن كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما عمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعض الأمم التى هى أقرب إلى التقدم بفترة من فترات الراحة تستبقى فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم . فإذا برزت جماعات من هذا القبيل للقتال برزت وفى رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها أصول على الإطلاق ، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقًا للترتيب الذى وضع منذ عهد بعيد، وأن هذه الجماعات لتخرج جيوشًا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التى يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارئ » .

ولو أنصف ونترنجهام لضم الدولة الرومانية إلى الزمرة الآسيوية ، لأنها ، أى الدولة الرومانية ، كانت عاكفة على الأساليب القتالية التى ورثتها منذ قرون . ومن هنا تحقق فشلها فى اتباع القديم وفشلها فى ابتكار الجديد الصالح ، وهكذا بفضل العقيدة وبفضل الخبرة الشاملة والقدرة على الابتكار كان خالد يباغت عدوه وهو فى حومة القتال .

ولا نستطيع أن نغادر موقعنا هذا بغير أن نسجل خاصة تميزت بها القيادة العسكرية العربية ، فالقائد الملهم ليس عليه أن يستلهم قريحته وحدها ويصد بصيرته عن تقبل رأى الآخرين ، إنما عليه أن يستمع إلى النصيحة استماع الاحترام والتقدير والإفادة ، وهذا ما صنعه خالد بن الوليد عندما نصحه أبو بكر وهو ذاهب لقتال المرتدين ؛ فقال له : « عليك بتقوى الله وإيثاره على سواه . والجهاد فى سبيله و الرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ أهل السابقة من المهاجرين والأنصار ، فشاورهم فيما نزل بكم ثم لا تخالفهم . فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدًا من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة واستظهر بالزاد، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب الحياة . ولا تقاتل بمجروح فإن

بعضه ليس منه . واحترس من البيات فإن فى العرب عزة . وأقلل من الكلام ، وأقبل من الناس علانيتهم وكِلْهم إلى الله فى سريرتهم ، وإذا أتيت داراً فأقحم فإن سمعت أذانًا أو رأيت مصليًّا أمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة فإن لم تسمع أذانًا ولم تر مصليًا شبن الغارة فاقتل واحرق كل من ترك واحدة من الخمس . وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا عليك ، ولا لك متربصُ السوء ينظر لمن تكون الدائرة فيميل مع من تكون له الغلبة، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة . فاستعن بالله على قتالهم فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة . سر على بركة الله » .

كلمة قائد عام خبير بالحروب . بصير بعوامل الغلبة والنصر . قدير على استلهام الصواب . وإنها لبديهة العسكرية العربية فى تاريخها المجيد .

التحركات الميدانية :

التحركات الميدانية محددة وموصوفة بأشكالها التى لا نخطئها فى أية حرب من الحروب وهو ما يلزم المقاتلين أن يديروا عملياتهم عليها فى ضوء ما قد يستجد من مواقف قتالية وكذلك ما يستجد من أسلحة حديثة . وحتى يكون للقتال نتائجه المرجوة فيحقق أهدافه التى حددها القرآن الكريم فإن على جيش الأمة أن يتقى الآفات المدمرة التى إن تسربت إلى نفوس المقاتلين كانت كفيلة بتدميرهم حتى إن كانوا قد اقتربوا من تحقيق النصر .

من هذه الآفات « الخيانة » ، وهى أخطر ما قد تصاب به الجيوش بل أخطر ما تصاب به جماعة من الجماعات . وهذا ما حذر منه القرآن الكريم فقال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال:٢٧] . ومن هنا فإنه يجب كشف الخيانة وإقصائها بغير تلبث أو هوادة ؛ فقال سبحانه : ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا**

يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] . ومن هذه الآفات « النفاق » ، والنفاق وهو إثارة الشك والإرجاف بالباطل له فاعليته من حيث القدرة القتالية وإمكانية الصمود ، وعلى هذا فالنفاق يثير الشك المقنط المؤيس فى نفوس المقاتلين .

إذن فالمنافقون هم من أصحاب الأبواق المشككة لهدف مقصود ، وهذا ما أبانه القرآن الكريم من حيث طبيعة النفاق وخطره على المقاتلين ، فقال سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧] .

ويأتينا القرآن الكريم بالحقيقة النفسية والأخلاقية للمنافقين فيجسدهم أمامنا خطرًا داهمًا لا على المجتمع والأمة فحسب بل على القوة العسكرية للمسلمين ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٢ ـ ١٤٣] .

لذا فإن على القيادة العامة للجيش ألا تقف من المنافقين موقف المهادنة أو المسالمة ، إنما يكون اعتزالهم وعزلهم هو أول خطوة عقابية لهم ؛ فقال سبحانه : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٠ ، ٦١] . إذن فإنه لشأن منطقى أن يكون المنافقون والكافرون سواء ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠] .

وإنه لمن الخطر الكبير أن يدب بين القادة تنازع يتعلق بخطة القتال وما تفرضه من تحركات فيجب أن تسود المشورة بين القادة وأن يكون للقائد الأعلى الرأى الحاسم فقال سبحانه موضحًا وهاديًا : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

وبعد هذه الاحتراسات والوقايات التى قصد منها تصفية إرادة القتال من كل ما يفسد أو يعوق ويعطل عن أن يكون الفكر والوجدان بل الإيمان مشغولاً بغير الإعداد لعمليات القتال ، فإن القرآن الكريم يصفى إيمان المجاهد بأية نبضة من نبضات حب الدنيا والانشغال بهمومها ، وإنما يكون عمله الانشغال بتكاليف النضال الخالص لوجه الله والإسلام ؛ فقال جل شأنه مخاطبًا المجاهدين ومذكرًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨] .

ومما نلاحظه أن لفظة « النفير » فى لغويتها تعنى الاندفاع الشديد للانتصار الحق واستنقاذه والذود عنه وكأنها ـ أى اللفظة ـ تحمل فى ذاتها لباب الجهاد فى شدته وقوة بأسه ، ومن هنا جاءت بالحسم الذى لا تردد فيه ولا تلبث . فكان أن جاء بها القرآن الكريم مهددًا ومتوعدًا باسم الجهاد فى سبيل الله فقال سبحانه : ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩] .

ثم ننتقل بعد التصفية والاستصفاء إلى التحركات الميدانية ، فيأتى القرآن الكريم بأحد التحركات الرئيسية ؛ فقال سبحانه : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١] . ونجد أن هذه الآية الكريمة جاءت على نسق من التواتر كتواتر الحركات الميدانية وذلك على ثلاث مراحل متكاملة .

فالأولى : « **انفروا خفافًا وثقالاً** » وهى تصور الحركة القتالية ذاتها ، فالخفاف تعنى فيما تعنى مجموعات صغيرة من المقاتلين معهم سلاح له فاعليته المؤثرة ويمكنهم من التنقل فى حركات سريعة . أما كلمة : « **ثقالاً** » فهى تعنى فيما تعنى القوات الضخمة المتسلحة بالسلاح الثقيل . وهذان الطرفان : « الخفاف والثقال » هما عنصر كل التحركات الميدانية . ثم تأتى جملة: « **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم** » لتؤكد أن الجهاد لا يكتب له نصر بغير الجهاد بالأموال والأنفس ،

وكذلك لا يكتب له صمود بغير الجهاد بالأموال والأنفس . وفى مجال التحركات الميدانية يؤكد القرآن الكريم أن على المسلمين إذا واجهوا زحف العدو عليهم ، ودلالة كلمة زحف هنا أنها صفوف كثيرة وكثيفة ـ فإن على المسلمين ألا يولوا العدو الأدبار ، إن عليهم أن يصطنعوا موقعًا آخر حتى يكونوا منه قادرين على أن يصوبوا الضربات المدمرة للعدو . فإذا لم يكن تغيير الموقع مجديًا فإن من الممكن أن تتحيز مجموعة من القوات إلى المجموعة ـ أو الموقع ـ الذى يكون فى حاجة إلى العون الدائم .

هذان الموقفان هما من التحركات الرئيسية فى الميدان التى يجب على المجاهدين ألا يتحولوا عنهما ، ومن ثم فغير مسموح لهم أن يفروا أو يتراجعوا ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[الأنفال: ١٥ ، ١٦] .

وعلينا هنا أن نفرق بين الإدبار والتراجع : فالإدبار مغادرة الميدان هربًا وخوفًا وهلعًا ، أما التراجع فهو اتخاذ خطوات سريعة ومحسوبة إلى الوراء وذلك لإعادة تنظيم القوات والمواقع ونوعية التسليح ، وأيضًا لإعادة النظر فى الخارطة الميدانية. والمثل التاريخى للتراجع الذى تحفظه لنا العسكرية الإسلامية دلالة على الحنكة القيادية وسرعة البديهة هو التراجع الذى صنعه خالد بن الوليد فى غزوة مؤتة . فعندما واجه المسلمون جيش الرومان كان الجيش الرومانى فى كثافة هائلة ليس فى مقدور الجيش المسلم أن يصمد أمامه فقد قتل حاملو الراية الإسلامية واحدًا بعد الآخر : قتل زيد بن حارثة ، وقتل عبد الله بن رواحة ، وقتل جعفر بن أبى طالب . فلما تسلم خالد بن الوليد الراية أخذ يتراجع متظاهرًا بالهجوم وكأن قد وصله المدد ، وبهذه الحركة استطاع أن ينقذ جيشه ، وقد أقره رسول الله ﷺ التولى يوم الزخف من السبع الموبقات ، أى المهلكات التى تهلك صاحبها فى النار؛ فقال عليه السلام : « **اجتنبوا السبع الموبقات** » ، قالوا ما هن يا رسول الله؟

قال : « **الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** » رواه أبو هريرة وهو متفق عليه .

إذن فالتراجع لابد أن يكون على نظام وإلا انقلب إلى مذبحة ربما كانت أبشع من الفرار ، إلا أنه يمكن إلى جانب هذه الصورة العامة للتراجع وضرورته ، ومخاطره أن نضمن عدة أسباب هى على جانب كبير من الخطورة ، من هذه الأسباب أن قد يكون عند العدو سلاح أشد فاعلية وأوسع تدميراً سبب آخر هو أن يكون جيش العدو أكثر عدداً ، سبب ثالث ، ولعله أخطرها ، هو أن يكون بين القوات المقاتلة خلايا مستترة تزين التراجع وعدم الاشتباك لأنه لا فائدة ترجى من وراء تلك الحرب وكأن تلك الخلايا تعمل لحساب العدو . وهذا ما أشار إليه ابن قدامة الحنبلى فى كتابه : « المغنى » فقال ناصحًا : « ولا يستصحب الأمير (أى أمير الجند) معه مخذولاً وهو الذى يثبط الناس من الغزو ويزهدهم فى الخروج إليه والقتال ، ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار وإطلاعهم جواسيسهم، ولا من يوقع العداوة بين المسلمين . ولقد نبه القرآن الكريم إلى خطورة أولئك المتآمرين على تحركات الجيش وهو مشغول بمعاركه ، فقال سبحانه: ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ [التوبة : ٤٧] .

وتتمثل فى عصرنا هذا أخطر التحركات الميدانية التى لا يمكن أن تنقضى ، ألا وهى حركة المرابطة بالقوات المتنوعة الأسلحة والمخطط لتحركها إذا وقع أى اعتداء . وإنها لحركة الرباط . أى القيام على حراسة الحدود .

والرباط يوجب اليقظة التامة التى لا تغفل عن تحركات العدو وهو قريب على الحدود ، فعلى رباط المسلمين أن يراقب جيش العدو من حيث نظامه فى مواقعه المنتشرة وعدد قوات كل موقع ونوعية تسليحه ، وما يمكن أن يُزود به قواته إذا نشب قتال .

ولذلك كانت مرابطة القوات على الحدود من أخطر المهام العسكرية فضلاً عن أنها تكون على أهبة القتال فى أية لحظة ، وهذا ما صنعته العسكرية الإسلامية قبل أن تعرفه العسكرية الحديثة اليوم فيما تقوم به من عقد تحالفات عسكرية أو تكتلات عسكرية متعادية فالغرب كان له تكتله بزعامة أمريكا والشرق له تكتله بزعامة روسيا ، وكان الكل لا يأمن الكل والجميع يسلح حدوده بأحدث وأخطر الأسلحة .

وللرباط ثلاثة مواقع له فيها الحركة الميدانية الملزمة :

الموقع الأول : الحراسة الشديدة بحيث لا تكون هناك ثمة ثغرة ينفذ منها العدو إلى الديار الإسلامية كما قال الإمام على رضى الله عنه : « **ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا** » .

الموقع الثانى : إرهاب العدو وجعله فى حالة خوف ووجل إذ يكون على علم بأن للمرابطة جيشًا قادرًا على حماية أرض الإسلام .

الموقع الثالث : أن الاستعداد للقتال يكون مستمرًا من حيث التواجد وفى نفس الوقت يكون مصحوبًا بالمران والتدبير والاستعداد والتجهيز .

ولقد عرف السرخسى المرابطة وما فى حكمها بقوله : « المرابطة لإعزاز الدين ودفع شر المشركين عن المسلمين . وأصل الكلمة من ربط الخيل ، قال تعالى : ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، فالمسلم يربط خيله حيث يسكن من الثغر ليرهب العدو ، وكذلك يفعل عدوه ، ولهذا سمى مرابطة ؛ لأن ميزان المفاعلة مما يجرى من اثنين غالبًا ، ومنه سمى الرباط رباط للموضع المبنى من المغاوز يسكنه الناس ليأمن المارة بهم من شر اللصوص » .

وللأهمية القصوى للقوات المرابطة فإن رسول الله ﷺ بوأها مكانتها مبينًا خطرها :

فعن سهل رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **رباط يوم فى سبيل الله خير**

من الدنيا وما عليها ، وقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » (متفق عليه).

وروى الترمذى والنسائى عن رسول الله ﷺ : « رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » .

وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « كل الميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة » .

وفى حديث أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « إن صلاة المرابط تعدل خمسمائة صلاة ، ونفقة الدرهم والدينار منه أفضل من سبعمائة دينار ينفقها فى غيرها » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » رواه الترمذى والنسائى بسند حسن.

وقال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من ليلة القدر ؟ حارس حرس فى أرض خوف لعله ألاَّ يرجع إلى أهله . ومن بات ليلة حارسًا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صلى وصام » .

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من رابط ليلة فى سبيل الله سبحانه وتعالى كانت كألف ليلة صيامها وقيامها » رواه ابن ماجه.

وروى عن سلمان الفارسى أن رسول الله ﷺ قال : « من رابط يومًا في سبيل الله كان له كصيام شهر وقيامه » .

وعن مكحول أن رسول الله ﷺ قال : « لرباط يوم فى سبيل الله تعالى صابراً محتسبًا من وراء عورة المسلمين فى غير شهر رمضان أفضل من عبادة مائة سنة

صيام نهارها وقيام ليلها ، ومن قتل مجاهداً أو مات مرابطًا فحرام على الأرض أن تأكل لحمه » .

وقال ﷺ : « **خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها** » .

ألا إن مدار التحركات الميدانية كلها جاءت مجسدة بكل أشكالها وأوقاتها التى تُلْزِم بها فى قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ [الصف: ٤] .

• • •

من مقومات سياسة الجهاد

فى تقديرنا أن لسياسة الجهاد مقومات أربعة هى :

١ ـ المشاورة .

٢ ـ الأسرار العسكرية .

٣ ـ الاستعانة بغير المسلمين .

٤ ـ الخيلاء فى الحرب .

المشاورة :

والمشاورة من ألزم اللوازم عند تكوين جيش أو إعادة تنظيمه واختيار العنصر البشرى الصالح لكل سلاح ، وتلك عمليات تحتاج إلى المشورة الصادقة وأن يعرض من يشير أقصى ما عنده من صواب الرأى ومحكم التدبير ، وتمتد المشاورة إلى تحديد المواقع الأمامية لكل سلاح والمواقع الخلفية فى تنظيمها القتالى ، وسبل الإمداد والتموين وفرض الاحتمالات الصعبة التى يمكن أن يقوم بها العدو . وأيضًا فى التحركات الميدانية العامة والخاصة على القادة أن يستشير بعضهم بعضًا وأن يلتزم الجميع برأى القائد العام أو الأعلى أو الخاص لفرقة من الفرق على أن هذا لا يمنع القائد من أن ينزل عند رأى هيئة « أركان الحرب » فلا يستبدن برأيه على طول الخط ، ومن هنا فإن المشورة واجبة ، وهذا ما أوجبه وأكده القرآن الكريم فقال جل شأنه مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾[آل عمران:١٥٩] .

لقد كان رسول الله ﷺ خير من استشار وخير من دعا إلى المشورة ، فكان صلوات الله عليه يستشير أصحابه فى أمور شتى لا سيما ما تعلق منها بشئون الجهاد والحرب ، وكثيرًا ما كان يصطنع رأيهم فى المعارك التى دارت بينه وبين المشركين ، فقد استشارهم يوم « بدر » ، فقد خرج لمواجهة أبى سفيان وتجارته وهو فى حراسة ثلاثين أو أربعين رجلاً . وعندما وصلت الرسول ﷺ الأخبار بأن قريشًا خرجت بجموعها لتصد المسلمين عن تجارتها ولو اضطرت إلى أن تقاتل .

وجد أن عليه أن يستشير ، فاستشار رجاله وأوضح لهم حقيقة الموقف . ولم يتخذ قراره إلا بعد أن أقر المهاجرون والأنصار خطته وعزموا على تنفيذها وتنفيذ ما قد يشير به أثناء سير القتال .

وهنا نقدم صورتين لما كان عليه أسلوبه عليه السلام فى التشاور :

الأولى فى بدر: فعندما اقترب المسلمون من ماء بدر نزل رسول الله ﷺ وكان الحباب بن المنذر بن الجموح يعرف المكان جيداً . ولذلك فإنه ما إن نزل رسول الله ﷺ فى مكانه حتى قال له : « يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزلاً أنزلكه لك الله فليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال الرسول ﷺ : « **بل هو الرأى والحرب والمكيدة** » . فقال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزل ثم تغور ما وراءه من القلب (جمع قليب وهو البئر) ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماء ثم نقاتل فنشرب ولا يشربون » . وهنا أدرك الرسول صواب رأى الحباب فعمل ورجاله بما أشار به ، عندئذٍ نبه الرسول قومه إلى أنه بشر مثلهم وأن الرأى شورى بينهم . ولما أتموا بناء الحوض أشار سعد بن مُعاذ قائلاً : يا نبى الله نبنى لك عريشًا تكون فيه ونُعِد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن أشد لك حبًّا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » . ثم كان النصر لرسوله وللمؤمنين .

والصورة الثانية فى أحد :فقد أخذ الرسول ﷺ بمشورة « الأغلبية » التى رأت ضرورة الخروج لقتال قريش ومن معها ، ففى صبيحة ذلك اليوم اجتمع النبى بوجوه القوم من مخلصين ومنافقين لمناقشة الخطة التى تمكنهم من مواجهة عدو الإسلام ، وكان من رأى النبى أن يعتصم المسلمون بالمدينة ، فإذا حاولت قريش اقتحامها تيسر لأهلها الدفاع عنها والتغلب على المهاجمين .

وكان عبد الله ابن سلول على رأى النبى وقال : « لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصى ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية فإذا أقبل العدو ورمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسيافنا فى السكك ، إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فضت علينا قط ، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا ، فدعهم يا رسول الله ، وأطعنى فى هذا الأمر ، فإنى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم » .

وكان كبار أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار يتفقون مع ابن أبى فى رأيه الذى كان هو رأى النبى كما أشرنا ، غير أن الحماسة أخذت بنفوس الفتيان الذين لم يشهدوا بدراً ، والذين شهدوها وغنموا النصر العظيم ، فرأوا جميعًا أن لابد من التصدى لذلك العدو ومواجهته ، هذا فضلاً عن أنهم خشوا أن يتهموا بالجبن والتردد ، وقد قال أحدهم : « إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآكامها فتكون هذه مجرأة لقريش وها هم هؤلاء قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نذب عن عرضنا (كل واد فيه زرع) لم يزرع وإن قريشًا قد مكثت حولها تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاؤونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل ، حتى نزلوا بساحتنا أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يُكْلموا ، لو فعلنا لازدادوا جرأة ولشنوا الغارات ، وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون، والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا » . وتلا ذلك كلمات المؤيدين للخروج فإما النصر وإما الجنة ، واهتزت القلوب لحديث الاستشهاد . قال خيثمة أبو سعد بن خيثمة : «عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة ، لقد أخطأتنى وقعة بدر وكنت عليها حريصًا حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول : « الْحق بنا ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا » .

وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى، ورق عظمى ، وأحببت لقاء ربى » .

وعندما أصبح الرأى الغالب للقائلين بالخروج قال النبى ﷺ وكأنه يقرأ الغيب : « **إنى أخاف عليكم الهزيمة** » .

ومع تحذيره أصروا على موقفهم وإن كان بعضهم قد راجع نفسه ، ولم يملك رسول الله ﷺ إلا أن ينزل على رأى الأغلبية .

تلك هى شريعة القرآن وسنة رسول الله ﷺ فى الشورى وصدق أبو هريرة رضى الله عنه حين قال : « **ما رأيت أحدًا قط كان أكثر مشورة من رسول الله ﷺ** » .

الأسرار العسكرية :

يصح لنا أن نقول : إن كل ما يتصل بالعسكرية له درجة من السرية لا يجب إشاعتها أو الخوص فيها . وتتركز الأسرار العليا لدى جيش من الجيوش فى عدد فرقه ونوعية تسليحها وخططه الميدانية واحتمالات ما قد تتطور إليه .

تلك تنظيمات عسكرية لها خطورتها التى يخشى عليها من التسرب ، ولهذا كان من الضرورى الحفاظ على الأسرار التى تنطوى عليها فلا يخوض فيها خائض ولا يتداولها متداول ولو على سبيل التعالم بالاطلاع على بواطن الأمور ، وهذا ما يحتم علينا ألا نساير الشائعات فنروج مع المروجين ، لأن عدو الأمة العربية والإسلام يتنسم أخبارنا العسكرية مهما كانت صغيرة قليلة القيمة لأن بإمكانه أن يفيد منها دلالات عسكرية تفيده .

ولقد كان رسول الله ﷺ يعطينا الحكمة البالغة للوعى العسكرى فى أثناء استعداد المسلمين للحرب أو وهم يخوضون المعارك .

فعن كعب بن مالك عن النبى ﷺ أنه كان إذا أراد غزوة ورَّى (سترها بغيرها) ؛ ولذلك كان عليه السلام إذا اعتزم القيام بغزوة لم يبدها لأحد حتى

لأصحابه واستبدلها بغيرها ، فكان عندما يهم بالاتجاه إلى ناحية معينة سأل عن ناحية أخرى وكأنه يقصد التوجه إليها ، ولم يختلف الأمر إلا فى غزوة تبوك ، فإنه أعلن عن وجهته الفعلية ؛ لأنها كانت بعيدة ولأن المسلمين كانوا يعانون حالة من العسر وذلك حتى يوطنوا أنفسهم على مشاق رحلتهم فيتخذوا عدتهم من المؤن والسلاح ما يكفيهم .

ولخطورة الأسرار على مصير عمليات القتال وسلامة الجبهة الإسلامية فإن الإسلام نهى عن إذاعة الأسرار الحربية ، وكذلك عن أن يخوض عامة الناس فى شئون الحرب وخطط المعارك ؛ لأن فى هذا الخوض ما يعطلهم عن أعمالهم وهى مما لا تستغنى عنه القوات المسلحة ، وفضلاً عن هذا فإنهم يتيحون الكثير من الفرص لجواسيس العدو الذى لا يمتنع أن يكون مندسًا بينهم وهم لا يشعرون . وهؤلاء العامة ومن على شاكلتهم هم الذين عناهم القرآن الكريم بقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ [النساء: ٨٣] .

أى إذا بلغهم خبر من أخبار سرية غازية أو جاءهم أمر من أمور الأمن أو الخوف سواء من ناحية السرايا التى تخرج إلى الحرب أو من ناحية تشكيل قيادات الفرق أذاعوا به أى بثوه فى الناس ولهجوا بكل وسيلة بترويجه وإشاعته ، ويتفق مع ذلك أن ينقل عامة الناس أخباراً زائفة زيفتها عليهم وسائل إعلام العدو فيتوهمون أن العدو قادر على إنزال الهزيمة بقواتهم .

قال الشيخ محمد عبده فى الذين يرجفون بأخبار الحرب : « إن هؤلاء الذين يبثون أخبار الأمن والخوف هم من الطيش بحيث يستفزعهم كل خبر عن العدو يصل إليهم فتنطلق ألسنتهم بالكلام فيه وإذاعته بين الناس » . وما كان ينبغى أن تشيع فى العامة أخبار الحرب وأسرارها ؛ قال تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] . إذن فالأسرار العسكرية تقابل بالتكتم وعدم الخوض فيها ، وهذا معناه أن يكون للقوات المسلحة هيئة خاصة يكون من شأنها إخفاء الأسرار العسكرية بوسائل التمويه والمخادعة ، وفى

نفس الوقت تبدد المغالطات التى يروجها العدو عن نفسه وعن قدرة قواتنا على التصدى له وإنزال الهزيمة به . .

إن معنى الآية القرآنية فى السياق الذى جاءت عليه أن لو أرجع الخائفون الأمر الذى خاضوا فيه وأذاعوه إلى الرسول وإلى الأمر منهم وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة فى سياستها وإدارة مصالحها لكان ذلك هو الصواب الذى يوقف على الحقيقة وتتصل الأسرار العسكرية اتصالا طبيعيًّا بالجاسوسية كي يتم الحفاظ على الأسرار والحرص على حمايتها من الإفشاء ، ولذا فإنها من المهام الرئيسية التى تعتمد عليها الجيوش فى معرفتها بالمعلومات التى تحتاجها عن عدوها، وعلى هذا فالجاسوسية عمل يحتاج إلى تدريب طويل وشاق كما تحتاج إلى الذكاء والفطنة والدهاء ورباطة الجأش .

لكن أليست عمليات الجاسوسية عمليات من الكذب المحكم والمتواصل ؟ بلى هو كذلك ، فالجاسوس فى المصطلح شخص صناعته « فن الكذب » إن أجيز هذا التعبير ، ولكنه كذب لا مباح فحسب ، بل إنه ضرورة من ضروريات الحرب. وهذا هو الكذب الذى أحله - بل أوجبه - الرسول ﷺ وحث عليه.

فعن أم كلثوم بنت عطية قالت : « لم أسمع النبى ﷺ يرخص فى شىء من الكذب كما تقوله الناس إلا فى الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل إلى امرأته وحديث المرأة إلى زوجها » . (رواه أحمد ومسلم وأبو داود) .

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : «**يا أيها الناس ، ما يحملكم أن تتابعوا على الكذب كتتابع الفراش فى النار : الكذب كله عن ابن آدم حرام إلا فى ثلاث خصال : رجل كذب على امرأته يرضيها ، ورجل كذب فى الحرب ، فإن الحرب خدعة ، ورجل كذب بين المسلمَيْن ليصلح بينهما** » رواه الترمذى .

وقال الطبرانى فى الأوسط : « **الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلم أو دفع به**

عن دين» . . وقال ابن العربى : « الكذب فى الحرب من المستثنى الجائز بالنص رفقًا بالمسلمين لحاجتهم إليه وليس للعقل فيه مجال » .

ويتصل بالأسرار والجاسوسية «كلمة السر» . وهى الكلمة التى يتفق عليها قادة الجيش ليبدؤوا قتالهم عند سماعها أو عند إرسالها . . ويفنن القادة فى شكل هذه الكلمة ودلالتها ، فهى تتخذ للتمويه والخداع حتى لا يشعر العدو بهم لحظة انقضاضهم . واتخذت قوات المسلمين هذا النوع من «كلمة السر» فى حربهم مع المشركين ، فعن سلمة بن الأكوع وقال: « غزونا مع أبى بكر زمن رسول الله ﷺ فكان شعارنا : « أمت ، أمت » رواه أحمد وأبو داود ، وفى قوله : أمت ، أمت ، أمر النبى وفيه التفاؤل بموت الخصم » . وعن سمرة رضى الله عنه قال : «كان شعار المهاجرين عبد الله ، وشعار الأنصار : عبد الرحمن» . رواه أبو داود بسند صالح . وعن المهلب بن أبى صفرة ، رضى الله عنه ، قال : «أخبرنى من سمع النبى ﷺ بقوله : « **إن بيتم فليكن شعاركم : حم لا ينصرون** » ، أى إذا جاء العدو لقتالكم ليلا واختلطتم به فى الظلمة فليكن شعاركم : «حم» فإنهم لا ينصرون ، أو المراد : اللهم لا ينصرون . « وهو خبر لا دعاء » . رواه أصحاب السنن بسند صالح .

الاستعانة بغير المسلمين

استعانت جيوش الحضارات القديمة بالجنود الأجانب عنها أو ما كان يطلق عليه : « الجنود المرتزقة » وهم فى الغالب من الشعوب المجاورة لكل منها . فمثلاً دولة الفرس القديمة كان تستعين فى حروبها بجنود من الهند وبابل والشام مصر واليونان ، وكذلك كان العمل بالجنود المرتزقة فى الحضارة الرومانية ، وكذلك الدول الأوربية التى كانت تجند من الدول التى كانت حول كل منها أو فى دائرتها .

وهؤلاء المرتزقة كانوا يتقاضون أجورًا تختلف باختلاف المعارك التى يخوضونها ، وأحيانًا كانوا يساقون إلى المعارك سوقًا وحسبهم ما يتناولونه من

الطعام .

وبصفة عامة كان المرتزق ينزل إلى الميدان وهو أقرب ما يكون إلى أنه يدافع عن حياته هو ، ومن هنا كان من السهل أن تنزل الهزيمة بالمرتزقة أو يضحى بهم فى مذابح وقائية ، فهم أقرب إلى أن يكونوا درعًا يصد المعتدين حتى تحين المعركة الحاسمة .

وذلك كله بغير أن يكون للمرتزقة حق فى المغانم وإن كانوا أحيانًا يكافؤون بهبات سخية إغراء لهم واستدامة لتواجدهم ، أما الأسرى منهم فكانوا فى أغلب الأحوال يقتلون عن بكرة أبيهم إما انتقامًا وإما توفيرًا لنفقات إعاشتهم ، وكانوا أحيانًا يسترقون فيؤخذون عبيدًا أرقاء وذلك بلاء شديد .

أما فى الإسلام ورسالته في إخرج الناس من الظلمات إلى النور على سنة الرحمة والتراحم فإنه كان من الاستحالة أن يجند من ليسوا على الإسلام ؛ فلا يدينون به ولا يؤمنون إيمان الحب والاعتقاد والتسليم .

ومن ثم فقد وضعت قضية الاستعانة بغير المسلمين فى جيش المسلمين أمام الفقهاء فاختلفت آراؤهم وخلاصة أقوالهم أنه : « لا تصح الاستعانة بالمشركين اعتمادًا على ما روته عائشة رضي الله عنها فقد قالت : « خرج النبى ﷺ قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة (على بعد أربعة أميال من المدينة) أدركه رجل يذكر بالجرأة والنجدة ففرح به الأصحاب . فقال للنبى ﷺ : جئت لأتبعك وأصيب معك . فقال له : « **تؤمن بالله ورسوله** ». قال : لا ، قال : « **فارجع فلن أستعين بمشرك**» .

ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة (اسم موقع) أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة ، فرد عليه النبى ﷺ كالمرة الأولى ، ثم رجع فأدركنا البيداء (اسم موقع) فقال كالأول . قال له النبى ﷺ :« **تؤمن بالله ورسوله** ».

قال : نعم . فقال له: « **انطلق** » .

ومثله ما روى عن حبيب بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده ؛ قال : أتينا الرسول ﷺ وهو يريد غزوا ، أنا ورجل من قومى ، ولم نسلم ، فقلنا : إنا نستحيى أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده معهم ، فقال : « **أسلمتما ؟** » فقلنا : لا ، قال : « **إنا لا نستعين على المشركين بالمشركين** ». فأسلمنا وشهدنا معه .

وجاء رجل مقنع بالحديد فقال : يا رسول الله : أقاتل أو أسلم . فقال : أسلم .

ثم قاتل فقتل . فقال عليه الصلاة والسلام : «**عمل قليلا وأجر كثيراً** » .

هذا جانب القوات المسلحة التى تخوض المعارك فلا ينبغى الاستعانة فى القتال بمن ليسوا على الإسلام ولكن يمكن الاستعانة ببعض منهم فى التدريبات العسكرية مثلا أو بالإشراف على صناعة الأسلحة ، ولقد أجاز رسول الله ﷺ الاستعانة بالمشرك إذا كان حسن الرأى وفيه إخلاص. فقد استعان عليه السلام بصفوان بن أمية قبل إسلامه يوم حنين .

ويمكن أيضًا الاستعانة بأهل الكتاب (النصارى) كجنود من صميم الجيش فقد روى عن ذى خبر قال : سمعت رسول الله ﷺ : « **ستصالحون الروم صلحًا تغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم** » ، وقد رأى أبو حنيفة ألا خير من الاستعانة برجال من أهل الكتاب فى صفوف المسلمين ، أما الاستعانة بالمنافق والفاسق فقد حازت الموافقة الاجتماعية فقد كان عبد الله بن أبى ومن معه من المنافقين يشتركون فى القتال إلى جانب المسلمين كما كانوا يشاركون بالرأى .

ويتصل بإعداد الجيش وتنظيمه وتسليحه وتدريبه عمليات إقامة عروض عسكرية فى مناسبات وطنية وقومية وإسلامية لها جلالها ولها أثرها فى حياة المسلمين ، فالعروض العسكرية فى ذاتها نوع من الإدلال بالقوة ، بل يمكن أن يقال : إنها نوع من المفاخرة بالقوة واليقظة والبأس ، ومن هذا القبيل أن تقوم جيوش الأمة الإسلامية بإجراء مناورات كبيرة بين قواتها : ففى المناورات نوع من

التدريب حيث تستخلص منه نتائج عسكرية لها قيمتها العلمية والعملية فى الإعداد القتالى لمواجهة العدو وتحت أى احتمال .

الخيلاء فى الحرب :

صحيح أن القرآن الكريم قد نهى عن التفاخر والخيلاء فقال سبحانه : ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً**﴾[الإسراء: ٣٧] . وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[لقمان : ١٨] . وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً**﴾[النساء : ٣٦] .

لكن الخيلاء مستحبة فى الحرب فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال عن أبى دجانة يوم أحد لما رآه يختال عند القتال : « **إنها مشية يبغضها الله ورسوله إلا فى هذا الموطن** » . وعن جابر بن عتيك أن النبى ﷺ قال : « **إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما التى يبغض الله فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، وأما الغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة . وأما الخيلاء التى يحبها الله : فاختيال الرجل بنفسه عند القتال واختياله عند الصدقة ، والخيلاء التى يبغضها الله فاختيال الرجل فى الفخر والبغى** » رواه أحمد وأبو داود والنسائى .

❁ ❁ ❁

من آداب الجهاد

أولى آداب الجهاد فى تصورنا وتقديرنا أن الإسلام الحنيف يقول بكرامة الإنسان كما كرمه وذلك بناء على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠]

وبناء على هذه القاعدة الأصلية فما جاء الإسلام إلا رحمة للعالمين ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] . والرحمة لا تعرف انتقام الحقد والإبادة ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

والإسلام لا يعرف الحرب من أجل الحرب ولا الحرب من أجل المغانم والأسلاب فهو يطلبها أنى وجدها ويشكلها حسبما يشتهى . لكنما الحرب عند الإسلام لدفع العدوان والتحرر من نير العدو وأطماعه أو الهداية إلى سبيل الله ، فإذا تغلب على عدوه وقهره فإن كلمة السلام هى العليا ، من أجل هذا قال رسول الله ﷺ : « **لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، ولكن إذا لقيتموه فاصبروا** » .

فلا غرابة إذن حين تكون كلمة التسامح هى العليا . وهذا ما صنعه النبى ﷺ مع قريش عندما تغلبت كلمة الله عليهم فقد قال لهم عليه السلام : « **ما تظنون أنى فاعل بكم ؟** » « قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم » . **قال** : « **أقول ما قاله أخى يوسف لإخوته : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾** [يوسف : ٩٢] . **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » .

دين على مثل هذه القاعدة الإنسانية فى حربه وسلمه وتسامحه وغايته . ترى ماذا تكون آدابه فى جهاده ؟

نعرف آدابه من سياسته وهو يوجه قواته لقتال أعدائه والمتربصين به ، وذلك من سنة رسول الله ﷺ . فعن سليمان بن برية عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ

إذا أمّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال : « **اغزو باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر ، ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدًا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإذا أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم الذى يجرى على المسلمين ولا يكون لهم فى الفىء أو الغنيمة شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فسلهم الجزية وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذلك ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تقبل منهم ، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا** » رواه أحمد وابن ماجه والترمذى .

ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الشيخ والمرأة والطفل كما أمر بالإحسان إلى العمال والأجراء وأصحاب المهن . فقال عليه الصلاة والسلام وهو يودع جيشه : « **انطلقوا باسم الله وعلى بركة رسول الله ، لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلاً ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** » ونهى رسول الله ﷺ عن التمثيل بالجثث ؛ فقال عليه السلام: « **سيروا باسم الله وقاتلوا أعداء الله ولا تغلوا (أى لا تخونوا) ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الذرية** » .

وقال عليه السلام لخالد بن الوليد : « **لا تقتل ذرية ولا عسيفًا (أى أجيرًا)** » .

وبلغ رسول الله ﷺ أن أحد قواده قتل بعض الأطفال فوقف يقول لجنده : « **ما بال أقوام تجاوز بهم القتال حتى قتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية** » .

وبهذه الروح الإنسانية نهى رسول الله ﷺ عن تشويه الأجسام وأوجب على المسلمين دفن قتلى العدو وحتى لا يتركوهم نهبًا للوحوش فى الأرض أو وحوش الطير فى السماء .

فقد أوصى عليه السلام بوضع جثث قتلى بدر فى القليب (وهو بئر جاف) ، وكذلك نهى عليه السلام عن تعذيب الجرحى - والأسرى بل يجب مداواتهم أو مفاداتهم أو المن عليهم .

وعلى هذا المنهاج اقتدى أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ؛ فقال فى خطبته التي ودع بها أسامة بن زيد لغزو أرض الروم : أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم ، وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان من الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد الشيء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا ، اندفعوا باسم الله أقناكم الله بالطعن والطاعون » .

ولقد جاءت وصية الرسول ﷺ ، ومن بعده وصية أبى بكر ، وقد جاءت على هديها وفى ضوئها وهما تنهيان عن التخريب ، ولقد عقب الأوزاعى وكان من فقهاء الشام ومعاصرًا لأبى حنيفة والكرخى ، فقال : إنه لا يجوز التخريب ولا قطع الأشجار أخذًا بأمر الصديق لجنوده ؛ ولأن التخريب إفساد والله تعالى لا يحب المفسدين ؛ ولأنه لا ضرورة حربية تسوغ ذلك ، فإذا كان ثمة ضرورة حربية كأن يستتر العدو فى الآجام والغابات والحصون جاز . وأيضًا قال الكثيرون من الفقهاء : إنه لا يجوز قطع الأشجار وتخريب بناء العدو ، وذلك لأن النبى ﷺ أمر المؤمنين بأن يخربوا بيوت بنى النضير فكانوا يخربونها بأيديهم وأيدى المؤمنين

ولأنه عليه السلام أمر بتحريق قصر مالك بن عوف ، وكان أمير الجيوش بالطائف ولأنه عليه السلام أمر برمى حصن بالمنجنيق ، وأمر عليه السلام بقطع كروم بنى ثقيف، وقد ذكر فى المغازى والسير أنهم عجزوا عن إرادة قطعها وقالوا: كيف نعيش من بعدها » .

وقد استدل هؤلاء الفقهاء بقوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٥] ، على أن اللينة لا تدل على الشجرة لأن اللينة تطلق على الثمرة والآية تدل على ذلك . لأن النص : ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا ﴾ . والذى يقوم على أصله ظاهراً هو الثمرة والروايات تؤيد ذلك ، فقد روى أن رسول الله ﷺ استعمل فى هذا القطع ، وكان فى غروس بنى النضير أبو ليلى المازنى وعبد الله بن سلام ، فكان أبو ليلى يقطع العجوة وهى ثمر طيب يقطع اللون (جمع لينة) وهى ثمر ردىء ، وقيل لابن سلام : لم قطعت اللون أى الردىء ، فقال : لأنى علمت أن الله تعالى مظهر نبيه ومغنمه أموالهم فأحببت بقاء العجوة » . ولا شك أن قطع الثمرة لا يعد تخريبًا .

أما عن تخريب ديار النضير فقد وقع ذلك لأنهم اتخذوها حصنًا ، فكان لابد من تدميرها عليهم ، وذلك التخريب جائز ، لأن الضرورة الحربية تسوغه إذا كان لابد لزوال أذاهم من تخريب تلك الحصون ، واليهود عندما رأوا ذلك وأن حصونهم ذاهبة فى الحال إلى أيدى المسلمين ، أتوا عليها هدمًا وتخريبًا فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، وأما رمى حصون بنى ثقيف بالمنجنيق فلأنها حصون اعتصموا بها ولا بد من إنزالهم منها ، وقد كانوا أولى بأس شديد أصحاب قلوب قدت من حديد ، فكان لابد من تدمير حصونهم للوصول إليهم ولم يكن تخريب الحصون لذات التخريب. - كما أومأنا - إنما كان الهدف الإيهان من قوة العدو ، وأما التهديد بقطع كروم ثقيف الطائف فلأنهم كانوا يصنعون منها الخمر وأن النبى ﷺ أمر بالقطع ؛ وذلك لأنه عليه السلام علم أثر القطع فى نفوسهم وأنه بالتهديد به قد يرغمون على التسليم فتحقن الدماء بدل الاستمرار

على القتل و القتال ، ويدخل فى هذا الإطار هدم الأبنية التى قد يعتصم بها قادة العدو وذلك شأن لا يحسب تخريبًا .

الوفاء بالعهود والمواثيق :

قبل أن توجد الأمم المتحدة وعصبة الأمم من قبل ، فإن الإسلام الحنيف هو الذى وضع المحالفات والمواثيق الدولية على منهاج إنسانى لا يشذ عنه ولا يحتال عليه ، ومن ثم كان الوفاء بالعهود شريعة من شرائعه التى يجب الأخذ بها وعدم تجاهلها لأى سبب من أسباب الأنانية البشرية حتى أن الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين من الكفار ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

إذن فمسلمة أولية هى القاعدة الرئيسية للعهود والمواثيق أنه يجب الوفاء بالعهود ، فقال سبحانه ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل :٩١، ٩٢] .

وفى تصور الفقهاء اعتمادًا على هذه الآية الكريمة أن العهد الذى لا يكون بين المسلمين فى دار الإسلام وبين الكفار لا ينتقض بتعديهم على المسلمين الخارجين من دار الإسلام ، وإنما ينتقض العهد بتعدي المعاهدين على حكومة الإمام أو أحد البلاد الداخلة في حكمه وإذا تضمن العهد بألا يقاتلوا أحدًا من المسلمين غير الخاضعين لأحكامه أو يؤذوهم فإنه ينتقض بقتالهم المخالف بنص العهد ، وحينئذ يجب نصر أولئك المسلمين على المعتدى عليهم لأجل دينهم وكذلك لأجل دنياهم.

ولقد حافظ النبى ﷺ والخلفاء من بعده على العهد حتى إن عهد الحديبية الذى قست شروطه على المسلمين ،جاء فيه : « على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه » إلى آخر العهد . وقد قام عليه السلام بتنفيذه حرفيًا كما نقول عادة .

ومن دلائل ذلك أنه بينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد وقد انفلت إلى رسول الله ﷺ فلما رأي سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ، ثم قال : يا محمد قد لجت(تمت) القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال: صدقت ، فجعل ينتره (يجذبه بشدة) بتلابيبه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فقال ﷺ : « **يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم** » .

وروى ابن إسحاق أنه لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد عهد الحديبية أتاه أبو نصر عتبة بن أسيد بن جارية ، وكان ممن حبس بمكة ، فلما قدم رسول الله ﷺ كتب فيه أزهر بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى إلى رسول الله ﷺ وبعثا رجلا من بنى عامر بن لؤى ومعه مولى لهم فقدما على رسول الله ﷺ : يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا » . فانطلق معهما .

إذن فإنه وجب على المسلمين أن يحافظوا على العهود ويوفوا بها طالما أن المعاهد منفذ لشروط العهد ومستجيب لقراراته بالنص والروح ، وفى هذا المقام فقد تبرأ الله تعالى من المشركين الذين نقضوا العهد ؛ فقال سبحانه : ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ

اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة : ١، ٢] واستثنى سبحانه من هؤلاء الذين تبرأ من عهودهم وأمر بوعيدهم وتهديدهم وضرب لهم موعداً ، الأشهر الحرم ، من حافظوا على عهدهم بكل حرص ونية صادقة ؛ فقال سبحانه : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٤] .

أما إذا خيف من العدو المعاهد أن يتراجع عن عهده ، وظهرت فيه نية التراجع واضحة من أقواله وأفعاله ، فإنه لحتم على إمام المسلمين أو رئيسهم أن يعلن فى صراحة ووضوح أنه قد رجع عن ذلك ، فهو لم يعد يعترف به ؟ فقال سبحانه : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال : ٥٨].

أما من يعلن صراحة أنه لا يعترف بالمعاهدة التى أبرمت بينه وبين المسلمين فإنه لمن حق الحاكم المسلم أن يجاهر ذلك العدو بالحرب . وذلك كما فعل النبى ﷺ حين نقضت قريش عهد الحديبية الذى عقدته معه بمظاهرة بكر على خزاعة الذين كانوا فى ذمته ﷺ. قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ .

فالخيانة يبغضها الله سبحانه .

ولقد نقض اليهود عهدهم مع رسول الله ﷺ مرة بعد أخرى فقد صالح عليه السلام يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمن ، وكانوا ثلاث طوائف : بني قينقاع، وبني النضير ، وبني قريظة . أما بنو قينقاع فإنها حاربته بعد بدر وكانوا أول من حارب من اليهود ، فسار ﷺ إليهم وضرب الحصار الشديد عليهم وقذف الله فى قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ فى رقابهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم وكلم عبد الله بن أبى فيهم رسول الله ﷺ، وكان حليفًا لهم، فوهبهم له وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، وأن لا يجاوروه فيها ، فاتجهوا إلى

أذرعات بالشام . وعلى نفس المسار نقض بنو النضير وبنو قريظة عهدهم مع النبى ﷺ ، فكان نقض العهد وبالاً عليهم أجمعين .

ولقد بوأ الإسلام المحافظة على العهد وتنفيذ بنوده مكانة رفيعة من التكريم وبالمقابل ، فإنه شدد فى النهى عن الغدرو الخيانة وأبان أنّ للغادر يوم القيامة لواء يعرف منه أنه غدر فضيحة له وتشهيراً به ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « **إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال : هذه غدرة فلان ابن فلان** » رواه الأربعة .

وكان بين معاوية وبين أهل الروم عهد ، وكان يسير فى بلادهم فلما انقضى العهد أغار عليهم ، فإذا رجل على فرس وهو يقول : « الله أكبر .. وفاء لا غدراً » . فإذا هو عمرو بن عبسة. فسأله معاوية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهداً ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء ، قال : فرجع معاوية بالناس** » رواه الترمذى وأبو داود .

ومن هنا شدد الإسلام على أن نقض العهود خيانة وأوجب أن يعامل مرتكبو الخيانة بالشدة حتى يكونوا عبرة لغيرهم ، فلا يقدموا على ارتكاب جريمة الخيانة فقال سبحانه : ﴿**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [الأنفال: ٥٧] .

وهكذا الجهاد فى سبيل الله هو فى الإسلام عقيدة وشريعة وشريعته ليست متروكة للنزعات والأهواء .

ولكنها الرحمة والعدل والإنسانية والتعارف بين شعوب العالمين على سنة التقوى التى شاءها الله لعباده .

• • •

الفصل الرابع

غزوات الرسول ﷺ

الفصل الرابع

غزوات الرسول ﷺ

تمهيد :

يعالج فصلنا هذا غزوات الرسول ﷺ ، ثم نتبعها بحروب الردة على عهد أبى بكر الصديق رضوان الله عليه لما كان لها من خطورة على مصير الإسلام . .

فبعد هجرة النبي محمد ﷺ إلى المدينة حيث وحد فيها بين المسلمين فجعل منهم أمة واحدة يسودها التواد والتراحم على شريعة من عدل الله سبحانه ، ومن هنا صارت المدينة دولة الإسلام الأولى ، وكأى مجتمع كان لهذا المجتمع الإسلامى الأول مشكلاته الخاصة التى تهدد وحدته ، فكان هناك المنافقون وكان من دأبهم الإيقاع بين الأوس والخزرج من المسلمين ، وبين المهاجرين والأنصار بما يفت فى عضد الوحدة ويمزقها ، إزاء ذلك الموقف الحرج ، نهض الرسول بعمل سياسى جليل يدل على بعد نظره وحكمته وحنكته السياسية ، فكان من توجهات نظامه السياسى أن أحسن إلى اليهود وأوجد بينه وبينهم آصرة من المودة على اعتبار أنهم أهل كتاب يعبدون الله وحده ،وبلغ من عطفه عليهم أن كان يصوم يوم صومهم كما توجه فى صلاته نحو بيت المقدس قبل أن يتحول عنه بأمر ربه ، وفى نفس الوقت كانت سيرة الرسول وأخلاقه وتعامله مع أهل يثرب قد أورثه حبهم وإجلالهم ومناصرتهم ، وقد حفزته هذه المكانة التى نالها بفضل خلقه الرحمانى إلى أن يعقد معاهدة صداقة وتحالف بين الجميع على أساس من الحرية فى الاعتقاد. وتلك المعاهدة تعد من الوثائق السياسية الجديرة بكل تعظيم وإكبار ، ودلالتها الكبرى أن محمداً صلوات الله عليه كان ينشئ أمة ، ويؤسس دولة قائمة على قيم الإسلام وشريعته المتجسدة فى القرآن الكريم ، فكأنه صلوات الله عليه مسئول عن كيان تلك الدولة من حيث سلامتها وقوتها ، وكأنه صلوات الله عليه

بهذه المعاهدة كان يدل دلالة قاطعة لا مطعن فيها ولا تأويل على أن الإسلام دين ودولة وهنا يختلف الرسول فى رسالته عن الأنبياء الذين سبقوه كل الاختلاف من حيث الرسالة والغاية . فكان حسب الأنبياء السابقين أن يقفوا عند مجرد إبلاغ الناس برسالتهم الدينية وما تدعو إليه من مبادئ أخلاقية واجتماعية يتجادلون مع الناس بشأنها داعمين جدالهم بمعجزة خارقة وهذا حسبهم ، وعلى من يأتى بعدهم من أصحاب الذين يؤمنون بذلك الدين أن يتولوا هم الدفاع عنه بقوة السلاح . . هكذا كان شأن المسيحية فإنها انتشرت بفضل الحواريين الذين توزعوا بين الأقطار بعد عيسى عليه السلام ، وقد عانى المسيحيون الكثير من صنوف العذاب على أيدى المخالفين والمناهضين ، فلما آمن بعض ملوك أوربا بالمسيحية فإنهم ذادوا عنها بقوة جيوشهم .

وكان هذا شأن الأديان قبل الإسلام .

أما محمد صلوات الله عليه فكانت رسالته هى العقيدة وهى الشريعة ، أو هى العقيدة والدستور ، أو هى العقيدة والنظام السياسى ، أو كلمة الحق التى شاء الله أن يكون محمد هو صاحبها فيكون الرسول والمجاهد والسياسى والفاتح .

كتب محمد صلوات الله عليه معاهدة صداقة وتحالف بين المهاجرين والأنصار، عاهد فيها اليهود وأمنهم على دينهم وأموالهم على أساس من التزامات لا إجحاف فيها ولا نكوص ، وقد جاءت هذه المعاهدة أو الكتاب بهذه الصورة :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على رِبْعتهم [1]يتعاقلون بينهم يفدون عانيهم بالمعروف ، والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى

(١) ربعتهم :على أمرهم الذى كانوا عليه .

عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ». ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل الدار : بنى الحارث ، وبنى ساعدة ، وبنى جُشم ، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف ، وبنى النبيت . وإلى أن قال :

« . . وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحا (١) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ،ولا يحالف مؤمن مولى مؤمنًا دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمنًا فى كافر ولا بنصر كافر على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عاليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهودَ ، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتناصَرين عليهم ، وأن سَلْمَ المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها ، وأن المؤمنين يُبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشركٌ مالاً لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط (٢) مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولىُّ المقتول .

وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثا (٣) ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صَرْف ولا عَدْل ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم

(١) مضرح : مثقل بالدين .

(٢) اعتبط : قتل .

(٣) مُحْدِثا : جانيا .

وأنفسهم إلا من ظلم أو آثم فإنه لا يوتغ (١) إلا نفسه وأهل بيته ، وأن ليهود بنى النجار ، ويهود بنى الحارث ، ويهود بنى ساعدة ، ويهود بنى جُشم ، ويهود بنى الأوس ، ويهود بنى ثعلبة ، ولجفنة ولبنى الطيبة مثل ما ليهود بنى عوف وأن موالى ثعلبة كأنفسهم. وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه لا يتحجر على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ،وأنه لم يأثم امرؤ بحلفه ، وأن النصر للمظلوم . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضارٍ ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وأن الله على من أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرِّه ، وأنه لا تجار قريش ولا مَنْ نصرها ، وأنه بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قِبَلهم ، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم ، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأن من خرج آمنٌ ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى » .

هذه الوثيقة السياسية أو هذه المعاهدة تقرر وتؤكد الحرية فى كل أبوابها

---

(١) يوتغ يهلك .

وخصائصها ، وهى بعد ذلك تردُّ بعد ألف وأربعمائة وثماني وعشرين سنة أولئك الذين يقولون بغير وعى أو تدبر أنه لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياس ، وفاتهم أن الإسلام لا ينضوى تحت هذه المقولة الضالة المضللة ذلك لأن هذه الوثيقة تقرر : حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرية المدينة (الوطن) وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة ، والآن اطمأن المسلمون إلى دينهم وشرعوا يؤدون فرائضه جماعة وفرادى لا يخشون تهديداً ولا وعيداً ولا فتنة تفسد كيانهم فى مدينتهم .

• • •

الغزوات

فى العام الثانى للهجرة اتخذ رسول الله ﷺ سبيل الجهاد لنشر الإسلام ويذود فى نفس الآن عن العقيدة والذين آمنوا بها ، وإذا قام صلوات الله عليه بتنظيم دولة المدينة على أحكم الخطط الاجتماعية والسياسية والإنسانية فإنه شرع بعدها وقد اطمأن إلى دولته إلى أن ينفذ خطة نشر الإسلام والدفاع عن الدعوة وأصحابها، وبنظرته الصائبة أدرك أن دولته فى موقع استراتيجى له فاعليته فى دحر القوى المعادية للإسلام والتى تتربص به ، فيثرب تتحكم بفضل موقعها فى طريق القوافل الرئيسى الذى كانت تعتمد عليه قريش فى تجارتها مع الشام . فيثرب إذن تهدد الحياة الاقتصادية لقريش تهديداً مباشراً ، فكأنها تحمى المسلمين من غوائل هجمات المشركين على المسلمين .

استهلت الغزوات انطلاقها بمناوشات قام بها سرايا معلومة فبدأها صلوات الله عليه بأن بعث عمه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين راكبًا من الأنصار فحسب اتجهوا إلى شاطئ البحر من ناحية العيص ، وهناك التقى بأبى جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ولحظتها تأهب حمزة لمقاتلة قريش إلا أن مَجْدى بن عمرو الجُهَنى فصل بينهما وكان محايداً بين الطرفين ثم اتخذ كل سبيله إلى حيث جاء .

ثم سير رسول الله عبيدة بن الحارث فى ستين راكبا من المهاجرين بغير الأنصار فاتجهوا إلى ماء الحجاز بوادى رابع ، فواجهوا فريقًا من قريش فوق المائتين يقودهم أبو سفيان فتراجعوا بغير قتال .

ثم خرج النبى ﷺ بعد اثنى عشر شهرا من إقامته بالمدينة وأناب عنه بها سعد ابن عبادة واتجه إلى الأبواء ، ثم سار إلى ودان ، هدفه قريش وبنو ضمرة ، فلم يجد قريشا وحالفته بنو ضَمْرة ، وبعد ذلك بشهر عاد وخرج يقود مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بُوَاط ، هدفه قافلة يقودها أمية بن خلف قوامها ألفان

وخمسمائة بعير يحرسها مائة محارب ففاتته ، لأنها اتخذت سبيلا غير السبيل المطروق للقوافل ، وبعد شهرين أو ثلاثة من قفوله إلى بواط من ناحية رضوى ، اصطنع على المدينة أبا سلمة بن الأسد ، ثم اتخذ سبيله وهو فيما يزيد عن مائتين من المسلمين ، ثم نزل العُشَيْرة من بطن ينبع ، فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة (أكتوبر سنة ٦٢٣) ، آملا أن تمر قافلة من قريش يقودها أبو سفيان غير أنه لم يلحق بها ، ورغم ذلك فإنه أفاد من رحلته هذه إذ أنه سالم بنى مَدْلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ، ولم يكد صلوات الله وسلامه عليه يقيم بالمدينة عشر ليال حتى أغار كُرْوز بن جابر الفهرى وكان على وفاق مع مكة وقريش على إبل وأغنام يمتلكها أهل المدينة ، فما كان من النبى ﷺ إلا أن خرج فى طلبه جاعلاً على المدينة زيد بن حارثة ثم واصل سيره حتى وصل وادى سفوان من جهة بدر غير أنه لم يلحق كرزاً . وتلك الإغارة هى التى أطلق عليها كتاب السير باسم : غزوة بدر الأولى .

ومن الممكن أن نقول ونحن على صواب أن تلك السرايا الأولى أو المناوشات كان الغرض منها أن تكون رسالة للقرشيين تنبههم إلى أن من الخير لهم أن يتفقوا مع المسلمين الذين أرغموا على الخروج من مكة تحت وطأة العذاب الشديد الذى تعرضوا له ، وأن تكون غاية الاتفاق أن يكف كل طرف عن الاعتداء على الطرف الآخر بما يتيح للمسلمين حريتهم فى الدعوة لدينهم ، وتتيح لأهل مكة أمن الطريق فى تجارتهم إلى الشام ، ومن هنا كان لابد لقريش أن تعى جداً قدر ما يتهدد تجارتها ما لم تتفاهم مع المهاجرين من أبنائها ، ومما يؤيد رأينا هذا أن الرسول صلوات الله عليه عندما خرج إلى بواط وإلى العشيرة صحب معه عدداً من الأنصار أهل المدينة وقد بايعه الأنصار على أن يدافعوا عنه لا ليهاجموا ، وثمة هدف آخر من وراء تلك السرايا والرحلات هو إنذار اليهود القاطنين بالقرب من المدينة بأن يكفوا عن الدس والوقيعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج بذكر يوم بَعَاث وترديد الشعر الذى أنشد فيه .

غزوة بدر

انطلقت الغزوات عندما أطلق واقد بن عبد الله التميمى سهما على عمرو بن الحضرمى فقتله ، فكان ذلك أول دم يراق فى الإسلام ، وعلى إثرها شرع القرآن الكريم القتال فريضة على المسلمين حتى لا يفتنوا عن دينهم ويُصَدُّوا عن سبيل الله .

أجل ، كانت سرية عبد الله بن جحش هى فاتحة الغزوات فقد أصبح لزامًا على المسلمين أن يدافعوا عن دينهم ومجتمعهم ووحدتهم ودولتهم ،واهتدى تفكيرهم إلى أن يبدؤوا حربهم بضرورة أن يسترجعوا أموالهم التى انتهبتها قريش بشن الغارات عليهم هذا فضلا عن أن قريشًا سعت إلى تأليب شبه الجزيرة كلها على النبى ﷺ لأنهم قتلوا فى الشهر الحرام ، أنئذ أصبح النبى ﷺ على يقين من أنه لا فائدة تُرجى من وراء مهادنتهم أو تحقيق تسوية مرضية .

ففى أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة خرج أبو سفيان فى قافلة كبيرة متجهًا بها إلى الشام ، وهى القافلة التى أراد المسلمون الوقوف فى وجهها . فخرجوا مع النبى ﷺ إلى العُشَيْرة غير أنهم فوجئوا بأن قافلة أبى سفيان مرت قبل وصولهم بيومين ، فكان عليهم أن ينتظروها حتى أوبتها ، فتلبث رسول الله حتى تعود من الشام ، فبعث كلا من طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ليراقبا عودتها فنزلا عل يكَشْد الجُهَنىّ بالحَوْر ، وقعدا عنده فى خباء حتى مرت العير،فذهبا من فورهما إلى محمد ﷺ ليبلغاه بما شاهداه ، إلا أن محمدًا لم ينتظر مجىء رسوليه إلى الحوراء بما يفضيان به من أخبار العير ، فقد انتهت إليه الأخبار بأن أهل مكة جميعهم رجالا ونساء قد أسهموا فى هذه القافلة الكبيرة التى بلغت ميزانيتها ما يقرب من خمسين ألف دينار ، ولذلك فإنه عليه السلام لم ينتظر عودتها خشية أن تفوته فكان أن استجمع المسلمين قائلا لهم : « **هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها** » فكان أن أسرع البعض فى الاستجابة بينما تثاقل آخرون ، ورغبت جماعة فى أن تنضم إلى جماعة المسلمين طمعا فى

غنيمة ؛ ولكن رسول الله ﷺ رفض اشتراكهم ما لم يسلموا .

نأتى إلى أبى سفيان فإنه كان على علم بأن محمداً قد خرج ليقف فى سبيل قافلته التى ربحت الكثير من تجارتها ، فتريث فى حركته تنسما للأخبار ، وكان الجُهْنى الذى نزلا عليه رسولا النبى بالحوراء من الذين استفسر منهم . ولئن كان الجهنى لم يبلغ أبا سفيان الحقيقة إلا أن أبا سفيان علم بأن النبى قد خرج لاعتراضه ومعه المهاجرون والأنصار ، ولما كانت حراسة أبى سفيان لا تزيد عن ثلاثين أو أربعين رجلا فإنه استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ليذهب إلى مكة ليبلغ قريشًا أن أموالهم أصبحت تحت رحمة محمد ، وصل ضمضم من مكة إلى بطن الوادى فقطع أذنى بعيره وجدع أنفه وحول رحله ووقف هو عليه وقد شق قميصه من قُبُل ومن دُبُر وجعل يصيح : « يا معشر قريش اللطيمة (المال والتجارة) اللطيمة أموالكم مع أبى سفيان ، قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أدرى أن تدركوها الغوث . . الغوث » .

فما كان من أبى جهل إلا أن صاح بالناس يستنفرهم وما كانت قريش فى حاجة إلى استنفار فقد كان كل منهم مشاركًا فى القافلة .

إلا أنه كان من بين القرشيين من أدركوا أن قريشًا غبنت المسلمين من أهلها وظلمتهم مما اضطرهم إلى الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وقد أصابت القرشيين الحيرة بين النهوض لاسترجاع أموالهم التى بعثوا بها أو أن تحجم حتى لا ينال العير أذى ، وينبه هؤلاء المترددين إلى أن بين قريش وكنانة جرحًا غائرًا لدماء أراقها الطرفان فإن هى (أى قريش) ، بادرت إلى مواجهة محمد ﷺ لأخذ عيرها منه خشية بنى بكر (من كنانة) أن تهاجمها من خلفها . وأوشكت هذه الذريعة أن تؤيد المنادين بالقعود ؛ لكن جاء فى هذه اللحظة مالك بن جُعْشُم المُدلِجِى ، وكان من علية بنى كنانة فقال : « أنا لكن جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه » آنئذ تغلب رأى أبي جهل وعامر بن الحضرمى والمنادين بالخروج لإبعاد محمد ومناصريه ، بذلك بطلت حجة المنادين بالقعود أو أن يرسل

القاعد من ينوب عنه ، ولم يتخلف من أشراف قريش إلا أبو لهب الذى أرسل العاص بن هشام بن المغيرة ليكون مكانه ، وكان لَط له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلس بها ، وكان أمية بن خلف من الذين ناصروا القعود ، وكان شيخًا جليلاً جسيمًا ثقيلاً فأتاه بالمسجد عُقبة بن أبى مُعَيْط وأبو جهل ، ومع عقبة مجمرة فيها بخور ومع أبى جهل مكحلة ومرود فوضع عقبة المجمرة بين يديه ، وقال : يا أبا على استجمر فإنما أنت من النساء ، وقال أبو جهل : اكتحل أبا على فإنما أنت امرأة . فقال أمية : ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى . وخرج معهم ، وهكذا لم يتخلف فى مكة أحد قادر على القتال ، أما جانب المسلمين فإن النبى ﷺ خرج فى أصحابه وأنصاره فى اليوم الثامن من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، وجعل عمرو بن كلثوم إماما للصلاة بالناس فى المدينة، ثم جاء بأبى لبابة من الروحاء وجعله قائمًا على المدينة لتصريف شئونها .

وسار المسلمون وأمامهم رايتان سوداوان وكان عدد إبلهم سبعين بعيرا صاروا يتبادلون امتطاءها فكان كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يتبادلون بعيرا ، فكان النبى ﷺ وعلى بن أبى طالب ومَرْثد بن مرثد الغنوى يتبادلون بعيرا ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يتبادلون بعيرا . وقد بلغ عدد الذين خرجوا مع النبى فى هذه الغزوة خمسة وثلاثمائة رجلا منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقون من الخزرج ، وانطلق القوم مسرعين خشية أن يفلتهم أبو سفيان ، وفى الوقت نفسه كانوا يتنسمون أخباره ، فلما وصلوا عِرْق الظُّبية صادفوا أحد الأعراب فاستعلموا منه ، فلم يجدوا عنده ما يغنى ، ثم أسرعوا فاتجهوا إلى وادى ذَفِران ، فأقاموا به حيث جاءهم الخبر بأن قريشًا غادرت مكة ؛ ليصدوا الخطر عن عيرهم ، وهنا انقلب الأمر رأسًا على عقب ، فالمسلمون المهاجرون والأنصار لم يجدوا أمام أبى سفيان وعيره والثلاثين أو الأربعين رجلا معه بل الجديد والخطير أن مكة خرجت بأجمعها يقودهم الأشراف لإنقاذ تجارتهم ، ولو فرضنا أن المسلمين لحقوا بأبى سفيان وتغلبوا على رجاله

وأخذوا منهم من الأسرى ما استطاعوا ثم استولوا على إبله ، وما تحمل ، فإن قريشًا ستخف بلا شك لنجدته يحرضهم حرصهم على أموالهم .

أما إذا رجع محمد ﷺ إلى حيث جاء فإن قريشًا ومعهم اليهود سوف يزداد طمعهم فى النبى ، مما قد يحمل المسلمين على اصطناع سياسة المهادنة ، فيكونون هدفا لأذى اليهود والموقف برمته يضع المسلمين فى حرج خطير ، إزاء ذلك لم يجد النبى بُدًا من أن يستشير أصحابه وأنصاره فيما بلغه عن قريش ، فعرض كل من أبى بكر وعمر وجهة نظرهما ثم عرض المقداد بن عمرو وجهة نظره فقال : «يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » . وسكت الناس فقال الرسول : « **أشيروا علىّ أيها الناس** » وكان يقصد الأنصار بعبارته هذه فهم الذين بايعوه فى يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم وفسادهم ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم ، فلما فطن الأنصار إلى أن الرسول يقصدهم فإن سعد بن مُعاذ وكان صاحب رايتهم التفت إلى رسول الله وقال : « لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : «**أجل**» . . قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف بنا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا . إنا لصُبر فى الحرب صُدُق فى اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله » .

ولم يكد سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه الرسول بالمسرة وبدا عليه النشاط الكبير وقال : « **سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين .. والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم** » ونهضوا جميعا واتخذوا طريقهم ، وعندما اقتربوا من بدر أسرع النبى عليه السلام وهو على بعيره فوجد شيخًا من العرب فاستفسر منه عن قريش وعن محمد وأصحابه ، فعلم منه أن عير قريش على مسافة قريبة

منه فعاد إلى قومه وبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى مجموعة من رجاله إلى ماء بدر ، ليتأكدوا من الخبر ، ثم رجعت الطليعة ومعها غلامان علم منهما النبى أن قريشًا وراء الكثيب بالعُدْوة القصوى . وعندما ذكرا أنهما لا يعرفان عدد رجال قريش سألهما النبى : كم ينحرون كل يوم؟ فأجابا : يوما تسعا ويوما عشرا ، وهنا استنتج النبى أن عدد القرشيين ما بين التسعمائة والألف . عندئذ قال لقومه : « **هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها** » .

إذن فقد وجد المسلمون أنفسهم وهم أمام قوة تبلغ ثلاثة أضعافهم ، فعليهم من ثم أن يوطنوا أنفسهم على أنهم سيواجهون قوة ضارية ، فعليهم الصبر وعليهم شدة البأس بقدر ما يستطيعون ، وأنه لن يتحقق لهم نصر إلا إذا كان إيمانهم بالنصر مكينا .

بعد ذلك ذهب اثنان من المسلمين فنزلا بدرًا ، فأناخا إلى تل قريب من الماء وأخذا لهما وعاء يستقيان فيه ، وإنهما لعلى الماء إذ سمعا جارية تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها : « إنما تأتى العير غدا أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيه لك . فلما عاد الرجلان أخبرا النبى عليه السلام بما وعته أذناهما ، من الجانب الآخر سبق أبو سفيان العير ليتقصى الأخبار خشية أن يكون النبى قد وصل إلى الطريق قبله . وعندما وصل إلى الماء فوجئ بوجود مَجْدِىّ بن عمرو ، فاستفسر منه إن كان قد شاهد أحدا فرد عليه مجدى بقوله : إنه لم يجد أحدا غير راكبين أناخا إلى التل القريب ، فأتى أبو سفيان إلى مناخهما ، فوجد فى روث بعيريهما نوى عرفه من علائف يثرب ، فأسرع عائدًا إلى أصحابه ، وعدل بالسير عن الطريق مساحلا البحر مسرعا فى سيره حتى بَعُدَ ما بينه وبين محمد ونجا ، وفى الصباح ترقب المسلمون مرور أبى سفيان غير أنهم فوجئوا بأنه مر بغير أن يشعروا، آنئذ لم يبق غير مقاتلة قريش وكانوا قريبين منهم . فذوى فى نفوس جماعة من المسلمين ما كانوا يطمعون فيه من الغنيمة ، وجماعة أخرى جادلت النبى فى أمر

التراجع إلى المدينة بغير أن يواجهوا القرشيين الذين قدموا من مكة . وفى هذا الوقت نزل قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٧] .

وعلى الجانب الآخر رأى كثيرون من القرشيين أن لم تعد لهم حاجة إلى القتال بعد أن نجت تجارتها فما أجدرهم أن يعودوا إلى مكة تاركين المسلمين ينعمون بخفى حنين . تلك كانت فكرة أبى سفيان الذى قال لرجاله : « إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا » وأيد رأيه هذا عدد لا بأس به من القرشيين . أما أبو جهل فلم يعجبه هذا الرأى وصاح فى الناس : «والله لا نرجع حتى نَرِد بدرا فنُقيم عليه ثلاثا ننحر الجُزُر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها » .

وفى رأى أبى جهل أن بدرًا إذ هى موسم من مواسم العرب فإذا انصرفت قريش عنها بعد أن نجت تجارتها ربما رأت فيه العرب - كما رأى أبو جهل - نوعا من الخوف من النبى وأنصاره مما يؤدى إلى أن تزداد قوة محمد وتزداد دعوته انتشارًا ، ولاسيما بعد الذى كان من سرية عبد الله بن جحش ، وقتل ابن الحضرمى وأخذ الأسرى والمغانم من قريش ، واختلفت أهواء الناس فمنهم من خشى عار الجبن فشايع أبا لهب ، وآخرون آثروا الرجوع منهم بنو زهرة ، وقد علموا بنصيحة الأخنس بن شريق ، وكانت له مكانته بينهم وسارت عامة قريش وراء أبى جهل فى ضرورة اختيار الموقع الذى يجهزون فيه أنفسهم للحرب حيث يتشاورون ، وما كان منهم إلا أن نزلوا بالعدوة القصوى للاختباء خلف كثيب من الرمل ، أما المسلمون فإنهم وقد ضاعت منهم الغنيمة ، رأوا ضرورة الصمود للعدو إذا أصر على محاربتهم ، فاتجهوا إلى ماء بدر ، فلما اقتربوا منها نزل رسول الله ﷺ ، وكان الحُباب بن المنذر بن الجموح يعرف المكان جيدًا ، ولذلك فإنه ما إن نزل الرسول ﷺ فى مكانه حتى قال له : « يا رسول الله أرأيت هذا

المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة . قال محمد ﷺ : « **بل هو الرأى والحرب والمكيدة** » . فقال : يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزل ثم تغور ما وراءه من القُلب (جمع قليب وهو البئر) ثم نبنى عليه حوضًا فملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا ، وهنا أدرك الرسول صواب رأى الحباب فعمل ورجاله بما أشار به ، وآنئذ نبه الرسول قومه إلى أنه بشر مثلهم ، وأن الرأى شورى بينهم فهو لا يستبد برأيه ومن ثم فإنه يرحب بالمشورة الطيبة .

ولما أتموا بناء الحوض أشار سعد بن معاذ قائلاً : « يا نبى الله ، نبنى لك عريشا تكون فيه وتُعِدُّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن أشد لك حبًا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » فما كان من الرسول إلا أن أثنى على سعد ودعا له بخبر . وبُنى العريش للنبى لأنه إذا لم يتحقق النصر للمسلمين استطاع الرسول أن يلحق بأصحابه فى يثرب فلا يقع فى يد عدوه .

واتخذت قريش مواقعها للقتال والنزال ، ثم بعثت بطليعة من رجالها لتعلم كم هى قوة المسلمين فجاءها أن عدد المسلمين ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً وليس لهم كمين يرد عنهم المفاجأة ولا مورد لهم يعتمدون عليه ولا يملكون غير سيوفهم . وإذ خرجت قريش بعليتها ، فإن بعض عقلائها خشوا أن يقتل المسلمون صفوتهم فتفقد قريش مكانتها ، ورغم ذلك الهاجس إلا أن منهم من خشى أن يواجه أبا جهل خوفا من أن يرميهم بالخوف والجبن ، وهنا جهر عتبة بن ربيعة برأيه فقال : « يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئًا ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذلك

الذى أردتم وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون » .

فلما انتهى ذلك القول إلى أبى جهل غضب وثار وأرسل إلى عامر بن الحضرمى يقول له : « هذا حليفك يريد أن يرجع الناس وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد مقتل أخيك » فنهض عامر فى الحال صارخًا واعَمْراه . وانطلقت الحرب سريعة ولحظتها اندفع الأسود بن عبد القيس المخزومى من بين الصفوف القرشية إلى صفوف المسلمين ليهدم الحوض الذى بنوه . فأسرع إليه حمزة بن عبد المطلب فضربه بسيفه فأطاح بسيفه فوقع على ظهره والدم ينهمر من رجله ، ثم عاجله بضربة أخرى أنهت حياته قبل أن يصل إلى الحوض ، وما سقط الأسود حتى خرج عُتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة فخرج إليه كتيبة من أبناء المدينة ، فلما عرفهم قال لهم : « ما لنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا » ونادى مناديهم : « يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا » وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث ، وفى لحظة خاطفة قتل حمزة كلا من شيبة وابنه الوليد ، ولما اشتعلت حماسة الفريقين تزاحف الناس والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان. ونهض الرسول صلوات الله عليه لتنظيم صفوف المسلمين ، وأبصر قلة رجاله وضعفهم فى عدتهم بينما عدد القرشيين أضعاف أضعافهم وأغنى فى عدتهم ، ثم عاد إلى عريشه يصحبه أبو بكر ، وقد شمل النبى الخوف على مصير الإسلام والمسلمين فى ذلك اليوم إذا لم يتحقق النصر ، وتوجه الرسول صلوات الله عليه إلى القبلة رافعا أكف الضراعة يدعو ربه ويهتف به أن يفيض عليه بما وعده ، وقال فى ابتهاله : « **اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ...**» وظل فى دعائه وهتافه مادًّا يديه فى حضور متصل بربه حتى سقط رداؤه وأبو بكر يرد على منكبيه قائلاً : « يا نبى الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك» ، ولكن الرسول ظل فى تضرعه وخشيته ودعائه لربه فى هذا الموقف

الحرج الصعيب الذى لم يكن يتوقعه المسلمون ولا اصطنعوا له عدته ، وإن هى إلا خفقة من نعاس رأى خلالها رسول الله النصر جليا . وبعدها انتبه مستبشرا وخرج إلى الناس يحثهم على الصمود فقال : « **والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة** » وفى هذا الموقف المصيرى الرعيب نزلت الآيتان : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦] .

وكانت عين المسلمين على كبراء قريش وسادتها تريد القضاء عليهم استئصالا لأنهم أصلوا المسلمين عذابًا شديدًا ، وطالما منعوهم من الاقتراب من المسجد الحرام.

وكان أمية بن خلف هو الذى عذب بلالا فقد كان يلقى به فى رمضاء مكة فيضجعه على ظهره ثم يضع صخرة كبيرة على صدره عساه يتبرأ من الإسلام ؛ فيقول بلال : « أحد ، أحد » فعندما رآه بلال فى المعركة اتجه نحوه مسرعا وهو يقول : « أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا » وحاول بعض المسلمين أن يفصلوا بين أمية وبلال فصرخ بلال بأعلى صوته فى الناس : « يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية ابن خلف ، لا نجوت إن نجا » وأصر بلال على قتل أمية فقتله . كما قتل مُعاذ بن عمرو بن الجموح أبا جهل بن هشام ، وانطلق أبطال المسلمين حمزة وعلى يقتلون المشركين وارتفع النقع فوق المتقاتلين وفيه طارت رؤوس زعماء قريش، والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوة وهم يهللون : « أحد ، أحد » ووسط هذا المعترك وقف الرسول صلوات الله عليه فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشًا وقال : «**شاهت الوجوه**» ثم رماهم بها وهو يقول لأصحابه : « **شدوا** » وهنا تضاعفت قوة المسلمين المادية ، وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى**

الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال:١٢] وقال سبحانه: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧] ولما لاحت تباشير النصر عاد الرسول إلى عريشه وأخذت قريش تولى الأدبار . وانطلق المسلمون يطاردونهم ويأسرون منهم .

تلك هى غزوة بدر الكبرى التى رسخت فيها قواعد المسلمين فى بلاد العرب فكانت فاتحة لوحدة الجزيرة العربية فى ظلال الإسلام بل فاتحة لإمبراطورية إسلامية تشع فى العالم نور الإسلام .

ومع أن محمداً ﷺ كان يحث أصحابه على قتال المشركين ويحضهم على استئصالهم ، فإنه وهو الذى بعث رحمة للعالمين كان يحث المسلمين وهم فى بداية المعركة على أن يتفادوا بنى هاشم ما استطاعوا ، وأن يتفادوا أيضا بعض رجال من سادات قريش ، ولو أنهم قتلوا من المسلمين من قتلوا وعلى استعداد لأن يقتلوا منهم من يستطيعون . وفى ذلك رد لجميل بنى هاشم لحمايتهم للمسلمين مدى ثلاثة عشر عاما من يوم بعثته إلى يوم هجرته . فهذا عمه العباس كان معه ليلة بيعة العقبة . كما أنه صلوات الله عليه لم ينس جميل من كانوا على الكفر الذين طالبوا بنقض الصحيفة التى أرغمته عليها قريش ولبابها أن يلزم هو وأصحابة الشِّعب بعد أن قطعت قريش بهم كل صلة وكل علاقة ، وسواء هؤلاء أو هؤلاء فإن النبى اعتبر ما صنعوه حسنة يُجزى من قدمها بمثلها وبعشر أمثالها، ولذلك فإنه شفع لهم عند المسلمين إبان القتال ، ومع ذلك فإن بعض هؤلاء القرشيين أخذتهم العزة فأبوا أن يستظلوا بهذا العفو كأبى البَخْترى الذى ، وإن اعترض على الصحيفة فإنه رفض العفو وقُتل .

وظل المسلمون مقيمين ببدر إلى آخر النهار بعد أن دفنوا من قتل من قريش فى قليب واحد ، ثم أخذ الرسول وأصحابه يعملون بجمع الغنائم وببحث شأن الأسرى ، حتى إذا ما جن الليل جعل يفكر فى فضل الله بنصره على الكافرين

رغم قلة عدد رجاله ، ثم انطلق وهو فى تفكيره يخاطب المشركين الذين دفنوا قائلا : « **يا أهل القليب : يا عتبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام** » ، وأخذ يذكر من فى القليب واحدًا بعد الآخر : « **يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا** » .. قال المسلمون: « يا رسول الله أتنادى قوما جيفوا ؟ » قال عليه السلام : « **ما أنتم بأسمع ما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى** » ونظر رسول الله فى وجه أبى حذيفة بن عتبة فألقاه كئيبًا قد تغير لونه . فقال : « **لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟** » قال أبو حذيفة : لا والله يا رسول الله ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذى كدت أرجو له أن أحزننى أمره ، فقال له رسول الله خيراً ودعا له بخير .

ولما حانت ساعة رجوع المسلمين إلى المدينة انطلقوا يتهامسون بشأن الغنيمة لمن تكون . فقالت جماعة للذين هاجموها : « نحن جمعناها فهى لنا » وقال الذين طاردوا العدو حتى ساعة هزيمته : « نحن والله أحق بها فلولانا لما أصبتموها » وقال الذين كانوا يحرسون النبى خشية أن ينفذ إليه العدو : « ما أنتم ولا هم أحق بها منا ، وكان لنا أن نقتل العدو ونأخذ المتاع حين يتصرف فيها أو ينزل الله فيها أمره. وأسرع النبى فبعث إلى المدينة عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ليبشر أهلها من المسلمين بالنصر ، ثم نهض عليه السلام ومعه أصحابه ، وكذلك الأسرى ، والغنائم وقد جعل عليها عبد الله بن كعب ، وسار موكب النصر فى طريق العودة.

وما إن عبروا مضيق الصفراء نزل الرسول على كثيب حيث شرع يقسم النَّفل الذى أفاء الله به على المسلمين ؛ وكان لكل نصيبه منه لا المقاتلون المنتصرون وحدهم ، بل كل من أسهم فى المعركة ولو كان بعيدًا ، وبينما المسلمون فى

طريقهم قُتِل من الأسرى رجلان : الأول النضر بن الحارث ، والثانى عُقبة بن أبى مُعَيط وإلى هذه اللحظة لم يكن قد وُضِعَ نظام لمعاملة الأسرى يكون من شأنه قتلهم أو فداؤهم أو استرقاقهم ، ولقد لقى المسلمون من النضر وعقبة أذى شديدًا أيام وجودهم بمكة .

وعندما بلغ موكب الرسول الأُثَيْل ، وعرض الأسرى نظر النبى إلى النُضَيْر نظرة فرق منها ، وقال الرجل إلى جنبه : « محمد والله قاتلى لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت » قال الذى إلى جنبه : « ما هذا والله منك إلا رعب » وقال النضر لمصعب بن عُمَيْر وكان أقرب من هناك به رحما : « كلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه فهو والله قاتلى إن لم تفعل » فكان جواب مصعب : « إنك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه كذا وكذا وكنت تعذب أصحابه » قال النضر : « لو أسرتك قريش ما قتلتك أبدًا وأنا حى » قال مصعب : « والله إنى لا أراك صادقًا . ثم إنى لست مثلك فقد قطع الإسلام العهود » وكان النضر أسير المقداد وكان يأمل أن يفتديه أهله بمال كثير ، ولما رأى الحديث قد كثر حول النضر سائرا بعِرْق الظُّبْيَة أمر النبى بقتل عقبة بن أبى مُعَيْط ، فصرخ عقبة : « فمن للصبية يا محمد ؟ » قال : « **النار** » فقتله عاصم بن ثابت ، وقبل أن يصل النبى المدينة بيوم كان رسولاه زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة قد سبقاه ، فدخل كل واحد منهما من ناحية ، أبما عبد الله بن رواحة فصار ينادى وهو على راحلته أن الله نصر رسوله وأصحابه ، وصار يعدد لهم من قتل من المشركين ، وكان زيد بن حارثة يصنع مثله وهو راكب القصواء ناقة النبى ، وفرح المسلمون فرحًا غامرًا وغادروا دورهم مهللين مكبرين .

أما الذين ظلوا عاكفين على شركهم ، وكذلك اليهود فقد أصابهم الغم الشديد فعملوا على التشكيك فى النصر العظيم فتصايحوا قائلين : « إن محمدًا قتل وأصحابه هزموا ، وهذه ناقته نعرفها جميعًا لو أنه انتصر لبقيت عنده ، وإنما يقول زيد ما يقول هذيانا من الفزع والرعب » وما لبث المسلمون بعد أن اطمأنوا

من الرسولين على نتائج المعركة أن زادت بهجتهم وعم السرور بينهم ، غير أن حادث موت رقية بنت النبى أحزن الجميع ، وكان قد تركها وهى مريضة عند ذهابه إلى بدر وتركها مع زوجها عثمان بن عفان يمرضها ، غير أن المشركين والمنافقين عندما تأكدوا من خبر انتصار المسلمين فإنهم أيقنوا أنهم أصبحوا فى موقف الذلة والهوان إلى درجة أن قال أحد زعماء اليهود : « بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن » ودخل المسلمون المدينة قبل الأسرى بيوم واحد ، فلما عرضوا وكانت سودة بنت زمعة زوج النبى قد رجعت من مناحة ابنى عفراء ، وكانت بها رأت سُهَيْل بن عمرو أحد الأسرى مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلم تملك نفسها أن توجه إليه الكلام قائلة : « أى أبا يزيد ، أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم ألا متم كراما » فناداها النبى من البيت : « **أعلى الله عز وجل وعلى رسول الله تحرضين؟** » فأجابته : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت » . ثم وزع الرسول الأسارى بين أصحابه قائلا لهم : « **استوصوا بهم خيراً** » .

ثم شرع يفكر ما الذى يمكن أن يصنعه بأولئك الأسرى ، أيقتلهم أم يقبل منهم الفداء ؟ إن منهم المقاتلين الأشداء ، وإن منهم لمن يحرق الحقد قلوبهم بعد هزيمتهم فى بدر ، فإن قبل النبى فداءهم فما الذى يمنعهم من أن يكونوا حربا عليه ، أما إذا قتلهم فإنه سوف يثير عليه أهليهم من قريش ، وربما هدأت نفوسهم لو أنهم افتدوهم ، هنا عرض النبى المشكلة على المسلمين يستشيرهم ، وقد رأى المسلمون من أولئك الأسرى رغبة فى الحياة واستعدادا لدفع الفدية ، فكان مما قاله الأسرى ، لو بعثنا إلى أبى بكر ، فإنه أقرب قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمة ، وعطفا ولا نعلم أحداً آثر عن محمد منه ، وبعثوا إلى أبى بكر فقالوا له : يا أبا بكر ، إن فينا الآباء والإخوان والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب ، كلم صاحبك يمن علينا أو يفادينا . فوعدهم خيراً ، وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم

فأرسلوا إليه فجاءهم ، فقالوا له مثل قولهم لأبى بكر ، فنظر لهم شزرا ، وذهب وزيرا محمد إليه فجعل أبو بكر يلينه ويقول : « يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والإخوان وأبعدهم منك قريب فامنن عليهم من الله عليك أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار ، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين فلعل الله أن يُقبل بقلوبهم : « ولكن النبى لم يرد بشىء فقام فتنحى ، وجاء عمر فجلس مجلسه وقال : « يا رسول الله هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك فأخرجوك . اضرب رقابهم ، هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة يوطئ الله بهم الإسلام ، ويذل بهم أهل الشرك ، ولم يرد النبى بشىء ، فرجع أبو بكر إلى سابق مقعده ، وأخذ يتعطف ويتقرب بالقرابة والرحم وهو يأمل فى أن يهدى الله هؤلاء الأسرى إن هو أبقى على حياتهم ، كما رجع عمر إلى سابق مقعده وكان كما سبق صارما فى عدله لا تأخذه فى العدل رحمة ولا مهادنة ، بعدها دخل النبى قبته وبقى فيها ساعة ثم خرج إلى الناس وهم فى شغل بقضية الأسرى فشاورهم فيما عليه أن يصنع . وأخذ يضرب الأمثال بأبى بكر وعمر والأنبياء ؛ فقال : « **فأما أبو بكر فمثله كمثل ميكال ينزل برضا الله وعفوه عن عباده . ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألين على قومه من العسل ، قدمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال : ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾** [الأنبياء:٦٧] . . **وأن قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾** [إبراهيم:٣٦] . **ومثله فى الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾** [المائدة:١١٨] **ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله . ومثله فى الأنبياء كمثل نوح إذ يقول : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾** [نوح:٢٧] . **وكمثل موسى إذ يقول : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾** [يونس:٨٨] ثم قال : « **وإن بكم عيلة فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق** » وأخذ القوم يتبادلون الآراء . وكان من بين

الأسرى شاعر هو أبو عزة عمرو بن عبد الله الجحمــى كان على رأى مخالف وألح فى الإنعام عليه بالعفو ، فقال : « لى خمس بنات ليس لهم شىء فتصدق بى عليهن يا محمد ، وإني لمعطيك موثقًا ألا أقاتلك ، ولا أكثر عليه أبـدًا » فأمنه النبى وأطلقه من غير فداء ، وكان هو وحده من بين الأسرى الذى فاز بذلك الأمان ، ولكنه سرعان ما انقلب على عقبيه وقاتل مع المشركين فى أحد فأسر وقتل .

واستمر التشاور بين المسلمين زمنًا انتهى إلى الموافقة على قبول الفداء ، وفى هذا نزل قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال:٦٧] .

وفى بهجة الفرح بما أفاء الله به على المسلمين من نصر ومغانم كثيرة كان الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعى يلهب الطريق إلى مكة حتى دخلها أول فرد حيث أفضى لأهلها بهزيمة قريش ، وما حل بها وبمالها وكبرائها من مذلة وهوان إلى الدرجة التى أصابت أبا لهب بالحمى ومات بعد سبعة أيام ، وأخذت قريش تتشاور فيما بينها ، فاتفق الجميع على ألا ينوح أحد على القتلى خشية أن يشمت محمد وأصحابه واتفقوا أيضا على ألا يتفاوضوا مع محمد بشأن الأسرى حتى لا يغالى فى الفداء ، ومضى زمن وقريش تضمد جراحها حتى جاءت فرصتهم لافتداء الأسرى ، وفى هذا جاء مِكرْز بن حفص فى فداء وكبر على عمر بن الخطاب ألا يصيب سهيل مكروه فقال لرسول الله : « يا رسول الله ، دعنى أنزع ثنيتىْ سهيل بن عمرو فيدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدًا » فرد عليه النبى بما هو الخلق العظيم فقال : « **لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيًّا** » وفى مدار الأسرى بعثت زينب بنت النبى تفتدى زوجها أبا العاصى بن الربيع ، وكان الفداء الذى بعثت به قلادتها عطف عليها عطفًا شديدًا وقال لمن معه : « **إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا** » ووافق أبو العاصى على أن يفارق زينب لأن الإسلام فرق بينه وبينها ، ثم بعث النبى زيد بن حارثة

وصاحبا معه فجاءا بها إلى المدينة ، وبعد فك الأسر خرج أبو العاصى إلى الشام فى تجارة لقريش ، وفى عودته وعلى مقربة من المدينة خرجت عليه سرية النبى وغنمت ما معه حتى إذا ما جن الليل دخل إلى زينب ، واستجارها فأجارته ورد إليه المسلمون ما أخذوه منه ، وذهب آمنا إلى مكة ، فلما أرجعه لأصحابه من قريش ، قال لهم: « يا معشر قريش ، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا : لا، جزاك الله خير فقد وجدناك وفيا كريما . قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت ، ثم رجع إلى المدينة ورد النبى إليه زينب ، وصارت قريش تفتدى أسراها ، وكانت قيمة الفداء أربعة آلاف درهم أما من لا شيء عنده، فإن الرسول من عليه بحريته.

غير أن عمليات الفداء لم تهون على قريش ما أصابها فى كبريائها ، فلم تنس هزيمتها أو تهادن محمداً ، ودلالة ذلك أن النساء ظللن شهرًا ينحن على قتلاهن فجززن شعر رؤوسهن ، وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فينحن حولها ، أما هند بنت عتبة زوج أبى سفيان فكانت على غير ذلك ، فقد مشت نساء يوما إليها، فقلن لها : ألا تبكين على أبيك وأخيك وأهل بيتك ؟ فقالت : أنا أبكيهم فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء الخزرج ؟ لا والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتله » وظلت لا تدهن ولا تأتى إلى فراش أبى سفيان وتحرض الناس على الأخذ بالثأر حتى كانت وقعة « أحد » أما أبو سفيان فإنه نذر بعد بدر ألا يمس الماء رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً .

مرحلة ما بين بدر وأحد

بعد أن عاد المسلمون من بدر فخورين معتزين بنصر الله لهم أخذت طوائف المدينة على اختلاف نحلها ومشاربها تشن حربا نفسية على المسلمين بإرسال الأشعار فى قدحهم والتحريض عليهم ، فكأن أن أصبحت المدينة هى مركز

المقاومة للدين الجديد ، وخلال ذلك اللفظ صار المشركون واليهود يتآمرون للقضاء على هيبة محمد أو اغتياله ، وما كان الرسول وصحبه لتخفى عليهم مؤامرات الغل والضغينة ، وقد بلغت جرأة المسلمين أمام أولئك الناقمين المتربصين أن أخذ سالم بن عمير نفسه بالقضاء على أبى عفكٍ (أحد بنى عوف بن عوف) لأنه كان يطلق أشعاره فى هجاء الرسول والمسلمين ، ويحرض قومه على الانقضاض عليهم وظل على حاله حتى بعد بدر ، فذهب إليه سالم في ليلة صائفة كان أبو عفك نائمًا فيها بفناء داره فوضع سالم السيف وأنفد السيف إلى كبده حتى نفذ فى الفراش ، وكانت عصماء بنت مروان (من بنى أمية بن زيد) تعيب الإسلام وتؤذى النبى وتحرض عليه ، وظلت كذلك إلى ما بعد بدر ، فجاءها يوما عمير ابن عوف فى جوف الليل حتى دخل إليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام ، ومنهم من ترضعه، وكان عمير ضعيف البصر، فجسها بيده فوجد الصبى، ترضعه فنحاه منها ثم وضع سيفه فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها ، ورجع عمير من عند النبى بعد أن أخبره الخبر ، فوجد بنيها فى جماعة يدفنونها فأقبلوا عليه فقالوا: يا عمير أنت قتلتها ؟ قال: نعم، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . فوالذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى حتى أموت أو أقتلكم » .

وكان لهذه الجرأة الفدائية أثرها فقد ظهر الإسلام فى بنى خطمة ، وكانت عصماء زوج رجل منهم ، فأظهر الإسلام منهم من كان يخفى إسلامه وانضم إلى صف المسلمين وسار معهم .

وهناك **مصرع كعب بن الأشرف** مثل ثالث هو مصرع كعب بن الأشرف ، وهو الذى سبق أن ذكرنا له أنه قال عندما علم بمقتل سادات قريش : « هؤلاء هم أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظاهرها » وعندما تأكد من الخبر ذهب إلى مكة يحرِّض على الرسول وينشد الأشعار متباكيًا على أصحاب القليب . ثم عاد إلى المدينة وجعل يشبب بنساء المسلمين فاغتاظ المسلمون من فعله المنكر ، وصمموا جميعًا على قتله وذهب

إليه أحد المسلمين يستدرجه بالطعن على محمد ، إذ يقول له : « كان قدوم الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتنا العرب ورمونا عن قوس واحدة ، وقطعت منا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس » ولما أنس إلى كعب وأنس إليه كعب طلب إليه ما لا لنفسه ولجماعة من أصحابه على أن يَرْهَنَوه دروعهم ، ورضى كعب على أن يجيئوه من بعد ، وإنه لفى داره على بعد من المدينة إذ ناداه صدر الليل أبو نائلة (أحد المؤتمرين به) فنزل إليه على الرغم من تحذير عروسه إياه النزول فى مثل هذه الساعة من الليل ، وسار الرجلان حتى التقيا بأصحاب أبى نائلة وكعب آمن لا يخافهم ، وخرج القوم يتماشون حتى مشوا ساعة بعدوا بها عن دار كعب ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث ويذكرون من حالهم ما وصلوا إليه من الشدة ما يزيد فى طمأنينة كعب ، وفيما هم يسيرون كان أبو نائلة يضع يده فى رأس كعب ويشمها ويقول : ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر قط ، ولما لم تبق لدى كعب شعبة شك فيهم ، عاد أبو نائلة فوضع يده على شعر كعب ثم وقال : اضربوا عدو الله ، فضربوه بأسيافهم حتى مات .

إجلاء بنى قينقاع :

وقد كان هذا الحادث سببًا فى أن تفاقمت مخاوف اليهود فأصبح كل منهم وهو يخشى على حياته ، وبذلك لم يخف فى نفوسهم الحقد على النبى ﷺ ومما صرح بالعداء أن امرأة من العرب ذهبت إلى سوق اليهود من بنى قينقاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها ، فجعلوا يراودونها على كشف وجهها وهى تأبى ، فجاء يهودى من خلفها فى سر منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهوديًا فقتله ، **أجلاء بني قينقاع** وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع ، وطلب النبى إلى هؤلاء أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش ، فاستخفوا بوعيده وأجابوه : « لا يغرنك يا

محمد أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، والله لئن حاربناك لتعلمن أنَّا نحن الناس» فأصبحت مقاتلة اليهود مما لابد منه ، فضرب المسلمون الحصار على دور بنى قينقاع لمدة خمسة عشر يوما متوالية لا يخرج منهم أحد ، ولا يدخل إليهم أحد بطعام ؛ فكان أن أرغموا على التسليم بما قضى به النبى ولما أن سلموا قرر ـ بعد مشورة أصحابه ـ قتلهم جميعًا ، وهنا قام عبد الله ابن أبى ابن سلول وكان حليفا لليهود والمسلمين ، فخاطب الرسول قائلاً : « يا محمد أحسن فى مواليّ » فما كان من الرسول إلا أن أعرض عنه ، فعمد ابن سلول إلى أن يدخل يده فى جيب درع الرسول ، فقال له الرسول مغضبًا : «**أرسلنى** » ثم كررها مرة ثانية : «**أرسلنى ويحك**» فقال له ابن أبى : « لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى مواليّ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر ، وكان عبد الله صاحب كلمة مسموعة عند المشركين من الأوس والخزرج ، وإن كان قد قل بعض الشىء بفضل قوة المسلمين وبسبب إلحاح ابن أبى وأيضا بسبب مجىء عبادة بن الصامت ليحدث بحديث ابن أبى فوافق على عدم تعقبهم شريطة أن يرحل بنو قينقاع من المدينة عقابا لهم على ما اقترفوه ، وعندما حاول ابن أبى أن يراجع الرسول فى أمر إجلاء اليهود تصدى له أحد المسلمين ومنعه من لقاء النبى بعد أن شُجَّ ، فقالت بنو قينقاع : « والله لا نقيم ببلد تُشَجُّ فيه يا بن أبى ولا نستطيع عنك دفاعًا » ثم سار بهم عبادة بن الصامت ، ليخرجهم من المدينة ، وقد خلفوا وراءهم ما يملكون من سلاح وذهب كانوا يصوغونه ، واستمروا فى سيرهم ومعهم أمتعتهم متجهين نحو الشمال حتى انتهوا إلى أذرعات على حدود الشام، ولعل أرض الميعاد كانت تستهويهم إلى ذلك المكان .

وكان من البدهي أن تضعف قوة اليهود بعد أن هاجر بنو قينقاع من المدينة التى أصبحت للمسلمين وحدهم ، أما اليهود الذين كانوا ينتسبون إلى المدينة فقد كانوا يقيمون خارجها حيث خيبر وأم القرى ، وهكذا تم تطهير المدينة من

الطوائف التى تحدث فتنا تهدد أمن مجتمع المدينة وسلامته حتى يكون التفرغ كاملا للسياسة الإسلامية الداخلية والخارجية .

وعم السلام المدينة لمدة شهر كان من الممكن أن تمتد إلى ما هو أطول غير أن أبا سفيان ظل متخوفًا بسبب هزيمتهم النكراء ، وهو فى أثنائها تراوده فكرة أن يعيد هيبة قريش إلى الجزيرة العربية ، وبأنها لا زالت فى قوتها وقدرتها على الغزو والقتال. فكان أن جمع مائتين ، وقيل : أربعين من رجال مكة وخرج بهم بعيدا عن الأنظار ، فلما اقترب من المدينة انطلق سحرًا فجاء إلى ناحية يُقال لها: العُرْيض فصادف مع رجاله رجلا من الأنصار وزميلا له يقومان بالحرث فقتلوهما. كما حرقوا بيتين ونخيلا بالعُرَيض ، وهنا توهم أبو سفيان أنه بر بيمينه فى غزو محمد ، فرجع مسرعًا إلى مكة خشية أن يطلبه النبى ، وخرج النبى على رأس جماعة من أصحابه وراء أبى سفيان حتى وصلوا إلى قرقرة الكُدر ، وكان أبو سفيان ومن معه يجدون فى هروبهم وهم يلقون ما يحملون من زاد ، فكان المسلمون يأخذونه ، ولما وجد الرسول أن أبا سفيان وعصابته اختفوا عن الأنظار عاد ومعه أصحابه إلى المدينة. وكان فرار أبى سفيان عارا لحق به ، وبسبب السويق الذى ألقته قريش سميت هذه الغزوة باسم غزوة السويق .

وتسامعت شبه الجزيرة بأخبار محمد ﷺ فظلت معظم القبائل البعيدة وهى آمنة ، أما القبائل القريبة من المدينة فإنها أصبحت تدرك خطر قوة محمد وأصحابه عليهم ، فقد أصبحت قريش وسائر القبائل تخشى على طريق التجارة الذى هو عماد حياتها الاقتصادية ، ولما كان الرسول قد عاهد كثيرًا من القبائل التى تتاخم شاطئ البحر فقد أصبح الطريق معرضا للكثير من المخاطر مما يضطر قريش إلى تجنبه وهذا هو الخطر الأكبر ، فماذا يحدث للقبائل إذا حيل بينها وبين تجارتها ؟ وكيف تعيش وهي تعانى شظف الحياة الضنينة في أرضها بما يأكل الناس والأنعام؟ إذ فعلى القبائل جميعًا أن تفكر فى المصير الذى ينتظرها ولا سيما بعد بدر ، فهل من الممكن أن تؤلف بينها حلفا تغير به على المدينة وتدمر قوة المسلمين ؟ لقد

تناهت الأخبار إلى النبى أن عصابة من غَطفان وسُليم قررت مهاجمة المسلمين فخرج إلى قرقرة الكُدْر ليأخذ عليهم الطريق ، فعندما وصل إلى ذلك المكان رأى آثار أناس قد ارتحلوا وشيكا ، فما كان منه إلا أن أرسل إليهم جماعة من أصحابه فى أعلى الوادى وأقام هو فى بطنه ، وصادفه غلام اسمه يَسار فاستفسر منه ، فعلم أن الخصم ذهب إلى الماء ، فما كان من المسلمين إلا أن استولوا على ما وجدوه من أنعام وقسموها بينهم على شرعة القرآن ، كان ما غنموه خمسمائة بعير أخذ النبى خمسها وقسم الباقى على رجاله فجاء نصيب كل رجل بعيرين . ثم علم النبى أن جماعة من بنى ثعلبة ومحارب وغيرهما تريد أن تنقض على أطرافه، فكان أن عاجلهم بقوة من أربعمائة وخمسين من المسلمين وفى مسيرة إليهم لقى رجلا من ثعلبة فسأله عن القوم فأخبره بمكانهم قائلا له : « إنهم يا محمد إن سمعوا بمسيرك هربوا فى رؤوس الجبال وأنا سائر معك ودالك على عورتهم » . وما كاد المغيرون يسمعون بتوجه النبى إليهم حتى فروا فوق الجبال . وأيضا علم النبى أن جماعة من بنى سُليم بنَجْران يستعدون لقتاله فما كان منه إلا أن خرج إليهم فى ثلاثمائة رجل وجهد للوصول إليهم . وقبل أن يصل نجران بليلة لقيه رجل من بنى سُليم فاستفسر منه عن القوم فقال له : إنهم عادوا مذعورين . وهكذا كان الأعراب فى خوف متصل على مصيرهم .

أثناء هذه المعارك المتفرقة التقى اليهود بالرسول ﷺ يبثونه ما صار إليه حالهم ويذكرون له مقتل كعب غدرا بغير ذنب اقترفه فأجابهم بقوله : « **إنه آذانا وهجانا بالشعر ولو قر كما قَرَّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما أصابه شر** » .

ثم انتهى الأمر بعد حديث طويل إلى أن كتب النبى معهم كتابا نزلوا على شروطها خوفًا ، ولذلك ظلت نفوسهم قرحة على الإسلام ونبى الإسلام .

نعم صارت قريش فى ضنك شديد بعد أن أخذ الرسول عليها طريقها التجارى . وكان من أهداف النبى ﷺ الحصار الاقتصادى لمكة والقضاء على مكانة قريش فى نفوس العرب ، وهذا ما نبه إلى مخاطره صفوان بن أمية فقد وقف يوما

فى قريش وقال لهم : « إن محمداً وأصحابه قد عَوَّروا علينا متجرنا فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معه فما ندرى أين نسكن . . وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحبشة فى الشتاء . عندئذ قال له الأسود بن عبد المطلب : « تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق » ودله على فرات بن حيان من بنى بكر بن وائل يدلهم على الطريق وقال لهم فرات : « طريق العراق ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد فإنما هى أرضٌ نجدٌ وفيافٍ » ولم يخش صفوان الفيافى لأن الفصل كان شتاء ولم تكن الحاجة إلى الماء كبيرة ، وأعد صفوان من الفضة والبضائع بما قيمته مائة ألف درهم ، وتصادف أن وجد بمكة وقت إعداد لقافلتها للخروج من يثرب هو نُعيم بن مسعود الأشجعى ، فعندما عاد إلى المدينة نقل الخبر إلى الرسول ﷺ . وفى الحال بعث النبى زيد بن حارثة فى مائة راكب لتعترض تجارة قريش عند القَرْدة (ماء من مياه نجد) فولى أصحاب القافلة هاربين وأصاب المسلمون العير وكان فيها خير كثير ، وعاد زيد بغنائمه إلى الرسول فخمسها وقسم ما بقى على رجاله . أما فرات بن حيان فعرض عليه الرسول الإسلام لينجو فأسلم ونجا .

وبذلك كان فقد قريش لقافلة صفوان بن أمية مما زادْ من شدة حرصها على أن تأخذ بثأرها ، وما كان هذا ليغيب عن بديهة الرسول ، وهذا ما حثه على أن يزيد من أواصر التواد بينه وبين المسلمين وبين المسلمين وغيرهم .

• • •

غزوة أحد

بعد غزوة بدر الكبرى التى منيت فيها قريش بهزيمة نكراء شنعاء أخذ المشركون يوحدون إرادتهم وخطتهم وصفوفهم للأخذ بالثأر من المسلمين ، فاتفق كبراء مكة جبير بن مُطعِم ، وصفوان بن أمية وعِكْرِمة بن أبى جهل والحارث بن هشام وحويطب بن عبد العزى ، وغيرهم على أن تباع العير وتنفق أموالها على إعداد جيش لقتال محمد، فضلاً عن إغراء القبائل بالمال لحثها على الاشتراك مع قريش فى الأخذ بالثأر ، وكذلك استنفر القرشيون أبا عزة الشاعر ، وكان النبى قد عفا عنه مع أسرى بدر ، كما استنفروا جماعات من الأحباش ليشتركوا فى القتال . وأكثر من هذا ، فإن نساء قريش أصررن على أن يشتركن مع الغزاة لينتقمن من محمد وأصحابه ، وكان من الطبيعى أن يتشاور أولئك المشركون بشأن اشتراك النسوة فى القتال . فمنهم من قال يخرجن : فإنه يحفظكم ويذكركم قتلى بدر ، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه . ومنهم من قال : « يا معشر قريش ، هذا ليس برأى أن تعرضوا حُرُمكم لعدوكم ولا آمن أن تكون الدَّبْرة عليكم ، فتفتضحوا فى نسائكم » وأثناء احتدام التشاور صاحت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان فى الذى يرفض خروج النساء : « إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك ، نعم ، نخرج فنشهد القتال ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات فى سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجحْفة ، فقُتلت الأحبة يومئذ أن لم يكن معهم من يحرضهم » . وخرجت قريش ومعها نساؤها تقودهن هند تتأجج حرقة للأخذ بالثأر ، خرجت قريش فى ثلاثة ألوية عُقِدت فى دار الندوة ، فعلى اللواء الأكبر كان طلحة بن أبى طلحة ، وكان يتألف من ثلاثة آلاف رجل منهم مائة من ثقيف والباقون من مكة فى سادتها ومواليها وأحابيشها تسلحوا بأسلحة كثيرة وكانوا يقودون مائتى فرس وثلاثة آلاف بعير من بينهم سبعمائة مسلحون بالدروع ، واتخذ هذا الجيش أهبته للزحف ، وكان العباس بن عبد المطلب عم النبى واقفا لحظتها وعينه على ما يدور ويجرى ، ومع أن العباس

كان متمسكًا بدين آبائه وقومه إلا أن إحساسه بالعصبية والشعور بالإعجاب بمحمد وتذكره لحسن معاملته له يوم بدر ، كل هذا جعله يشهد مع النبى بيعة العقبة الكبرى ويقول فى الأوس والخزرج بأنهم : « إن لم يكونوا مانعى ابن أخيه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم فليدعوه إلى أهله يذودون عنه ذيادهم من قبل » ذلك كله حث العباس على أن يكتب إلى النبى بما سمع وشاهد . وسلم رسالته إلى رجل غفارِىٍّ يصل إلى المدينة فى ثلاثة أيام .

وسارت قريش فى جيشها حتى وصلت الأبواء ومرت بقبر أم النبى آمنة بنت وهب فتهور بعض السخفاء واندفع إلى القبر محاولا نبشه . ولكن بعض الكبار منعوهم وصدوهم حتى لا تكون سنة عند العرب وقالوا : « لا تذكروا من هذا شيئًا ، فلو فعلنا لنبشت بنو بكر وبنو خزاعة موتانا » واستأنفت قريش سيرها حتى بلغت العَقيق ، ثم نزلت عند سفوح جبل أحد على مسافة خمسة أميال من المدينة، ووصل الغِفَارىّ المدينة فوجد الرسول بقباء فاتجه نحوه حيث وجده على باب المسجد ممتطيا حماره ، فسلمه الرسالة فقرأها عليه أبى بن كعب فأوصاه النبى ألا يذيع منها شيئًا ، ورجع إلى المدينة حيث قصد إلى سعد بن الربيع فى داره فروى له ما جاءه من العذاب وطلب إليه ألا يذيع شيئًا مما قاله ، غير أن زوج سعد كانت بالمنزل فتناهى إليها الحديث وبذلك انكشف السر ، وما كان من الرسول إلا أن أرسل أنسًا ومؤنسًا ابنى فضالة ليتحسسا أخبار قريش فأدركا أنها اقتربت من المدينة وجعلت إبلها وخيلها ترعى فى زروعها ، وكذلك أرسل الرسول الحباب بن المنذر بن الجموح ، فلما تجمعت لديه الأخبار أشكل على الرسول الأمر ، وخرج سلمة بن سلامة فوقع بصره على كوكبة من خيل قريش وهى تقترب رويدا رويدا من المدينة فأسرع فأخبر القوم بما وقعت عليه عيناه ، وخاف الأوس والخزرج مما قد يقع لهم من الغزو الذى حشدت له قريش خير رجالها وأكثف سلاحها ، وبلغ الخوف غايته حين عمد سادات المسلمين من أهل المدينة إلى أن يكونوا فى سلاحهم ، يحيطون بالنبى خوفًا على حياته ، وفى نفس

الوقت وضعت المدينة تحت الحراسة العامة طوال الليل ، وفى الصباح اجتمع النبى بوجوه القوم من مخلصين ومنافقين ليتنافسوا فى الخطة التى يمكنهم بها أن يواجهوا عدو الإسلام ، وكان من رأى النبى أن يعتصم المسلمون بالمدينة فإذا حاولت قريش اقتحامها تيسر لأهلها الدفاع عنها والتغلب على المهاجمين ، وكان عبد الله ابن سلول على رأى النبى وقال : « لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصى ونجعل معهم الحجارة ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسيافنا فى السكك ، إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ، ما فُضّت علينا قط وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا ، فدعهم يَا رسول الله ، وأطعنى فى هذا الأمر ، فإنى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم » .

وكان كبار أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار يتفقون مع ابن أبى فى رأيه الذى كان هو رأى النبى كما أشرنا ، غير أن الحماسة أخذت بنفوس الفتيان الذين لم يشهدوا بدرا ، والذين شهدوها وغنموا النصر العظيم رأوا أن لابد من التصدى لذلك العدو ومواجهته هذا فضلا عن أنه خشوا أنهم يتهموا بالجبن والتردد وقد قال أحدهم : « إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمدا فى صياصى يثرب وآكامها فتكون هذه مجرأة لقريش وهاهم هؤلاء قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نذبَّ عن عرضنا (كل واد فيه زرع) لم يزرع ، وإن قريشا قد مكثت حولها تجمع الجموع ، وتستجلب العرب من بواديها ، ومن تبعها من أحابيشها ثم جاءنا قد قادوا الخيل ، وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يُكلمُوا ، لو فعلنا لازدادوا جرأة ، ولشنوا الغارات وأصابوا من أطرافنا ، ووضعوا العيون ، والأرصاد على مدينتنا ، ثم لقطعوا الطريق علينا.

وتلا ذلك كلمات المؤيدين للخروج فإما النصر وإما الجنة . وهنا اهتزت

القلوب لحديث الاستشهاد . قال خيثمة أبو سعد بن خيثمة : « عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة . لقد أخطأتنى وقعة بدر وكنت عليها حريصا حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرُزق الشهادة، وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول : « الحق بنا ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا ، والله يا رسول الله أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته فى الجنة وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى : « فعندما أصبح الرأى الغالب للقائلين بالخروج قال النبى ﷺ وكأنه كان يقرأ الغيب : « **إنى أخاف عليكم الهزيمة** » ومع تحذيره أصروا على موقفهم ، فلم يملك صلوات الله عليه إلا أن ينزل على : « رأى الأغلبية » وهكذا تكون الشورى فى الصميم واللباب .

وفى يوم الجمعة صلى النبى بالناس وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ثم دخل بيته ودخل معه أبو بكر وعمر فعمماه وألبساه الدرع والسيف ، وفى أثناء إعداده للقتال صار الناس يتحاورون ، قال أسَيْد بن حضير وسعد بن معاذ وكانا يريان التحصن بالمدينة : « لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة ، فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج ، وهو له كاره ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه وما رأيتم له فيه هوى أو رأيًا فأطيعوه » .

وشعر الذين كانوا يدعون إلى الخروج أنهم عصوا الرسول فتألموا كثيرا ، فلما خرج النبى إليهم لابسا درعه متقلدا سيفه قالوا له معتذرين : « ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله وإليك» قال النبى : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم وما كان لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه انظروا ما آمركم به ، فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم » وتقدم الرسول برجاله نحو أحد ، فكان أن نزل مكانا يسمى (الشيخين) ، (موضع كان به شيخ أعمى وعجوز عمياء) وفجأة جاءت كتيبة لتنضم إليه وهو لا يعرف أهلها فسأل عنها فقيل : « هؤلاء حلفاء ابن أبى من يهود » فقال عليه السلام : « **لا يستنصر بأهل الشرك على أهل**

الشرك ما لم يسلموا » فتراجع اليهود وعادوا إلى المدينة .

أمام هذا الموقف وجدها حلفاء ابن أبى فرصتهم لكى يثيروه عليه ، فكانوا أن قالوا له : « لقد نصحته وأشرت عليه برأى من مضى من آبائك ، فكان رأيه مع رأيك ثم أبى أن يقبله ، وأطاع الغلمان الذين معه » وأعجب ابن أبى برأيهم فانسحب مع كتيبة من أصحابه ، ولم يبق فى الميدان إلا النبى ومعه المؤمنون الصادقون ، وكانوا لا يزيدون عن سبعمائة ، أمام ثلاثة آلاف من قريش من أهل مكة لكل منهم ثأره عند محمد ، وتحرك المسلمون فى الصباح الباكر حتى وصلوا أحدا واخترقوا دروبه جاعليه خلفهم. وتوقف بينهم ، وأخذ منهم خمسين رجلا وضعهم على شُعَب فى الجبل وقال لهم : « احموا ظهورنا فإن نخاف أن يجيئونا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا عنه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم ، فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا فلا تدافعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنَّبْل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل » ثم أصدر أمره لغير الرماة ألا يقاتلوا إلا بأمره .

أما الجبهة المقابلة وهى قريش ، فإنها رتبت مواقع قواتها : فكان على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، وكان صاحب اللواء عبد الْعزَّى طلحة بن أبى طلحة ، وكان لنساء قريش عملهن ؛ فكن يمشين بين الصفوف يضربن بالدفوف ، وكن يتحركن مرة أمام الصفوف ومرة فى مؤخرة الصفوف تتزعمهن هند بنت زوج أبى سفيان ، وكن فى مشهدهن هذا يقلن :

ويها بنـــى عبـــد الدار　　ويها ويها حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

ويقلن :

إن تقبلوا نعانــق　　ونفرش النمــارقْ

أو تدبـروا نفارق　　فِراقًا غير وامـقْ

وأخذ كل فريق يحرض فريقه على القتال ولكل حجته ، أما قريش فتذكر بدرا وقتلاها . أما المسلمون فيذكرون الله ونصره ، وفى هذا كان رسول الله يحض ويحث على الجهاد ويطمئن أنصاره على أن لهم النصر ما صبروا . ثم مد يده بسيف فقال : « **من يأخذ هذا السيف بحقه ؟** » فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دجانة سِمَاك بن خَرَشة أخو بنى ساعدة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « **أن تضرب به العدو حتى ينحنى** ». وقد عرف أبو دجانة بالشجاعة وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل وأنه أخرج عصابة الموت . فأخذ السيف وأخرج عصابته وعصب رأسه ، وجعل يتبختر بين الصفين على عادته إذ يختال عند الحرب ، فلما رآه النبى قال : « **إنها مشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن** » .

وانطلقت شرارة القتال عندما انتقل أبو عامر عبد عمرو بن صيفىّ الأوسى من المدينة إلى مكة يحرض قريشًا على قتال محمد ، ولم يكن قد اشترك فى معركة بدر ،وانطلق تجاه أحد فى خمسة عشر رجلا من الأوس وجماعة من عبيد أهل مكة ، وكان يتباهى بقوله : إنه إذا نادى أهله المسلمين من الأوس الذين يناصرون محمداً لانضموا إليه فى الحال مناصرين لقريش ، فخرج فنادى : يا معشر الأوس، فأجابه الأوس المسلمون : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق ، واشتجر القتال. وعمل كل من عبيد قريش وكذلك عكرمة بن أبى جهل ، وكان على الميسرة أن يفاجئ المسلمين فهاجمهم ، ولكن المسلمين أسرعوا فأطلقوا نحوه الحجارة حتى اضطر أبو عامر ورفاقه إلى الهرب من المعركة ، آئنذ أطلق حمزة بن عبد المطلب صيحة القتال « أمت ، أمت » ، واخترق قلب جيش قريش ، وخرج صوت طلحة ابن أبى طلحة ، وهو يحمل لواء أهل مكة ، وهو يقول : من يبارز، فخرج إليه على ابن أبى طالب ، وتقابلا بين الصفين ، فأسرع إليه على بضربة فلقت هامته ، وفرح النبى وكبر المسلمون وشدوا ، وانطلق أبو دجانة وبيده السيف وعلى رأسه عصابة الموت يقتل كل من فى طريقه يجوب صفوف

المشركين، فرأى إنسانًا يخمش الناس خمشًا شديدًا ، فحمل عليه بالسيف ، فإذا هى هند بنت عتبة فرجع عنها مشرفا سيف رسول الله أن يقتل به امرأة .

وجمحت قريش فى القتال يتأجج فى عروقها طلب الثأر لمن قتلوا من ساداتهم وكبرائهم أولئك الذين قتلوا منذ عام فى بدر ، وأصبح فى الميدان جبهتان غير متكافئتين لا فى العدد ولا فى العدة ، الأولى قريش يحركها ثأر عميق ، والثانية جبهة المسلمين تدافع عن عقيدة الإيمان بالله عقيدة وشريعة ، وكانت الجبهة الأولى تنعم بزاد من الخير الوفير .

فى هذه المعركة قتل حمزة بن عبد المطلب الكثيرين منهم : أرطاة بن شرحبيل، وسباع بن عبد العزى الغُبشانى ، وفى هذه المعركة تآمرت هند بنت عتبة مع وحشى الحبشى على قتل حمزة عم النبى ، ويذكر وحشى وقصة هذه المؤامرة فيقول : « . . فخرجت مع الناس وكنت رجلا حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئا ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق (ما لونه بياض إلى سواد) يهذ الناس سيفه هذا ، فهززت حربتى حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت فى ثُنَّته (ما بين السرة والعانة من أسفل البطن) حتى خرجت من بين رجليه وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته فأخذت حربتى ورجعت إلى المعسكر وقعدت فيه وليس لى بغيره حاجة إنما قتلته لأعتق فلما قدمت مكة أعتقت » .

فى هذه المعركة الضارية وغير المتكافئة كان هناك قُزمان وهو من المنافقين الذين ادعوا الإسلام ، وكان قد تراجع عن الخروج يوم أُحد . فلما أصبح عيَّره نساء بنى ظافر فقلن : « يا قزمان ، ألا تستحيى لما صنعت ، ما أنت إلا امرأة خرج قومك فبقيت فى الدار » فما كان من قُزْمان إلا أن دخل بيته وهو فى شدة الغيرة فأخذ فرسه وجعبته وسيفه ، وكان معروفًا بالشجاعة ، وانطلق بفرسه حتى بلغ جيش المسلمين والنبى فى شغل بتنظيم الصفوف واندفع خلال القوات حتى كان فى الصف الأول فخاض بفرسه القتال يطلق نباله كالرماح العاصفة . فلما دنا آخر

النهار فضل أن يبخع نفسه بعد أن قتل من قريش سبعة رجال فى أقل من ساعة غير الذين قتلهم فى بداية المعركة . . فى هذه اللحظة مر به أبو الغَيْداق وهو يسلم الروح : « هنئيًا لك الشهادة يا قزمان » فرد قزمان بقوله : « إننى والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين ، ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرمنا وتطأ سعفنا ، والله إنى ما قاتلت إلا عن أحساب قومى ولولا ذلك ما قاتلت» وتراجعت قريش بعض الشىء .

ثم عنفت حدة القتال واستماتت قريش حتى أنه إذا سقط لواء من حامله أخذه من يخلفه ، حمل عثمان بن أبى طلحة اللواء بعد أن قتل علىٌّ طلحة بن أبى طلحة فلقى مصرعه على يد حمزة وحمله أبو سعد بن أبى طلحة وصاح : «أتزعمن أن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار ، والله إنكم لتكذبون ولو كنتم تؤمنون حقا فليتقدم منكم من يقاتلنى » وضربه على أو سعد بن أبى وقاص بسيفه ضربة ففلقت هامته ، ثم أخذ حملة اللواء يتعاقبون واحدا بعد الآخر حتى قُتل تسعة من بنى عبد الدار كان آخرهم صؤاب الحبشى غلام بنى عبد الدار وقد ضربه قُزْمان على يده اليمنى فتناول اللواء باليسرى فقطعها قزمان بسيفه فضم صؤاب اللواء بذراعيه على صدره ثم ضربه على ظهره وهو يقول : «يا بنى عبد الدار هل أعذرت ؟ » وقتله قزمان أو قتله سعد بن أبى وقاص على خلاف فى الرواية . فلما قتل أصحاب اللواء لم يصبر المشركون على الصمود فولوا هاربين تاركين نساءهم وسقط الصنم الذى كانوا يتيامنون به من فوق الجمل الذى كان فوقه .

والحق أن انتصار المسلمين فى هذه المعركة غير المتكافئة كان معجزة من معجزات الحرب ترجع أسبابها إلى قوة العقيدة وقوة الإيمان وقوة الفكر .

ولاحق المسلمون المشركين بأسيافهم للقضاء عليهم غير أنهم سرعان ما انصرفت عيونهم إلى المغانم حتى أن الرماة الذين أمرهم الرسول ألا يتركوا مواقعهم حتى ولو رأوا أصحابه يقتلون ، أولئك الرماة أغرتهم مشاهدة الغنائم . وقد قال بعضهم لبعض : « لم تقيمون هاهنا فى غير شىء وقد هزم الله عدوكم

وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا فاغنموا مع الغانمين » فقال واحد منهم: ألم يقل لكم رسول الله : « **لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا؟** » قال الأولون : لم يرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذل الله المشركين ». ونشب الخلاف فنصحهم أميرهم عبد الله بن جبير ألا يخالفوا ما أمر به رسول الله، ولكن الكثرة لم تأبه بالنصيحة وأسرعوا إلى المغانم ولم يبق حوله إلا نفر دون العشرة .

وبينما المقاتلون منهمكون فى النهب انتهزها خالد بن الوليد وكان يقود فرسان مكة ، فهاجم بهم الرماة فأزاحهم عن مواقعهم ، ولم ينتبه المسلمون لذلك الحادث. وفى لحظتها أطلق خالد صيحة عرفت منها قريش أنه دار ليقتفى جيش المسلمين فرجع المنهزمون من قريش وراء المسلمين ، فأثخنوا فيهم ضربا وتقتيلا، وهنا دارت الدائرة على المسلمين ، فرمى المسلمون ما بأيديهم من غنائم وعادوا إلى سيوفهم وصاروا يتخبطون حتى أنهم قتلوا أحد المسلمين وهو حُسَيْل بن جابر أبا حذيفة بغير أن يتبينوه ، وكان أكبرهمّ كل مسلم أن يلوذ بحياته إلا نفرًا قليلاً منهم على ابن أبى طالب ، وفجأة ارتفع صوت يقول : « قتل محمد » وفى لحظتها زاحمت قريش إلى الناحية التى كان فيها النبى ، وكل منهم يتمنى أن يفاخر بأن كان له فى قتله نصيب ، وأحاط المسلمون بالنبى يدافعون عنه ويذودون الحجارة التى تقذفها قريش ، وقد أصابت النبى فوقع ، فأصيبت رَباعيته وشُجَّ فى وجهه وكُلِمَتْ شفته ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجْنته . وكان رامى الحجر الذى أصابه عُتبة بن أبى وقاص . وبجهد شديد سار الرسول ومعه أصحابه ولكنه وقع فى حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون فأسرع إليه على ابن أبى طالب ، ورفعه طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى وسار مع أصحابه ثم تسلقوا أحدا ناجين من متابعة العدو لهم .

ومما يذكر فى هذه المعركة أن المسلمين صنعوا من أبدانهم وأرواحهم درعا حول رسول الله ﷺ ليحموه من تهجم القرشيين ، ولم تتخلف المرأة عن هذه

الفدائية . فأم عمارة الأنصارية خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه ماء وتدور على المسلمين المجاهدين تسقى منهم من استسقى ، فلما انهزم المسلمون ألقت سقاءها واستلت سيفا وقامت للقتال دفاعًا عن النبى بالسيف وكانت ترمى القوس، واستشهدت من شدة الجراح ، وترَّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله فحنى ظهره والنبل يقع فيه ، وكان سعد بن أبى وقَّاص يقف إلى جانبى النبى يرمى بالنبل دونه والنبى يناوله النبل ، ويقول له : « **ارم ، فداك أبى وأمى** » وكان الرسول من قبل يرمى بنفسه عن قوسه حتى اندقت كلها ، فى هذا الوقت الحرج العصيب إشاعة راجفة أن محمدا قتل ، وكان أبو بكر وعمر من الذين ظنوا ذلك فانتحوا الجبل وألقوا ما بأيديهم ، فرآهم أنس بن النضر ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ، قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استدار الجميع نحو القوات القرشية يقاتلون قتال الاستشهاد ، وظل أنس بن النضر يصول ويجول حتى أنه لم يُقتل إلا بعد أن ضُرب سبعين ضربة حتى تمزق جسده أشلاء فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه .

وطُيِّر خبر مقتل الرسول بين قريش فحسبته صحيحًا ففرحت فرحا شديدًا . وأخذ أبو سفيان وهو فى غامر فرحه يبحث عن النبى بين القتلى ، وكان النبى قد أمر أصحابه المقاتلين أن يشيعوا خبر قتله حتى تخف عنهم وطأة قريش غير أن كعب بن مالك اتجه نحو أبى دجانة ومن معه فتبين محمدا حين أبصر عينيه تزهران تحت المِغْفر فرفع صوته مناديا : « يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله » . فأومأ إليه النبى أن يسكت غير أن الخبر ذاع بين المسلمين ، فتكاثروا على النبى بعد أن عرفوا صحة الخبر ، فقاموا مع النبى ، نحو الشعب يصحبه أبو بكر وعمر وعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام ، وغيرهم وكان لدوىّ صيحة كعب أثرها فى قريش فقد حسبوها حيلة لشد عزائم المسلمين ، غير أن بعضهم اندفع نحو النبى والذين صحبوه ، وقد لحق بهم أبى بن خلف وهو يقول : « **أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا** » فما كان من الرسول إلا أن استدار إليه وطعنه بحربة الحارث بن

الصِّمة طعنة جعلته يتقلب على فرسه ويعود أدراجه ليموت فى الطريق .

ولما وصل المسلمون إلى فم الشعب خرج على فملأ درقة ماء ، فغسل الرسول به الدم عن وجهه وصب منه على رأسه ، ونزع أبو عبيدة بن الجراح حَلْقتى المغفر من وجه الرسول فسقطت ثنيتاه ، وبينا الجميع حول الرسول صعد خالد بن الوليد الجبل ومعه مجموعة من الفرسان فتصدى لهم عمر بن الخطاب وبعض من أصحاب الرسول وأرجعوهم ، وأسرع المسلمون فى صعود الجبل واضطر الرسول إلى أن يصلى الظهر قاعدا من الجراح التى أصيب بها وصلى المسلمون خلفه قعودا.

أما قريش فإنها فرحت بنصرها ظانة أنها قد انتقمت لبدر وبلغ من سرورها أن صاح أبو سفيان : « يوم بيوم بدر ، والموعد العام المقبل » وتملكت هند بنت عتبة زوجه حمى الانتقام الدموى ، فلم يكفها النصر ولم يشف غليلها مقتل حمزة ، فقد اندفعت ومعها مجموعة من الموتورات يمثلن بالقتلى بجدع الآذان والآناف وصنعت منها هند قلادة وأقراطا ، ثم أبصرت جسد حمزة فبقرت بطَنه وانتزعت كبده من جسده وأخذت تلوكها بأسنانها بغير أن تتمكن من بلعها فلفظتها ، غير أن أبا سفيان تبرأ من تلك الشناعات ومن تبعتها ،وأعلن أنه لم يأمر بها حتى أنه قال لأحد المسلمين : « إنه قد كان فى قتلاكم مَثْلٌ » ، والله ما رضيت وما سخطت ، وما نهيت وما أمرت » .

وانصرفت قريش لدفن قتلاها وانصرف المسلمون كذلك لدفن قتلاهم ، وبينا رسول الله يبحث عن عمه حمزة أبصره وقد بُقر بطنه ومثل به فحزن عليه حزنًا شديدًا حتى أنه قال : « **لن أصاب بمثلك أبدًا . وما وقفت موقفًا قط أغيظ إلىّ من هذا** » ثم قال : « **والله لئن أظهرنا الله عليهم يومًا من الدهر لأمثلن بهم مُثْلة لم يمثلها أحد من العرب** » فكان أن نزل قوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** (١٢٦) **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** ﴾ [النحل:١٢٦ ، ١٢٧] بهذه الآية الكريمة عفا الرسول عن

الذين أخطؤوا وصبر على ما أصابه وأصحابه ونهى عن المثلة ، وسجى عمه حمزة ببرده وصلى عليه ، أما صَفية أخت حمزة فإنها ألقت نظرتها الأخيرة عليه ثم صلت عليه واستغفرت له ، ثم دفن حمزة وبعدها أمر النبى بدفن القتلى فدفنوا حيث قتلوا . ثم ذهب المسلمون إلى المدينة وعلى رأسهم الرسول ﷺ .

بعد أن دخل النبى ﷺ بيته صار يتفكر فيما آل إليه من أمر المسلمين : فأهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا مبتهجين لكارثة الهزيمة التى حاقت بالمسلمين وفى ذات الوقت كانت هيمنة المسلمين على كل شؤون المدينة قد أصابها زعزعة بسبب الأراجيف التى روجها المنافقون ، فعبد الله بن أبى ابن سلول رجع من أحد ، ولم يشترك فى القتال بذريعة أن محمدا أهمل نصيحته ، وأنه أساء إلى مواليه من اليهود ، وكذلك فإنه لو بقيت هزيمة أحد هى السائدة فى المجتمع الإسلامى لضعفت هيبة المسلمين ولأصابتهم سخرية المشركين لا فى المدينة فحسب ولكن فى شبه الجزيرة العربية بأسرها ، وأكثر من هذا فإن من عُبَّاد الأوثان والمشركين من سوف لا يصدهم أحد عن الاجتراء على المسلمين ، إذن فلا بد من ضربة قوية ومباغتة تبعث فى نفوس المسلمين الثقة وتستنهض إرادتهم على أن يكون فى مقدور هذه الضربة أن توهن قوة اليهود والمنافقين .

كل ذلك تكون له فاعليته المؤثرة فى استعادة المسلمين لسلطانهم وقوة كلمتهم فى المدينة ، ففى صباح اليوم الثانى من أحد وهو يوم الأحد السادس عشر من شوال ، وقف مؤذن النبى وأذن فى المسلمين يدعوهم إلى ضرورة الخروج لمطاردة العدو ودحر فلوله شريطة ألا يخرج إلا من اشترك فى الغزوة ، وعندما تقدم المسلمون بقواتهم فقد ظن أبو سفيان أن المسلمين قد جاءهم المدد ومن ثم فإنه لن يقوى على مواجهته فخاف ، فى هذا الوقت كان الرسول قد بلغ « حمراء الأسد» (موضع على ثمانية أميال من المدينة) أما أبو سفيان فإنه كان بالروحاء فمر به معبد الخُزاعى ، وكان قد التقى بمحمد ورجاله فاستفسر منه عن حال قوة المسلمين، فرد عليه معبد وكان لا يزال مشركا : « إن محمدا قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى

جمع لم أر مثله قط ،وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه وكلهم أشد ما يكون عليكم حَنقا ومنكم للثأر طلبا » وتحير أبو سفيان فى موقفه هذا فلو أنه فرض الميدان ، فسوف يكون فراره هو السقوط لمكانة قريش . فاصطنع الحيلة فأرسل مع ركب من عبد القيس متجهين إلى المدينة رسالة إلى محمد فحواها أن أبا سفيان عازم على إعادة الكرة على محمد وأصحابه ليفنيهم عن آخرهم . وعندما وصلت تلك الرسالة إلى الرسول وهو فى موقعه « بحمراء الأسد » فإنه ظل على قوته فى إيمانه وإرادته وليوهم قريشا أنه مصر على موقفه منهم ، ولذا فإنه ظل فى مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة حتى خارت إرادة الصمود عند أبى سفيان ففضل أن ينصرف بنصره إلى مكة خشية أن يحدث له ما لا يُحْمد.

وبهذا الموقف التكتيكى انتصر المسلمون ، فرجع الرسول إلى المدينة فعاد إليها الكثير من الهيبة ، ورغم ذلك النصر التكتيكى الذى أصاب قريشا بشىء من الرعب ، فإن الرسول كان يشعر بدقة موقفه تماما ، ومن ثم فإنه رأى أن من الضرورى تقويم الموقف العام للمدينة ولجزيرة العرب جميعًا ، فبعد شهرين من أُحد نمى إلى علمه صلوات الله عليه أن طُليحة وسلمة ابنى خُويلد وكانا على رأس بنى أسد يحرضان قومهما ومن على شاكلتهما أن يشنوا الحرب على محمد فى المدينة ، وأن يغنموا الكثير من الأنعام التى ترعى حول المدينة ، ومما شجعهم على هذا الوهم ظنهم أن محمدا وأصحابه لا يزالون واهنى الإرادة بسبب ما وقع لهم فى أحد . ولما انتهت إلى النبى تلك الأنباء لم يتردد ،فقد دعا إليه أبا سلمة ابن عبد الأسد وعقد له لواء سرية مؤلفة من مائة وخمسين مقاتلا منهم أبو عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبى وقاص وأُسَيْد بن حُضَير وكلفهم بأن يكون سيرهم بالليل واستخفاءهم بالنهار ،وأن يكون طريقهم غير مطروق من أحد ، ثم يفاجئوا العدو القرشى بالإغارة عليه . وقام أبو سلمة بما كلف به فأحاط بالعدو فى عماية الصبح وهاجمه برجاله فهرب المشركون ، فوجه وراءهم من يطاردهم ويغنم

منهم. وفعلا عاد المسلمون بالغنائم فنحوا الخمس لله ورسوله وللمسكين وابن السبيل وقسموا الباقى بينهم ثم قفلوا إلى المدينة منتصرين ، وكان ذلك النصر سببًا فى أن عاد للمسلمين شيئًا من عزة الهيبة .

وأيضا انتهى إلى النبى خبر أن خالد بن سفيان بن الهُذلى يقيم بنخلة أو بعُرَنة وأنه يعد جموعا ليغزو بها النبى ، فأوفد إليه عبد الله بن أُنيس ليتعرف على حقيقة الخبر ، وسار عبد الله حتى لقى خالدا وهو فى ظَعن يرتاد لهن منزلا . فلما انتهى إليه سأله خالد : مَنْ الرجل ؟ فأجابه : أنا رجل من العرب سمع بك وبجمعك لمحمد فجاءك لذلك . فلم يُخف خالد أنه يجمع الجمع ليغزو المدينة . ولما رآه عبد الله فى عزلة من الرجال وليس معه إلا أولئك النسوة استدرجه للسير معه حتى إذا أمكنته منه الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله ، ثم ترك ظعائنه مُنكبَّات عليه يبكينه وعاد إلى المدينة فأخبر الرسول الخبر ، وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمها زمنا ثم فكرت تحتال لتأخذ بثأره .

فى هذا الوقت وصل رهط من قبيلة مجاورة فقالت للنبى : « إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن » وكان من سنة النبى ﷺ أن يندب نفرًا من أصحابه ليقوموا بذلك العمل الجليل الذى يدعو الناس إلى الهدى ودين الحق . . ثم يكونوا من أنصار الرسول حتى يشدوا أزره وينصروه على أعدائه ، فبعث الرسول ستة من كبار أصحابه صحبوا ذلك الرهط وساروا معه حتى إذا جاؤوا إلى ماء لهذيل بالحجاز عند مكان يسمى الرجيع غدر ذلك الزهط بالمسلمين بل استصرخوا عليه هذيلا ، وكم كانت فزعة المسلمين الستة وهم فى رحالهم عندما أحاط بهم ذلك الرهط وبيدهم السيوف ، فأسرع المسلمون الستة إلى سيوفهم ليدافعوا عن أنفسهم ، غير أن هذيلا قالت لهم : « إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم» فأوجس المسلمون خيفة ورأوا أن الذهاب بهم إلى مكة فرادى لن يجلب عليهم سوى عار الذل والهوان ، فرفضوا بل إنهم بادروا إلى القتال وهم على يقين

من أن موقفهم فى غاية الخطورة ، وتمكنت هذيل من أن يقتل منهم ثلاثة . أما الثلاثة الآخرون فإنه استسلموا فأخذهم الهذليون إلى مكة ليبيعوهم . غير أن عبد الله بن طارق استطاع أن ينزع يده من غُل الأسر ، وأشهر سيفه للقتال غير أن القوم ظلوا يرجمونه بالحجارة حتى مات ، أما الأسيران الآخران فإنهما بيعا فى مكة ، بيع زيد بن الدَّثنة لصفوان بن أمية الذى اشتراه ليقتله بأبيه أمية بن خلف فدفع به لمولاه نسطاس ليقتله ، فلما قُدِّم سأله أبو سفيان « أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا الآن فى مكانك تُضرب عنقه وأنت فى أهلك ؟ قال زيد : «والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلي » فعجب أبو سفيان وقال : « ما رأيت من الناس أحدا يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً » ثم قتل نسُطاس زيدا ، وهكذا استشهد زيد لأمانته الدينية وحبه لنبيه . أما خُبَيْب فحُبِس حتى خرجوا ليصلبوه فقال لهم : « إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا فأجازوه ما أراد ، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم وقال : « أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة » ورفعوه إلى خشبة فلما أوثقوه نظر إليهم بعين مغضبة ، وصاح : اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحدا » فأخذت القوم الرجفة من صيحته واستلقوا إلى جنوبهم حذراً من أن تصيبهم لعنته ثم قتلوه ، وكذلك جاء استشهاده فى سبيل الله . وغمر المسلمون الحزن الشديد لما وقع لأصحابهم الستة ، وأخذ التفكير العميق طويلا بالمسلمين ، وأثناء تفكر الرسول فيما وقع جاءه أبو بَرَاء عامر بن مالك ملاعب الأسنة . فعرض عليه الرسول أن يُسْلِم فرفض بغير أن يظهر عداوة للإسلام ، ولكنه قال : « يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فخشى محمد أن يؤذى أهل نجد أصحابه فيغدرون بهم كما فعلت هذيل بخبيب وأصحابه ، وبعث الرسول بجماعة من أربعين رجلا من خيار المسلمين على رأسهم المنذر بن عمرو أخو بنى ساعدة ، وانطلقوا فنزلوا عند بئر معونة

بين أرض بنى عامر وحرة بنى سُليم ومن موقعهم أرسلوا حَرام بن ملحان إلى عامر الطفيل برسالة النبى ، فما كان من عامر إلا أن قتل الرجال ، وفى نفس الوقت استصرخ قبائل أخرى ، فأسرعت إليه وخرجت معه وأحاطوا بالمسلمين فى رحالهم، وما كان من المسلمينَ إلا أن أسرعوا إلى سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا ولم ينج منهم إلا اثنان : كعب بن زيد فقد تركه ابن الطفيل وبه رمق فعاش ولحق بالمدينة ، وكذلك عمرو بن أمية وقد اعتقه عمرو بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت على أمه . وأثناء عودة عمرو فى طريقه التقى برجلين ظنهما من الذين عَدَوْا على أصحابه ، فأمهلهما حتى إذا ناما هجم عليهما وقتلهما ثم استمر فى سيره حتى وصل المدينة فأخبر الرسول بما عمل ، فإذا الرجلان عامريان من قوم أبى براء وإذا معهما عقد جوار من رسول الله اقتضاه أن يؤدى ديتهما ، وقد حزن الرسول على قتلى بئر معونة غاية الحزن وأمضه وقال : « هذا عمل أبى براء لقد كنت لهذا كارها متخوفًا » أما أبو براء فقد شق عليه ألا يصون ذمة عامر بن الطفيل وقد بلغ الأمر أن ابنه ربيعة طعن عامرًا بالرمح انتقاما منه لأبيه .

واستمر حزن النبى شهرا كاملا يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم له من قتلة المسلمين ، وقد شمل الحزن المسلمين جميعًا لما أصاب إخوانهم ولم يخفف عنهم إلا أنهم آمنوا بأنهم جميعًا استشهدوا وأنهم جميعًا فى الجنة .

تلك المحن التى نزلت بالمسلمين : فى الرجيع ، وبئر معونة ، وانتصار قريش فى أحد أضعفت هيبة المسلمين فى نظر المنافقين واليهود ، وفكر النبى فى هذا الشأن الخطير تفكير دقيقًا وحصيفًا إذ وجد أن ثمة حربًا أهلية توشك أن تندلع بين اليهود والمنافقين من جانب والمسلمين من جانب آخر ، فقرر أن لا شىء خير من أن يستدرج المنافقين واليهود ليستكشف نواياهم . ولما كان اليهود من بنى النضير حلفاء لبنى عامر فإنه ذهب إلى محل إقامتهم وكان على مقربة من قباء فى عشرة من كبار المسلمين من بينهم أبو بكر وعمر وعلى ، وطلب إليهم أن يساعدوه فى دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية خطأ من غير أن يعلم أن محمدًا

أجارهما، وأمام هذا الطلب أظهر اليهود كل بشر وترحاب ، وأثناء حديثه معهم ذكروا مقتل كعب بن الأشرف وكأنهم يومئون إلى شىء ، ثم يدخل أحدهم وهو عمرو بن جحاش بن كعب البيت الذى كان الرسول مستندًا إلى جداره ، وقد رابه خروجهم ودخولهم . وازداد ارتيابه عندما علم بائتمارهم به ، وفى لمحة انسحب من مكانه تاركًا أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره ، وهنا وقع اليهود فى مأزق إذ ماذا يقولون لأصحاب محمد وماذا يصنعون بهم ؟ فإن غدروا بهم وقتلوهم فإن محمدًا سينتقم منهم ، وإن تركوهم فإن مؤامرتهم على النبى لا تكون قد كشفت وبذلك يظل العهد قائمًا بينهم وبين المسلمين . وكل هذا وهم يحاولون جاهدين بأساليب التمويه أن يظهروا أنهم لا يريدون شرًا بمحمد ، فى هذه الأثناء راب أصحاب محمد مغادرته فقاموا إلى طلبه فقابلهم رجل مقبل من المدينة عرفوا منه أن محمدًا دخلها وأنه قصد من فوره إلى المسجد ، فذهبوا إليه وعرضوا عليه ما رابهم من اليهود وأنهم يضمرون الغدر به . آنئذ أدرك الرسول بفضل بصيرته وما أوحى إليه أن بقاء اليهود خطر داهم ، فبعث إلى محمد ابن مسلمة وقال له : « **اذهب إلى يهود بنى النضير ، وقل لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشرا ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه** » .

وأبلست بنو النضير فلم يجدوا لهذا الكلام دَفْعا ، ولم يجدوا له جوابًا إلا أن قالوا لابن مسلمة : « يا محمد ، ما كنا نرى أن يأتى بهذا الرجل من الأوس » وذلك إشارة إلى تحالفهم وإياهم من قبل فى حرب الخزرج ، فما كان جواب ابن مسلمة إلا أن قال : « تغيرت القلوب » وظل اليهود عدة أيام وهم يستعدون وأثناء ما كانوا في شغلهم جاءهم رسولان من عند عبد الله بن أبى يقولان لهم : « لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا فى حصونهم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم » وبحث بنو النضير رسالة ابن أبى وقد شتتهم الحيرة ، فإن منهم من كان

يشك فى قول ابن أبى ، ولا سيما أن له سابقة مع بنى قينقاع فقد وعدهم ثم خذلهم، هذا فضلا عن أن بنى قريظة لا يعتمد عليهم بسبب الحلف الذى بينهم وبين محمد ثم أنهم لو غادروا مساكنهم إلى خيبر وفى إمكانهم أن يرجعوا إلى يثرب لجنى ثمار نخيلهم ثم يعودون إلى حيث أقاموا بذلك لا تكون خسارتهم كبيرة . غير أن زعيمهم حُيىْ بن أخطب قال : « كلا ، أنا مرسل إلى محمد» إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا ، فليصنع ما بدا له وما علينا إلا أن نرُم حصوننا وندخل إليها ما شئنا وندرب أزقتنا وننقل الحجارة إليها وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة ، وماؤنا لا ينقطع ولن يحاصرنا محمد سنة كاملة .

ومرت الأيام العشرة ولم يغادروا مساكنهم ، فنهض المسلحون إلى سلاحهم واتجهوا إليهم وظلوا يقاتلونهم عشرين ليلة ، فكان أثناءها إذا ظهر المسلمون على الدرب أو الديار اليهودية تراجع اليهود إلى الديار التى بعدها بعد أن يكونوا قد خربوها ، ثم أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود ثم يحرقوه حتى لا يبقى لليهود من قال يدفعهم إلى القتال ، ووجل اليهود كثيرا حتى انهم نادوا : «يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يصنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ » وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [الحشر: ٥] .

وخذل ابن أبى والعرب جميعًا اليهود فلم يتقدم أحد لنجدتهم حتى إذا أيقن اليهود أنهم مقبلون على الهلاك ، فإنهم سألوا الرسول : « أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة ، فصالحهم على أن يخرجوا منها ، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاؤوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره» وغادر اليهود المدينة وعلى رأسهم حُيَىْ بن أخطب ، وكان أن استقر بعض منهم فى خيبر واتجه الباقون إلى أذرعات بالشام مخلفين وراءهم الكثير من الغنائم من غلال وخمسين درعا ، وثلاثمائة وأربعين سيفًا علاوة على أرضهم الزراعية . ولم تعتبر تلك الأرض من مغانم الحرب فلم تقسم بين المسلمين

بل كانت لرسول الله خاصة . ثم قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار بعد أن جعل للفقراء والمساكين جزءًا خاصا توزع ثماره عليهم .

وفى جلاء بنى النضير نزلت سورة الحشر وفيها : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الحشر: ١١ - ١٣] وساد الأمن بعد رحيل اليهود من المدينة ، ولم يعد المسلمون يخشون المنافقين .

ثم مر عام على قول أبى سفيان : « يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل » لكن العام المقبل الذى تمناه أبو سفيان كان جدبا وتمنى لو أن محمدًا أرجأه المنازلة إلى العام الذى يليه ، ولكى يؤرق فكر النبى فإنه أرسل نُعيما إلى المدينة ليقول للمسلمين : إن قريشًا أعدت جيشًا ضخمًا لا قبل للمسلمين به . وهنا توجس المسلمون شرا واختلفت مواقفهم بالنسبة لجيش المشركين . فمنهم من رأى أن الأصوب عدم الذهاب إلى بدر إلا أن النبى ﷺ غضب غضبًا شديدًا ، وأقسم أنه ذاهب إلى بدر ولو وحده ، وقد أدت صيحة النبى وقسمه إلى أن تختفى من النفوس بواعث الخوف والتردد ، وأسرع المسلمون إلى أسلحتهم وتجهزوا للزحف. وأقبل النبى على القيادة وكان قد عين على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول ، ووصل المسلمون بدرًا وانتظروا قريشًا التى خرجت مع أبى سفيان من مكة فى أكثر من ألفى رجل غير أنه بعد مسيرة خامرته فكرة التراجع فنادى فى الناس : « يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ، وإن عامكم هذا جدب وإنى لراجع فارجعوا » وتقهقر المشركون ورجعوا . أما النبى فإنه ظل فى جيشه ينتظرهم ثمانية أيام متتابعة قام المسلمون أثناءها بتجارة رابحة فعادوا إلى المدينة موفورين منتصرين . وكان ذلك هو انتصار بدر الآخرة التى نزل فيها قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن

كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨ ـ ١٧٥] .

وكذلك محت غزوة بدر الآخرة كل ما جاءت به هزيمة أحد من قبل . وأقام النبى بالمدينة مطمئنًا بعد أن تحقق نصر الله ، ذلك النصر الذى أرجع للمسلمين هيبتهم وارتفاع شأنهم ، غير أنه عليه السلام لم يستنم إلى ذلك النصر ، فقد بث العيون والأرصاد فى كل النواحى ليأتوه بأخبار المنافقين والأعداء ، ولقد بلغه أن جماعة من غطفان بنجد يعدون جيشًا لمحاربته ، وكانت خطته التى دأب عليها صلوات الله عليه أن يباغت عدوه قبل أن يستكمل عدته ، ومن ثم انطلق فى أربعمائة من رجاله نزل بهم منطقة ذات الرقاع حيث اجتمع بنو محارب وبنو ثَعْلبة من غطفان ، فعندما بوغتوا بطلوعه عليهم فى قواته مهاجما فإنهم ولوا هاربين تاركين مساكنهم وأبناءهم ومتاعهم ، فغنم المسلمين الكثير من متاعهم ورجعوا إلى المدينة وافرين ، ومع هذا الانتصار إنهم ظلوا فى حراسة ويقظة متصلة ليل نهار خشية أن يرجع العدو إلى محاولة الهجوم ، وأخذ رسول الله ﷺ يصلى صلاة الخوف مع جنود الله ، ونظام هذه الصلاة أن جماعة تستقبل العدو خشية هجومه ويصلى الآخرون مع النبى ركعتين لله .

ولما لم يعد هناك أثر للعدو رجع النبى وأصحابه إلى المدينة بعد أن غابوا عنها خمسة عشر يومًا وهم فرحون وبعد فترة وجيزة خرج النبى ﷺ فى غزوة جديدة هى غزوة دومة الجندل ، ودومة الجندل واحة تقع على الحدود بين الحجاز والشام

فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس ، غير أن النبى لم يصادف القبائل التى أراد مقاتلتها فى هذا الموقع والتى جعلت مكمنا لمهاجمة القوافل . فما أن تراعى إليها أن المسلمين متوجهون نحوها حتى ولت هاربة تاركة للمسلمين أن يحملوا ما يقدرون من غنائم .

وعندما نلقى على دومة الجندل نظرة جغرافية فإننا ندرك فى الحال مدى الاتساع الذى وصل إليه نفوذ دولة الإسلام والقوة التى صارت إليها بحيث أن شبه الجزيرة بأكملها أصبحت تخشى هذه القوة وتتوارى منها ، وفى هذا دلالة على أن المسلمين تكبدوا الكثير من المشاق والكثير من التضحيات فى غزواتهم لنشر الإسلام.

بعد هذا اطمأن المسلمون بالمدينة عدة أشهر متوالية وهم يترقبون موعد قريش لعامها القادم ـ سنة خمس من الهجرة ـ فى أثنائها كان الرسول ﷺ ينظم شؤون المجتمع الإسلامى حسبما يوحى إليه ربه ، وحسبما يصل إليه مع جماعته ويكون متفقا مع ما جاء فى الكتاب الكريم .

غزوة الخندق

كانت جموع اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير فضلا عن عرب غَطَفَان وهذيل، والقبائل القريبة من الشام ، كل هؤلاء كانوا يتحينون الفرصة للانقضاض على النبى ﷺوكل منهما تنتهز الفرصة لتأخذ بثأرها من الرجل الذى مزق العرب فى دينها وتقاليدها ، وخرج من مكة بكلمة الإيمان وعمر المدينة بكلمة الإيمان . أما اليهود فكانوا على معرفة برسالة محمد ﷺوما سوف يكون لها من شأن فنقموا عليها ولم يجد المتآمرون مفرا من أن يثيروا العرب على محمد ، وكان اليهود هم أصحاب هذه الفكرة ، وليضعوها موضع التنفيذ فقد تألف وفد منهم ومن غيرهم من القبائل الأخزى ، نذكر منهم حُيىّ بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الحقيق صحبهم نفر من بنى وائل هوذة بن قيس ، قدموا على قريش مكة فسأل أهلها حُيَيًّا عن قومه ؛ فقال : «تركته بين خيبر والمدينة يترددون

واقتربت قريش من المدينة وذهلت عندما شاهدت الخندق لأنه كان من الدفاعات التى يجهلونها ، واستبد بها الحنق حتى أنها روجت أن الاحتماء بالجدران هو الجبن الذى لا يعرفه العرب ، وما كان من قريش ومن انضموا إليها إلا أن عسكرت بمجتمع الأسيال من رومة ، أما غطفان ومن تبعها من أهل نجد فإنهم عسكروا بذَنَب نقمى . . هذا فى الوقت الذى خرج فيه رسول الله ﷺ فى قوة بلغت ثلاثة آلاف مقاتل وقد جعل ظهره إلى هضبة سَلْعٍ وجعل الخندق حاجزاً بينه وبين أعدائه ، وفى هذا الموقع ضرب الرسول عسكره ورفعت له خيمته الحمراء .

ووجدت قريش وحلفاؤها أن من العسير عبور الخندق فاكتفوا بالتراشق بالنبال لعدة أيام ، أثناءها فكر أبو سفيان فى موقفه العصيب والمحرج ، فهو وحلفاؤه واقفون أمام يثرب يفصلهم عنها خندق طويل لا سبيل إلى اجتيازه ، والشتاء قارس له عواصف هوج والسماء تنذر بمطر غزير ، ويمكن لأهل مكة أن يتقوه بمنازلهم ، أما غطفان فالخيام التى ضربوها قبالة يثرب لا تسترهم من المطر ، وما كان اشتراكهم إلا طمعًا فى نصر لا يكلف كثيرا فحسبهم يوم واحد كيوم أحد . وما كان اشتراك غطفان فى الحرب إلا على وعد من اليهود بأن لهم إذا تحقق النصر ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر وحدائقها . . لكن تبين للجميع أن النصر جد عسير أمام تلك الصعوبات وأما أن تقتص قريش لما أصابها فى بدر وما نزل بها بعد ذلك من هزائم فكان الأمد بعيدًا . فالخندق قائم وبنو قريظة تمد قوات المسلمين بما تحتاجه من سلاح ومؤن . إذن فمن الممكن أن تمتد المقاومة شهوراً بعد شهور ، أما والحال على هذا الوضع ، فالأصوب أن ترجع كل جماعة إلى حيث جاءت لكن كيف يمكن لهذه الأحزاب أن تجتمع كرة ثانية ؟ ذلك أمر جد صعيب. نظر حُيىّ بن أخطب فى شأن الموقف من كافة جوانبه فأدرك أن السبيل الوحيد هو الوقيعة بين الرسول ﷺ وبنى قريظة ، وما كان منه إلا أن عرض على الأحزاب أن يقوم هو بإقناع بنى قريظة بأن ينقضوا عهدهم مع النبى وأن ينضموا إليهم ،

ومن سليم ومن بنى سعد ومن أسد ومن كل من له ثأر عند المسلمين . حرضوا كل هؤلاء لمحاربة محمد وطمأنهم حُيىّ من أن النصر سيكون حليفهم . وهكذا تجمع الأحزاب وصاروا جبهة واحدة بتحريض من اليهود ، وذلك أمام المسلمين بقيادة محمد ﷺ . وكان أن خرجت قريش بقيادة أبى سفيان بن حرب فى جيش بلغ أربعة آلاف مقاتل وثلاثمائة فارس وألف يركبون البعير ، وعقد اللواء فى دار الندوة لعثمان بن طلحة الذى قُتل أبوه وهو يحمل لواء قريش فى أحد . وخرجت بنو فزارة يقودها عيينة بن حصن بن حذيفة فى عدد كبير من الرجال وألف بعير ، وأسهمت أشجع ومرة بأربعمائة محارب لكل منهما ، وقد تزعم الحارث بن عوف مُرة وتزعم مِشْعر بن رخيلة أشجع ، أما سليم أصحاب بئر معونة فجاءوا فى سبعمائة رجل وأسهمت بنو سعد وأسد بعدد لا بأس به من المقاتلين . وتألف من هؤلاء جميعًا جيش بلغ ما يقرب من عشرة آلاف مقاتل . والجميع تحت امرة أبى سفيان وتوجهوا إلى المدينة . فلما وصلوها اتفق الزعماء على تبادل إمرة القيادة أثناء الحرب على توالى أيامها .

وبلغت المدينة أنباء هذا الجحفل الكبير ، وعندها أدرك المسلمون أن ليس أمامهم سوى التحصن بيثرب العذراء حسبما وصفها عبد الله بن أبى ، لكن هل يكفى التحصن للدفاع عن المدينة ؟ وهنا أشار سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة وهو أسلوب فارسى فى الحرب ، ونهض المسلمون مسرعين بحفر الخندق وقد عمل الرسول ﷺ فيه بيديه فكان يرفع التراب ويشجع المسلمين ودعاهم إلى أن يبذلوا كل ما فى وسعهم ، وقد أمدت قريظة ـ وكانت على ولائها ـ المسلمين بآلات الحفر من مَسَاح (جمع مسحاة : المجرفة) وكرازين (جمع كرزون : الفأس) ومكاتل (جمع مكتل : الزنبيل (المقطف) وانتهى المسلمون من حفر الخندق مباشرة وجيء بالنساء والأطفال إلى هذه البيوت التى حصنت وفى نفس الوقت وضعت الأحجار على جانب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحا يقذف به عند الضرورة .

يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه » وسألوا عن قريظة ؛ فقال : « أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم » .

بيد أن الشكوك ساورت قريشًا : هل تهاجم محمداً أم تتركه لشأنه فما بينهم وبينه خلاف إلا على دعوته على عبادة الله وحده . وإزاء ذلك الموقف قالت قريش لليهود : « يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول ، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ » قالت اليهود : « بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه » وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ [النساء:٥١، ٥٢] ، وفى هذا الموقف الذى قبل فيه اليهود أن يزيفوا دينهم ففضلوا الوثنية على التوحيد .

يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون فى كتابه « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرخوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم لأن بنى إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين ، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبادة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام وبالوقوف منهم موقف الخصومة » .

ولقد بذل حُيىّ ومن معه من اليهود غاية وسعهم فى تحريض قريش على محاربة محمد وكان الموعد الذى ضربوه فيما بينهم عدة أشهر ثم انتقل وفد من اليهود إلى غطفان من قيس غَيْلان ، ومن بنى مرة ، ومن بنى فزارة ومن أشجع

فإذا فعلوا ذلك انقطع المدد والميرة عن محمد ، وبذلك يصبح الطريق ممهدا لاقتحام يثرب . وما كان من كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة إلا أن أغلق باب حصنه عليه عندما عرف بمقدم حُيى ونيته فى نقض عقده مع محمد وانضمامه إلى عدوه . وأيقن كعب أن هذا الأمر الخطير مرهون بالانتصار ، فماذا يحدث لو انهزمت الأحزاب وغادرت مواقعها ؟ غير أن حُييًا ما زال بكعب يزين له نقض العهد حتى فتح له باب الحصن . ثم قال : « ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدنيا وببحر طام ، جئتك بقريش وغطفان مع قادتها وسادتها وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه » وساورت قريش الشكوك إذ كيف ينقض العهد ومحمد وفىٌّ صادق فى عهده وخاف نتيجة ما يدعوه إليه حيى.

لكن حييًا لم ييأس وظل يذكر كعبا بما أصاب اليهود من محمد وما هو منتظر أن يصيبهم منه إذا فشلت خطة الأحزاب فى القضاء عليه . ثم أخذ يصف قوة الأحزاب فى عدتها وعديدها وأنه لم يصدها عن محمد سوى ذلك الخندق اللعين فلولاه لقضوا عليه وعلى أنصاره فى سويعة . وأخيرا نجح حيى فى استمالة كعب غير أن كعبًا سأله : « وماذا يكون إذا ارتدت الأحزاب ؟ وما كان من حيى إلا أن أعطاه موثقا إن رجعت قريش وغطفان ولم يقضوا على محمد أن يدخل معه فى حصنه فيشْركه فى حظه ولم تغادر السخيمة اليهودية نفس كعب فقبل عرض حُيىٍّ ونقض العهد الذى كان بينه وخرج عن حياده ، وطُيِّرت الأخبار إلى المسلمين بأن قريظة نقضت عهدها مع محمد وأصحابه . فوجلوا منها وخشوا نتائجها . وعلى الفور بعث الرسول ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، يرافقهما عبد الله بن رواحة بن جبير ليتقصوا حقيقة تلك الأخبار على ألا يذكروا الحقيقة إذا كان الأمر صحيحًا عند رجوعهم حتى لا ينزعج الناس . وعندما وصل هؤلاء الرسل إلى قريظة وجدوها على أخبث مما توقعوا وعندما راجعوهم طلبوا منهم أن يُرْجعوا أولا إخوانهم من يهود بنى النضير إلى المدينة .

وأراد سعد بن معاذ وكان حليف قريظة أن يردهم إلى صوابهم خشية أن يقع لها ما وقع لبنى النضير وربما أكثر منه . لكن اليهود أطلقوا لسانهم فى رسول الله ، وكان مما قاله كعب : لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . .

ورجع الرسل إلى رسول الله ﷺ وحكوا ما علموا . آئنذ اشتد الخطب وفزعت النفوس ، وفى الحال قطعت قريظة المدد الذى كانت ترسله . وأخذت قريش وغطفان تستعدان منذ أن بشرهما حيى بانضمام قريظة إليهم آئنذ ارتفعت هامات المشركين وهم يستعدون للحرب . وقد كان شرط قريظة للأحزاب أن تقاتل محمداً مدة عشرة أيام أشد قتال . وكان أن تألف منهم ثلاث كتائب لمحاربة النبى ﷺ فأتت كتيبة ابن الأعور السُّلمىّ من فوق الوادى ، وأتت كتيبة عيينة بن حصن من الجنب، وتزعمه أبو سفيان من قِبل الخندق . والكتيبة الثالثة كانت للأحزاب .

فى هذا الموقف القتالى نزل قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١٣] .

ولعله كان لأهل يثرب شىء من العذر فى أن يقول أحدهم : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن نفسه أن يذهب إلى الغائط» . وارتفعت النخوة القتالية عند الأحزاب حتى إنها ستحث بعض فرسان قريش على اقتحام الخندق ، وكان منهم عمرو بن عبد ود ، وعكرمة بن أبى جهل ، وضرار بن الخطاب فاختاروا منه مكانا ضيقا فضربوا خيولهم فاجتازته وصارت فى السبحة بين الخندق وسَلع ، وخرج على بن أبى طالب فى مجموعة من المسلمين وحاصروهم فى الثغرة التى اجتازتها خيلهم وتقدم عمرو بن عبد ود ينادى : من يبارز . . ولما دعاه على بن أبى طالب إلى النزال قال فى كبرياء : لِمَ يا بن أخى ، فوالله ما أحب أن أقتلك . قال على : « لكنى أحب والله أن

أقتلك» فتنازلا فتمكن منه على وقتله ، فما كان من خيل الأحزاب إلا أن فرت يجللها خزى الهزيمة . فى هذه الأثناء جاء نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرسه بعد ما غربت الشمس يبغى اجتياز الخندق فسقط هو وفرسه فيه فلقيا مصرعهما ، فبعث أبو سفيان يريد استرداد جثته مقابل دية مبلغها مائة من الإبل ، فلم يقبل النبى ﷺ ذلك العرض وقال : « **خذوه فإنه خبيث خبث الدية** » فماذا تصنع الأحزاب ؟ طمعوا فى تخويف المسلمين فأوقدوا نيران عالية لإرهاب المسلمين وقت إرادتهم ، وبدأ المتحمسون من قريظة ينزلون من حصونهم وآطامهم إلى بيوتهم بالمدينة والقريبة منهم والقصد إرهاب المسلمين . وكانت صفية بنت عبد المطلب فى « فارع » حصن حسان بن ثابت . وكان حسان فيه مع النساء والصبيان، وكان يهودى يطيف بالحصن فقالت صفية مخاطبة حسان : « إن هذا اليهودى يطيف يا حسان ، بالحصن كما ترى ، وإنى والله ما آمن أن يدل على عوراتنا من وراءنا من اليهود ورسول الله وأصحابه قد شغلوا عنا ، فانزل إليه فاقتله . ثم قالت : « يا حسان ، انزل إليه فاسلبه ، فإن لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل » فقال حسان : « ما لى يا بنت عبد المطلب من سلبه من حاجة» وطاف الفزع بقلوب أهل المدينة بينما كان صلوات الله عليه يفكر فى طريقة ينهى بها ذلك الموقف الحرج . وهنا أدرك ﷺأن وسيلة القتال المباشر غير مجدية وأن الخير فى إعمال الحيلة . فبعث إلى غطفان يعرض عليها ثلث ثمار المدينة إن هى ارتحلت وغادرت الساحة . وكانت غطفان قد ضاقت بالحرب وطول الحصار . وذهب نعيم بن مسعود بأمر رسول الله ﷺ إلى قريظة وكان لا علم لها بإسلامه وكان نديمها فى الجاهلية . فصار يذكرهم بالأيام الحلوة التى كانت بينهم وبينه . ثم نبههم بأنهم يدعمون قريشًا وغطفان ضد محمد ولسوف تسأم قريش وغظفان من المقام طويلا أمام المدينة ومن ثم فلسوف ترتحلان فيصبحون هم وحدهم أمام محمد فيستأصلهم عن بكرة أبيهم ، ونصح لهم ألا يقاتلوا مع الأحزاب ما لم يأخذوا منهم رهائن تكون تحت أيديهم حتى لا تتخلى عنهم قريش وغظفان وصدقت

قريظة كلام نعيم بن مسعود ووجدته مقنعًا . ثم غادرهم وذهب إلى قريش فأسر إليهم أن قريظة ندمت على ما فرطت فى عهدها مع محمد وأنهم سوف يبذلون كل حيلة لاسترداد ثقته وذلك بأن يدفعوا له بنفر من أشراف قريش يضرب أعناقهم. ومن ثم كات نصيحته لقريش أنه إذا جاءهم اليهود يطلبون منهم رهنًا من رجالهم فلا يبعثوا أحدا ، وتوجست قريش وغطفان من كلام نعيم وخافتاه . فتشاور الزعماء فيما أبلغوا به وحذروا منه . وهنا أرسل أبو سفيان إلى كعب زعيم بنى قريظة يقول له : « قد يا كعب طالت إقامتنا وحصارنا هذا الرجل وقد رأيت أن تعمدوا إلى فى الغد ونحن من ورائكم » فرجع رسول أبى سفيان إليه بقول زعيم قريظة : « إن غداً السبت وإنا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت» فاستبد الغضب بأبى سفيان ولم يشك فى حديث نُعَيْم . ورجع الرسول يقول لقريظة : « اجعلوا سبتا مكان هذا السبت فإنه لابد من قتال محمد غدا ولئن خرجت لقتاله ولستم معنا لنبرأن من حلفكم ولنبدأن بكم قبل محمد » .

وأصرت قريظة بعد أن سمعت كلام أبى سفيان بأنها لن تتعدى السبت : «وقد غضب الله على قوم منهم تعدوه فجعلهم قردة وخنازيراً ثم نبه الرسول إلى الرهائن حتى يطمئنوا إلى مصيرهم ، وعندما سمع أبو سفيان ذلك لم يعد لديه شك فى كلام نعيم . ثم توجه لمشاورة غطفان فإذا هى مترددة فى الإقدام على قتال محمد طامعة فيما وعدها به وهو ثلث ثمار المدينة . وهذا لم يتم إذ اعترض عليه سعد بن معاذ وسادة المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشورة رسول الله ﷺ : « فلما كان الليل عصفت ريح شديدة وهطل المطر غزيراً وقصف الرعد، ولمع البرق ، واشتدت العاصفة فاقتلعت خيام الأحزاب ، وكفأت قدورهم وهزت نفوسهم وخُيل إليهم أن المسلمين انتهزوا فرصته ليعبروا إليهم وليوقعوا فيهم» فنادى طلحة بن خويلد فنادى : « إن محمداً قد بدأكم بشر ، فالنجاة النجاة » وقال أبو سفيان : « يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقَام لقد هلك الكُرَاع (تقال للخيل والبغال والحمير) والخف ، وأخلفنا بنو قريظة

وبَلَغنا منهم ما نكره . ولقينا من شدة الريح ما ترون فارتحلوا فإنى مرتحل» .

فأسرع القوم فحملوا ما استطاعوا وولوا مدبرين ، والريح تعصف بهم من كل جانب ، وتبعتهم غطفان وسائر الأحزاب ، وفى الصباح نظر الرسول ﷺ فى ساحة القتال فلم يجد أثرًا لأحد فعاد إلى المدينة ومعه سائر المسلمين .

ومع انفراج هذه الغُمة وذهاب ريح الأحزاب نظر رسول الله ﷺ فى موقف اليهود وقدرتهم على المناوأة . فقد أدرك أن بإمكان اليهود أن يعودوا لمثلها وأن يختاروا فصلا من السنة غير الشتاء الذى كان من جند الله فى هزيمة عدوه . هذا فضلا عن أنه لولا إدبار الأحزاب والشقاق الذى دب بينها فإنه كان بمستطاعها أن تفتك بالمسلمين فتكا بشيعًا ، ولهذا : « لا تقطعن إذًا ذنب الأفعى وتتركها » إذن فلابد من القضاء على بنى قريظة جزاء فعلتها .

غزوة بني قريظة

آنئذ عندما استقر هذا القرار أمر رسول الله ﷺ أن يؤذن المؤذن فى الناس : «**من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة** » ونهض الجميع للمهمة الكبيرة تحت راية علىٰ بن أبى طالب وهم على يقين من أن النصر هو النتيجة . ولا ينكرن أحد أن اليهود يمتنعون بحصونهم التى أغنتهم فى الدفاع عن أنفسهم ولكنها لا تصلح فى مهاجمة المسلمين . يضاف إلى هذا أن الميرة أصبحت ميسرة لأهل المدينة بعد أن ذهبت الأحزاب . وهنا فرح المسلمون كثيرًا وساروا وراء على ابن أبى طالب . وعندما وصلوا بني قريظة وجدوا بينهم حُيىّ بن أخطب النضيرى وكلهم فى شغل بسبب رسول الله ويكذبون رسالته وبلغ بهم سوء الخلق أن وقعوا فى أعراض نسائه . وكان لديهم إحساس دفين بعد أن تخلت عنهم الأحزاب بأن المسلمين يدبرون لهم أمرًا . فى هذه الساعة جاء رسول الله ﷺ فلقيه على وحذره من الدنو من حصون اليهود ، فسأله محمد : « ولِمَ ؟ «أظنك سمعت منهم لى أذى ؟ » **قال** : نعم . قال رسول الله :« **لو رأونى لما قالوا من ذلك شيئًا** » . فلما

دنا من حصونهم ناداهم : « **يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله فأنزل بكم نقمته ؟** »
قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

وصار المسلمون يهرعون على بنى قريظة حتى بلغوا جيشًا كبيرا . ثم أمرهم الرسول ﷺ أن يضربوا عليهم الحصار . وبقى المسلمون فى حصارهم خمسا وعشرين ليلة جرى فيها بعض التراشق بالنبل والحجارة . وخشى بنو قريظة مغبة الخروج من آطامهم طوال مدة الحصار . ولما أعياهم الإرهاق وأيقنوا أن حصونهم لن تنجيهم من الهلاك وإن هى إلا مجرد أيام بل ساعات يقعون بعدها فى قبضة المسلمين ، فإنهم لم يجدوا مناصا من أن يبعثوا إلى رسول الله أن يبعث إليهم أبا لبابة ليستشيروه فى أمرهم ، وكان أبو لبابة من الأوس . فلما التقى بهم قام إليه الرجال وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء حتى رق لهم ، فقالوا له : أترى يا أبا لبابة أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، إنه الذبح إن لم تفعلوا ، وعندما غادرهم أبو لبابة عرض كعب بن أسد أن نجدتهم الوحيدة تكون بأن يسلموا جميعًا بذلك يأمنون على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ، لكن أصحاب كعب رفضوا أن يسمعوا هذا الكلام وصاحوا به : لا نفارق حكم التوراة ولا نستبدل به غيره . فاقترح عليهم بعدها أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم وأن يخرجوا إلى محمد وأصحابه مصلتين السيوف غير تاركين وراءهم ثَقَلا حتى يحكم الله بينهم وبين محمد ، فإن هلكوا لم يتركوا وراءهم نسلا يخشون عليه وإن ظهروا اتخذوا النساء والأبناء . لكن هذا العرض لم يصادف قبولا وقالوا : « نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم » قال لهم كعب : « لم يبق إذن إلا أن تنزلوا على حكم محمد وقد سمعتم ما أعد لكم » وأخذوا يناقشون حالهم ، وقد قال أحدهم : « إنهم لن يكونوا أسوأ من بنى النضير مصيراً وإن أولياءهم من الأوس سيدفعون عنهم الشر وإنهم إن عرضوا أن يرتحلوا إلى أذرعات بالشام لم يجد محمد بأسًا من قبول عرضهم » أمام ذلك الموقف العصيب لم تجد قريظة مناصًا من أن تعرض على محمد أنهم على استعداد للارتحال إلى أذرعات على أن يتركوا

له كل ما يملكون فرفض صلوات الله عليه وأصر على أن تخضع للحكم . فأرسلت إلى الأوس ترجوهم الوساطة قائلين : «ألا تأخذون لإخوانكم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم؟ » فذهبت جماعة من الأوس إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : « يا نبى الله ألا تقبل من حلفائنا مثل الذى قبلت من حلفاء الخزرج ؟» فقال النبى : « **يا معشر الأوس ، ألا ترضون أن أجعل بينى وبين حلفائكم رجلا منكم؟ قالوا : بلى ، قال : فقولوا لهم فليختاروا من شاؤوا** » فاختار اليهود لسوء سعيهم سعد بن معاذ ، وكأنهم قد نسوا أنهم نقضوا عهدهم من قبل وتحذير سعد لهم ووقوعهم فى محمد وسبهم للمسلمين بغير حق. وأخذ سعد المواثيق على الفريقين أن يطيع الفريقان ما يحكم به . فلما وافقوا على ذلك أمر بنى قريظة أن يضعوا السلاح ففعلوا . آنئذ أصدر سعد حكمه فيهم ومضمونه : أن تقتل المقاتلة وتسبى الذرية والنساء وتقسم الأموال . فلما سمع الرسول هذا الحكم قال : « **والذى نفسى بيده ، لقد رضى بحكمك هذا الله والمؤمنون وبه أمرت** ». ثم ذهب إلى سوق فأمر فحفرت خناديق ثم جيء باليهود فضربت أعناقهم جميعًا ثم دفنوا بتلك الخنادق .

وهكذا أصَّلت غزوة الأحزاب والقضاء على بنى قريظة تواجد المسلمين بالمدينة .

غزوتا بنى لحيان وذى قرَد

بعد مضى ستة أشهر من القضاء على بنى قريظة رابته حركة من ناحية مكة ففكر فى أن يجعلها فرصته لينتقم لخبيب بن عدى وأصحابه الذين قتلهم بنو لحيان عندما الرَّجيع منذ سنتين ، ولم يعلن الرسول عن نيته تلك خشية أن يحتاط العدو لنفسه . فأعلن أنه يريد الشام ليأخذ أهلها بالمفاجأة فسار بقواته ناحية الشمال ، فلما أيقن أن قريشا ومن حولها لم يفطنوا إلى قصده ، فإنه توجه ناحية مكة حتى بلغ منازل بنى لحيان بعُران غير أن قوما رأوه وهو ينحدر إلى الجنوب ، فأدرك بنولحيان أنه يقصدهم فهرعوا يعتصمون بالجبال ومعهم أمتعتهم ، ولم يتمكن النبى ﷺ من أن يصيبهم بشىء ، فبعث أبا بكر فى مائة راكب حتى بلغوا عُسَّان على

مقربة من مكة . ثم عاد الرسول ﷺ إلى المدينة وكان اليوم شديد الحر حتى أنه ﷺ قال: « **آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال** » ولم يكد الرسول ﷺ يستريح بالمدينة عدة ليال حتى أغار عُيَيْنة بن حصن على أطرافها حيث وجد بساحتها عدة إبل ترعى يحرسها رجل وامرأته ، فقتل عيينة وأصحابه الرجل وأخذوا المرأة وساقوا الإبل ، ثم ساروا ظانين أن ليس سيلحق بهم أحد ، غير أن سلمة بن الأكوع الأسلمى كان فى طريقه يريد الغابة متسلحا بقوسه ونبله . وعندما اجتاز ثنية الوداع وأصبح على مقربة من سَلْع نظر فرأى القوم قد استولوا على الإبل وأخذوا المرأة فصاح : « واصباحاه » وأسرع يطلب السالبين حتى إذا أصبحوا فى مرماه رماهم بالنبل وهو مستمر فى صياحه . وبلغ الرسول ﷺ صياح سلمة فاستحث أهل المدينة قائلا : « الفزع ، الفزع » فترامى إليه الفرسان من كل صوب متجهين ناحية المعتدين . أما الرسول ﷺ فإنه جهز قواته وقادهم حتى نزل بالجبل من ذى قَرَد . وكان عيينة وعصابته يتجهون ناحية غَطفان ليحتموا بهم من المسلمين غير أن فرسان المدينة تمكنوا من اللحاق بهم فأنقذوا منهم جزءاً من الإبل وتمكن الرسول من أن يلحق بهم ويساعدهم ، وقد نجت المرأة المسلمة التى كان المشركون قد أخذوها . واستبدت الحماسة ببعض أصحاب النبى فحاولوا أن يلاحقوا عيينة الذى توجه ناحية غَطَفان ولكن الرسول منعهم .

غزوة بنى المصطلق

ثم مكث الرسول ﷺ فى المدينة ما يقرب من شهرين ، ثم كانت غزوة بنى المصطلق بالمرَيْسيع نذكرها لا لكونها غزوة كبيرة الشأن ولكن لأن الشقاق كان قد دب فى صفوف المسلمين بسبب حديث الإفك عن عائشة رضوان الله عليها . . وحكاية غزوة بنى المصطلق أن رسول الله ﷺ بلغه أن بنى المصطلق وهم فرع من خزاعة يتأهبون وهم على مقربة من مكة يحرضون الناس على قتل الرسول ﷺ

يقودهم زعيمهم الحارث بن أبى ضرار ، وعرف الرسول من أحد البدو أن بنى المصطلق يعدون له فأسرع فى الخروج حتى لا يأخذوه على غرة . وجعل لواء المهاجرين لأبى بكر ولواء الأنصار لسعد بن عبادة . ونزل المسلمون على ماء قريب من بنى المصطلق يقال له : المرَيسيع وحاصروهم وهرب الذين قدموا لنجدتهم . وقد قتل من بنى المصطلق عشرة ولم يقتل من المسلمين غير واحد يقال له : هشام ابن صُبابة قُتل خطأ من أحد الأنصار . ولما اشتد ضغط المسلمين على بنى المصطلق لم يجدوا مفرا من الاستسلام .

النهاية الأخيرة لليهود (فتح خيبر)

كان عهد الحديبية (مارس ٦٢٨) تأمينًا للرسول ﷺ من قريش وأصبح الجنوب كله آمنًا ، ولكن الشمال هو الذى كان يستثير الريبة فربما يستعين هرقل أو يستعين كسرى بيهود خيبر فتتحرك نفوس ثلاثتهم بثاراتها القديمة . إذن كان لابد من القضاء على اليهود قضاء تاما فلا يكون لهم أثر فى بلاد العرب .

فبعد ما يقرب من شهر من عودة الرسول ﷺ من الحديبية دعا الناس للتأهب لغزو خيبر على ألا يصحبه إلا من شهد الحديبية أو أن يكون متطوعًا شريطة ألا يكون له حق فى الغنيمة. وتحرك المسلمون فى ألف وستمائة يصحبهم مائة فارس. والكل على يقين من أن النصر قادم بإذن الله . واستغرق الطريق ما بين خيبر والمدينة ثلاثة أيام ، وقضوا ليلتهم أمام حصون خيبر . وفى الصباح خرج عمال خيبر إلى مزارعهم حاملين مساحيهم ومكاتلهم. وعندما وقعت أبصارهم على جيش المسلمين صاحوا فقال الرسول عند سماع صوتهم : « **خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين** » .

على أن يهود خيبر كانوا يحسون وكأن الدائرة سوف تدور عليهم فيغزوهم الرسول ﷺ ومن ثم راودتهم فكرة التخلص منه. وكان ذلك سببًا فى أن يتوحدوا ويتناسوا خصوماتهم بغير أن يعولوا على معونة القبائل العربية . وقد ظهر من بين

اليهود من دعا إلى عقد حلف لاستعادة ثقة المسلمين فيهم ، ولاسيما بعد أن اشترك حُيىّ بن أخطب فى حلف العرب على اقتحام المدينة والاستيلاء عليها فى غزوة الخندق . ولكن كيف التحالف مع محمد والنفوس قرحة بالرغبة فى الانتقام ولا سيما وأن المسلمين قبل غزوة خيبر قتلوا كلا من سلاَّم بن أبى الحقيق ، واليسير بن رزام من زعماء خيبر .

وما كان غريبا أن يكون اليهود على اتصال دائم بغطَفان فكان أن استعانوا بهم عندما تناهى إلى أسماعهم أن رسول الله ﷺ يعتزم غزوهم ، ولقد كانت معركة خيبر بين المسلمين واليهود من أعنف المعارك وأشرسها إذ كان يهود خيبر من أقوى الطوائف اليهودية بأسًا وأوفرها مالا وسلاحا . ولذا كان المسلمون على يقين بأنه طالما بقى اليهود على قوتهم فسيظلون فى احتراب مع المسلمين ومن ثم لم يترددوا فى غزوهم .

أمام هذا المشهد القتالى توقفت أنظار العرب فى شبه الجزيرة العربية وهم يرجحون هذا الفريق على ذاك وإن كانوا مجمعين على أن الدائرة ستدور على المسلمين : لما عُرِف من قوة حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال هذا فضلا عن تمرس أهلها بالقتال طويلا .

وكان المشهد : وقف المسلمون أمام حصون خيبر وهم فى كامل سلاحهم وعلى استعداد للاقتحام . وهنا تشاور اليهود فيما يصنعون ؛ فنصحهم سلاَّم بن مِشْكَم فنقلوا أموالهم إلى حصنى الوضيح والسَّلالم ونقلوا ذخائرهم إلى حصن ناعم ، أما المقاتلون فدخلوا حصن نطاة . وقام سلاَّم بن مِشْكَمْ يحرض على القتال . . والتقى الجمعان حول حصن نَطَاة ونشب القتال عنيفًا شديدًا حتى إن جرحى المسلمين بلغوا خمسين .

ثم تولى قيادة اليهود الحارث بن أبى زينب وتجرأ فخرج من حصن ناعم قاصدًا منازلة المسلمين فتصدى له بنو الخزرج وأرغموه على التراجع ، وأخذ المسلمون يضيقون الحصار على حصون خيبر واليهود صامدون لأنهم كانوا على

يقين من أن هزيمتهم تعنى القضاء عليهم فى بلاد العرب ،واستمر القتال وأرسل الرسول ﷺ أبا بكر براية إلى حصن ناعم ليفتحه ولكنه لم يوفق ورجع ، ثم أرسل عمر بن الخطاب فى اليوم التالى وأيضا لم يوفق ، ثم جاء إلى على بن أبى طالب وقال له : «**خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك**» فتسلم على الراية فلما اقترب من الحصن خرج إليه من فيه من اليهود فتصدى لهم واستطاع رجل من اليهود أن يطيح بترس على من يده فما كان من على إلا أن أخذ بابًا كان عند الحصن فترَّس به وظل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن ثم جعل من الباب قنطرة مر عليها المسلمون ليقتحموا حجرات الحصن .

ويرجع سقوط حصن ناعم إلى مصرع قائده الحارث بن أبى زينب . وفى هذا ما يشى بقسوة وقوة المعركة واستماتة اليهود . وبعد حصن ناعم فتح المسلمون حصن القموص بعد قتال ضار . وقلت مؤن المسلمين بسبب الحصار ، وعند هذا الحال ذهبت جماعة منهم إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه حالهم ويطلبون منه ما يسد رمقهم فأذن لهم فى أكل لحوم الخيل . وبعد أن تم فتح حصن آخر بقيادة الصعب بن معاذ وجد به طعامًا وفيرًا .

ثم خرج مَرْحب اليهودى من أحد الحصون وهو فى كامل سلاحه ، يرتجز :

قد علمت خيبر أنى مرحب ... شاكى السلاح بطل مجربٌ

أطعن أحيانا وحين أضربُ ... إذا الليوث أقبلت تحرَّبُ

فصاح الرسول ﷺ بأصحابه : من لهذا ؟ قال محمد بن سلمة : أنا له يا رسول الله . أنا والله الموتور الثائر قتل أخى بالأمس . فنهض إليه بأمر من رسول الله ، وصارا يتصاولان ، وأوشك مرحب أن يقتل ابن سلمة ، لكن ابن سلمة تفادى سيفه بالدرقة فوقع السيف فيها فأمسكت به وفى الحال وجه إليه ابن سلمة ضربة قتلته ، بعدها حاصر المسلمون حصن الزبير وقاتلوا حوله قتال طال أمده حتى اضطر المسلمون إلى أن يقطعوا الماء عنه مما أرغم اليهود على الخروج منه

وإلى أن يشتبكوا مع المسلمين فى معركة أرغمت اليهود على الفرار بعدها أخذت حصون خيبر تتساقط واحداً بعد الآخر حتى لم يبق فى أيديهم إلا حصنان : الوطيح والسلالم . عندها أدرك اليهود أن طلب الصلح هو أسلم وسيلة . فكان أن عقد صلح بينهم وبين الرسول بمقتضاه استولى على جميع أموالهم بالشق ، ونَطَاة ، والكتيبة مقابل حقن دمائهم ثم آلت إليه الأرض بحكم الفتح على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم .

وهكذا ضاع كل أمل لليهود فى شبه الجزيرة العربية . وضاع ما كان لهم من سلطان . ولقد عامل الرسول ﷺ أهل خيبر بالحسنى حتى أنه أعاد إليهم عدة صحائف من التوراة كانوا قد فقدوها .

وفى أثناء عودة الرسول إلى المدينة عن طريق وادى القرى تجهز يهودها لقتاله غير أنهم اضطروا إلى التسليم والصلح . وبعدها خضع يهود تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب . وهكذا انتهى ما كان لليهود من سلطان فى شبه الجزيرة . والنتيجة المذهلة أن خفت بغضاء المهاجرين والأنصار لليهود وتغاضوا عن رجوع بعضهم إلى يثرب ووقف النبى مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبى وعزى ابنه . وأوصى النبى معاذ بن جبل ألا يفتن اليهود عن دينهم ولم يفرض الجزية على يهود البحرين وإن ظلوا متمسكين بدينهم . وصالح بنى غازية وبنى عريض على أن لهم الذمة وعليهم الجزية .

ومع كل هذه المعاملة الإسلامية الطيبة لم يطمئن اليهود إلى بقائهم وسط العرب فى شبه الجزيرة فغادروها نهائيا فى حياة الرسول ﷺ ـ على قول ـ وبعد وفاته على قول آخر .

غزوة مؤتة

سبب غزوة مؤتة :

البعض يقول : إن قتل أصحاب الرسول ﷺ كان السبب لتأديب الذين غدروا بهم ؛ والبعض الآخر يقول : إن السبب يعود إلى أن الرسول ﷺ عندما أرسل أحد رسله إلى عامل هرقل على بُصْرى فإن أعرابيا من غسان قتل هذا الرسول باسم هرقل فبعث صلوات الله عليه بالذين قاتلوا فى مؤتة لتأديب العامل وأعوانه.
ثم حدث فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سنة ٦٢٩م) أن دعا صلوات الله عليه ثلاثة آلاف من خيرة جند المسلمين وجعل عليهم زيد بن حارثة قائلا له وللجند : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » وتقدم الجيش ومعه خالد بن الوليد متطوعًا ليثبت بقدرته القتالية حسن إسلامه . وكان الناس فى وداع الجيش بقياداته وسار الرسول ﷺ إلى خارج المدينة وهو يوصى جنوده ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ولا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار . ثم دعا صلوات الله عليه للجيش ومعه سائر المسلمين قائلين : « صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا سالمين » .

ووصل الجيش أرض الشام غير أن خبر تحرك المسلمين كان قد وصل إلى شُرَحْبيل عامل هرقل على الشام فأسرع فجمع ما استطاع من رجال القبائل كما طلب من هرقل أن يمده بجند من الإغريق ومن العرب ، وتقدم شرحبيل بقواته ونزل مؤاب من أرض البلقاء ، ولما أن ترامى إلى المسلمين خبر جيش العدو فى كثافته صاروا يفكرون ، فقال واحد منهم : « نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له » وساد هذا الرأى إلا أن عبد الله بن رواحة تقدم وقال : « يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور

وإما شهادة » وسرت حمية القتال من الشاعر الشجاع إلى الجيش كله فقال الناس: « فوالله صدق ابن رواحة » وزحف جيش حتى إذا اقترب من البلقاء التقى بجيوش هرقل المؤلفة من الروم والعرب عند قرية يقال لها : مشارف . فلما اقترب العدو منهم أكثر مال المسلمون إلى قرية مؤتة إذ وجدوها أفضل من مشارف إذ يمكنهم التحصن بها . وفى مؤتة استعرت المعركة شديدة بين مائة أو مائتى ألف من جيوش هرقل ، وثلاثة آلاف من المسلمين . واندفع زيد يقاتل فى جسارة حتى مزقته رماح العدو . فتسلم الراية من يده جعفر بن أبى طالب وظل يقاتل فلما أحاط به العدو وهو على فرسه نزل عنها واندفع بسيفه وسط المقاتلين يطوح بسيفه يمينًا وشمالاً رقاب الأعداء . وكان اللواء بيمين جعفر فقطعت فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل . ثم تسلم الراية ثابت بن أرقم أحد بنى العجلان ؛ فقال : « يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنت. قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد الذى أخذ الراية وهو يشاهد تفرق صفوف المسلمين ووهن قوتهم المعنوية . . آنئذ أصدر أوامره ثم أخذ يدور بين المسلمين حتى وحَّد صفوفهم واكتفى من محاربة العدو ببعض المناوشات حتى إذا ألقى الليل رواقه كف الجيشان عن القتال حتى الصباح . أثناء ذلك أحكم خالد تدبير خطته فنشر بعض رجاله فى خط طويل من مؤخرة الجيش حتى إذا أسفر الصبح أحدثوا صيحات صاخبة فظن العدو أن المسلمين قد جاءهم مدد من عند النبى ﷺ وإذا كان ثلاثة آلاف قد شتتوا الروم فى اليوم الأول بعد أن قتلوا منهم الكثيرين . فماذا سيكون الحال وقد وصل المدد ؟ ولذا تراجع الروم عن مهاجمة خالد كما أنهم فرحوا إذ لم يهاجمهم ؛ وكم كانت بهجتهم عندما شاهدوه وهو ينسحب قافلاً إلى المدينة . ويمكن أن نقول بلغة عصرنا : لقد انتصر خالدا انتصارًا تكتيكيًا .

ولما عاد خالد بجيشه إلى المدينة استقبله رسول الله والمسلمون وأتى بعبد الله ابن جعفر إلى الرسول فحمله بين يديه ثم دفنه بعد أن صلى عليه .

أما الناس فجعلوا يرمون الجيش بالتراب ويقولون : « يا فرار ، فررتم فى سبيل الله » فيقول رسول الله : « **ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرار إن شاء الله** » ورغم هذه المواساة من الرسول ﷺ للعائدين من مؤتة : فقد ظل المسلمون وهم لا يغفرون للجيش انسحابه حتى كان سلمة بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل من رآه : « يا فرار ، فررتم فى سبيل الله » .

بعد عودة خالد بن الوليد إلى المدينة رأى رسول الله ﷺ أنه من الضرورى أن يسترد المسلمون هيبتهم فى شبه الجزيرة العربية ، فكان أن أرسل عمرو بن العاص يستنهض العرب إلى الشام ذلك أن أمًّا له كانت من قبائل تلك النواحى فسهل عليه أن يتألفهم . فلما وصل إلى ماء بأرض جُذَام يقال له : السلسل ، خشى الموقف فبعث إلى الرسول ﷺ يطلب المدد فأمده بأبى عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين كان من بينهم أبو بكر وعمر . ولما كان رسول الله ﷺ يخشى أن يختلف عمرو لاسيما وهو حديث عهد بالإسلام مع أبى عبيدة ، فقال لأبى عبيدة حين وجهه : « **لا تختلفا** » وقال عمرو لأبى عبيدة : « إنما جئت مددًا لى فأنا على قيادة الجيش » وكان أبو عبيدة رجلا طيبا لين العريكة لا يعبأ بزخرف الدنيا ، فقال لعمرو : « لقد قال رسول الله « **لا تختلفا** » وإنك إن عصيتنى لأطعتك ، وبعد أن صلى عمرو بالناس تقدم بجيشه وهجم على جموع الشام الذين قدموا لمحاربته فشتت شملهم وفل قوتهم ، وهكذا عادت الهيبة للمسلمين فى تلك الجهة .

ونظرت القبائل العربية القريبة من الشام إلى ما قام به جند المسلمين من أعمال بطولية فنالت إعجابهم وتقديرهم حتى ان أحد زعمائهم وهو فروة بن عمرو الجذامى وكان قائدًا لفرقة من جيش الروم أعلن إسلامه . وكان جزاؤه أن قبض عليه هرقل بتهمة الخيانة ، وقد عرض عليه هرقل أن يرجعه إلى منصبه إذا عاد إلى المسيحية ولكنه رفض فقتله . وهكذا ازداد الإسلام انتشارًا بين قبائل نجد القريبة من العراق والشام حيث كانت سيطرة الروم كاملة .

فتح مكة

ولما فتح الرسول ﷺ مكة فإنه ظل على احتراسه من الروم ومن ثم فإنه وزع جيشه فى أربع فرق وأمرها ألا تقاتل وألا تسفك دما إلا إذا اضطرت . وعين الزبير بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش وقد كلفه بأن يدخل مكة من شمالها ، وعين خالد بن الوليد على الجناح الأيسر من الجيش وقد كلفه بأن يدخل مكة من أسفلها ، وجعل سعد بن عبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى . أما أبو عبيدة بن الجراح فقد أخذه رسول الله مع المهاجرين ، ثم سار معهم ليدخلوا مكة من أعلاها بمحاذاة جبل هند ، وبينما كانوا يستعدون للزحف سمع بعضهم سعد بن عبادة يقول : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل المحرمة» وعندما وصلت إلى النبى تلك الكلمة أخذ الراية منه ودفعها إلى ابنه قيس . وكان رجلا ضخمًا لكنه أهدأ من أبيه أعصابا ، وزحفت الجيوش ودخلت مكة بغير أن تواجه مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد الذى صادف مقاومة يسيرة .

بعد فتح مكة (١) أحاط الرسول ﷺ أهل مكة بعفوه وعطفه . ثم بقى صلوات الله عليه فى مكة خمسة عشر يوما يؤسس بين أهلها نظام المجتمع الإسلامى ويفقههم فى دينهم . وفى هذه الأثناء بعث الرسول السرايا للدعوة إلى الإسلام بغير قتال .

فتح هوازن (٨ هـ)

بعد الخمسة عشر يوما التى قضاها المسلمون بأم القرى تواترت إليهم الأنباء بأن هوازن التى كانت تقيم على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقى فى جبال هناك علمت أن المسلمين فتحوا مكة وحطموا أصنامها فتوجست من أن يصيبها ما أصاب مكة فعمد مالك بن عوف النَّضْرى إلى أن يؤلف بين هوازن وثقيف كما انضم إلى التحالف نضْر وجُشَم ولم يتخلف عنه من هوازن إلا كعب وكلاب ، وكان فى

(١) أوجزنا في الحديث عن فتح مكة لأن الجيش دخل مكة دون مقاومة تذكر .

جُشَم دُرَيْد بن الصِّمة وكان شيخًا كبيرا لا يُرْجى منه فى حرب ، لكنما ضموه للانتفاع برأيه ، واجتمعت القبائل كلها وهى تحمل معها أموالها وأبناءها ونساءها، فلما سمع دُرَيْد بن الصِّمة رُغاء البعير ونُهاق الحمير وبكاء الصغير وثُغاء الشاء ، سأل مالك بن عوف : لِمَ ساق مع المحاربين أموالهم ونساءه وصغارهم ؟ فلما أجابه مالك بأنه أراد أن يشجع بها المحاربين ، قال دريد : وهل يرد المنهزم شىء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فُضحت فى أهل مالك » وسار الناس خلف مالك الشاب القوى الفتى . ثم أمر مالك الناس أن يعتصموا بقمم حنين وعند مضيق الوادى فإذا نزل المسلمون الوادى فإن عليهم أن يحاصروهم ويشدوا عليهم فعند ذاك تضطرب صفوفهم ويضرب بعضهم بعضا وتدور عليهم الدائرة وبذلك يمحى انتصار مكة الذى يتفاخر به المسلمون .

على الجانب الآخر سار الرسول ﷺ بجيشه الذى بلغ اثنى عشر ألف مقاتل من بينهم عشرة آلاف من الذين فتحوا مكة وألفان ممن أسلم من قريش بينهم أبو سفيان بن حرب وكانت تتقدمهم الفرسان والإبل تحمل المؤونة والسلاح .

زحف المسلمون بجيشهم الكثيف حتى وصلوا إلى حنين وقد أقبل المساء بستره فنزلوا على أبواب وادى حنين حتى أول الفجر . ثم تحرك الجيش وركب الرسول ﷺ بغلته البيضاء فى مؤخرته على حين سار خالد بن الوليد على رأس بنى سليم فى المقدمة . وانحدروا من مضيق حنين فى واد من أودية تهامة وأثناء هبوطهم إلى الوادى هاجمتهم القبائل بإشارة من مالك بن عوف وصوبوا إليهم نبالهم ، هنا اضطرب شأن المسلمين واختلط أمرهم وقفلوا منهزمين . وظهرت الغبطة على وجوه من لهم ثأر عند محمد . منهم أبو سفيان بن حرب وشيبة بن عثمان بن أبى طلحة الذى قال : « اليوم أدرك ثأرى من محمد » وكان أبوه قد قتل فى غزوة أحد . وقال كلدة بن حنبل : « ألا بطل السحر اليوم » فرد عليه أخوه صفوان : « اسكت فض الله فاك ، فوالله لا يَرُبنى رجل من قري أحب إلى من أن يربُنى رجل من هوازن » هذا بينما الجيش فى مضطربه الشديد والنبى فى المؤخرة تمر عليه

القبائل مهزومة حسبها النجاة ،وصمد الرسول ﷺ فى موقعه ومعه أهل بيته وأخذ ينادى فى الناس وهم يمرون به مهزومين : « **أين أيها الناس** » لكن الصدمة أذهلت أسماعهم .. فى هذه اللحظة انحدرت هوازن من موقعها يتقدمها رجل على جمل أحمر يمسك راية سوداء فى رأسه رمح طويل ، وكلما اقترب من مسلم طعنه وخلفه هوازن وثقيف وأنصارهما يطعنون فيقتلون . أمام هذا المشهد المأساوى ثارت حمية الرسول ﷺ فأراد أن يندفع ببغلته أمام أمواج العدو غير أن أبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب أمسك بخطام بغلته ولم يتركها تتقدم . وبكل قوته وصوته الجَهْورى نادى العباس فأسمع الناس كلهم : « **يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، إن محمداً حى فهلموا**» وصار العباس يكرر نداءه حتى أسمع كل من بالوادى . وهنا وقعت المعجزة . فقد سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا محمداً وذكروا عهودهم وشرفهم ، وسمع المهاجرون اسم محمد فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم ، وسمع الجميع بثبات الرسول ﷺ فى نفر قليل من المهاجرين والأنصار ، وهنا تنادى الجميع بصوت واحد وكلمة واحدة : « لبيك ، لبيك » وعادوا يقاتلون مستبسلين ورجعت إلى الرسول ﷺ طمأنينته حين شهد عودة المسلمين إلى الساحة. وهنا هبطت هوازن من مكامنها فكان أن واجهت المسلمين فى الوادى . وتألفت حول الرسول بضع مئات صادموا القبائل وصبروا لهم ، وأخذت أعداد المسلمين العائدين إلى القتال تزداد فتزداد العزمات مضاء واندفاعا وأخذ الأنصار يتصايحون: « يا للأنصار » ، ثم تنادوا : « يا للخزرج » والرسول يحفزهم الحصار حتى إذا اشتد القتال والمسلمون يضحون بأرواحهم فى سبيل الله نادى الرسول ﷺ : «**الآن حمى الوطيس ، إن الله لا يخلف رسوله وعده**» ثم أعطى العباس حفنة من الحصى ليلقى بها فى وجوه العدو قائلاً : « **شاهت الوجوه** » وفى جسارة مستبسلة قاتل المسلمون أعداء الله غير مبالين بالموت .

ولما أدركت هوازن وثقيف أنه لا فائدة ترجى وأن الدائرة توشك أن تقضى

عليهم ، فإنهم فروا عجلين مذعورين تاركين خلفهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم . وقد غنم المسلمون منهم اثنين وعشرين ألفا من الإبل وأربعين ألفا من الشاء ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وبلغ عدد الأسرى ستة آلاف نقلوا تحت الحراسة إلى وادى الجعرانة حيث بقوا إلى أن يعود المسلمون من مطاردة عدوهم ، ومن حصار ثقيف . الطائف وظل المسلمون فى مطاردتهم لهوازن حتى بلغوا أوساط وفيها اندحرت هوازن تماما ، أما مالك بن عوف ولو أنه ثبت بعض الشيء إلا أنه فر مذعورا ثم انفصل عن هوازن عند نخلة ثم توجه إلى الطائف فاحتمى بها .

وهكذا جاء نصر المؤمنين عزيزًا كريمًا ؛ وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٢٥ ـ ٢٨] .

حصار الطائف

وإذا كان الرسول ﷺ قد أراد أن يكون النصر أكثر عظمة وأعظم روعة ، فإنه قاد جموعه نحو الطائف حيث احتمى مالك بن عوف وضيق الحصار عليها مما دفع ثقيف إلى الدفاع عن وجودها بتصويب النبل فقتلت جماعة من المسلمين فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن نقل جنوده بعيدا عن مرمى النبل إلى مكان أقيم به مسجد الطائف بعد أن سلمت وأسلمت ، وظل المسلمون أمام الطائف ينتظرون .

وهنا قال أعرابى للنبى : « إنما ثقيف فى حصنها كالثعلب فى جحره لا سبيل إلى إخراجه منه إلا بطول المكث فإن تركته لم يلحقك منه ضر » وصعب على النبى أن يعود إلى مقره بغير أن ينال شيئًا من ثقيف . وكان بنو دَوْس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) لها خبرة بسلاح المنجنيق وبمهاجمة الحصون فى حماية

الدبابات . وكان من خبراء ذلك السلاح الطفيل ، وكان مع النبى منذ غزوة خيبر كما صحبه فى حصار الطائف فأرسله النبى إلى قومه لينضموا إلى المسلمين فجاء بجماعة منهم ومعهم أدواتهم ، وبعدها أخذ المسلمون يطلقون على الطائف قذائف المنجنيق كما أرسلوا نحوها الدبابات ، وقد دخل تحتها نفر منهم ، ثم زحفوا إلى جوار الطائف لكن مقاتلى الطائف أحموا قطعًا من الحديد بذلك لم يتمكن المسلمون من التغلب على الحصون . ولمواجهة الموقف فإن رسول الله ﷺ أمر بأن تقطع الكروم وتحرق ولما أن شاهد الثقفيون تلك الكارثة وهى تحيق بهم لم يعد لديهم شك فى أن محمدًا جاد فيما يصنع ، فما كان منهم إلا أن بعثوا إليه بوفد يرجوه بحق الرحم أن يدع كرومهم فأعطاهم مهلة أعلن خلالها أنه معتق من جاء إليه من الطائف فهرع إليه ما يقرب من عشرين من أهلها علم منهم أن بالحصون ما يكفي لمدة طويلة ، وبذلك فسوف يطول أمد الحصار وهنا تدبر الرسول الموقف فالجنود يميلون إلى الرجوع لاقتسام الغنائم ثم إن الأشهر الحرم قد اقتربت وهى مما لا يجوز فيها القتال ولذلك فضل الرسول أن يرفع الحصار ، وكان ذو القعدة قد أهل . فعاد بجيشه معتمرا ، وهكذا رجع المسلمون من الطائف إلى مكة معهم أسراهم ونزلوا الجعرانة ليقتسموا الفيء . . وبعدها أدى الرسول العمرة ثم عاد إلى المدينة .

غزوة تبوك

بينما كان الرسول ﷺ يراقب استقرار الأمن فى بلاد العرب خشية أن يتألب عليه أحد تناهت إليه الأنباء بأن بلاد الروم تجهز جيشًا لغزو الحدود الشمالية لبلاد العرب لتنتقم من انسحاب العرب التكتيكى فى مؤتة لتدمير سلطان المسلمين وما أصبح لهم من هيبة ، ولا سيما أن المد الإسلامى قد أصبح متاخمًا لسلطان الروم فى الشام وسلطان فارس فى الحيرة . ولم يتردد الرسول فى أن يعلن فى الناس بأنه اعتزم أن يواجه ذلك الغزو المحتمل بنفسه فنادى فى القبائل أن تشارك فى تجهيز الجيش بكل ما يستطيعون وأن يكونوا دعاة للناس يحثونهم على القتال حتى

يكونوا كفاء الروم من حيث وفرة الرجال ووفرة عدة القتال ، وسار الرسول بجيشه حتى وصل الحجر وهو موقع به أطلال لمنازل ثمود القديمة ، وهناك أمر الرسول بالنزول فاستقى الناس من بئر من آبار ثمود ، غير أن الرسول نهاهم عن الشرب منها قائلا : « **لا تشربوا من مائها ولا تتوضؤوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئًا ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له** » وما تلك الاحتياطات إلا لأن المكان لم يكن يمر به أحد وأن العواصف الرملية الشديدة كانت تغشاه أحيانا فتطمر الرمال الناس والإبل .

واتجه الرسول ﷺ بجيشه إلى تبوك . وكانت الروم قد وصل إليها خبر هذا الجيش وضخامته وقوته ففضلت الانسحاب إلى حدودها لتحمى بلادها وحصونها داخل الشام . فلما وصل المسلمون إلى تبوك وعرف الرسول بانسحاب جيش الروم فإنه فضل عدم متابعتهم فأقام عند الحدود يحارب المقاومات القليلة التى كانت موجودة حتى يؤمن الحدود الشمالية للمسلمين . وكان يوحنا رؤبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود وقد أعلنه الرسول بالخضوع للمسلمين أو أن يُغْزى ، فما كان من يوحنا إلا أن قدم إلى الرسول وعلى صدره صليب من ذهب وقدم الهدايا وأعلن الطاعة وإعطاء الجزية . وكذلك صالح الرسول ﷺ أهل الجَرْباء (قرية من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام) وأذْرُح (قرية قريبة من الجرباء) وأعطوه الجزية . وكتب رسول الله إليهم أمَّنهم بها . وهذه رسالة كتبها ليوحنا جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة : سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوه ما لا يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر ، ولإثبات الموافقة على العهد أهدى الرسول إلى يوحنا رداء يمنيا وشمله بكل احترام وعطف ، وكان الاتفاق قد تم على أن تدفع أيلة جزية مقدارها ثلاثمائة دينار كل عام .

وهكذا انتهت الحاجة إلى القتال بعد أن انسحب الروم وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود ، وبعد أن اطمأن الرسول إلى عدم رجوع القوات البيزنطية من الشمال إلا أنه خشى أن ينقلب عليه الأكيدر بن عبد المالك الكندى المسيحى أمير دومة الجندل فينضم إلى جيش الروم ، ولاتقاء انتقاضه أرسل إليه النبى ﷺ خالد ابن الوليد فى قوة مؤلفة من خمسمائة فارس وعاد الرسول إلى المدينة .

هاجم خالد بن الوليد دومة الجندل فى غفلة من حاكمها الذى كان يلهو فى ليلة مقمرة باصطياد بقر الوحش مع أخيه حسان . ولم يصادف خالد مقاومة تذكر فقتل حسَّان وأسر الأكيدر وهدده خالد بالقتل إن لم تفتح دومة الجندل أبوابها . وفتحت المدينة وقد غنم خالد منها ألفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بُر وأربعمائة درع ، فأخذ جميع ذلك ومعه الأكيدر حتى وصل إلى النبى ﷺ الذى عرض عليه الإسلام فأسلم وأصبح حليفًا للمسلمين .

هكذا دانت شبه الجزيرة العربية بالإسلام . . فكانت كلمة التوحيد هى الكلمة الوحيدة فيها .

• • •

الفصل الخامس

حروب الردَّة

الفصل الخامس

حروب الرِّدَّة

أسباب حروب الردة :

لعل حروب الرِّدَّة هى أقسى الحروب التى خاضها المسلمون إذ تفوق حربهم مع فارس والروم إذ لولاها لذهب الإسلام من الدنيا بين لحظة وأخرى . وهناك تصور عام عند الناس عن الردة هو أنها ترجع إلى سبب واحد هو ارتداد جماعات من المسلمين عن إسلامهم ، والسبب بهذه الصورة قاصر ومقصر إذ أنه يطمس البواعث الرئيسية وراء تلك الحروب ، ومن هنا فإنه لمن الضرورى أن نستقصى الأسباب الرئيسية التى أوجبت على المسلمين أن يحاربوا الذين ارتدوا عن الإسلام.

من هذه الأسباب أن القبائل رفعت راية العصيان على قريش ولا سميا القبائل التى تنتسب إلى ربيعة ومضر ، فقد كانت تعتز أيما اعتزاز بنسبها وتأبى أن تسود عليها قريش بفضل النبوة والرئاسة ، وهذا ما أعلنه طُليحة النميرى عندما التقى بمسيلمة زعيم بنى حنيفة والذى ادعى النبوة فى اليمامة ، فقال : « أشهد أنك كذاب . لكن كذب ربيعة أحب إلينا من كذاب مضر » وكان مسيلمة هذا يدعى الكذاب فقال : « إنه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش ولكن قريشًا قومًا لا يعدلون » .

ومن أسباب الردة ثورة البادية على الحاضرة ، فشأن طبيعى أن يحسد أهل البادية أهل الحاضرة على ما هم فيه من رغد النعمة ولم يخرج عن هذه الطبيعة سوى عدة قبائل كانت تقيم فيما بين مكة والمدينة ، فقد كانت تهاب القبائل الكبرى ما ليست تهابه من سكان المدينتين كما أنها كانت فى خلافتها تطلب تدخل أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى ، وكأنها بذلك كانت تفضل مودة الجوار

على محنة الخلاف ، ومن ثم كان من قبائل البادية من فضل الحياد وإن كانت بعضها قد لبى دعودة الجهاد فحارب فى صفوف المسلمين .

ومن أسباب الردة النصر المبين الذى حققته الدعوة المحمدية بفتح مكة ، فإن هذا النصر أثار فى رؤساء العشائر نزعة التطلع إلى تحقيق ما حققته رسالة الإسلام. وذلك أنه بعد أن توطد سلطان المسلمين فى الحجاز وما حوله حتى ارتفعت أطماع القيادات لتحقق ما بلغه محمد ، والمسألة كلها ـ فى وهمهم ـ لا تزيد عن بضعة أسجاع تقال فى مناسبات من أحوال الناس وجمهور مصطنع من الأتباع الجاهلين الذين أعمتهم الغوغائية ،.وأنى لهم أن يدركوا أن القوة الأصيلة لدعوة محمد ﷺ كانت ممثلة فى قيم الأخلاق ومبادئ الإصلاح ومبادئ العلاقات الإنسانية بين الناس على قاعدة الإنصاف والعدل والتراحم . وهو عماد نظام الحكم الإسلامى لا فى حاضره أو بيئته ولكن لكل زمان وللعالم كله ، فى حياة النبى باليمن ونجد والبحرين . حتى إذا توفى رسول الله ﷺ زادت كهانة المتنبئين والمجاهرة بالعصيان بغير خشية من أحد .

ومن أسباب الردة التى منع القبائل فريضة الزكاة التى جعلها الإسلام من فرائضه أُلزم بها كل قادر ، فلما كانت القبائل ضنينة بالمال بطبعها ولاعتزازها بكبريائها فإن اعتبرت الزكاة نوعًا من الإتاوة المفروضة . وهذا ما لم تتعوده لا من أكاسرة الفرس ولا من قياصرة الروم ؛ لأنهم كانوا ينالون منه أضعاف أضعاف ما يدفعونه من إتاوات ، هذا فضلاً عما ينالونه من منح وعطايا فى كثير من الأحيان لكثير من المناسبات . وأكثر من هذا فإن منهم من لم يفق أداء الصلوات الخمس فرأى المستنبئون إهمالها بل إن منهم من استكبر السجود ، فلقد قال طلحة الأسدى : « إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قيامًا قيامًا الرغوة فوق الصريح » .

وفضلاً عن الأسباب التى ذكرناها فإن الدين الجديد لم يكن قد تمكن من قلوب أعراب البادية بسبب ما توارثوه من عادات الجاهلية من حيث العبادات

وصور المعيشة وهذا ما نبه إليه القرآن الكريم ؛ فقال سبحانه : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] .

وهناك سبب لا يمكن إنكاره أو التغاضى عنه وإن لم يذكره التاريخ صراحة وإنه للتآمر الذى حاكته الدول الأجنبية المحيطة بشبه الجزيرة العربية وهما : فارس والروم ، فكل منهما حاكت من المؤامرات ما يتفق وسياستها وما هى بحاجة إليه. فقد ظهرت النبوءات بين العرب الموالين للفرس ، ولم تظهر بين العرب الموالين للروم فظهر بين التغلبيين والموالين لفارس ، وغضت فارس العين عنهم لأنها تريد محاربة الدين الجديد هذا فضلاً عن أن دين الفرس كان يأذن بذلك ، لأنه كان مزيجًا من المجوسية والوثنية ومسحة من المسيحية لا يرضاها أتباع كتاب . فلما ظهرت بينهم سجاح وسلكت فى التبشير بدينها العجيب مسلكًا لا يستريح العقل إلى تفسيره بغير تفسير واحد وهو أنها كانت تعمل لغرض سياسى وبإغراء دولة أجنبية ولا تعمل لغرض دينى ولا الموالين للروم وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية فهم إذ يؤمنون بالمسيحية فإن مسيحيتهم لا تسمح بالتنبؤ. غير أنهم وبمعاونة من الروم حاربوا المسلمين على فترات تخللتها بعض مؤامرات الوقيعة .

ومما لا يمكن إنكاره أن حروب الردة كانت شرًا حاق بأمة الإسلام ورغم ذلك فإنها خدمت الإسلام خدمة كبرى إذ أنها وجدت عناصر المدينتين وقد أوشكت على التصادم والاصطراع . فكان أن تألفت منها قوة تعدل قوة البادية وبما مكنها من تحطيم قوى الدول المحيطة والمتربصة .

فلولا حروب الردة لكان من القريب جدًا أن ينشب الخلاف بين المهاجرين والأنصار بما ينصب بالتشعب والاستفحال . هذا فضلاً عن الخلاف بين المهاجرين من هاشميين وأمويين والخلافات الصغيرة بين الجماعات . وهناك تنبه المسلمون إلى الخطر الداهم الذى يوشك أن يبيدهم عن آخرهم فتوحدوا وعادوا يدًا واحدة وكلمة واحدة . وما جمعهم إلا البداهة الإيمانية التى أرجعتهم إلى ربهم فنهضوا

بكل تكاليف التبعة فى رد المسلمين إلى صوابهم والقضاء على عناصر الفتنة بينهم.

التهيؤ لحروب الردة :

بعد أن أنزل أبو بكر الصديق الهزيمة بعبس وذبيان وبنى بكر ومن حالفهم وأبعدهم عن أراضيهم بالأبرق فإنهم انضموا إلى طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة، فإنه ـ أى أبا بكر ـ رأى أن هذه الأرض قد أعطاها الله له فلذلك فلن يرجعها إلى أصحابها فقد جعلها لخيول المسلمين كما جعل بلاد الرَّبذَة مرعى للناس ويعطى المؤمنون ما يستحقونه من صدقات منها . ثم عاد أبو بكر إلى المدينة ليتفكر فى أمر القضاء على المرتدين فيستأصلهم تمامًا .

ولما أن نال جيش أسامة حظه من الراحة والاستجمام عاد أبو بكر إلى ذى القصة حيث قسم الجند حسب خطورة الجبهات إلى أحد عشر لواء . ثم عاد إلى المدينة لتكون هى مقر القيادة العامة لجيوش المسلمين تتلقى منه الأوامر بالزحف . فقد كانت أوامره ألا ينتقل أحد من القادة من جبهة إلى أخرى إلا بأمر منه . لأنه كان يؤمن بأن وحدة القيادة ضرورية لنجاح العرب .

وإذا كان أبو بكر لم يجعل للأنصار نصيبًا فى حرب الردة فلم يكن ذلك غمطا لهم ، ولكن ليحتفظ بهم كقوة دفاع رئيسية عن المدينة فهم أعلم بها وخير من يزود عنها .

ومن السياسة العسكرية الحصيفة أن أبا بكر لم يباغت شبه الجزيرة العربية بالحرب ولكنه عمل إلى تهيئة النفوس والأذهان والوعى إلى ضرورة هذه الحرب لإنقاذ الإسلام ، ومما أصابه ومما ينتظر أن يصيبه إن لم يقض على المرتدين ، فكان أن وجه كتابًا إلى الناس جميعًا ، بدأه بحمد الله والثناء عليه وذكر بعثه محمدًا بالحق من عنده بشيرًا ونذيرًا . ثم أشار إلى وفاة رسول الله بعد أن بلغ ما أمره الله أن يبلغه وأن الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] . وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤] . وقال للمؤمنين : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ

أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] . ثم قال بعد أوصى بتقوى الله والاعتصام بدينه الحنيف : « وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارًا بالله عز وجل وجهالة لأمره وإجابة للشيطان . وإنى قد أنفذت إليكم فلانًا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن آمن فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان » . ومن هنا كان على المسلمين أن ينتظروا سماع الأذان عند اقترابهم من أي موقع ، فإن أذن أهله لم يقاتلوا وإن لم يؤذنوا سألوهم الإسلام فإن رفضوا أسرعوا لقتالهم .

وكان أبو بكر يرمى من وراء ذلك أن يعطى للمرتدين فرصة التفكر ومراجعة النفس فينفضوا عن زعماء الردة الذين زيفوا عليهم .

كان أبو بكر صاحب بصيرة عسكرية قادرة على تقويم المواقف واتخاذ الاحتياطات الضرورية لتحقيق النصر ، نتبين ذلك فى صورة واضحة عندما أعلن وهو يودع جيش خالد بن الوليد عند ذهابه لمحاربة المرتدين. فقد أعلن على الناس أنه جاء ليودع خالد وهو ذاهب إلى خيبر فقال : « . . . أيها الناس ، سيروا على اسم الله وبركته ، فأميركم خالد بن الوليد إلى أن ألقاكم فإنى خارج فيمن معى إلى ناحية خيبر حتى ألاقيكم » وما كان يقصد فى الحقيقة إلا صرف الأنظار عن الوجهة الحقيقية لخالد ليضمن سرية التحرك وبعدها انفرد بخالد وأسر إليه بما يسفر عن أبعاد الفكر العسكرى عند خليفة رسول الله ﷺ فقال : « . . . عليك بتقوى الله وإيثاره على سواه والجهاد فى سبيله والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ أهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم . فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدًا عن الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالذاد وسر بالأدلاء وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب لك

الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فإنه بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة ، وأقلل من الكلام واقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله فى سريرتهم . وإذا أتيت داراً فأقحم ، فإن سمعت أذانًا أو رأيت مصليًا أمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة واحدة من الخمس ، وإذا لقيت أسدًا وغَطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا عليك لا لك ، متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، لكن الخوف عندى من أهل اليمامة فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفاك الله الضاجية فامض بأهل اليمامة ، سر على بركة الله » .

وحقيقة الأمر أن أبا بكر سير جيش خالد بن الوليد إلى بزاخة وليس إلى خيبر وكان له من وراء ذلك عدة أهداف :

الأول : إخافة بطون طيئ فيقضى على كل تردد تهجس به صدورهم .

الثانى : إقناع طليحة بأن يساند أنصاره ويدافع عن بلادهم .

الثالث : بذلك يأخذ طليحة على غرة وهو يتوهم أن خالد لن يتجه إلى بزاخة .

الرابع : عدم إتاحة الفرصة لأهل خيبر ليشتركوا فى القتال .

• • •

القوات تتحرك لقتال المرتدين :

وجه أبو بكر الصديق أحد عشر جيشًا لمحاربة المرتدين وقد وزعه على النحو التالى :

الجيش الأول : بقيادة طريفة بن حاجب ، وقد توجه إلى قبائل بنى سليم وهوازن وهو فى الشمال الشرقى من المدينة .

الجيش الثانى : بقيادة خالد بن الوليد وقد توجه إلى طليحة بن خويلد

الأسدى الذى تزعم حركة الردة فى شرق المدينة ، ثم انضم بعد أداء مهمته إلى الجيش الأول ليعاونه فى مطاردة القبائل المرتدة .

الجيش الثالث : وكان على قيادته شُرَحْبيل بن حسنة ، وقد تكفل بمساعدة جيش عكرمة فى قتاله لمسيلمة .

الجيش الرابع : وكان على قيادته عكرمة بن أبى جهل ، وقد توجه إلى مسيلمة باليمامة .

الجيش الخامس : وكان على قيادته حذيفة بن محصن ، وكانت مهمته حرب المرتدين من أهل دبا فى عمان .

الجيش السادس : وكان يقوده عرفجة ، وقد توجه إلى أهل مهرة .

الجيش السابع : وكان يقوده المهاجر بن أمية ، وقد توجه إلى الأسود العنسى بصنعاء وليدعم المسلمين هناك .

الجيش الثامن : وكان يقوده سويد بن مقرن ، وقد توجه إلى تهامة اليمن .

الجيش التاسع : وكان يقوده العلاء بن الحضرمى وكانت وجهته البحرين .

الجيش العاشر : وكان يقوده عمرو بن العاص وكانت جهته قضاعة شمال بلاد العرب .

الجيش الحادى عشر : وكان يقوده خالد بن سعيد وكانت جهته مشارق الشام وليشد من أزر الجيش العاشر .

أما الجيش الأول ، فإنه تمكن فى يسر من إخضاع بنى هوازن ، ثم انضم إلى الجيش الثانى جيش خالد بن الوليد الذى كان يحارب المرتدين فى بلاد بنى عامر التى تمتد من شرق المدينة حتى الخليج العربى . وكانت قبائل تميم التى قطنت تلك الجهاد قد تأثرت بأقوال المتنبئة سجاح التى استطاعت أن تغرى أهلها بالاستقلال عن المدينة . بيد أن سجاح حين شاهدت القوات المسلمة وهى تزحف بسرعة فإنها

أسرعت بالهرب إلى بنى تغلب فى الجزيرة بشمال العراق ، أما خالد بن الوليد فإنه تمكن من إخضاع قبائل تلك الجهات وأن يقتل مالك ابن نويرة أحد قادتها وأمرائها ، ثم توجه خالد إلى أرض اليمامة ، وهى شاسعة تمتد إلى الخليج العربى وكانت تقطنها بطون من ربيعة من أقواها بنو حنيفة . وقد تزعم فتنة الارتداد فى تلك الناحية مسيلمة الذى نجح بدهائه وكهانته بلغ أن يكون جيشًا كبيرًا بلغ أربعين ألف شخص ، فكان بذلك أخطر جبهات الرِّدَّة . وقد تمكن مسيلمة بفضل كثافة جيشه من أن يوقع الهزيمة بالجيش الرابع الذى كان بقيادة عكرمة بن أبى جهل وصار بذلك قوة يخشى بأسها ، وهنا عمل خالد بن الوليد على إعادة تنظيم قوات الجيش الرابع التى دخلت تحت قيادته وذلك لمواجهة جيش مسيلمة ، فقسم جيشه إلى أقسام متمايزة لكل قسم موقعه وعمله ، وكذلك رايته الخاصة ليسهل تحريكه حسب ما يصدر إليه من أوامر .

ونشب القتال فى منطقة صحراوية فى آخر اليمامة تدعى « عقرباء » وقد أظهر جيش المسلمين وجيش المرتدين استماتة قوية فى القتال غير أن كفة المسلمين رجحت فتحقق لهم النصر بفضل نظام التعبئة وتحريك القوات الذى اتبعه خالد . ولم يجد المرتدون أمامهم سوى الهرب تاركين مسيلمة ليعتصم بحديقة من نخل عرفت بسبب كثرة القتلى عندها باسم « حديقة الموت » وكانت النتيجة أن انتصر خالد وعاد قلب شبه الجزيرة العربية مرة أخرى إلى دائرة الدولة الإسلامية .

أما عكرمة بن أبى جهل قائد الجيش الرابع فإنه بعد أن لم يتمكن من مواجهة مسيلمة قصد عمان لدحر ما بها من مرتدين مسلما القيادة العليا فى اليمامة إلى خالد بن الوليد .

ولقد تمكن عكرمة من قتل زعيم المرتدين فى عمان وهو « ذو تاج » مستوليًا على « دبا » عاصمة عمان بمعاونة الجيش الخامس الذى كان يقوده حذيفة بن حصن ، وقد انضم إليهم الجيش السادس بقيادة عرفجة بن هرثمة ، ثم واصل الجيش الزحف على الشحر وحضرموت واليمن فكان القضاء على المرتدين .

وفى اليمن نشبت ثورة داخلية ضد المرتدين كان فيها القضاء على الأسود العنسى زعيمهم .

وكذلك صار جنوب بلاد العرب مستقرًّا بعد أن تطهر من المرتدين وصار جزءًا له أهميته فى الدولة الإسلامية الناشئة .

وقد مكنت هذه الانتصارات الكبيرة التى حققتها الجيوش الإسلامية فى قلب وجنوب شبه الجزيرة العربية ـ مكنت لخالد بن الوليد من أن يمد القوات التى أرسلها الخليفة للقضاء على المرتدين فى البحرين ، وكان من بدو جبهة البحرين قد تمكنوا من أن يهزموا الجيش التاسع الذى توجه إليهم بقيادة ابن الحضرمى وحاصر المسلمين فى مدينة هجر ، إلا أن يأخذ خالد بن الوليد استطاع بفضل قيادته أن ينزل الهزيمة النكراء بمرتدى البحرين ، وبذلك تم رفع الحصار عن الجيش التاسع فى هجر .

وهكذا عادت شبه الجزيرة العربية إلى الدولة الإسلامية فى وحدتها الكبرى .

وقد أغرى ذلك النصر العظيم القبائل العربية المقيمة بأطراف العراق والشام بأن توجه أنظارها نحو الدولة العربية الإسلامية ألتى قامت فى المدينة فحظيت بإعجابها وتقديرها خاصة بعد أن دب الصراع بين تلك القبائل من جهة والدولتين الفارسية والرومانية من جهة أخرى ، وبلغ الإعجاب بدولة الإسلام أن طلبت تلك القبائل من أبى بكر أن يساعدها على غزو العراق والشام ، ولم يتوان الخليفة فلبى طلبهم ، وعندما أحس بدنو أجله قبل أن يتم فتح العراق والشام فإنه عهد بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب الذى تحقق فى عهده معارك الفتوح الإسلامية الكبرى .

• • •

الفصل السادس

الفتوحات الإسلامية

الفصل السادس

الفتوحات الإسلامية

الفتوحات زمن الخلفاء الراشدين وأمراء المؤمنين

فتح : العراق ، وفارس ، والشام :

لم يدر بخَلَدِ الخليفة أبى بكر الصديق أن يحارب الفرس فقد كان الحجاز بعيدًا عن فارس والبلاد العربية الموجودة على حدود الفرس هى التى تفشت فيها فتنة الرِّدَّة ، ومن ثم فلا يسهل الاعتماد عليها ولا يؤمن جانبها ولا سيما وهى تعيش فى كنف دولة الفرس التى مازالت على قوتها رغم تغلب الروم عليها فى حروب متقطعة .

وبينما كان أبو بكر يفكر فى أحوال المسلمين من كل جانب انتهت إليه الأخبار بأن المثنى بن حارثة الشيبانى قد تحرك بقواته شمالاً فى البحرين فاستولى على القطيف وهَجر حتى وصل إلى مصب دجلة والفرات ، وأنه تمكن أثناء مسيرته من القضاء على الفرس وعمالهم ممن ساعدوا المرتدين فى البحرين . وقد استفسر أبو بكر عن شخصية المثنى من حيث قبيلته ونسبه ، فقيل : إنه من البحرين من بنى بكر بن وائل وأنه تحالف مع العلاء بن الحضرمى فى محاربة المرتدين يقود من تمسكوا بالإسلام من سكان تلك الجهات وأنه ظل زاحفًا بجوار ساحل الخليج الفارسى إلى أن نزل عند القبائل العربية القاطنة بدلتا النهرين فحالفهم ، وكذلك علم أبو بكر أن المثنى رجل جليل المكانة يُعْتمد عليه وقد قال عنه قيس بن عاصم المنقرى : «هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد . هذا المثنىَّ بن حارثة الشيبانى » .

كل ذلك حث أبا بكر على أن يدفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة العربية حيث العراق وفارس والشام . ومما شجع أبا بكر على بحث هذه المسألة ما كان

يعلمه من شؤون فارس فقد انتصر هرقل على فارس قبل وفاة النبى ﷺ وبدد جيوشهم فى نينوى ووسْنَجِرْد ، وظل فى زحفه حتى بلغ المدائن عاصمة الفرس . وقد وصل الفرس إلى حالة من الضعف أن خرجت اليمن من سلطانهم وتحالف باذان مع رسول الله . وبذلك تهاوى سلطان الفرس فى البحرين وسائر الإمارات المشرفة على الخليج الفارسى وخليج عدن .

وفجأة جاء المثنى إلى المدينة واستقبله أبو بكر فعرف منه من الأنباء ما جعله يرى أن من الأصوب أن يبدأ بفتح العراق لأنه لن يصادف مقاومة مثل ما سوف يلقاه بالشام ، وعرض أبو بكر الأمر على أصحابه وقول المثنى له : « أمرنى على من قبلى من قومى من أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفك ناحيتى » وجاء خالد بن الوليد فاستصوب رأى المثنى وأقر الجميع تأميره ، وكانت الخطوة الحاسمة تعين خالد بن الوليد ليكون قائداً عامًا لجيوش الفتح . ثم توجه المثنى لمحاربة الفرس فانتصر عليهم ثم أمده أبو بكر بما يعينه على مواصلة غزواته . وفى نفس الوقت أصدر أبو بكر أمره إلى خالد بأن يسير بجنده إلى الحيرة فإن وصلها قبل المثنى كانت القيادة العامة له وإلا فإنها تكون للمثنى . وكذلك وجه عياض بن غَنْم إلى دومة الجندل ليخضع الخارجين من أهلها على أن يتجه بعدها إلى الحيرة .

وبنظرة إنسانية أمر أبو بكر قواده أن يعاملوا الفلاحين العرب بالرحمة والحسنى. وهذا ما حث عليه وأوجبه إسلامهم ومما يكفل لهم النصر . وفى هذه الأثناء كان خالد قد طلب من أبى بكر مدداً فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمى . وعندما دخل العراق فإنه قسم جيشه إلى ثلاث فرق لكل فرقة طريقها على أن يكون اللقاء عند الحفير . فالفرقة الأولى كانت بقيادة المثَنَّى بن حارثة الشيبانى وقد تحركت قبل خالد بيومين ، والفرقة الثانية كانت بقيادة عُدى بن حاتم الطائعى ، وتحركت قبله بيوم . أما خالد فإنه توجه إلى المؤخرة . وكان قد أرسل برسالة إلى هرمز قائد الجيش الفارسى قال له فيها : « أما بعد ، فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة وأقر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم

يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

ووقف هرمز فى جيشه وعلى يمينه ويساره أميران من بيت الملك هما : قُبَاذ ، وأنوشجان . ونادى هرمز : أين خالد ؟ يريد أن يخرج إليه ليبارزه ، وعندما سمع خالد نداء التحدى نزل فرسه وتصاول معه وتمكن من قتله ، آنئذ اندفع المسلمون إلى القوات الفارسية التى ذُعرت لشدة الهجوم ففضلت الهرب بالعراق اسم « ذات السلاسل » لأن الفارسيين ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا من الميدان . وبعد المعركة بعث خالد بخمس الغنائم إلى أبى بكر بالمدينة كما بعث أيضًا بقلنسوة هرمز وبفيل أخذه المسلمون فى الموقعة .

وقد استثارت هذه الغزوة حمية المسلمين فظل المثنى يتعقب الفرس وكأنهم يريد أن يدحرهم تمامًا قبل أن يصل المدائن . وبينما هو فى تعقبهم جاءته الأنباء بأن الفرس مقبلون من المدائن فى جيش كبير . وكان الملك أردشير قد استدعى قارن بن قريانس ـ وهو من كبار الأمراء وكلفه بأن يذهب بجيش كبير ليدعم جيش الثغور والتقى قارن وهو متجه إلى الجنوب بقباذ وأنوشجان يقودان قواتهم المهزومة فشجعهم وضمهم إلى قواته وعسكر بهم فى المذار على شط قناة تصل دجلة بالفرات . وتبين للمثنى أن مهاجمته لقوة العدو الكبيرة قد تلحق به هزيمة فكان أن اختار موقعًا على مقربة من المذار وحط بجنده . ثم كتب إلى خالد يشرح له الموقف ، ثم انقضت قوات المسلمين على القوات الفارسية فذبحت الكثيرين من القادة والجند وفر الباقون على سفنهم طلبًا للنجاة .

وبعد أن استتب الأمر لخالد بعد هذه المعركة فإنه عمل على تأمين مواصلاته إلى الخليج الفارسى ثم عيَّن قوادًا للجند الذين استبقاهم بالحفير وعلى الجسر الأعظم ثم عين عمالاً لتحصيل الجباية ، وظل هو فى موقعه ليتعرف على أخبار عدوه ، وكان على يقين من أنه لم يقض تمامًا على قوات كسرى بالعراق لا سيما، وأن شمال المدائن يعج بجند كثيف للفرس كما أنه لم يستبعد أن يغرى الفرس قبائل العرب بالعراق بالانضمام إليهم . وكان خالد صائبًا فى تقويمه .

بعدما رأى الفرس ما حل بهم من هزائم وجدوا أنهم من الضرورى أن يستعينوا على العرب بالعرب . فأغرى كسرى جماعة كبيرة من بنى بكر بن وائل وكوّن منهم جيشًا عين عليه قائدًا منهم ووجهه إلى الولجة . وحتى لا يفوز جيش العرب بكل شرف النصر ، فإنه أرسل خلفه جيشًا فارسيًا يقوده واحدًا من أكبر قواده هو بَهْمَن جاذوَيْه ، فلما وصلت هذه الأنباء إلى خالد وهو بالمذار ، فإنه أصدر أمره إلى قواده وجنودهم الذين خلفهم على الحفير وكاظمة وغيرها من مدن العراق التى استولى عليها بأن يكونوا على حذر وألا يستنيموا إلى النصر الذى تحقق ، ثم انطلق هو فى جنده إلى الولجة لمحاربة جيش كسرى الذى كان قويًا ومتمرسًا يخشى بأسه ، فكيف تحقق النصر للمسلمين ؟ هنا برزت عبقرية خالد فإنه أمر اثنين من أمراء جنده أن ينفصلا عنه بقواتهما أثناء مسيره وأن يتخذا لهما كمينًا وراء العدو لينقضوا عليه على غرة أثناء القتال غير أن هذا الكمين تأخر بعض الشيء، أثناءها كانت صفوف المقاتلين المسلمين تتقدم مرة وتتراجع أخرى ، وفجأة وعلى غير ارتقاب خرج كمين المسلمين من ناحيتين من خلف جيش كسرى بينما خالد يضغط عليه بشدة من الأمام ، هناك حلت الهزيمة النكراء بجيش الأعاجم ومن والاهم من العرب بينما سيوف المسلمين آخذة برقابهم وجنود المسلمين يأسرون منهم ما استطاعوا . غير أن العرب هم الذين غضبوا للهزيمة هم بنو بكر ابن وائل لأن الذى هزمهم هم بنو عمومتهم من شبه الجزيرة ، فاتصلوا بالفرس واتصل بهم الفرس وعقد اجتماع بينهما في أُلَّيس على شط الفرات فى منتصف الطريق بين الحيرة والأُبُلَّة ، واتصل كسرى ببهمن جاذويه وأمره أن يسير إلى أليس ليضم إليه بعض الفرس ونصارى العرب وأخيرًا وصل القائد الفارسى جابان بجيشه إلى أُلَّيْس وإلى جانبه عبد الأسود العجلى قائد جند بنى بكر بن وائل .

وعندما علم خالد بن الوليد بتحرك نصارى العرب تجاه أليس ، ومعهم بعض من عرب العراق فإن أسرع إلى الحفير ليؤمن مؤخرته ، وبأسرع ما يمكن توجه لمصادمة العدو فى عسكره فيتصدى له العرب ، وتكمن من قتل قائدهم مالك بن

قيس ، ولما رأى جابان صفوف العرب فإنه خف لنجدتهم وهنا اشتد القتال فتوجه إلى ربه قائلاً : « اللهم إن لك على إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحدًا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم » وفى هذا الموقف العصيب استخدم خالد كل أساليب المداورة حتى ضيق الخناق على عدوه الذى لم يجد مناصًا لنجاته إلا بالفرار بعد أن قتل منه كثيرون وبعد أن انتهت المعركة أرسل خالد بأخبار النصر وبخمس الفىء والسبى إلى أبى بكر مع رجل يدعي جندلاً من بنى عجل . فلما قص عليه ما حدث وأخبره بفتح أليس والمغانم فإن أبا بكر قال بصوت عال : «عقمت النساء أن يلدن مثل خالد » .

بعد هذا نظر خالد بن الوليد فى الموقف العسكرى نظرة تقويمية فوجد أن قبائل العرب فى العراق هى التى حرضت الفرس على القتال فى أُلَّيْس . وإذا كانت قد سكنت اليوم فما الذى يمنع من أن تثور غدًا ؟ إذن فلابد من القضاء عليهم . والحل الأمثل عنده أن يحتل الحيرة عاصمة العرب وأن يستولى على منازلهم غرب الفرات إلى حدود شبه الجزيرة. . وكان يحكم الحيرة مرزبان فارسى يسمى آزاد به ؛ وكان أهل الحيرة على يقين من أنهم لم يفلتوا من حصار خالد لهم ولا سيما بعد أن بلغتهم انتصاراته فى أليس وأمغيشيا . وتصور حاكم الحيرة أن خالدًا سوف يستقل سفن أمغيشيا للإغارة عليهم . فما كان منه إلا أن أمر بسد قناطر الفرات حتى لا يجرى الماء وراءها وبذلك تعجز السفن عن السير، وكان آزادبه مصيبًا فى تقديره . فقد ركب خالد وجيشه سفن أمغيشيا وسيروها تجاه الشمال إلى الحيرة غير أن السفن اصطدمت بقاع النهر فوجل المسلمون وغضب خالد ، ولما أن سأل عن السبب قيل له : إن الفارسيين سدوا القناطر فتحول الماء وغاض النهر وسرعان ما خف خالد ولقى بن آزادبه على فم العقيق فأنزل به ضربة أزالته وعاد الماء يجرى فى النهر وعادت السفن إلى الإبحار محملة بجيش خالد الذى سار به إلى الخورنق واقترب من الحيرة وهنا حدثت مفاوضات بين عرب الحيرة وخالد وأسلموا فيها بدفع الجزية وأن يبقوا على نصرانيتهم ،

وكذلك استسلمت الحيرة وأقام خالد بها كمركز قيادة له فكانت بذلك أول عاصمة إسلامية خارج بلاد العرب .

ولما رأى أهل البلاد القريبة من الحيرة مبلغ عدل المسلمين ورحمتهم فإنهم أسرعوا إلى مصالحة خالد على أن يتقاضى منهم الجزية . بعدها أقام خالد فرق جيشه فى مواقع حصينة لإخماد أية مقاومة قد تنجم ، وكذلك للإعلان عن قوة المسلمين بين أهالى تلك البلاد .

ثم أرسل أبو بكر أوامره إلى خالد بألا يتحرك قبل أن يأتيه عياض بن غُنْم ليحمى ظهره ، وكان عياض قد ظل فى دومة الجندل من غير أن يتمكن من التغلب على أهلها ، وقبل أن يصل عياض تحرك خالد بن الوليد وجعل على مقدمته الأقرع بن حابس وسار بحذاء الفرات ليبدأ بمدينة الأنبار فحاصرها ثم هاجمها ، ولم يجد قائدها الفارسى شيرازاد سوى الرضوخ للصلح بشروط خالد، ثم دخل خالد الأنبار وصالح من حولها ثم استقرت له الأمور ، ثم خلف عليها الزبرقان بن بدر قاصداً عين التمر ، وهى على حافة الصحراء بين العراق وبادية الشام ، وقد جمع عقبة بن أبى عقبة الكثيرين من قبائل العرب المناهضة للمسلمين، وتقدم خالد نحو عقبة فأوقعه أسيراً فولى جنده الأدبار وتعقبهم المسلمون فأكثروا فيهم القتل والأسر ثم اقتحموا حصونهم ، وبعدها انطلق خالد لنجدة عياض فى دومة الجندل فجعل دومة بين عسكره وعسكر عياض ، ونشب القتال بين الفريقين ثم تمكن خالد من اقتحام حصن دومة الجندل فقتل المسلمون من قتلوا وأسروا ، من أسروا وخطورة موقع دومة الجندل أنها كانت تقع على رأس الطريق الذى يؤدى إلى الحيرة وإلى العراق وعلى أبواب وادى سرحان الذى يؤدى إلى الشام . بعد هذا صار القعقاع إلى حُصَيْد فانهزم الذين أمامه وقتل قائدهم ثم فر جيشهم وعندما حاولوا أن يتحصنوا ببلدة الخنافس ، ذعروا بمقدم خالد إليهم ، فكان أن سلَّموا، ثم باغت خالد التغلبيين فى دراهم فأغار عليهم ، ومعه قائداه القعقاع وأبو ليلى . ثم انطلق شمالاً على شاطئ الفرات وحوله فلا

يواجه إلا التسليم والإذعان حتى بلغ الفراض وهى على حدود العراق والشام . وبذلك اقترب جدًا من الروم، وهنا انضم إلى الروم العرب القريبون وغيرهم من ناصروا الفرس . واندلعت المعركة أمام مدينة الفرائض وكانت عنيفة عاصفة ولكن بفضل مداورات خالد دارت الدائرة على الروم وحلفائهم فولوا مدبرين ، وتحقق النصر فى موقعة الفرائض . ثم عاد خالد إلى الحيرة وفى نيته أن يغزو الروم فى عقر دارهم وليس على التخوم وتوجه خالد إلى تيماء وكانت أوامر أبى بكر إليه ألا يتحرك إلا بعد أن يعد عدته من الرجال ، فيدعو القبائل العربية التى حول تيماء بالانضمام إليه . وكانت جبهة الروم تعد عدتها لمهاجمة خالد بن سعيد الذى كتب إلى أبى بكر يستأذنه فى منازلتهم فكتب إليه أبو بكر يقول : « أقدم ولا تحجم واستنصر الله » .

أقام خالد بن سعيد فى جيشه فى تيماء وقد انضم إليه عدد ليس بالقليل من قبائل البادية على حدود الشام ، وكان يواجهه جيش الروم فى كثافة عالية وقد انضمت إليه القبائل العربية القريبة منه ، ورأى خالد بن سعيد هذا التجمع الهائل فكتب إلى أبى بكر يستمده ، فأمده بعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة بجيوشهم . وتقدمت هذه الجيوش بقيادة خالد بن الوليد نحو الروم ، وعندما شاهدهم القائد الرومانى باهان فإنه تظاهر بالتراجع نحو دمشق لاستدراج خالد بن سعيد ، وهذا ما حذره منه خالد بن الوليد ، وتمكن باهان من محاصرة خالد بن سعيد وهاجمه بعنف مما أرغم خالد على الفرار نحو المدينة ، ولكن أبا بكر منعه ، وأمام ذلك الموقف الخطر زود أبو بكر جيش خالد بن الوليد بشرحبيل ابن حسنة وجيشه ، ثم أردفه بأخيه معاوية كما ندب جيشًا عظيمًا على رأسه أبا عبيدة بن الجراح وأمَّره على حمص ، وتحركت كل تلك الجيوش ـ وكانت تعسكر بالجرف حتى نزلت الشام ، أما هرقل فإنه واجه المسلمين بقوات ضخمة جدًا ، وهنا رأى المسلون أنه لابد من توحيد القيادة ، وتقدم المسلمون وتقدم الروم وكان خالد قد نظم جيوشه فرقًا أو كراديس ، وجعل على كل فرقة

قائدًا شجاعًا ، وقد قال خالد فى رجاله : « الله الله إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا اليوم من أيامك انزل نصرك على عبادك » .

وتصادمت القوات المسلمة والرومية وتراجع الروم هزيمة وحاولوا الفرار غير أن المسلمين تمكنوا منهم فقتلوا وأسروا ، وانتهت معركة اليرموك بهذا النصر العظيم .

وبذلك فقد الروم كل أمل فى الحفاظ على الشام .

وبعد اليرموك صار المسلمون إلى أرض الأردن ليطاردوا الروم ثم طاردوهم إلى دمشق وأثناء حرب الشام هذه حاول الروم الانقضاض على المسلمين فى العراق غير أن المثنَّى الشيبانى استدار إليهم أوقع بهم هزيمة شنعاء .

ثم كانت خلافة عمر بن الخطاب ، وتواصلت الفتوح . أجل تواصلت الانتصارات .

• • •

عودة إلى العراق وفارس :

بعد أن أصبح عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين فإن استهل فتوحه بأن دعا المسلمين إلى قتال الفرس لإدخال فارس بأكملها فى الإسلام ، فأرسل خمسة آلاف مقاتل تحت إمارة أبي عبيدة بن مسعود الثقفى وأمره أن يستشير أصحابه وأن يستجيب لما يرون ومن ناحية فارس فإن بوران مليكتها استعانت لتثبيت ملكها والدفاع عنه بقائدها الكبير رستم الذى اتصل بالدهاقين ، وحرضهم بأن يثوروا على المسلمين جاعلاً فى كل رستاق أو إقليم عاملا لتحريض الناس ، فثار أهل الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله حيث عسكر الفرس بالنمارق يقودهم جابان وبمجرد أن قدم أبو عبيدة على المثنى وقام على إمرة الجيش حتى دارت المعركة وانتصر المسلمون وأسر جابان .

معركة الجسر :

بعدها كانت موقعة الجسر أو المروحة « شعبان سنة ١٣ هجرية » .

لقد حزن القائد الفارسى رستم عندما بلغته أنباء هزيمة جنده فى النمارق ، فسأل عن قائد يمكنه أن يواجع العرب ويكون رادعًا لهم ، فقيل له : « ليس غير بهمن جاذويه » فاستقدمه ووجهه إلى جبهة المسلمين وزوده بعدد من الفيلة كما أعطاه راية كسرى : « درفش كابيان » وكانت مصنوعة من جلد النمر ، واستقر بهمن فى قس الناطف على الضفة الشرقية من نهر الفرات بينما استقر أبو عبيدة فى المروحة على الضفة الغربية ، ثم اتصل القائد الفارسى بقائد المسلمين إما أن يعبر إليه أو يعبر هو ، وأشار أصحاب أبو عبيدة بعدم العبور ، غير أنه رفض نصيحتهم قائلاً : « لا يكون الفرس أجرأ على الموت منا ، بل نعبر إليهم » فأقام جسرًا من السفن ليعبر عليه الجنود ، فلما عبروا وجدوا أنفسهم محاصرين فى مكان ضيق لا يمكنهم من الحركة الحرة ، ودارت المعركة بعنف وضراوة ، وكانت البداية مبشرة بانتصار المسلمين إذ تمكنوا من قتل ستة آلاف جندى ، حيث إنه حدث ما لم يكن فى الحسبان إذ أجحمت خيول المسلمين من الفيلة ، آنئذ نزل أبو عبيدة وسائر الفرسان عن خيولهم ثم صوبوا سيوفهم نحر الفيلة محاولين قطع أحزمتها وعندها قتل الفيل الأبيض أبا عبيدة ، وبسرعة تسلم لواء الحرب بعده سبعة من ثقيف استشهدوا جميعًا واحدًا واحدًا ، ثم تسلم اللواء المثنى بن حارثة الشيبانى وحاول أن يتقهقر بالجند عندما تأكد من رجحان كفة الفرس إلا أن عبد الله بن مرثد الثقفى أسرع إلى الجسر فقطعه وقال للجند : « أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا» ولكن الموقف ازداد تعقيدًا إذ تأكد للكثيرين أن الهزيمة مما لا مهرب منها ، فألقى البعض بأنفسهم فى الفرات فماتوا غرقًا ، غير أن المثنى استطاع بفرسانه أن يؤمن المسلمين فى تقهقرهم ، وأعاد إصلاح الجسر وخاطب الناس قائلاً : « إنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا ، فإنا لن نزايل حتى نراكم بعد ذلك الجانب ولا تغرقوا أنفسكم » وعبر الجند وكان آخرهم

المثنى ، وقد اشتدت عليه وطأة الجراح ، وعرف عمر بالكارثة ممن جاء إلى المدينة فخاطب الناس قائلاً : « عباد الله إن كل مسلم فى حل منى ، أنَّا فئة كل مسلم ، يرحم الله أبا عبيدة لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقل لكان لنا فئة » وهكذا أعاد عمر إلى الجموع ثقتهم فى أنفسهم فكأنهم لم يفروا ، ولكنهم تحيزوا إليه فهو فئتهم ، وقد كان لهذه الكلمة أثرها العميق فى نفوس الجند إذا أخرجت منهم بطولات ليس لها نظير فيما وقع بعد ذلك من معارك .

معركة البويب :

المعركة الثانية وكانت موقعة البويب ، وقد حدثت فى الثالث عشر من رمضان ١٣ هـ .

لقد جرت أحداثها على نحو عجيب ، فالمثنى بن حارثة الشيبانى ظل فى موقعه على الجانب الغربى لنهر الفرات ومعه من الجنود حوالى ثلاثة آلاف وصار يترقب المدد من عمر الذى أدرك ببصيرته الصائبة أن الذين عادوا إلى الإسلام من المرتدين متحمسون للجهاد فى سبيل الله فوجههم إلى المثنى الذى كان معسكراً بالبويب ، أما الجانب الفارسى أرسل جيشًا كبيراً يقوده مهران الهمذانى .

فتراسل مهران والمثنى فقال مهران : « إما أن تعبر إلينا وإما أن نعبر إليكم » فقال المثنى : « اعبروا » فعبر الفرس إلى الضفة الغربية ، وكان المثنى قد أعد جيشه إعداداً حسنًا ، وقد انضم إليه أنس بن هلال النمرى فى رجال من نصارى النمر ، وابن مِردى الفهرى التغلبى فى رجال من نصارى تغلب ، وقد رأوا أن من المروءة أن يقاتلوا مع قومهم العرب ، ثم أخذ المثنى وهو على فرسه الشموس ينتقل بين صفوف الجيش ويتأكد من الرايات ويوجه أوامره ويستحث إرادة الإيمان فى الجند ثم قال لهم : « إنى لأرى أن تؤتى العرب اليوم من قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم » ولما أزفت ساعة الهجوم قال فى الجموع : « إنى مكبر ثلاثًا فتهيئوا ثم احملوا مع الرابعة » .

وانطلق الصدام مدويًا صاخبًا فلما طال واشتد ، قال المثنى لأنس بن هلال : «يا أنس ، إنك امرؤ عربى إن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى حملت على مهران فاحمل معى » وكذلك قال لابن مردى الفهرى ، ثم انقض المثنى على المهران فجنبه حتى تمكن من اقتحام ميمنته ، ثم انخرط المسلمون فى صفوف الفارسيين ، وعلا الغبار فوق المقاتلين وجاء المسلمون من وراء الأعاجم وقاتلوهم ، هنا دعا المثنى لهم بالنصر قائلاً : « انصروا الله ينصركم » ثم وقعت الهزيمة بالفارسيين محاولين عبور الجسر لكن المثنى تمكن من قطعه فتمزق الفرس على شاطئ الفرات واقتفاهم المسلمون حتى أبادوهم وقدر قتلاهم يومئذ بمائة ألف ، ولقد قال المثنى عن هذه المعركة التى أبلى فيها المسلمون بلاء عظيمًا : « قد قاتلت العرب والعجم فى الجاهلية والإسلام ، والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد من ألف من العرب ولمائة اليوم من العرب أشد على من ألف من العجم. إن الله أذهب فصد وقتكم بردهن كيدهم فلا يروعنكم زهاء ولا قسمى فيج ولا نبال طوال فإنهم إذا أعجلوا عنها وفقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » ومن العظيم فى القيادة أن يعترف القائد بخطئه وهذا ما فعله المثنى يوم أخذه الجسر ومنعه الفرس من الفرار فقد قال : « لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أخرجتهم فإنى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس فإنها كانت منى زلة لا ينبغى إخراج إلا من يقوى على امتناع» .

وكان من أثر هذه المعركة أن دب الرعب فى نفوس الفرس فعجزوا عن القتال فأعان ذلك المسلمين الإغارة على عامة جماهير الفرس فيما بينهم وبين دجلة واستمروا فى الإغارة حتى أشرفوا على تكريت وفى نفس الوقت أغارت بعض الفرق على المدائن فغنمت الكثير .

ثم كانت موقعة القادسية .

معركة القادسية :

لقد رأى الفرس بعد هزيمتهم القاسية فى معركة البويب ضرورة توحيد قواتهم وتنظيمها وتوحيد كلمتهم حتى يمكنهم رد المسلمين الذين أصبحوا على مسافة قليلة من عاصمتهم ، وكان أول من فعلوه أن أسندوا الملك إلى يزدجرد وهو شهريار بن كسرى ، فكون جيشًا ضخمًا بلغت كثافته مائة وعشرين ألف مقاتل وقد سلحه تسليحًا تامًا ثم جعل على قيادته رستم أعظم قواد الفرس وفى هذا الإطار انضم سواد الشعب الفارسى إلى قواته المسلحة . ومن هنا أصبح وضع القوات المسلمة حرجًا مما دفع بالمثنى إلى أن ينسحب إلى ذى قار ، وفى نفس الوقت بعث برسالة إلى عمر بن الخطاب يعرض فيها الموقف فأجابه عمر بقوله : « اخرج من بين ظهر الأعاجم ورابط فى المياه التى فيها الأعاجم على الحدود ، ولا تدع ربيعة ولا مضر ولا حلفائهم أحدًا من أهل النجدات ولا فارسًا إلا اجتلبتموه ، احملوا العرب على الجد إذا جد العجم » وفى نفس الوقت كتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل يقول لهم : « لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى ، والعَجَل العجل » وجاءت القبائل بجندها وقياداتها إلى المدينة وقد بلغ جيش المسلمين بضعة وثلاثين ألف مقاتل بينهم كثيرون من صحابة رسول الله ﷺ . وقد أمر عمر عليه سعد بن أبى وقاص ، وعندما تأهب الجيش للتحرك نحو العراق أوصي « عمر سعدًا فقال له : « يا سعد بنى وهب لا يغرنك من الله أن قيل : خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله عز وجل لا يمحو الشىء بالسيئ ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، اللهم ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ولا يدركون ما عند الله بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر » .

ثم توجه سعد على العراق أميرًا على أكبر جيش إسلامى توجه إلى فارس وفى أثنائها توفى المثنى بن حارثة الشيبانى متأثر بالجراح التى أصابته يوم الجسر ،

غير أنه قبل وفاته بعث إليه بنصيحته فقال فيها : « قاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم ، فإن يظهر المسلمون عليهم فلهم ما وراءهم وإن تكن الأخرى فالجئوا إلى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلا أن يرد الله الكرة عليهم » .

ثم نزل سعد بالقادسية وفى خلال شهر كان يرسل الطلائع التى تغير على أهل السواد كما وجه بعض الغارات بين تسكر والأنبار فاستطاعوا أن يغنموا من الأطعمة ما يكفيهم زمنًا ليس بالقليل ، وفى نفس الوقت بعث العيون والأرصاد إلى أهل الحيرة وإلى صَلوبا للحصول على أخبار الفرس فعرفوا أن رستم قد نزل بساباط ، ثم أرسل سعد وفدًا من رجاله بناء على أمر من عمر بن الخطاب ليفاوض يزدجرد بشأن الغزو والإسلام ، فقال يزدجر للوفد : « ما جاء بكم ؟ وما دعاكم إلى غزونا والولع ببلادنا ؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتنا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكًا يرفق بكم » فما كان من النعمان بن مقرن ـ وكان رئيس الوفد إلا أن بين له أسباب بعثة الرسول ﷺ وغاية الإسلام فهو رحمة للعالمين ، ولهذا انضوى العرب تحت لوائه ؛ وكان مما قاله : « إن الرسول أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حَسَّن الحسن وقَبَّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر من الجزاء . فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم » وهنا ثار يزدجرد عليهم وقال لهم : « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلناكم ، لا شيء لكم عندى » ثم قال : « لئن لم ترجعوا لأرسلن لكم رستم ليدفعنكم فى خندق القادسية » ثم ذهب وفد إلى رستم برئاسة المغيرة بن شعبة ، وقد خاطبه رستم بقوله : « لا صلح بيننا وبينكم» فقال المغيرة: « تعبرون إلينا أو نعبر إليكم » فقال رستم : « بل نعبر إليكم » فعبر

الفرات ثم اتخذ كل من القائدين أهبته ودارت المعركة محتدمة عنيفة واستمرت أربعة أيام وقد ظهر فى اليوم بوادر رجحان الفرس بسبب ما أصاب خيول المسلمين من ذعر عندما شاهدت فيلة الفرس وفى الثانى دفن القتلى ، أما الجرحى فإنهم حملوا لمن يرعاهم من النساء وفى هذا الوقت انضم إلى جيش المسلمين مدد من الشام بقيادة بن عتبة بن أبى وقاص مما دعم قوة المسلمين . وقد عمد المسلمون إلى حيلة طريفة بإنهم غيروا فى أشكال الإبل بأن وضعوا على وجوهها براقع وطافت بين خيول الفرس فأذعرتها وأخافتها ، وظل القتال ناشبًا إلى منتصف الليل حيث رجحت كفة المسلمين ، وقد سمى ذلك اليوم بيوم أغواث لورود الغوث فيه ، وفى اليوم الثالث تجدد القتال بضراوة وإصرار حيث عادت الفيلة لمهاجمة المسلمين فما كان من المسلمين إلا أن صوبوا رماحهم إلى عيونها فأجفلت فى جنون فأحدثت بذلك خللاً فى الصفوف وولت هاربة مما أضعف من قوة الفرس ، ثم هبط الليل والمعركة ما زالت على شدتها فلم يسمع إلا صليل السيوف وهزيز الفرسان ، ثم كان اليوم الرابع وفيه أطبق جيش المسلمين على قلب الجيش الفارسى وجناحيه ، وقد استطاع هلال بن علقمة أن ينفذ إلى حيث رستم فقتله فصار ينادى فى المسلمين : « قتلت رستم ورب الكعبة » وهنا كبر المسلمون.

وعنفت هجمات المسلمين على الفرس الذين لم يجدوا مناصًا سوى الهرب السريع ، وجَدَّ المسلمون فى أثرهم حتى طردوهم إلى الضفة الشرقية للفرات ، وسمى هذا اليوم من أيام القادسية « يوم عماس » ـ أى الحرب الشديدة ـ والحق أنها من أشرس المعارك التى خاضها المسلمون فى قتالهم كله ، وقد استشهد فيها ثمانون ألفًا من المسلمين وقتل من الفرس ثلاثون ألفًا .

وبمجرد أن انقشعت غاشية المعركة حتى كتب سعد رسالة إلى عمر قال فيها : « . . . أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين فى بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموها ونفل عنهم إلى المسلمين واتبعهم

المسلمون على الأنهار وإلى طفوف الآجم وفى الفجاج وأصيب من المسلمين سعد ابن عبيد القارئ ، وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذا لم تكتب لهم »

وإبان حرب القادسية هذه كان عمر بن الخطاب قلقًا فكان لا يترك يومًا بغير أن يخرج إلى الطريق ليعرف من الركبان ما يجرى بالقادسية وذلك من الصباح إلى أن ينتصف النهار ثم يعود إلى مقره بالمدينة ، وفى يوم من الأيام لقى شخصًا على ناقة فسأله : من أين ؟ فأخبره . قال : يا عبد الله حدثنى ، قال : هزم الله العدو وظل يستخبره حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة أمير المؤمنين فقال الرجل : فهلا أخبرتنى رحمك الله . وعمر يقول : لا عليك يا أخى ، هات ما عندك . فسلمه كتابًا من سعد بالنصر .

والحق أن معركة القادسية من المعارك الفاصلة بين المسلمين والفرس فقد مكنت المسلمين من استرجاع الحيرة وغيرها من المدن كما فتحت الباب إلى المدائن عاصمة الفرس ، ودفعت بالكثيرين من عرب العراق إلى الدخول فى الإسلام والانضمام إلى صفوف المقاتلين المسلمين هذا فضلاً عن المغانم الكثيرة التى غنمها المسلمون .

فتح المدائن ١٦ هـ :

ظل سعد بن أبى وقاص بالقادسية قرابة شهرين ، كان فيهما يراسل عمر عما يمكن صنعه بعد ذلك وكانت فى نفس الوقت فرصة يستريح فيها جيش المسلمين من جهد القتال . ولقد تمكن بعض الذين فروا من الجيش الفارسى من أن يتجمعوا فى بابل تحت إمرة بعض القواد فما كان من سعد إلا أن خف إليهم فمزقهم فولوا الأدبار . ثم بقى سعد فى بابل عدة أيام ثم قصد بجيشه فى ذى الحجة سنة ١٥ هـ إلى بُهر سَير وهى مدائن سواد الفارسيين وظل أمامها شهرين رماها خلالهما بالمجانيق والعَرَّادات ثم تمكن من الاستيلاء عليها وكان الفرس قد

غادروها إلى المدائن العليا وبينما كان سعد محاصر البُهر سير حدث تراسل بينه وبين الدهاقين ، وقد دعاهم سعد إلى الإسلام والرجوع أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة وتم الاتفاق على الجزاء والمنعة ، وبذلك لم يبق فى غربى دجلة إلى أرض العرب من السواد إلا وقد سعد واطمأن بالإسلام ، وعندما استقر المسلمون بمدائن السواد أو المدائن الدنيا وقعت عيونهم إلى إيوان كسرى أو قصر كسرى الأبيض حينئذ قال ضرار بن الخطاب : « الله أكبر ، أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله » وتابع المسلمون التكبير ، وكان للقصر وقع كبير فى نفوس المسلمين إذ ارتفعت روحهم المعنوية .

وقد علما أن الفرس قطعوا الجسر بعد أن عبروا إلى المدائن العليا ؛ ليمنعوا زحف المسلمين عل عاصمتهم فظل المسلمون ببهر سير أيامًا من سفر سنة ١٦ هـ، وهم يشيرون على سعد بضرورة العبور ولكنه كان يخشى على المسلمين من الفرس حتى جاءه رجل من أهل الكتاب الناقمين على ملوك الفرس فدله على مخاضة يمكن للمسلمين أن يجتازوها ، فما كان من سعد إلا أن انتدب نفرًا من أهل البأس والمخاطرة فاقتحموا دجلة وقاتلوا الفرس على الضفة الشرقية ، ثم أعطى أمرًا لقواته باقتحام دجلة ، وفى هذا الوقت العصيب قال سعد وكان إلى جواره سلمان الفارسى : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه وليظهرن الله دينه وليهزمن الله عدوه إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلبت الحسنات » فقال له سلمان : « الإسلام جديد ذللت له والله البحار كما ذلل لهم البر ، أما والذى نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا فطبقوا الماء حتى لا يرى الماء من الشاطئ » وخرج المسلمون ولم يفرق منهم أحد وعندما شاهد الفرس المسلمين وهم يزحفون إليهم انسحب يزدجرد إلى حلوان وصار معه أهل المدائن فانقض المسلمون على القصر الأبيض فخرج منهم بعض القوم فخاطبهم سلمان الفارسى بوصفه داعية أهل فارس فقال لهم : « إنى منكم فى الأصل وإنى أرق لكم ولكم فى ثلاث فاختاروا ما يصلحكم : أن تسلموا فإخواننا لكم ما لنا

وعليكم ما علينا ، وإلا فالجزية ، وإلا نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » فقبل أهل القصر الأبيض الجزية ، ودخل سعد إيوان كسرى وهو يقرأ قول الله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨] ثم صلى صلاة الفتح وهى ثمان ركعات لا يفصل بينهن . ثم اتخذه مسجدًا وصلى به أول جمعة فى صفر سنة ١٦ هـ فكانت أول جمعة بالعراق ، وقد ربح المسلمون من الفارسيين مغانم لا تحصى من الأموال والذخائر وقد ضمت الكثير من الحلى ونفائس كسرى، ثم أرسل سعد إلى المدينة بخمس الغنائم .

وبعد فتح المدائن كان فتح الفتوح أو فتح نهاوند سنة ٢١هـ .

فتح الفتوح :

فبعد أن حاقت الهزيمة بالفرس فى المدائن تجمعت بعض فلولهم محاولين استرداد العاصمة ، ولكنهم منوا بهزيمة لم يجد يزدجرد بعدها مفرًا من مغادرة حلوان إلى الرى . فما كان من القعقاع بن عمرو إلا أن خفَّ إلى حلوان فاحتلها وفى نفس الوقت فاستولى المسلمون على تكريت والموصل ، وبعدها لم يواصل المسلمون فتوحهم شرقًا فتوقفوا عند حلوان كما أمر الخليفة حتى لا يقع المسلمون فى مضطرب من مسالك تلك البلاد ، ولكى يتمكنوا فى نفس الوقت من استعادة تنظيم صفوفهم وليؤكدوا تواجدهم فى المناطق التى استولوا عليها . ولكن يزدجرد لم يهدأ بعد فإنه بعد ذلك فى سنة ٢١هـ بذل جهوداً جبارة فى إعداد جيش بلغت كثافته مائة وخمسين ألف مقاتل يراوده أمل طرد المسلمين من فارس . وبلغ ذلك الاستعداد عمر بن الخطاب فما كان منه إلا أن ولى النعمان بن مقرن قيادة جيش المسلمين الذى تألف من أهل الكوفة والبصرة والحجاز حتى بلغ ثلاثين ألف مقاتل، ثم تحرك المسلمون حتى وصل نهاوند ، ففوجئوا بأن الفرس يتحصنون بحصون منيعة لا يخرجون منها فاحتالوا على استدراجهم للخروج فقامت منهم فرقة تظاهرت بالهزيمة بأن تقهقرت فتبعها الفرس ، فاغتمنها المسلمون إذا أمر

النعمان المسلمين بالهجوم عليهم بأن هز اللواء ثلاث مرات وهو يكبر ، ثم قال : « اللهم إنى أسألك أن تقر عينى اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام وذل يذل به الكفار ، ثم اقبضنى إليك بعد ذلك على الشهادة . أمِّنوا يرحمكم الله » وبذل جند الإسلام غاية وسعهم فى قتال الفارسيين فما كان يُسمع غير صليل السيوف ، ولما كان الفرس قد شدوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا كان عندما يقع منهم أحد يقع عليه سبعة بعضهم على بعض حُزمة واحدة فيقتلون جميعًا ، ولقد أصيب النعمان فى المعركة بنشابة فى خاصرته فاستشهد وأخفى أخوه معقل الخبر ، ثم حمل اللواء حذيفة بن اليمان ، وواصل المسلمون القتال حتى نزلت الهزيمة بالفرس فما كان منه إلا أن كتب إلى عمر يبشره بالفتح وذلك مع رجل قال لعمر: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح أعز الله به الإسلام وأهله وأذل به الكفر وأهله . فحمد عمر الله عز وجل ثم قال : « النعمان بعثك ؟ قال : احتسب النعمان يا أمير المؤمنين ، فبكى عمر واسترجع وقال : ومن ويحك » قال : فلان وفلان حتى عدَّ له ناسًا كثيرين ، ثم قال : وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم ، فقال عمر وهو يبكى : «لا يضرهم ألا يعرفهم عمر ولكن الله يعرفهم » .

ولقد سمى فتح هاوند فتح الفتوح إذا لم تقم للفرس بعدها قائمة . وبعدها استولى المسلمون فى يسر على همذان والرى .

أما يزدجرد فإنه فر على أقصى الحدود الشرقية على أمل أن يسترجع ملكه غير أنه توفى وكان ذلك فى خلافة عثمان رضى الله عنه .

وهكذا استولى المسلمون على جميع الأراضى الفارسية حيث نشروا الإسلام الذى شرح به صدر الكثيرين من الفرس ، فاعتنقوا الإسلام ، ثم تعلموا العربية فأصبحوا بذلك من نسج المجتمع الإسلامى عرفوا باسم الموالى ، وكان لهم شأن كبير بين المسلمين من حيث النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

نتجه بعدها غربًا نحو الشام ومصر .

فكيف فتحهما فى عهد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ؟

نبدأ أولاً بالشام وفتح دمشق سنة ١٤هـ .

فتح الشام :

لقد سبق أن ذكرنا أن المسلمين انتصروا على الروم فى معركة اليرموك فى أواخر حياة أبى بكر ، فارتد الروم المنهزمون فى اليرموك إلى بلدة فحل ، إحدى بلاد الأردن ، وفى نفس الوقت جاء إلى دمشق مدد من حمص ليشد من أزر جند الروم . أمام هذا الموقف كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب بأيهما يبدأ : بفحل أم بدمشق ، فكان رد عمر : « ابدؤوا بدمشق ما هتدوا لها فإنها حصن الشام وبيت ملكهم واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تمون بإزائهم فى نحورهم » فقام أبو عبيدة بتنفيذ خطة الخليفة ، فأرسل بعض قواته إلى فحل، وأُرسلت قوات أخرى لتكون فى المنطقة التى بين حمص حيث يوجد هرقل وبين دمشق ، أما باقى القوات فخف بها إلى دمشق فضرب عليها حصاراً محكمًا استمر سبعين ليلة دارت فى أثنائها زحوف وتراشق بالنبال والمجانيق وأهل دمشق متحصنون بالمدينة يلحون على هرقل أن ينجدهم ، فكان كل ما فعله أن أرسل إليهم بعض الفرسان فطردتها قوات المسلمين التى كانت بين دمشق وحمص ، وفى نفس الوقت استبد اليأس بأهل دمشق من طول الحصار وقتها كان خالد بن الوليد يبث عيونه لتأتيه بما يجرى داخل المدينة ، ثم جاءه خبر بأن أهل دمشق منهمكون فى احتفال أقاموه ابتهاجًا بمولود رزق به أحد قواد الروم ، وهنا استطاع خالد ومعه بعض رجاله من تسلق سور دمشق وفتح الباب الذى يليه ودخل منه جنده وهاجموا من تصدى لهم بسُيوفهم . وعندما سرى الخبر إلى أهل دمشق وافقوا أبو عبيدة على الصلح الذى عرضه عليهم ، وفتحت الأبواب لجند المسلمين إلا خالدًا فإنه دخل بابه عنوة ، ثم التقى الجميع وسط المدينة وتم الصلح بين أهل دمشق وبين المسلمين وكان ذلك فى رجب سنة ١٤ هـ .

ثم خلف عبيدة يزيد بن أبى سفيانِ ليدير أمور دمشق ويصرف أمورها على أن ينهض فى نفس الوقت بالاستيلاء على الأقاليم القريبة منه ، أما هو - أى أبو عبيدة - فإنه قصد ، يصحبه القائد شرحبيل بن حسنة ومعه باقى الجيش إلى بلدة فحل حيث كان بها جيش من الروم قوامه ثمانون ألف جندى . وقد عمد الجيش الرومانى إلى إغراق الأرض التى بينه وبين المسلمين بالمياه ، فأوحلها مما عاق من تقدم المسلمين الذين ظلوا فى حصارهم لفحل ، وحاول الروم الخروج لمباغتة المسلمين لكن المسلمين كانوا يقظين متأهبين فردوهم على أدبارهم ، وحدث أنه عندما اشتد الظلام حاول الروم الفرار ، ولكنهم ضلوا الطريق ، فغرقوا فى الوحل الذى دبروه بأيديهم ، وأسرع إليهم المسلمون ، ولحقوا بهم ، ولم ينج من الثمانين ألف إلا من شرد من القفار ، ثم توجه المسلمون إلى بيسان وطبرية فصالحهم أهلهما على شروط صلح دمشق ، ثم تقدم أبو عبيدة إلى حمص وضرب عليها الحصار الذى استمر طيلة الشتاء ، وكان الروم يناجزون المسلمين فى الأيام القارسة وصبر المسلمون على البرد والقتال ولما أيقن أهل حمص أن لا رجاء من المقاومة فإنهم طلبوا الصلح الذى تم على مثل صلح أهل دمشق . ثم رصد أبو عبيدة أمره إلى خالد بأن يتوجه إلى قنسرين فلما نزل ببلدة الحاضر فإن الروم أسرعوا إليه وعلى رأسهم قائدهم ميناس فقاتلهم خالد قتالاً شديدًا وقتل ميناس فى المعركة ، وظل الروم يقاتلون ثأرًا له حتى أفناهم المسلمون جميعًا ، أما أهل الحاضر فإنهم بعثوا إلى خالد يقولون له : إنهم عرب وأن لا دخل لهم فى الحرب، فقبل منهم اعتذارهم وتركهم لحالهم ، ولما بلغ عمر ذلك قال : « أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى » .

وواصل خالد سيره حتى بلغ قنسرين فأسرع أهلها بالتحصن فقال لهم : «إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا ، وهنا استرجعوا ما عاناه أهل حمص من الحصار فأسرعوا بطلب الصلح الذى تم على شروط أهل حمص ، وعندما أيقن هرقل أنه لم يعد له مقام بالشام فإنه قرر أن يغادر سوريا

نهائيًا وكان أن ودعها الوداع الأخير قائلاً : « عليك السلام يا سورية، سلامًا لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومى أبدًا » .

ثم واصل المسلمون فتوحهم فى شمال الشام حتى اتصلت البلاد التى فتحوها بالشام بالبلاد التى فتحوها بالعراق .

ثم انتقل المسلمون إلى خطوة أبعد فقد تقرر فتح أجنادين وبيت المقدس ، وكان ذلك فى سنة ١٥ هـ .

وقد حدث أنه عندما قصد عبيدة وخالد إلى حمص كان عمرو بن العاص ، وشرحبيل ابن حسنة يعملان على فتح فلسطين ، وهنا استطاع معاوية بن أبى سفيان أن يفتح قيسارية وصالحت الأردن شرحبيل ، ثم زحف عمرو بن العاص إلى أجنادين وعلى رأس قواته شرْحبيل ، وكان قائد الروم فى أجنادين الأرطبون، وكان من دهاة الروم وأوسعهم حيلة وعندما بلغ ذلك عمر قال : « قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظر عما تنوح » ونشب القتال رعيبًا حادًا حتى تكدس القتلى ثم نزلت الهزيمة بالروم فلجأ الأرطبون إلى إيلياء . أما عمرو فإنه نزل بأجنادين ثم ضرب الحصار على بيت المقدس زهاء أربعة شهور بذل فيها المسلمون غاية كفاءتهم وصبرهم ولاسيما أن الشتاء كان قارسًا ولا يحتمل . ولما طال أمد الحصار لم يجد الأرطبون مفرًا من الهروب إلى مصر وقد خلفه بطرق المدينة للدفاع عنها وقد بذل غاية وسعه للخلاص من الحصار ولما فشل جنح إلى السلم على أن يتولى عمر بن الخطاب نفسه عقد الصلح وذلك لتأكيد الأمان وتوثيق عرى العهد ، وعلى الفور كتب عمرو إلى عمر بذلك الشأن فسار إلى الشام بعد أن كتب إلى أمراء الشام ليخفوا مقابلته ، وجاءته رسل أهل إيلياء يطلبون الإسلام ، فسالمهم وكتب لهم عهد الذمة والأمان على النحو التالى :

«هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، وأنه

لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ومن حيزها ولا من صليبهم ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا عنها الروم واللصوت « اللصوص » ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان فيها من أهل الأرض ، قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منه شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس وعشر » .

وبعد كتابة هذا الأمان ذهب عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس ثم دخل كنيسة القيامة ولما حان وقت الصلاة قال للبطرق : أريد الصلاة ، فقال له : صل موضعك ولكن عمر اعتذر وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفردًا . فلما قضى صلاته قال للبطرق : « لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدى وقالوا : هنا صلى عمر » ثم كتب للمسلمين ألاَّ يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ، بعدها قال للبطرق : « أرنى موضعًا كي أبنى عليه مسجدًا » فقال : « على الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب » فوجد عليها ردمًا فشرع يزيله وتناوله بيده فرفعه فى ثوبه واقتدى به سائر المسلمين ، وبعد أن تم إزالة الردم أمر عمر ببناء المسجد ، ثم ولى أمراء الشام وعاد هو إلى المدينة .

وعلى هذا المنهاج جاء فتح مصر .

فتح مصر :

رأى عمر بن الخطاب بوعيه وفطنته وعمق تصوره للمستقبل أن لمصر أهمية كبيرة بالنسبة للإسلام ، ومن هنا فإنه أصدر أمره إلى عمرو بن العاص بضرورة التوجه لفتح مصر وكان ذلك فى سنة ١٨ هـ ، وكان أن أعد له جيشًا قوامه أربعة آلاف جندى ، ثم اتخذ عمرو سبيله نحو مصر ، فوصل العريش أول ما وصل واستولى عليها بغير مقاومة إذ كانت حصونها متهدمة ، كما كانت خالية من أية قوة رومانية يمكن أن تصد المهاجمين . وبعد الاستيلاء على العريش اتجه عمرو صوب الفرما (١) التى كانت محصنة تحصينًا جيدًا تدافع عنها حامية رومانية ، فأطبق عليها بالحصار لمدة شهر ، ثم نشب القتال بين المسلمين وبين الحامية كان النصر فيها للمسلمين وبالاستيلاء على الفرما ـ وهى المدخل الطبيعى لمصر من الشرق ـ أمن المسلمون طريق الإمداد والعودة لقواتهم . وقد تم فتح المسلمين لمدينة الفرما فى أول المحرم سنة ١٦ هـ . يناير ٦٤٠ م .

ثم واصل المسلمين سيرهم فمروا بمدينة مجدل ثم الصالحية ثم وادى الطليمات وليست بعيدة عن التل الكبير حتى انتهوا إلى مدينة بلبيس ، وكان يتزعمها الأرطبون الذى فر من بيت المقدس ، وقد حاول أن يهز من صمود القوات المسلمة طيلة شهر كامل ، ولكنه منى بالهزيمة واستولى المسلمون على المدينة وبعدها انطلق عمرو بجيشه نحو أم دنين ، ونشب القتال بين قوات المسلمين والبيزنطيين ، وكان شديدًا والاستماتة عنيفة مما أبطأ من الفتح فلم يجد عمرو بدلاً من أن يطلب المدد من الخليفة فأمده فى الحال باثنى عشر ألفًا من المسلمين يقودهم الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، ومسيلمة بن مخلد ، والمقداد بن

---

(١) الفرما : مدينة على نهر من الأرض تبعد نحو ميل ونصف من البحر شرقى بورسعيد ، يصب قربها فرع النيل البلوزى وهى قوية الحصون بها كنائس وأديرة . (من كتاب بتلر: فتح العرب لمصر ص ١٨٥) .

الأسود، وكلهم رجال لهم شجاعتهم وحنكتهم القتالية . وقبل أن يصل المدد تمكن عمرو من الاستيلاء على أم دنين ثم توجه إلى الفيوم عابراً النيل حيث استولى على البهنسا ، ووقعت فى يده مغانم كثيرة من الأنعام ، وقبل أن يتم استيلاؤه على الفيوم جاءه الخبر بوصول المدد فرجع وعسكر به فى هليوبولس «عين شمس » آنذاك فقرر عمرو الاستيلاء على حصن بابليون ، ولما أحست القوات الرومانية بتوجهه إليها فإنها اعتصمت بالحصن وكان يقود جند الروم تيودور تحت رئاسة المقوقس ثم عمل عمرو على استدراج جند الروم خارج الحصن وقد كان، فالتقى بهم فى العباسية ، وكان قد أعد كمينين : الأول فى الجبل شرقى العباسية والثانى قرب أم دنين ، وكان الهجوم بباقى الجيش ، واشتبك الخصمان وعندما اشتدت حدة القتال خرج الكمين الأول من الجبل ، فحطم مؤخرة جيش الروم الذى تقهقر إلى أم دنين ، وهنا خرج عليهم الكمين الثانى ، وبذلك وقع جيش الروم بين براثن إسلامية ثلاثة فنزلت به الهزيمة الشنعاء فخف جنده للهرب قاصدين الحصن أو راكبين سفن النيل وقد قتل منهم عدد كبير ، وبتلك الهزيمة استطاع المسلمون أن يحاصروا حصن بابليون ، ولما كان الوقت وقت فيضان وأسوار الحصن قوية هذا فضلا عن قلة معدات القتال عند المسلمين فقد طال الحصار ، ثم أخذ الوهن يدب فى نفوس الروم بعد أن تبين لهم تصميم المسلمين على فتح الحصن ، فتداولوا أمرهم بينهم ، فانتهوا إلى القرار النهائى بضرورة التسليم . فخرج المقوقس فى بعض رجاله إلى جزيرة الروضة ، وأرسل إلى عمرو يعرض الصلح وهنا وضعهم عمرو أمام ثلاثة خيارات : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال . ولما عاد رسل المقوقس سألهم عن شأن المسلمين فقالوا ما قاله ابن عبد الحكم : « رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون فى صلاتهم » فقال المقوقس : « والذى يحلف به لو

أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم ، وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم من الأرض ، ووقوا على الخروج من وضعهم » .

وانتهى التراسل بين المقوقس وعمرو ، وقد نصت شروط الصلح على دفع الجزية دينارين على كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا النساء شىء ، وتم ذلك بالنسبة للقبط أما بالنسبة للروم فإنهم خيروا بين البقاء ويكون لهم ما للقبط والخروج إلى أرض الروم ، ولهم أن ينتظروا موافقة الإمبراطور هرقل الذى رفض ذلك الصلح مستهينًا بشأن المسلمين وعتب على المقوقس ، واستؤنف القتال وأثناءه تمكن الزبير بن العوام من تسلق أسوار الحصن ومعه نفر من رجاله وقد فشل الروم فى مقاومته ، ولم يجد الروم مناصًا من طلب الصلح فوافق عمرو وغادر الروم الحصن آخذين معهم ما يكفيهم من الغذاء مخلفين أسلحتهم وعُدَدهم ، وكان ذلك فى المحرم ٢٠ هـ الموافق أبريل سنة ٦٤١ م . وذلك بعد أن مات الإمبراطور هرقل فى مارس سنة ٦٤١ م .

ولإتمام فتح مصر كان لابد من الاستيلاء على الإسكندرية بوصفها عاصمة البلاد ، هذا فضلاً عن أهميتها التجارية والبحرية والعسكرية . فتوجه نحوها الجيش الإسلامى وقد اشتبك فى طريقه بالحاميات الرومانية فى طرنوط ، وتيتوس، وسُلطيس ، والكريون ، وعلى مشارف الإسكندرية وقع التصادم الكبير إذا نشب قتال عنيف بين المسلمين والروم المتحصنين بالمدينة ، وظل الحصار قائمًا طيلة أربعة شهور أثناءها كانت الأحوال الداخلية للدولة البيزنطية سيئة جدًا بسبب تناحر الطامعين فى العرش فلم يجد الإمبراطور بدًا من أن يبعث المقوقس إلى الإسكندرية ليعقد صلحًا مع المسلمين فكان من نصوصه : « المهادنة بين الطرفين أحد عشر شهرًا وأن يحتفظ العرب بمركزهم مدة الهدنة وألا يباشروا أعمال حربية ضد الإسكندرية وأن يكف جند الروم عن الأعمال العدائية وألا يتعرض المسلمون

للكنائس بسوء وألا يتدخلوا فى شؤون المسيحيين وأن ترحل الحامية التى بها بأمتعتهم وأموالهم مع دفع الجزية عن شهر عند رحيلهم وبقاء اليهود بالإسكندرية، وألا يعود الرومان أو يحاول جيش رومى استراد مصر ، وأن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين عن كل سنة ، وأن يكون عند المسلمين مائة وخمسون جنديًا روميًّا وخمسون مدنيًّا رهينة لتنفيذ هذه المعاهدة » وكان ذلك فى سنة ٢٠ هـ . نوفمبر سنة ٦٤١ م . وتم الجلاء آخر سنة ٢١ هـ ، الموافق سبتمبر سنة ٦٤٢ م .

وبعد ذلك دخل المسلمون الإسكندرية وبسطوا سلطانهم على كل أنحاء مصر شمالها وجنوبها فكان أن أصبح المصريون أهل ذمة فى حماية المسلمين .

الفتوح الإسلامية فى عهد عثمان بن عفان :

بعد استشهاد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه دخلت الفتوح الإسلامية مرحلة جديدة فى عهد عثمان بن عفان :

فعلى الجبهة الفارسية عاود الفارسيون الثورة على أميرهم وقتلوه فأسرع إليهم عبد الله بن عامر أمير البصرة فى سنة ٢١ هـ ، وذلك على رأس جيش كبير واشتبك معهم فى معارك ضارية فهزمهم فى مرو وخوارزم وغيرهما ، وبهذا تمكن من إعادة فتح تلك البلاد فرجع أهلها إلى طاعة المسلمين ، وفى نفس الوقت وحدث الأمر ذاته مع أهل بعض الأقاليم الفارسية مثل نيسابور ، وبلخ . ثم عاد إلى البصرة وقد استقر الولاء إلى الدولة الإسلامية .

ولعل هذه المعارك كانت المشهد الأخير من حياة يزدجرد الثالث آخر ملوك الإمبراطورية الساسانية فقد قتله أحد أعوانه وهو حاكم مرو .

وكان المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب قد بسطوا سلطانهم على أرمينية بعد أن انتزعوها من قبضة الرومان غير أن القوة الإسلامية التى كانت بها أرغمت على الرحيل بعد أن حاصرتها أعداد كبيرة من جند الروم ، وعندما جاء عثمان فإنه أصدر أمره إلى معاوية بن أبى سفيان وإلى الشام بضرورة استرجاع إقليم أرمينية

فكان أن أرسل معاوية حبيب بن مسلمة الفهرى فى قوة تبلغ ستة آلاف جندى فعقد صلحًا مع أهل قاليقلا على الجزية ، ثم استمر فى زحفه حتى نشب قتال بينه وبين الروم قبل أن يأتيه المدد الذى طلبه من الخليفة عثمان ، وكان أن باغت الروم وحقق انتصاره عليهم ، فلما جاءه المدد زحف الجيشان وتمكنا من استرجاع إقليم أرمينية وأن يعيداه إلى دائرة الإسلام ، وكان معاوية بن أبى سفيان بعث بقوات إلى الأناضول كان الهدف منها إفزاع الروم وإخافتهم ، وفى نفس الوقت إلهاءهم عن الدفاع عن الأقاليم المجاورة للعاصمة القسطنطينية ، وذلك حتى يتمكن المسلمون من الاستيلاء على ما تبقى للروم من حصون وقلاع على ساحل الشام .

توغلت قوات المسلمين حتى عمورية واستطاعت بعد ذلك تطهير الشام من الوجود الرومانى فى ميائى قنسرين وطرابلس وهما آخر ما كان للرومان من مواقع .

نتنقل بعد ذلك إلى الجبهة الغربية (إفريقيا والمغرب) :

ففى ذلك الوقت تعاونت حملة بحرية رومانية مع بعض الروم المقيمين بالإسكندرية فى الاستيلاء على المدينة فاستغاث المسلمون بالخليفة : أولا كى يبقى على عمرو بن العاص واليًا على مصر ، وكان قد عزل منها ، وثانيًا استرجاع المدينة من أيدى الروم ذلك بفضل هيبة عمرو وخبرته فى قتالهم ، واستجاب عثمان لطلب المسلمين وعادت الإسكندرية إلى مصر الإسلامية وكان ذلك فى سنة ٢٥هـ.

ثم لنخرج من مصر ونتجه إلى إفريقية (تونس الحالية) وكان عمر بن الخطاب قد رفض طلب عمرو بن العاص فى فتحها فلما أن تولى عبد الله بن أبى السرح إمارة مصر فإنه عرض على الخليفة عثمان غزو إفريقية فاستجاب لطلبه بنخبة من الصحابة كان من بينهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ،

وعبد الله بن الزبير . وكانت إفريقية ولاية رومانية غير أن أميرها غريغور أو جرجير استقل بها عن الإمبراطور وأعلن عن نفسه ملكًا عليها ، وعندما تبين عما هو معرض له من أخطار من ناحيته الشرقية حيث يوجد المسلمون فإنه أعد جيشه لإبعاد المسلمين عن مملكته ، وفى سنة ٢٧ هـ دارت بين الفريقين معارك شرسة ولو أنها طالت إلا أن النصر كان حليف المسلمين هذا فضلاً عن قتل الملك جرجير وأسر ابنته . وبعد النصر توجه أهل إفريقية (تونس) إلى عبد الله بن سعد لطلب الصلح مقابل مبلغ من المال فوافق ثم رجع الجيش إلى مصر .

ثم قام ابن أبى السرح بالتوغل فى جنوب مصر حتى بلاد النوبة وكان ذلك فى سنة ٣١ هـ ، وقد تمخض غزو النوبة عن عقد هدنة مصالحة بين الطرفين وقد تأكدت المصالحة بالتبادل التجارى بين المسلمين وأهالى النوبة .

أول الفتوحات البحرية :

نشأة الأسطول الإسلامى :

لم يكن للعرب فى جاهليتهم ولا فى عصر البعثة المحمدية وطيلة خلافة أبى بكر وعمر معرفة بالحروب البحرية ، ولذلك كان موقف العرب حرجًا فى فتوحاتهم للشام ومصر إذ إن لهذين الإقليمين سواحل فحكم موقعهما على ساحل البحر الأبيض المتوسط أن لهما ثغوراً كثيرة جعلتهما فى تعرض مستمر لغزوات الطامعين ،ولقد كان الروم حتى الوقت الذى قامت فيه دولة الإسلام وبسطت عقيدة الإسلام عقيدتها فى الشرق حيث فارس والعراق والشام ومصر وإفريقية ـ كان الروم هم سادة البحر الأبيض وملوكهم لا ينازعهم فى ذلك إلا ساذج أو مغرور ، وبذلك فالأساطيل الرومانية كانت حجر عثرة أمام الفتوحات الإسلامية فقد كانت تعطل خططها التى كانت تتطلع إلى فتح المدن الساحلية الشامية ، وكذلك الإسكندرية وما بعدها من ناحية الغرب ، وأكثر من هذا جسارة فإن الأسطول الرومانى بقيادة عمانويل تمكن من انتزاع الإسكندرية من أيدى المسلمين

ثم استعادها عمرو بن العاص فى السنة نفسها .

ولقد كان معاوية بن أبى سفيان ـ عندما كان واليًا على الشام ـ بصيرًا بما عليه المسلمون من ضعف بحرى إن أجيز هذا التعبير ومن ذلك كان يدرك ضرورة أن يكون للمسلمين أسطول يكون ندًا للأسطول الرومانى فيستطيع أن يفتح باقى الثغور الشامية : قِنسَّرين وطربلس وأنطاكية وغيرها ، ولما عرض معاوية على عمر فكرة إنشاء أسطول إسلامى وتكوين قوة بحرية قادرة على حماية الشواطئ الإسلامية من أى اعتداء رومانى ، ولقد كانت العوامل التى تكفل إنشاء قوة بحرية متوافرة تمامًا ، فالشام غنى بأخشابه الصالحة لبناء السفن والصناع المهرة متوافرون فى مصر والشام ، ومع ذلك فإن عمر بباعث الخوف على جند المسلمين من ركوب البحر ، وهم بغير دراية أو علم بشؤون البحر ، فإنه رفض فكرة معاوية ؛ حتى إذا كانت خلافة عثمان بن عفان ، فإن معاوية عرض عليه نفس الفكرة محاولاً إقناعه فوافق شريطة ألا يرغم أحدًا من الجنود على ركوب البحر .

ولم يتوان معاوية فكأن أن استدعى كل صاحب خبرة فى هذا المجال من أهل الشام ، ثم أقيمت دور لصناعة السفن ، وقد جعلوا سفنهم على شكل سفن الروم سواء أكانت كبيرة أم صغيرة . فالكبيرة قريبة من البارجة فى عصرنا وتستطيع حمل ألف جندى بأسلحتهم ، والصغيرة تشبه الطراد وحمولتها مائة جندى . بعد هذا أخذ معاوية يجند للأسطول المحاربين ويمدهم بما يلزمهم من مؤن وعتاد ، وكانت المشكلة الرئيسية هى توفير العناصر المدربة على قيادة السفن والقيام بالمناورات فى عرض البحر ، فكان أن استقدم بعض الإغريق ممن لهم خبرة بالبحر الأبيض وضم إليهم عرب اليمن ، وكان للبحارة اليمنيين شهرتهم القديمة بالتجارة البحرية والتجول بين موانئ المحيط الهندى والبحر الأحمر . من أجل هذا اختار معاوية عبد الله بن قيس اليمنى لقيادة أول قوة بحرية إسلامية .

واستهلت القوة البحرية الإسلامية عملها باعتراض السفن الرومية التى كانت تحمل المؤن والعتاد للمواقع الرومية على ساحل الشام ، فحرمت عليها القيام

بعملها هذا مما أتاح للمسلمين القضاء على الجيوب الرومية ، فكان لهم فتح الشام كله وسارت مصر على هذه الخطة فقد أنشأ واليها عبد الله بن سعد بن أبى السرح أسطولاً يحمى به السواحل المصرية مما قد يشنه الروم من غارات .

وهكذا بدأ الصراع البحرى بين البحرية الإسلامية والبحرية الرومية .

وقد استهلت البحرية الإسلامية فتوحها بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، وقد دارت بشأن هذه الجزيرة مكاتبات كثيرة بين الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وبين معاوية ، فقد طلب من كل منهما أن يأذن له بغزوها وقد أعد لهذا العمل عدته التى تتفق والغاية المقصودة ، وكانت استعدادات معاوية توازي الأهمية الكبيرة لهذه الجزيرة فمنذ نشأة الحضارات فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى والتناحر الدموى لا يهدأ من أجل فرض السيادة على الجزيرة التى تعد قاعدة رئيسية لأية دولة تطمح فى الزعامة على بلاد الشرق الأدنى وهي قبرص ، نتبين هذا منذ أيام تحتمس الثالث الذى كان ملكًا على مصر الفرعونية ، وحتى فى عصرنا الحاضر حيث تحرص الدول الكبرى فى السيطرة على هذه الجزيرة لما لها من أهمية كبرى فى تحقيق السيطرة الاقتصادية والأمنية والعسكرية . ومما له دلالته الإستراتيجية أن هذه الجزيرة بفضل موقعها الجغرافى الممتاز وهي الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط أصبحت تتحكم فى مياه هذا الجزء الشرقى من البحر .

وإدراكًا من معاوية بالأهمية القصوى لهذه الجزيرة ، ليكف غارات الروم على الشام إذا اصطنعها الروم مركزًا لتموين قواتهم وحصنًا يلجؤون إليه حين الانسحاب ولقد أظهرت الحملة التى أعدها معاوية لغزو قبرص سنة ٢٨ هـ . ٦٤٩ م الغايات التى من أجلها بدأ المسلمون غاراتهم ، ومن الدهاء السياسى عند معاوية أنه حرص على ضم نفر من كبار الصحابة لمصاحبة الحملة وذلك ليضفى على الأسطول العربى مظهر الجلال الإسلامى .

بداية الغزو :

تجمعت قوات معاوية وأساطيله فى ميناء عكا مستجلبًا جميع سفنه من مصر، وقد اشترك مع الجند العرب كبار قادة الشام ، يذكر منهم عبادة بن الصامت ومما اتسمت به هذه الحملة أن خرج بها النساء خيث قمن بدور له شأنه فى هذه الحملة الأولى التى شنت على جزر البحر الأبيض المتوسط ، فمثلاً اصطحب معاوية زوجته فاختة ، كما أخذ عبادة بن الصامت معه زوجته أم حرام بن ملحان الأنصارية أما السبب فى أن عثمان أذن لمعاوية بأن يصحب معه زوجته فذلك ليختبر صدق عزيمته فى مشروعه ، وليتأكد فى نفس الوقت من أن الجزيرة قريبة من الشام ، فكان مما نبه إليه الخليفة قوله فى إحدى رسائله : « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذونًا لك وإلا فلا » والواقع أن معاوية كان صادقًا فى طموحه ومقصده .

وبدأ غزوته البحرية بأن أبحر من ميناء عكا على رأس أسطوله ، وذلك بعد أن انتهى شتاء سنة ٣٨ هـ ، ٦٤٩ م ولما بلغ شاطئ قبرص نزل على شاطئه مسجلاً بذلك أول عبور للعرب المسلمين لمياه البحر الأبيض ، وتعد هذه الغزوة رمزًا على شدة الوعى البحرى عند العرب رجالا ونساء فقد استشهدت أم حرام زوجة عبادة بن الصامت على أرض قبرص ، فعندما رست سفن الأسطول الإسلامى على الشام ، وبدأ الجند يغادرونها اعتلت أم حرام متن دابتها فنفرت الدابة، فأوقعتها على الأرض فماتت لساعتها مسجلة بذلك أول صفحة للشهداء من جند الأسطول الإسلامى ، ودفنت أم حرام فى أرض جزيرة قبرص ، وقد عرف قبرها منذ ذلك الوقت بإسم : «قبر المرأة الصالحة » .

وبعد أن نزل المسلمون ذخائرهم وأسلحتهم وعتادهم إلى الشاطئ بعثوا إلى أهالى قبرص يعلمونهم بغرضهم الذى جاؤوا من أجله ، وهو أنهم يسعون إلى أن يعاهدوهم على ما فيه سلامة الشواطئ الإسلامية الواقعة على الجانب الشرقى من البحر الأبيض ، لكن سكان قبرص بإيعاز من الروم رفضوا ذلك العرض واتخذوا أهبتهم للدفاع عن مدينتهم فاعتصموا بأسوارها . آنئذ تقدمت القوات الإسلامية

قاصدة العاصمة وهى قسطنطينا . وكانت مدينة كثيفة السكان تكاد تكون مخزنًا لكل ثروات الجزيرة وعتادها وسلاحها ، ولم يدم الحصار طويلا فقد اقتحم المسلمون المدينة وغنموا كنوزها كما أسروا الكثيرين ، أمام تلك الهزيمة عقد حاكم العاصمة أو الهركون صلحًا مع المسلمين . وكان من أشراط ذلك الصلح أن يدافع القبرصيون للمسلمين جزية سنوية مقدارها ٧٢٠٠ دينار وهو نفس المبلغ الذى كانوا يدفعونه لدولة الروم . ومن أشراطه أيضًا ألا يسمحوا للروم بالإغارة على الأراضى الإسلامية فى الشام ، وألا يفشوا لهم أسرار التحركات البحرية للمسلمين ، كما وافق أهالى قبرص على إمداد المسلمين بأنباء أية حملة بحرية يعتزم الروم القيام بها ضد الشواطئ الإسلامية المصرية أو الشامية . وأيضًا من أشراط الصلح أن يتخذ القبرصيون موقف الحياد الكامل بين العرب والروم على سيادة البحر المتوسط ومما شجع المسلمين على هذا الطلب أنهم لم يفرضوا على القبرصيين أن يمدوهم بأى مساعدة خاصة بالأسطول الإسلامى وقت إغارته على الروم : «فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينتصروا عليهم » .

وهكذا سجل الأسطول الإسلامى أول سطر له فى ميدان المجال البحرى الذى خاض فيه معاركه الطويلة فى نصرة الإسلام ، وفضلا عن هذا فإن هذا النصر البحرى قد نفخ فى روح الإرادة الإسلامية الجسارة التى لم تعد تتهيب ركوب البحر أو تخشاه .

ثم أخذ الأسطول الإسلامى بعد غارته الأولى الاهتمام بقبرص ليرى ما كانوا على عهدهم وليحول فى نفس الوقت دون أن يتخذ الروم قبرص مركزا لهم . لكن حدث أنه فى سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣م ، لم يلتزم أهل قبرص بشروط الصلح فأعانوا بسفنهم الروم على مهاجمة الشواطئ الإسلامية بالشام . وهنا وجد معاوية أن لا بد من مهاجمة أسطول الروم ليحرمه نهائيًا من الاعتماد على جزيرة قبرص، ولذلك فإنه فى العام التالى لفتح قبرص خرج الأسطول الإسلامى سنة ٣٣ هـ /

٦٥٤ م . مؤلفًا من خمسمائة سفينة وعدد كثيف من الجند فأغار به على الجزيرة، وتمكن من انتزاعها عنوة رغم استماتة أهلها فى الدفاع عنها . ومنذ ذلك الوقت أصبحت قبرص القاعدة الدائمة للأسطول الإسلامى فى البحر الأبيض المتوسط ، ولتأكيد تلك الخطة فإن معاوية عين للجزيرة قواتا لحفظ أمنها والدفاع عنها وفى نفس الوقت لحماية ظهر الأسطول ، فكان أن خصص جيشًا قوامه اثنا عشر ألف مقاتل صرف لهم رواتب منتظمة .

ثم انتقل معاوية إلى خطوة متقدمة ، فقد نقل جماعة من أهالى بعلبك إلى قبرص مقابل رواتب مغرية ، وذلك درءًا لأخطار الروم المحتملة ، ولقد تباينت نظرة المسلمين إلى أهالى قبرص فمن المسلمين من ارتابوا فيهم ولا سيما بعد أن نقضوا شروط الصلح ، ففى إحدى المناقشات قال أحد المسلمين : ما وفى لنا أهل قبرص قط ، وقال آخر بضرورة إنزال أشد العقوبات بهم مستشهدًا فى ذلك بقوله ﷺ : « إنه من نقض عهدًا فلا ذمة له » . غير أن معاوية لم يجنح إلى تلك الآراء العنيفة فقد كان يميل إلى سياسية اللين والمصانعة ، فتفادى الشدة التى عامل بها الروم أهل قبرص وقد وجد معاوية من يؤيده رأيه ويؤازره فقد قال أحد المسلمين : «أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم » .

وبتلك السياسة اطمأن أهل قبرص على أنفسهم وأموالهم ، ونتج عن هذه السياسة أن أصبح الأسطول الإسلامى غير مهدد من الروم ، بل إن الروم خشوا بأسه ، وقد تجلى بأس الأسطول الإسلامى فى موقعة « ذات الصوارى» التى تقرر فيها بصفة نهائية مصير البحر الأبيض فى هذه المعركة كانت دولة الروم هى البادئة بالعدوان والسبب هو الرغبة الجامحة التى زينت للإمبراطور الروماني أمنية القضاء على الأسطول الإسلامى الفتى يشجعه على هذا إيمانه بأن العناية الإلهية قد ادخرته دون غيره لإحياء الدولة الرومانية وبعث القوة الإمبراطورية فيها ، ويعود هذا الإيمان إلى أنه انتزع عرشه بعد فترة عصيبة من الهزائم ، فقد فقدت دولة الروم

أغنى أقاليهما فى الشام ومصر ، وفى نفس الوقت فقدت أعظم جزرها قبرص ورودس ، يضاف إلى هذا الصراعات المحمومة التى نشبت بين أبناء البيت المالك فى القسطنطينية تحركهم الأطماع والأحقاد ، فى هذا المحيط المحموم تربى قنسطانز ونشأ وقد شارك فى المؤمرات والدسائس حتى تمكن من الاستيلاء على العرش سنة ٦٤٢ م . وبفضل تلك النشأة الحرجة ، إن أجيز هذا التعبير ، تمكن قنسطانز من تدبير السياسة التى حافظت على وحدة بلاده ، والدفاع عنها . ولعله صادف بعض النجاح حين دمر بعض الطلائع البحرية الإسلامية التى هاجمت بلاده.

وقد وجد قنسطانز أنه من الضرورى أن يقوى أسطوله وأن يصلح من شأن القواعد البحرية فى بلاده مما يعدها للمواجهة البحرية مع العدو المسلم ، ولما كانت دولة الروم تعتمد فى الحصول على السفن والجند ، وكذلك أمراء البحار على آسيا الصغرى ، فإن قنسطانز رأى أن لابد من إشاعة الأمن فى ذلك الإقليم بالقضاء على الفتن والصراعات التى عصفت به ، وما كان ذلك إلا لأن إقليم آسيا الصغرى هذا كان قبله ملجأ الثائرين على حكم الرومان وملجأ الطامعين فى بلوغ قمة السلطة ولتحقيق تلك الآمال تمكن قنسطانز من أن يقضى على الخارجين على القانون ويعيد الأمن للبلاد ، وفى نفس الوقت ضمن لأسطوله مورده التقليدى من السفن والرجال . وبذلك شد من أسر قواته البحرية فى شرق البحر المتوسط بحماية قواعد أسطوله .

وكانت بعض العناصر من السلاف المقيمة فى بلاد اليونان قد شنت بعض الغارات على سواحل بحر إيجة فأثارت الذعر بين أهلها . غير أن قنسطانز أخضعها فعادت إلى سلطانه ، وبذلك أوجد قنسطانز ما يمكن تسميته بتعاون بحرى بين آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وبتلك الخطة أقام أسطولاً قويًا اتخذ عدته للعمل على طرد المسلمين من مياه البحر المتوسط وإعادة السيطرة الرومانية عليه. هنا أسرع قنسطانز بتوجيه أسطوله نحو هدفه حين بلغت مسامعه أن معاوية وإلى الشام قد جهز بالفعل حملة بحرية كبيرة لضرب القسطنطينية عاصمة الروم . فبذل

قنساطز غاية جهوده فى تفادى ذلك الخطر المهدد لعاصمة ملكه قبل أن يدنو منه فاعتمد خطة للخروج إلى الشام ليدمر الأسطول الإسلامي وهو ما زال في قواعده.

وبناء على هذه الخطة فإن عملاء الروم بالشام عملوا على تعطيل الاستعدادات البحرية الإسلامية بقدر جهودهم ، فحدث فى هذا الوقت أن اثنين من المسيحيين من مدينة طرابلس ومن عملاء الروم تمكنا من فتح سجن المدينة الذى كان يضم عدداً كبيراً من أسرى الروم فأطلقا سراح الجميع ، ثم تكاتف العميلان ومعهم أسرى الروم فهاجموا دار الحاكم العربى بطرابلس ، وقتلوه ومن معه من أتباع ، ثم سرقوا جميع العدد والعتاد الذى بذل فيه معاوية جهداً كبيراً فى جمعه وتوفيره ثم فروا إلى آسيا الصغرى ، ورغم أن وكلاء الروم نجحوا فى تنفيذ خطتهم فى طرابلس إلا أن الأسطول الإسلامى لم يمسسه سوء ، فكان أن نظم معاوية قواته البحرية وحشدها فى الوقت الذى وصله فيه عدد كبير من السفن المصرية . وبناء على هذا المدد انطلق الأسطول المصرى الشامى فى البحر متجهاً إلى القسطنطينية حتى إذا ما بلغ ساحل ليكيا بآسيا الصغرى توقف عند فوينيكس إذ وصل إلى علمه أن الأسطول الرومى يقوده الإمبراطور نفسه يقترب منه .

وكانت استعدادات الأسطول الرومى تدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن الإمبراطور يقصد إنهاء نفوذ البحرية الإسلامية فى البحر المتوسط ، هذا فى الوقت الذى دل فيه تواجد الأسطول الإسلامى فى البحر على أنه أصبح حقيقة واقعة لا يمكن التقليل من شأنها ، هذا فضلاً عن التعاون البحرى بين الشام ومصر قد بلغ أقصاه فى فترة قصيرة جداً ، وعلينا أن نشير هنا إلى أن السفن المصرية التى وصلت مدداً إلى الشام كان يقودها والى مصر نفسه عبد الله بن أبى سرح ، فكان أن خلد إسم مصر فى خدمة الإسلام ونصرة المسلمين فى واحدة من المعارك الفاصلة فى تاريخ البحر المتوسط .

أما قنسطانز إمبراطور الروم فإنه : « خرج فى جمع لم يجتمع للروم مثله مذ كان الإسلام » على حد تعبير المراجع الإسلامية ، فقد تكون الأسطول الرومى من

خمسمائة سفينة مزودة بآلات القتال ، وقد دهش المسلمون عندما وقعت أبصارهم عليها ، ولا سيما أولئك الذين دخلوا مع الروم فى معارك بحرية من قبل يدل على ذلك ما قاله أحد المشتركين فى الحملة : « فالتقينا فى البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط » وعندما التقى الجمعان كانت الرياح غير ملائمة للقتال فظل المسلمون والروم ينتظرون أن تنفرج هذه الحالة العاصفة فى الصباح ، فكان المسلمون يصلون طوال الليل داعين الله أن ينصرهم ، أما الروم فإنهم قضوا الليالي بدق النواقيس ، حتى إذا ما أسفر الصباح دارت المعركة وقد اشترك الإمبراطور نفسه فكان يصدر من سفينة قيادته أوامره لقتال العرب وهو فى نفس الوقت يتابع سير المعركة ، وبدأ المسلمون قتالهم باستخدام الأقواس والسهام ، وهنا أدرك قنسطانز تفوق جنده على المسلمين يجيدون استخدام سلاح النبال فى البر فقط أما فى البحر فسوف تنفذ ذخيرتهم سريعًا وهذا ما وقع فعلاً إذ اضطر المسلمون ، وقد نفذت رماحهم إلى استخدام الحجارة فقذفوا بها سفن العدو ، آنئذ تأكد قنسطانز أن النصر سيكون حليف أسطوله ، وأمام ذلك الموقف الحرج الذى واجهه المسلمون بعد أن نفذت ذخيرتهم من السهام والحجارة ، وأن العدو مازال بعيدًا عن مرمى سفنهم وأنه يقصد إرهاقهم بمراوغاته فإنه لم يجدوا بدًا من ربط سفنهم بعضها ببعض ثم قذفوا خطاطيف فى البحر جذبت إليهم سفن الروم . وهنا اصطنعوا من ظهور السفن التى تلاحمت مع بعضها ما هو أشبه بميادين البر ، ووقعت تلك الخطة على رأس قنسطانز كالصاعقة وأدرك لتوه فشل حملته ، وأصبحت هزيمة الروم فى حكم اليقين عندما قذف المسلمون بسيوفهم وخناجرهم إلى سفن الروم فقتلوا من جنودهم أعدادًا كبيرة ، وقد وصف شاهد عيان هذه المعركة بقوله : «رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج وطرحت جثث الرجال ركامًا » .

والحق أن جند كل طرف بذلوا أكثر ما عندهم من البأس والشجاعة والتضحية مما جعل المراجع الرومية وتنوه ببطولات هؤلاء الرجال وتشيد بهم .

ومن ضروب البطولة النادرة التى أبداها المسلمون أن سفينة القيادة التى كان يستقلها والى مصر عبد الله بن أبى السرح تعرضت لهجوم رومى من مختلف الجهات ، ووسط هذه الفوضى البحرية المدبرة أمر قنسطانز جنده بقذف خطاف على سفينة أمير البحر العربى ، وأخذ الروم يجرون المركب العربى إليهم ، وأوشك الروم أن يفلحوا فى عملهم لولا شجاعة أحد الجنود المسلمين واسمه علقمة الذى أحبط هذا العمل إذ رمى بنفسه على السلاسل التى كانت تجذب سفينة القيادة العربية وأخذ يقطعها رغم الضربات التى انهالت عليه من العدو ، ونجح علقمة فى عمله وأنقذ سفينة القيادة من الوقوع فى الأسر ، وقد شرُفَ هذا الجندى بثناء زوجة أمير البحر وكان اسمها وكانت على ظهر السفينة أثناء القتال ، ومن عجيب المصادفات أن يتزوج علقمة من بعد وفاة زوجها .

وبعد أن أنقذ العرب سفينة قيادتهم فإنهم هجموا على الروم بعنف وقد تمكنوا من أن ينفذوا إلى السفينة التى كان الإمبراطور يقيم عليها وأخذوا يقتلون من عليها من الجند ، وكاد الإمبراطور نفسه يقع أسيراً فى يد المسلمين لولا أنه تخفى فى زى أحد ضاربى الطبول كان على سفينته ثم تمكن من الفرار من المعركة على مركب آخر اتجه إلى صقلية ، وبذلك الفرار يكون المسلمون قد دمروا « الأرمادا » الرومية وخرجوا بنصر مبين يقل نظيره ، وقد سميت تلك الموقعة « موقعة ذات الصوارى » لكثرة السفن التى اشتركت فى القتال ، وتُعد هذه المعركة مناظرة للمعارك البحرية الكبرى فى التاريخ مثل معركة أكتيوم سنة ٣١ ق . م ، ومعركة أبى قير بين الأسطول الإنجليزى بقيادة نلسون والأسطول الفرنسى سنة ١٧٩٨م.

ومن النتائج التاريخية الهامة لمعركة ذات الصوارى أن الإمبراطور قنسطانز أيقن ـ وكذلك من جاؤوا بعده من الأباطرة ـ أن قد أصبح للأسطول الإسلامى الكلمة العليا فى البحر المتوسط ، وأن دولة الروم لم تعد تجرؤ على إخراج المسلمين من الأقاليم التى فتحوها على ساحل هذا البحر .

• • •

الحملات البحرية على القسطنطينية

بعد أنَ أصبح معاوية بن أبى سفيان خليفة العالم الإسلامى وأصبحت دمشق عاصمته فإنه جد فى تصفية الموقف المعلق بين دولة الإمبراطورية الرومانية وبينه ، فبعد أن تم النصر للمسلمين فى موقعة ذات الصوارى ورسخ التواجد العربى الإسلامى فى كل من الشام ومصر ، اتخذ النزاع بين المسلمين والبيزنطيين طابعًا جديدًا ، ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية فقدت كل أمل لها فى استعادة سيطرتها القديمة على الشام ومصر ، ومما أرغمها على انتهاج سياسة جديدة تتفق مع الحال الذى أصبح فيه المسلمون أصحاب الكلمة العليا على الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط ، وهذا ما حلا بمعاوية أن يؤكد السيادة على البحر المتوسط الشرقى ، وأن تكون هذه السياسة هى حجر الزاوية فى علاقته بالقسطنطينية التى طالما حاولت أن تحد من التوسع البحرى للمسلمين .

وبدأ معاوية جهاده ضد البيزنطيين فأعد حملة قوية ضد عاصمتهم القسطنطينية ثم وجهها سنة ٤٩ هـ ، ٦٦٨ م ونصب عليها قائدًا ابنه وولى عهده يزيد ، وكانت لمعاوية مآرب شتى من وراء أن يكون ابنه هو قائد الحملة ، منها إعطاء ابنه فرصة يرفع فيها من شأنه واسمه فى ميدان الجهاد ضد البيزنطيين ليبدد ما لحق ابنه من معابة فى شخصه لسلوكه الخاص ، فقد أشيع عنه أنه ماجن خليع، وأنه ليس أهلاً لتصريف شؤون المسلمين ، فلا ينبغى من ثم أن تؤخذ له البيعة ليكون هو خليفة المسلمين فيما بعد .

ومن هنا كان ميدان القسطنطينية هو المجال المثالى أو المحك الذى يثبت فيه يزيد جدارته ، ومكانته كقائد عسكرى شجاع مقدام ، هذا فضلاً عن أن معاوية أضفى على هذه الحملة طابعًا من الجلال الإسلامى ، بما يكسبها مسحة من الجهاد المقدس ، فقد ضم إليه شخصية كبرى من أصحاب رسول الله ﷺ كان لها شأن كبير فى مناصرة الرسول ومؤازرته فى دعوته ، وإنه أبو أيوب الأنصارى الذى كان أول من استقبل الرسول فى بيته فى المدينة كما شرُف بالقتال إلى جانبه فى غزوة

بدر ، وقد بعث ذلك الإجراء الحمية والروح المعنوية العالية فى نفوس جند الإسلام كما أنه أثبت فى أفئدتهم التفاؤل بالنصر .

وبعد الإعداد الجيد لهذه الحملة خرجت بقيادة يزيد بن معاوية إلى خلقدونيا التى كانت المقر القيادى للقوات الإسلامية والمركز الذى تدار منه دفة الهجوم على القسطنطينية ، وعندما وصل يزيد إلى ضفاف البسفور انضم إلى قوات الطلائع الأموية ثم عبر المضيق إلى الشاطئ الأوربى فكان بذلك الأسبق فى الوصول إلى الشاطئ الأوروبى ومشاهدة أسوار القسطنطينية ، وأخد الجند يدقون الأسوار بآلاتهم ويبذلون غاية قوتهم فى تخريبها وفتح ثغرات فيها ، والحق أن يزيد أظهر من ضروب الشجاعة والفداء ما جعله يستحق لقب « فتى العرب » وقد سجلت المراجع العربية المختلفة سيرته وأعماله البطولية فى نضاله من أجل الإسلام ، ومن بين جهوده أنه عمل على ضم نفر من عرب الشام المسيحيين الذين كانوا يقيمون فى القسطنطينية بعد أن استولى المسلمون على بلادهم وكان معظمهم من الغساسنة الذين لجأ زعيمهم جبلة بن الأيهم إلى حماية البيزنطيين أيام عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وتعاطف الغساسنة مع العرب المسلمين فى حربهم مع البيزنطيين فأظهروا لهم تشجيعهم وتأييدهم ، ومما هو شارة على ذلك أنه بينما كان يزيد يحاصر القسطنطينية رأى قبتين عليهما ثياب من حرير ترتفع من واحدة منهما أصوات الدفوف والمزامير ، إذ حقق المسلمون انتصاراً وترتفع من القبة الثانية أصوات التهليل ، إذ حقق البيزنطيون نجاحًا وعندما استفسر يزيد عن السبب علم أن بالقبة الأولى ابنة جبلة بن الأيهم وبالأخرى ابنة إمبراطور البيزنطيين ، وكان لذلك أثر كبير فى نفس يزيد الذى بذله وسعه لإرضاء المناصرين من الغساسنة وليفوز بعدها بابنة جبلة بن الأيهم ، ولقد أبدى المسلمون فى هذا الحصار صبراً واحتمالاً فى سبيل تضييق الخناق على سكان العاصمة البيزنطيين ، وفى هذا الحصار استشهد كثير من المسلمين كان على رأسهم أبو أيوب الأنصارى الذى مات أثناء حصار القسطنطينية فدفن بالقرب منها ، ولقد أسفر ذلك الحصار عن نتائج

كبرى فى التاريخ الإسلامى ، فقد أصبح قبر أبي أيوب شاهداً يستحث عزائم المسلمين على معاودة الهجوم لإسقاط العاصمة البيزنطية ، كما حظى هذا القبر بإجلال المسيحيين اليونانيين المقيمين بالقرب منه على اعتبار أنه يجلب لهم الأمطار، ولذلك فإنهم طالما رمموا القبر وأصلحوه ، وعندما اكتشف الأتراك العثمانيون موضع القبر عند حصارهم القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، فإنهم أقاموا بجواره مسجداً، وهكذا أصبح هذا الصحابى الجليل وليًّا عند المسلمين والمسيحيين الأتراك.

وما وافى صيف ٦٦٩ م حتى رفع المسلمون الحصار عن القسطنطينية بعد أن أعطوا الدليل للبيزنطيين على أن عاصمتهم ليست بمنأى عن القوة الإسلامية .

وعادت الحملة الإسلامية إلى دمشق لتأخذ استعداداتها لشنّ الحصار على القسطنطينية مرة ثانية ، فإلى حرب السنوات السبع .

حرب السنوات السبع :

بذلت الإمبراطورية البيزنطية جهداً كبيراً لإعادة النظام إلى إدارتها ونظامها الحكومى ، وكان لأجل ذلك أنها عملت على تنظيم الأقاليم الحربية أى الموجهة لأطماع المسلمين . فى هذا الوقت صمم معاوية بن أبى سفيان على القيام بدفع حملة ثانية قادرة على تدمير القواعد التى يقوم عليها البناء العسكرى البيزنطى فقصد أولاً إلى ضرورة الاستيلاء على العاصمة بسرعة خاطفة وذلك قبل أن تتمكن من إنقاذ نفسها من الفوضى التى وقعت فيها ، والتى كانت تمثل فترة الانتقال من القوة والعظمة والتوسع إلى الفوضى والانطواء على صراعاتها الداخلية. ومن ثم فإن معاوية وقد جعلها فرصته المناسبة بعث إلى القسطنطينية سنة ٦٧٣ م، يقودها عبد الله بن خالد مدعومة بأسطول بحرى ، وكان أن تمكن المسلمون من الاستيلاء على جزيرة كزيكوس (أرواد) فى مياه القسطنطينية ، واصطنعوها قاعدة لإدارة حملتهم على العاصمة فاشتغلت الأساطيل الإسلامية بنقل الجنود من

هذه الجزيرة إلى البر لتحاصر أسوار القسطنطينية فى فصل الصيف، أما فى الشتاء فإنها تعود إلى قاعدتها بجزيرة كزيكوس ثم تنتظر حتى تتحسن أحوال الجو لتعاود حصار المدينة فى أوائل الربيع ، وبسبب هذه الطريقة الذاتية أصْلَتْ القوات الإسلامية القوات البيزنطية وسكان العاصمة عنتًا شديدًا حتى إن الكثيرين ماتوا من شدة الجوع ، وهكذا كانت العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين قاصرة على فصلى الربيع والصيف واستمرت زهاء سبع سنوات على هذه الوتيرة .

ثم حدثت المفاجأة ذلك أنه فى نهاية السنوات السبع وعندما أدرك معاوية أنه أشرف على الموت وأن سلامة الدولة الإسلامية تفرض سحب القوات المحاصرة للقسطنطينية لكى يتيح لابنه وولى عهده يزيد القوات اللازمة لدعم مركزه فى الخلافة وكذلك سلطانه إزاء ذلك الموقف ، فإن معاوية عقد معاهدة بينه وبين البيزنطيين على إثرها عادت القوات الإسلامية إلى دمشق .

ولقد ابتكر البيزنطيون سلاحًا جديدًا استخدموه فى حربهم البحرية مع المسلمين أطلق عليه « النار البحرية » فكيف طوره المسلمون لصالحهم ؟

تذكر الحوليات البيزنطية والمراجع الأوربية أن العامل الرئيسى الفعال الذى أنقذ القسطنطينية من حصار المسلمين لها هو اختراع جديد توصل إليه العلماء البيزنطيون أثناء حصار السنوات السبع وقد عرف هذا السلاح باسم « النار البحرية» وإن كانت هناك عوامل أخرى أطالت من أمد هذا الحصار ، منها أن المدينة كانت محصنة بفضل موقعها الجغرافى ، وطبيعة التيارات المائية التى تحيط بجهاتها الساحلية ، ولقد نالت قصة « النار البحرية » إعجاب الكثيرين من مؤرخى الدولة البيزنطية ، وعلى شاكلة أى اختراع جديد فإنها أدهشت الأنظار التي رأتها أو سمعت عنها ، ولعل ذلك يرجع فيما يرجع إلى أنها جاءت فى وقت عصيب جدًا ذاقت فيه دولة البيزنطية أشد أنواع الضنك والضراء مما حفز البيزنطيين على أن يرفعوا من شأن أى سلاح جديد يرفع عنهم بعض ما حاق بهم، ويرجع السبب

فى تسمية ذلك السلاح « بالنار البحرية » إلى أنها استخدمت ضد السفن فى البحر أو تطلق على الجند فى البر ، ولما لجأ المسلمون إلى الماء ليطفئوها فإنها لم تنطفئ بل على العكس زادت اشتعالاً ، وأيضًا سميت هذه النار « بالنار الإغريقية » نسبة إلى الإغريق وهم البيزنطيون ، وقد ظل البيزنطيون متكتمين لسرها وقتًا طويلاً أشرف على نهاية القرن العاشر الميلادي وكأنهم قد احتكروه لهم وحدهم ، غير أن العلماء المسلمين بفضل بحوثهم الكيميائية أدخلوا تعديلات وتحسينات على ذلك السلاح ما طوره إلى سلاح أشد فتكًا وأوسع تدميرًا من النار الإغريقية ، وقد اعتمد المسلمون على ذلك السلاح النارى الجديد فى الحروب الصليبية التى نشبت بين أوربا والمسلمين على أرض الشام ، وهكذا أثبت المسلمون على أنهم قادرون على مواجهة أى سلاح جديد بما هو أشد منه .

نأتى بعد هذا إلى الحصار الثالث الذى ضربه المسلمون على القسطنطينية فالسياسة الأموية نحو القسطنطينية لم يصبها أى تغيير ، رغم أن الخلافة انتقلت من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى ، فكما أن معاوية بن أبى سفيان زعيم الفرع الأول ركز جهده فى توجيه قوى الدولة الإسلامية لضرب القسطنطينية فإن الخليفة عبد الملك بن مروان ثاني الفرع المروانى بعد أوله مروان بن الحكم فى البيت الأموى عَبَّدَ المنهاج السياسى العسكرى لأبنائه من بعده على أن ينهضوا بحمل لواء الجهاد المقدس ضد العاصمة البيزنطية ، وحتى يبقى اسمهم خالدًا بخلود التاريخ الإسلامى ، ويرجع هذا الاطمئنان المستقبلى - إن أجيز هذا التعبير - إلى أن عبد الملك خلف لأبنائه دولة وطيدة الأركان يعمها النظام والاطمئنان ، كما أنه أجج فى صدور أهلها حب الجهاد ضد أعداء الإسلام والأمل القريب فى إخضاع القسطنطينية وأباطرتها المصابين بنفخة الكبرياء الخرقاء التى تمقت الإسلام والمسلمين .

ثم كان الوليد بن عبد الملك الذى نهض بتبعة الجهاد مستنيرًا بسياسة أبيه عبدالملك فتابع الفتوحات في آسيا الصغرى ، وكان من سياسته القتالية الاستيلاء على

المواقع المهمة على طول الجبهة الرئيسية التى تفضى إلى القسطنطينية ، وإذا كان الوليد قد توفى أثناء المعارك إلا أن أخاه سليمان ـ وقد أصبح هو الخليفة من بعده ـ أعد العدة الكافية لضرب القسطنطينية ولا سيما بعد أن تواترت إليه الأنباء بأن فوضى الفساد قد عمت كل مرافقها ، فوجدها فرصته ، وهنا اتخذ من دابق بشمال الشام معسكرًا شاملاً جعل منه القاعدة الرئيسية لإدارة القتال والإمداد بالرجال ، وقد أوقف سليمان نشاطه على التواجد فى ذلك المعسكر يشرف منه على كافة الاستعدادات والتجهيزات « وأعطى الله عهدًا ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم وإلى القسطنطينية » .

وتنفيذًا لهذا العهد فقد تحركت الجيوش الإسلامية فى سنة ٩٨ هـ ، ٧١٧ م، متجهة إلى القسطنطينية يقودها مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة ، عندئذ وجه سليمان إلى أخيه أمرًا : « أن يقيم عليها (أى على القسطنطينية) حتى يفتحها أو يأتيه أمره » . ثم بلغ مسلمة بجيوشه برًا وبحرًا أسوار العاصمة البيزنطية ، وشرع بعدها فى وضع الخطط لإحكام حصاره لها ، فكانت مهمة قوات مسلمة محاصرة أسوار المدينة من الجانب البرى فى حين كانت مهمة سليمان أمير البحر المسلم سد المنافذ والمسالك المائية التى تتيح للعاصمة الحصول على الأمداد والمؤن ، وكذلك محاصرة الأسوار البحرية للمدينة ، فكان إن احتل الأسطول الإسلامى مدخل البسفور الجنوبى لمنع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة ، وبحر إيجة ، ووجدها أمير البحر سليمان فرصته حين هبت ريح جنوبية طيبة ، فأرسل بجزء من أسطوله ليحتل مدخل البسفور الشمالى لحرمان المدينة من أى مدد قد يأتيها من البحر الأسود ، وما كان هذا الإجراء إلا لأن الشواطئ الشمالية كانت غنية بحقول القمح التى تمد القسطنطينية بما تحتاجه من الغلال .

وتحركت السفن الإسلامية فى تُؤدة رغم أنّ الريح كانت رُخاء بسبب التيار المائى المتدفق بشدة من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ، وعلى غير ارتقاب تغير اتجاه الرياح كما هو دأب الأحوال الجوية المضطربة فى تلك المنطقة

فكان أن تلاطمت السفن واختل توازنها فى هذه المياه الإقليمية للقسطنطينية واهتبل البيزنطيون هذه الفرصة فأرسلوا سفنهم المحملة بالنار الإغريقية ليكبدوا السفن الإسلامية صعوبات أشد ثم حاصر المسلمون القسطنطينية حصاراً محكمًا وإن ظلت جبهته المطلة على القرن الذهبى مفتوحة ، وبقى الحصار قائمًا حتى أقبل فصل الشتاء ببرده القارس بالنسبة للمسلمين ، وإن كان مفيدًا بالنسبة للمدينة إذ كان يعينها على إصالة مدة حصار عدوها لها فلعله سييأس ويرجع ، ولقد تنبه أمير البحر سليمان لذلك فما كان منه إلا أن عمل بيوتًا من خشب وقضى الشتاء فيها ووزع الناس وأقام على القسطنطينية قاهرًا لأهلها ومعه وجوه أهل الشام .

ولقد أثبت المسلمون بصمودهم طوال ذلك الشتاء القارس أنهم أولو بأس شديد وعزم لا ينال منه الحديد ، لأن عملهم جهاد فى سبيل الله ورفع لراية الإسلام.

وأثناء ذلك الحصار الإسلامى المستميت لمدينة القسطنطينية توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك وأصبح عمر بن عبد العزيز هو الخليفة الجديد ، ولئن كان الخليفة سليمان بن عبد الملك يمثل قمة ازدهار الفتوحات الإسلامية لأنه بذل أقصى ما يمكنه فى تزويد الجيوش الإسلامية أمام القسطنطينية بما يجعلها الكفة الراجحة فى ميدان السيادة والقوة ـ إلا أن هذا الوضع قد تغير فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فقد كان لابد من توخى فترة هدوء واستقرار لتقوية ومساندة هذا البناء الحضارى الإسلامى العظيم الذى أصبح ولا يمكن لأحد أن ينكره أو يغض من شأنه ، وكيف ينكره أو يغض منه وهو يمتد من حدود الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا ، ومن بحر آرال شمالاً إلى شلالات أعالى النيل جنوبًا ؟ ولقد اقتضت تلك المكانة الحضارية والواقع التاريخى من تقديم أقصى ما يستطاع من وسائل لتنظيم تلك الإمبراطورية وإشاعة الأمن والاستقرار بين ربوعها بما يكفل حمايتها ورخاءها وبما يكفل لها القدرة على مواصلة الفتوح فيما بعد .

لهذه الأسباب وما فى حكمها أخذ الخليفة عمر بن عبد العزيز على عاتقه

إرساء تلك الأسس . ففى ١٥ أغسطس ٧١٨ م ، أى بعد حصار للقسطنطينية استمر سنة كاملة أرسل إلى مسلمة أمرًا بضرورة العودة بجيوشه وأساطيله إلى الشام بعد أن قدمت ما فيه إعزاز لدولة الإسلام ، وفى نفس الوقت أرغمت بيزنطة بأباطرتها وأمرائها وجيوشها عن التخلى تمامًا عن كل ما قد يراودهم من أحلام فى استعادة ما أصبح أرضًا إسلامية ، وأكثر من هذا فقد أصبح التطلع إلى إسقاط الدولة البيزنطية وإزالتها من الوجود والاستيلاء على عاصمتها ، هو الأمل الذى يؤجج إرادة النضال فى نفوس الخلفاء المسلمين ، وإنه للأمل الذى تحقق على يد الأتراك العثمانيين أى بعد مضى ما يقرب من سبعة قرون على الحملة الأموية الكبرى التى كان قد أرسلها الخليفة سليمان بن عبد الملك .

• • •

فتوحات الميدان الشرقي

- ما وراء النهر (التركستان) .
- الهند (باكستان وبنجلاد يش) .
- على حدود الصين .

فتوحات ما وراء النهر « التركستان »

نعود إلى الفتوحات الإسلامية الشرقية لنستكمل الجناح الشرقى لدولة الإسلام وقاعدتنا التى سوف تنطلق منها هى العراق ، فقد جعل الأمويّون العراق المنطلق الحربى لفتوحاتهم التى كانت قد توقفت فى أواخر خلافة عثمان بن عفان ، فمنذ أن أصبح معاوية بن أبى سفيان خليفة للمسلمين فإنه أخذ يرسل جند الإسلام لنصر الإسلام فى آفاق حضارية يقطنها الأتراك حيث بلاد ما وراء النهر « نهر جيحون » وكذلك إلى بلاد الهند صاحبة الحضارة العريقة الراسخة والتأثير الواسع فى الفكر الإنسانى ، غير أن الفتوحات أيام معاوية لم تكن قوية راسخة وذلك بسبب الصراعات التى نشبت بين الأمويين والمعارضين لهيمنتهم وسلطانهم ، ومن هنا فإن الفتوحات الشرقية المنظمة ولاسيما فى الجهات الهامة من الميدان الشرقى لم تبدأ إلا حين أصبح الحجاج بن يوسف الثقفى واليًا على العراق يحكمه ويصرف شؤونه فى إطار السلطان الأموى .

نبدأ أولاً :

بفتح بلاد ما وراء النهر « التركستان » :

أصدر الحجاج بن يوسف الثقفى أمره إلى قتيبة بن مسلم الباهلى بفتح بلاد ما وراء النهر ،وكان قتيبة عاملاً على بلاد خراسان من قبل الحجاج ، وكانت تلك البلاد تعد القاعدة الرئيسية لفتح أواسط آسيا ، ولقد استهل قتيبة فتوحه بغزو أخْرون وشومان فخطب الناس وحثهم على الجهاد وقال : « إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وَقَما «الوقم : الذل » ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف:٩] . ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذُّخْر عنده ، فقال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا

يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٠ ، ١٢١] . ثم أخبر عمن قتل فى سبيل الله أنه حر مرزوق فقال : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩] فتنجزوا موعودِ ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر . . .

هذا هو الإسلام فى رسالته وجهاده فى سبيل الله ليهدى الناس إلى الإسلام ، ثم أخذ قتيبة يستعرض جنده ليطمئن على سلاحهم وكرامهم ونظامهم ، بعدها سار إلى الفتح وقد استخلف بمرو وعلى حربها أى على جيشها إياس بن عبد الله ابن عمرو ، وعلى الخراج عثمان بن السعدى فلما وصل إلى مدينة الطالقان استقبله دهاقين بَلْخ ومجموعة من كبرائهم فلما اجتازوا النهر استقبله تيش الأعور ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب وأسلم له بلاده ، وكذلك فعل ملك كفتان ، ثم واصل قتيبة مسيرته إلى (أخرون وشومان) ففتحهما ثم صالح أميرها غشتاسبان على فدية دفعها ، بعدها انصرف قتيبة إلى مرو وقد استخلف على الجيش أخاه صالح بن مسلم الذى فتح مدينة باسار وكان معه نصر بن سيار الذى أبلى معه بلاء كبيرًا ، بعدها خف قتيبة لمحاربة أهل بلخ .

وفى سنة سبع وثمانين من الهجرة ، كان أمير طرخان واسمه نيزك يحتجز عنده بعضًا من أسرى المسلمين ، فأرسل إليه قتيبة يطلب منه إطلاق سراحهم ، فخافه نيزك فأطلق سراحهم وبعث بهم إلى قتيبة ، وما كان من قتيبة إلا أن وجه إليه سُلَيْما الناصح مولى عبيد الله بن أبى بكرة يعرض عليه الصلح وأن يؤمنه وكتب إليه كتابًا يحلف فيه بالله « لئن لم يقدم عليه ليغزونَّه ثم ليطلبنه حيث كان لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك » ، فذهب سليم إلى نيزك بكتاب قتيبة ـ وكان يستنصحه ـ فقال له : « يا سليم ما أظن عند صاحبك خيرًا ، كتب إلى كتابًا لم يكتب إلا مثلى » قال له سليم : « يا أبا الهيَّاج ، إن هذا رجل شديد

فى سلطانه سهل إذا سوهل صعب إذا عوسر ، فلا يمنعنك منه غلظة كتابه إليك مما أحسن حالك عنده وعند جميع مُضَر ! » ووافق نيزك سليم على كتاب قتيبة فتم كتاب الصلح ونشر الإسلام فى باذغيش .

فى هذه السنة نفسها غزا قتيبة بيكَنْد ، فانطلق من مرو إلى مرو الروذ فاستولى عليها ومنها ، إلى آمل التى دانت له عبر النهر إلى بيكند ، فاستنصر أهل بيكند بالصغد وتحالف الجميع ثم استطاعوا قطع الطريق على قتيبة ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار وهم يقتتلون ، وأمام هذا المأزق وبسرعة خاطفة نظم قتيبة صفوف قواته، وهجم بها وهو يحض أهل الرايات على الاستماتة فى الجهاد ، ثم التقى الخصمان بالسيوف واستمر القتال حتى زوال الشمس ، ثم منح الله المسلمين أكتاف المشركين فانهزموا يريدون المدينة ، وأتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلاً وأسرًا ، ثم طلب أهل بيكند الصلح فأبى ابن قتيبة لغدرهم بعهودهم ثم قاتلهم حتى ظفر بالمدينة عنوة ، وكان مما ظفر به الكثير جدًا من آنية من الذهب والفضة عادت بخيرها على المسلمين ، ورجع قتيبة إلى مرو ، وقد أصبح فى ثراء مكنه- من شراء ما يلزم جيشه من السلاح والخيل والدواب ، وقد قال الكميت الشاعر :

ويوم بيكند لا تُحصى عجائبه وما بخاراء مما أخطأ العدد

وكان الذي غنمه قتيبة الكثير من السلاح وقد وزعه على جنده بأمر الحجاج ثم أخذ عدتهم وأهبتهم لقتال جديد ، فلما كانت أيام الربيع ندب قتيبة الناس وقال : «إنى أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى الإدفاء» ثم صار فى تمام التسليح حتى وصل إلى مدينة آمل ثم عبر النهر إلى نومُشكثْ ، وهى من مدن بخارى وكان ذلك فى سنة ثمان وثمانين هجرية ، وخشى أهلها مصائب القتال فصالحه أهلها ثم صار إلى مدينة مثينه فصالح أهلها ، ولقد تمكن الترك من جمع فلولهم يعاونهم السُّغْد وأهل فرغانه فوقفوا فى طريق

المسلمين حتى كادوا يتغلبون عليهم ولكن المسلمين صمدوا واستماتوا عندما تحرك فيهم قتيبة بقواته يؤازرهم حتى تمكنوا من هزيمة الترك ، وعاد قتيبة منتصراً ومعه نيزك .

وفى سنة تسع وثمانين من الهجرة غزا قتيبة بخارى ففتح رامثينة ثم رجع فى طريق بلخ فعندما وصل الفارياب جاءته رسالة من الحجاج أن « رد وردان خذاه » وهو ملك بخارى ولكن وقعت بعض المناوشات ولم يستمر فيها قتيبة إذ أنه اتخذ طريقًا آخر فما كان من الحجاج إلا أن عاتبه وفتح بخارى وكان مما قاله له : «وإياك والتحويض (كثرة المراجعة) ودعنى من بينات الطريق (أى سلك الطريق الذى لا تعريج فيه) » فكان أن خرج قتيبة إلى بخارى سنة تسعين ، فاستنصر وردان ملك بخارى السغد والترك ومن يحيطون بهم ويكرهون المسلمين فلبوا مسرعين ، غير أن قتيبة كان قد سبقهم إليها فحاصر بخارى قبل أن يصلها المدد فلما جاء المدد خرج جند بخارى ـ ومعه المدد ـ للقتال ، وبعد مداورات قتالية شديدة كُتب النصر للمسلمين وعاد قتيبة إلى مرو ، وقد حدث أن قتيبة عندما أوقع الهزيمة بأهل بخارى فإن طرخون ملك السغد خشى على مصيره فطلب الصلح وتم بينه وبين قتيبة .

ومن الغريب أن نيزك الذى كان حليفًا لقتيبة وساعده على التحركات العسكرية حسد قتيبة على فتوحه وأضمر الغدر ، وكان مما قاله لأصحابه وخاصته: « متهم أنا مع هذا ولست آمنه ، وذلك أن العربى بمنزلة الكلب إذا ضربته نبح وإذا أطعمته بصبص ، واتبعك ، وإذا غزوته ثم أعطيته شيئًا رضى ونسى ما صنعت به ، وقد قاتله طرخون مراراً فلما أعطاه فدية قبلها ورضى ، وهو شديد السطوة فاجر فلو استأذنت ورجعت كان الرأى » .

وبمثل هذه الروح الخبيثة الماكرة جاء غدر نيزك وكان مصيره القتل على مشهد من الجند وأمراء الرايات ، وعندما عاد قتيبة إلى مرو بعد قتل نيزك خاف ملك إقليم الجوزجان على حياته فطلب من قتيبة الأمان فآمنه شريطة أن يأتيه فيصالحه

فما كان من ملك الجوزجان إلا أن طلب رهائن متبادلة فأعطى قتيبة حبيب بن عبد الله بن عمرو بن حصين الباهلى وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته فخلف ملك الجوزجان حبيبًا فى أحد حصونه ثم جاء إلى قتيبة فصالحه ، وفى رحلة عودته مات بالطالقان ، فما كان من أهل الجوزجان إلا أن سموا حبيبًا ، وفى المقابل قتل قتيبة الرهائن الذين كانوا عنده . وفى هذا الحادث قال نهار بن توسعة لقتيبة :

أراك فى الأتراك حكمًا ... كحكم فى قريظة والنضير
قضاء من قتيبة غير جَوْر ... به يشفى الغليل من الصدور
فإن ير نيزك خزيًا وذلاً ... فكم فى الحرب حمق من أمير

وقال المغيرة بن حبناء يمدح قتيبة ويذكر قتل نيزك ووصول ابن أخى نيزك عثمان أو شُقْران :

لمن الديار عفت بسفح سنام ... إلا بقية أنصر وتُمام
عصفت الرياح ذيولها فمحونها ... وجرين فوق عِرَصها بتمام
دار لجارية كأن رضا بها ... مِسك يُشاب مزاجه بمُدام
أبلغ أبا حفص قتيبة مِدْحتى ... واقرأ عليه تحيتى وسلامى
يا سيف أبلغها فإن ثناءها ... حسن وإنك شاهد لمقامى
يسمو فتتضعُ الرجال إذا سما ... لقتيبة الحامى حمى الإسلام
لأغر منتجب لكل عظيمة ... بحر يباح به العدوُّ لُهَام
يمضى إذا هاب الجبان وأحمشت ... حرب تَسَعَّرُ نارها بضرام
تُرى القناة مع اللواء أمامه ... تحت اللوامع والنحور دوام
وإلهام تفريه السيوف كأنه ... بالقاع حين تراه قيض نعام

وترى الجيادَ مع الحياد ضوامرا بفنائه لحوادث الأيام
وبهن أنزل نيزكًا من شاهق والكرز حين يروم كل مرام
وأخاه شقرانًا سقيت بكأسه وسقيت كأسهما أخا باذام
وتركت صولاً حين صال مجدلاً يركبنه بدوابر وحوام

وتتواصل الفتوح فعندما عمد قيسبشتان ملك شومان إلى طرد عامل قتيبة وامتنع عن دفع الفدية التى تصالح عليها مع قتيبة ، فإن قتيبة غضب لنقض الاتفاق وأرسل أحد عيونه إليه يراجعه فى تصرفه ، فقال : « ما تخوفنى به من قتيبة وأنا أمنع الملوك حصنًا أرمى أعلاه ، وأنا أشد الناس قوسًا وأشد الناس رميًا فلا تبلغ نشابتى نصف حصنى فما أخاف من قتيبة » فاتجه قتيبة من بلخ إلى شومان وقد تحصن بقلعته فرماه بالمجانيق فتهشم جزء من الحصن ، ولما خاف ملك شومان من المصير ، بل أيقن منه فإنه جمع ماله وجواهره ورماه فى عين وسط القلعة ، ثم فتح أبواب القلعة وقاتل حتى قتل . بذلك استولى قتيبة عنوة على القلعة ، ثم انتقل بعدها إلى كش حيث صالح ملكها طرخون على الجزية ، فقال لسُغْد لطرخون: إنك رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير فلا حاجة لنا بك، قال : «فولوا من أحببتم » فولوا غَوْزك وحبسوا طرخون ، ثم قال : «ليس بعد سلب الملك إلا القتل فيكون ذلك بيدى أحب إلى من أن يليه منى غيرى» فاتكأ على سيفه حتى خرج من ظهره لكن الدائرة لم تلبث أن دارت على خصومه فاستسلموا ودفعوا الجزية .

وفى سنة اثنتين وتسعين فتح قتيبة سجستان وصالح ملكها ثم ولى عليها عبد ربه بن عبد الله بن عمير الليثى .

ثم نأتى إلى فتح عظيم من فتوح قتيبة ، ألا وأنه فتح سمرقند ، فقد وقع أنه

عندما اقترب المسلمون من مدينة سمرقند فإن السغد هجموا على المسلمين فكرّ المسلمون عليهم حتى ردوهم إلى عسكرهم بعد أن قتلوا منهم عدداً كبيراً ، آنذاك تمكن المسلمون بقيادة قتيبة من اقتحام سمرقند ثم صالح ملكها غوزك ، وهنا ردد قتيبة قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ [االنجم:٥١] ولما حقق قتيبة ذلك النصر المبين وقف على جبل سمرقند وتمثل بقول الشاعر طرفة بن العبد :

وأرتع أقوام ولولا محلُّنا   بمخشية ردوا الجمال فقوضوا

ثم ارتحل إلى مرو بعد أن استخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وقد أعانه بجند كثيف وآلات كثيرة للحرب ، وكان قتيبة قد استولى على خوارزم ومن بعدها نيسابور وأخذ الجزية بل أخذ ما هو أكرم وأعظم فقد انتشر الإسلام بسرعة مذهلة فى أرجاء تلك الأقاليم حتى صار جندها عماد جيش قتيبة .

وفى سنة ٩٤ هـ ، فتح قتيبة الشاش وفرغانة ، وفى هذه الغزوة أشرك ما يقرب من عشرين ألف رجل من المسلمين الجدد الذين تحمسوا لنشر الإسلام بأن وجههم تحت رئاسة أمرائهم إلى الشاش وتوجه هو إلى فرغانة وسار حتى أتى خُجندة وكانت من المدن المهمة ، وقال الشاعر سحبان وائل يزكى قتال المسلمين بخنجدة :

فسل الفوارس فى حجنـ ـدة تحت مرهفة العوالى
هل كنت أجمعهم إذا هُزِموا وأُقْدِم فى قتالى
أم كنت أضربُ هامة السـ ـعاتى وأصبر للعوالى
هذا وأنت قريع قيـ ـس كلها ضخم النوال
وفصلت قيسًا فى الندى وأبوك فى الحِجج الخوالى
ولقد تبين عدلُ حكـ ـيمك فيهمُ فى كل قال

تمـت مـروءتـكـم ونـا غـى عـزكم غـلـب الجبـال

ثم عاد لغزو الشاش ، وكان الحجاج قد أمده بجيش كبير من العراق لمواصلة الفتوح وبينما كان قتيبة فى الشاش - أوكُشماهَن - أتاه موت الحجاج فكر راجعًا إلى مرو ، وقد تمثل بقول الشاعر :

لعمرى لنِعْمَ المرءُ مـن آل جعفـر بحوران أمسى أعلقته الحبائـل

فإن تحيا لا أملل حياتى وإن تمت فما فى حياتى بعد موتك طائل

ثم أتاه كتاب الوليد بن عبد الملك وقد جاء فيه : « قد عرف أمير المومنين بلاءك وصبرك فى جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك كالذى يجب لك فالمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأنى أنظر إلى بلادك والذى أنت به »

هذه الرسالة أثرت فى نفس قتيبة فزادت طموحاته فقام بفتح كاشغر كما غزا الصين وكان ذلك سنة ست تسعين من الهجرة ، فلما من الله على المسلمين بفتح كاشغر توغل قتيبة فى الغزو حتى اقترب جدًا من الصين ، فلما علم ملك الصين باقترابه منه كتب إليه يقول : « ابعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ونسائله عن دينكم » فأرسل إليه قتيبة وفدًا ترأسه هبيرة بن الشمْرج ، وعندما التقى الوفد بالملك هدد الملك بالقتل ، فقال له هبيرة : « أما تخويفك لنا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه » بعد هذا تصالح ملك الصين مع قتيبة على الجزية وفق شروطه ، وفى هذا قال سوادة بن عبد الله السلولى :

لا عيب فـى الوفـد الذيـن بعثتُهـمْ للصـين إن سلكوا طريـق المنتهـج

كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشا الكريـم هبيـرة بـن مُشَمْرَجِ

لم يرض غيـر الختـم فـى أعناقهـم ورهائـن دُفِعَـتْ بحمـل سمـرج

أدى رسالتك التى استرعيته وأتاك من حنث اليمن بمخرج

وفى هذا المقام كم تغنى الشعراء وكم تباهوا بفتوح قتيبة ، فقال الكميت يزكى غزو السغد وخوارزم :

وبعد في غزوة كانت مباركة تردى زراعة أقوام وتحتصد

نالت غمامتها فيلا بوابلها والسغد حين دنا شؤبوبها التبرد

إذ لا يزال نهب ينفله ينفله من المقاسم لا وخش ولا نكد

تلك الفتوح التى تدل بحجتها على الخليفة إنا معشر حُشُدُ

لم تثن وجهك عن قوم غزوتهم حتى يقال لهم : بُعدًا وقد بعدوا

لم ترض من حصنهم إن كان ممتنعًا حتى يكبر فيه الواحد الصمد

وأخيراً جاء مصرع قتيبة الذى جاوز كل تصور فما كان إلا بسبب صراعات داخلية بين أمراء البيت الأموى على من هو أحق بالخلافة ، ولقد قال عبد الرحمن ابن جمانة الباهلى فى قتيبة معدداً مناقبه التى يفخر بها الإسلام ويعتز المسلمون :

ألم يأن للناس أن يعرفوا لنا

بلى نحن أولى الناس بالمجد والفخر

نقود تميمًا والموالى ومَذْحجًا

وأزد وعبد القيس والحى من بكر

نقتل من شئنا بعزة ملكنا

ونُجبر من شئنا على الخسف والقسر

سليمان كم من عسكر قد حوت لكم

أسنتنا والمقرباتُ بنا تجرى

وكم من حصون قد أبحنا منيعةٍ
ومن بلد سهل ومن جبل وعر
ومن بلدة لم يغزها الناس قبلنا
غزونا نقود الخيل شهرًا إلى شهر
مُرن على الغزو الجرور ووقِّرت
على النفر حتى ما تهال من النفر
وحتى لون أن النار شُبَّتْ وأكرِهتْ
على النار خاضت فى الوغل لهبَ الجمر
تلاعب أطراف الأسنة والقنا
بلباتها والموت فى لجج خضر
بهن أبحنا كل أهل مدينة
من الشرك حتى جاوزت مطلع الفجر
ولو لم تُعجلنا المنايا لجاوزت
بنا رَدْم ذى القرنين ذا الصخر والقطر
ولكن آجالاً قضين ومدة
تناهى إليها الطيبون بنو عمرو

ويشهد تاريخ الحضارة الإسلامية على أن الفتوح التى امتد بها قتيبة بن مسلم فى التركستان حتى وصل إلى حدود الصين وراسل ملوكها وتعاهد معهم كانت ذات شأن بعيد المدى فى انتشار الإسلام عقيدة وشريعة وفكرًا وتواصلا إنسانيًا مع الشعوب التى دخلت الإسلام فى منطقة أواسط آسيا وشمالها ، وننوه هنا بأن

مسجد قتيبة الذى أسسه فى بخارى كان مناراً شاهقًا من منارات الإسلام التى ذاع صيتها فى الخافقين .

فتح الهند

نتجه بالفتوح الإسلامية نحو الهند وبالذات نحو إقليم السند الذى أضاءه نور الإسلام ونشأت به شعوب إسلامية كانت نعم العون للعقيدة والشريعة والإنسان .

وحين ننهج الخطوات الأولى للفتح فإننا نجد أن التفكير فى فتح الهند كان فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد ولى عثمان بن أبى العاص الثقفى البحرين وعمان سنة ٢٥ هـ ، ٦٣٦ م ، وما كان من عثمان إلا أن وجه إلى أخاه الحكم بن أبى العاص الثقفى إلى البحرين ، أما هو فإن مضى إلى عمان ثم بعث بجيش إلى تانة [١] فلما عاد الجيش كتب إلى عمر بن الخطاب ينبئه بذلك ، فكان أن كتب إليه عمر : « يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود وإنى أحلف بالله لو أصيبوا لآخذن من قومك مثلهم » بعدها وجه عثمان أخاه الحكم إلى بَرَوْص ، كما وجه أخاه المغيرة إلى خُوْر الديبل [٢] ، ومعنى هذا أن عثمان بن أبى العاص كان أول من حاول فتح السند « أى شمال الهند » ثم استمرت الغزوات إلى السند إلى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى الذى أتم فتح السند ، ولقد كانت غزوات الفتوح فى مستهلها تتخذ شكل قوات قليلة غايتها استطلاع الطريق فى مواقعه وموانعه تمهيد لخطة الفتح الشامل فيما بعد ، وما كان ذلك بطبيعة الحال إلا خشية عثمان من عمر بن الخطاب إلا يوافق على الفتح هذا فضلاً عن شأن آخر لم يكن ليغيب عن عمر ، وهو أن الفتوح الإسلامية قد توسعت توسعًا هائلاً لا يتفق مع المجازفة بفتوحات جديدة . ومن هنا عمل عمر على كبح جماح طموحات قادة المسلمين ولا سيما وأن السفن التى كان يزج بها فى الحرب البحرية كانت فى مستهلها سفنًا تجارية غير مهيئة لأعمال القتال .

---

(١) تانة : مدينة تقع شمال مدينة بومباى الهندية .

(٢) الديبل : مدينة على شط ماء السند وهى على ساحل البحر .

فلما كانت خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فإن عين عبد الله بن عامر ابن كُرَيْز واليًا على العراق ، ثم كلفه أن يوجه إلى ثغر الهند من يأتيه بتقرير عن الهند يتضمن أحواله الاجتماعية وقوته العسكرية والطرق إليه وكان رسوله حكيم ابن جبلة العبدى فلما عاد ذلك الرسول ذلكْ الرسول بعثه إلى عثمان بن عفان . فلما سأله الخليفة عن أحوال تلك البَلاد قال له : « يا أمير المؤمنين قد عرفتها وتنخرتها» قال : « فصفها لى » قال : « ماؤها وشل (قليل) وثرها دقل (الدقل أردأ التمر) ،ولصها بطل ، وإن قل الجيش فيها ضاعوا وإن كثروا جاعوا » فقال له عثمان : « أخابر أم ساجع ؟ ! » فقال : « بل خابر » فلم يُغزِها أحد .

ويبدو أن حكيم بن جبلة نزل بأحد الموانى البحرية التى تقوم حياتها وشئونها على التجارة فجاء بهذا الوصف العام وكان الأجدر أن تكون سياحته كشفية واسعة حين يكون تقريره شافيًا نافعًا للهدف المقصود .

حتى إذا ما كنا فى أواخر سنة ثمانين من الهجرة ٦٥٨ م ، وأول سنة تسع وثلاثين للهجرة ٦٥٩ م ، وكانت خلافة على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فإن الحارث بن مرة العبدى تطوع للذهاب إلى الهند بعد أن أذن له على فإنه حقق فى الجهة التى ذهب إليها نصرًا سريعًا غنم وسبى الكثير غير أنه بوغت بهجوم خاطف من الهنود الذين جاؤوا من أرض القيْقان فقتلا وهو معظم من معه . وكان ذلك فى سنة اثنين وأربعين من الهجرة ٦٦٢ م ثم نشطت حملة استطلاعية أخرى تكونت من قوة خفيفة تعتمد على نفسها قادها الحارث ومن تحمل إليها من رجال قبيلته ، وقد حققت هذه الحملة انتصاراً حسنًا غير أن الهنود سرعان ما قضوا عليها لقلة عددها ولأنها بعدت كثيراً عن مواقعها الأصلية وهى قواعد إمدادها بالرجال والسلاح .

فإذا كنا فى أيام معاوية بن أبى سفيان سنة أربع وأربعين من الهجرة ٦٦٤ م قام المهلب بن أبى صفرة بغزو الهند . وكان وقتها على البصرة عبد الله بن عامر فتوحه المهلب إلى بَنَّةِ « مدينة بكابل » ولا هور « من ولايات الهند جنوبى

كشمير» وهما بين الملتان « مدينة بنواحى الهند قرب غَزْنة » وكابل ، فاصطدم بالهنود فأنزل بهم المهلب خسائر جسامًا ، وفى هذا قال أحد الأزديين :

ألم تر أن الأزد ليلة بيتوا ... ببنَّة كانوا خير جيش المهلب

وقد اتخذ المهلب فى حملته هذا الطريق الرئيسى الذى يربط بين أفغانستان والهند عبر مضيق خيبر وهو الطريق الذى سلكه الإسكندر ، كما أنه الطريق الرئيسى الذى يربط بين أفغانستان وإيران والهند ، ويمكن القول أن المهلب كان الممهد الأول لفتح الهند فكانت حملته نعم الحملة الاستطلاعية .

ثم ولىَّ معاوية بن أبى سفيان عبد الله بن سوار ثغر الهند فغزا القَيقَان فغنم منها الكثير ، ثم سار إلى معاوية وأهداه خيلاً قيقانية وظل عنده وقتًا ثم عاد إلى القيقان ، فلما استثار الترك تمكنوا منه وقتلوه ، وقال فيه الشاعر :

وابنْ سوّار على عِدَّاته ... موقد النار وقتَّال السَّغب

وكان كريمًا جوادًا لم يوقد أحد نارًا غير ناره فى عسكره مما يدل على سخائه وحبه لإقراء الضيوف وإيوائهم نيابة عن رجال عسكره ، ولم يعد عبد الله بن سوار يهتم بالمناطق الشمالية ، وكانت حملة ابن سوار استطلاعية كذلك ، وقد قتل فى حملته تلك لاندفاعه فى العمق كما لم تكن معه قوة كافية هذا فضلاً عن بعده عن قواعده الرئيسية ، وبعدها ولى زياد بن أبى سفيان ـ وكان واليًا على العراق من قبل معاوية ـ سنان بن سلمة المحبَّق الهذلى ثغر الهند . وكان إنسانًا فاضلاً تقيًا وهو من أحلف الجند بالطلاق ، فجاء الثغر وفتح مكران وحقق بها الأمن المنظم ، ومن المعلوم أن مُكران فى يد عمر بن الخطاب على يد الحكم بن عُمير التغلبى ، ولكنها عادت فتألبت فأعاد سنان فتحها ، ومن المعروف أن مُكران تتاخم الهند فهى من ثم ولاية واسعة تقع بين كرمان من الغرب وسجستان من الشمال والبحر من الجنوب ، وإذا كانت عمان والبحرين قواعد لانطلاق الحملات البحرية لغزو الهند ، فإن مكران كانت قاعدة انطلاق الحملات البرية ، وذلك

بالنسبة للطريق الساحلى ، كما كانت مُكران وكابل لانطلاق الحملات البرية الغازية للهند التى تقتفى مضيق خيبر وتؤدى إلى شمال الهند ، ومن هنا اكتسبت مكران أهمية حربية عظيمة بالنسبة للحملات البرية التي تقتفى الطريق البرى الساحلى ، فكأن السيطرة على مكران ضروريًا لمن أراد فتح الهند .

ثم ولى زياد بن أبى سفيان على ثغر الهند راشد بن عمرو الجُديدى ، من الأزد فجاء إلى مكران ومنها غزا القيقان فانتصر غير أنه قتل فى غزوة أخرى ، وقد تزعم الناس بعد مقتل راشد فى حملته سنان بن سلمة ، فلما تولى ثغر الهند ظل به ما يقرب من سنتين ولما كان رجلاً مسالمًا فإنه اكتفى بالدفاع فكان أن اشتدت مقاومة الهنود للمسلمين . وبعد أن ولىٰ زياد عَباد بن زياد ثغر الهند فخرجَ من سجستان وأتى سناروذ « اسم لنهر في سجستان » ثم ذهب إلى بئر كُهَزْ ثم توجه إلى الروذ بار « عدة مواضع » من أرض سجستان وبعدها إلى الهندمَنْد «اسم لنهر مدينة سجستان » وهنا نزل كِش « مدينة تقارب سمرقند » ثم قطع الصحراء حتى بلغ القندهار « مدينة من بلاد الهند » فهاجم أهلها وأنزل بهم الهزائم وتم فتحها بعد أن استشهد الكثيرون من رجاله .

ثم تولى ثغر الهند من قبل زياد المنذر بن الجارود العبدى ، ويكنى أبا الأشعث فغزا البوقان « مدينة بالسند » والقيقان فانتصر المسلمون وغنموا الكثير ثم عمل على بث سراياه فى بلادهم ، كما نجح فى فتح مدينة قُصْدار « مدينة كبيرة فى السند » ولئن كان سنان فتحها من قبل إلا أنها عادت فانشقت ، ولكنها رضخت، ثم مات بها المنذر ، فقال الشاعر :

حل بقُصْدار فأضحى بها   فى القبر لم يقفل مع القافلين

لله قصدار وأعنابُها   أى فتى دنيا أجنت ودين

وبعدها ولى عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان الذى أصبح واليًا على العراق بعد أبيه زياد بن أبى سفيان ثغر الهند حَرِىّ الباهلى فتمكن من فتح تلك البلاد بعد

قتال شديد وقد غنم الكثير من وراء الانتصار ، وفيه قال الشاعر :

لولا طعانى بالبُوقان ما رجعت منه سرايا بن حَرِى بأسلاب

وكان ميدان القتال الذى حقق فيه حرى انتصاره البوقان والقيقان هو نفس ميدان من سبقه .

فلما تولى الحجاج بن يوسف الثقفى العراق بدأ عمله فى الهند بأن ولى عليها سعيد بن زرعة الكلابى ، غير أن محمداً ومعاوية ابنى الحارث العِلافيين خرجا عليه فقتلاه ، وأصبح العلافيان هما أميرا أثغر الهند ، غير أن الحجاج عاد فولى مُجاعة بن سِعْر التميمى ثغر الهند فجد فى الغزو ، فحقق نصراً وفتح مناطق من قندابيل «مدينة كبيرة بالسند » غير أنه مات بعد سنة بمكران ، وقال فيه الشاعر :

ما من مشاهدك التى شاهدت ألا يُزينك ذكرها مُجاعا

وبعد مُجاعة عين الحجاج محمد بن هارون بن ذراع النهرى ، وما كان من ملك جزيرة الياقوت « سيلان » إلا أن أهدى إلى الحجاج نسوة ولدن فى بلاده مسلمات ومات آباؤهن وكانوا تجاراً ، فأراد التقرب بهن فعرض للسفينة التى كن فيها من ميد « الديبل » فى بوارج فأخذوا السفينة بما فيها فنادت امرأة منهن ، وكانت من بنى يربوع : « يا حجاج » وبلغ الحجاج ذلك ، فقال : « يا لبيك » فأرسل إلى داهر ملك السند يسأله تخلية النسوة فقال : « إنما أخذهم لصوص لا أقدر عليهم » فأغزى الحجاج عُبيد الله بن نبهان الديبل فقتل ، وبعدها كلف بُديل بن طَهْفة البجيلى وكان واليًا على عمان أن يسير إلى الديبل وعندما واجه العدو قتله زُطُّ البُدْهة « الزط جنس هندى متدنى القيمة الاجتماعية » والبدهة جهة بالسند فقتلوه هو الآخر ، هناك أدرك الحجاج أن المسلمين أصبحوا فى موقف مهين ولهذا خطورته على هيبة المسلمين ومسيرة الفتوح ، ولهذا فإنه أخذ يقنع الخليفة الوليد ابن عبد الملك بأن يقوم المسلمون بفتح السند فاقتنع وسمح له أن يعد ما يحتاج إليه هذا العمل الكبير . فكان أن عيَّن الحجاج ابن أخيه محمد بن

القاسم الثقفى على ثغر الهند بعد أن أعاده من الرى ، وقد أمده بجيش قوامه ستة آلاف من جند الشام وغيرهم من العراق ، كما أعد له وزوده بكل ما هو بحاجة إليه حتى الخيوط والإبر ، ثم أمره أن يقيم بشيراز حتى يكتمل للجنود أسلحتهم وأدواتهم ، وعمد الحجاج إلى القطن المحلوج فنُقع بالخل الحاذق ثم جفف فى الظل فقال للجند : «إذا صرتم إلى السند ، فإن الخل بها ضيق ، فانقعوا هذا القطن فى الماء ، ثم اطبخوا به واصطبغوا » .

ثم سار محمد إلى مكران فظل بها أيامًا ثم خرج منها قاصدًا الديبل فى اثنى عشر ألف جندى من الشام والعراق وثلاثة آلاف بعير عليها أمتعتهم ، أما العتاد الحربى فإن محمد بن هارن والى مكران هو الذى قام بتجهيزه ، ثم اتخذ محمد ابن القاسم طريقه بحرًا وكان أن التقى الجيش بسفنه خارج مدينة الديبل فى ربيع الأول من سنة تسع وثمانين من الهجرة ، ٧٠٧ م ، وقد انضم إلى جيش المسلمين عند الديبل أعداد كبيرة من الميد والزط وهم من القبائل السندية التى فر كثير من أهلها مهاجرين لشدة ما كانوا يقاسونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية فهم من المنبوذين الذين يحرم عليهم ركوب الدواب ولبس الملابس الفاخرة كما كانوا لا يشتغلون إلا بالحرف الحقيرة .

وقد انتفع المسلمون بانضمام الميد والزط إليهم لأنهم فوق شجاعتهم وقوة احتمالهم كانوا أصحاب خبرة بمسالك السند ودروبها وطباع أهلها وأساليبهم فى الحرب والنزال ، وتوجه الجيش الإسلامى نحو الديبل فاتحًا فكان أول فتح مدينة فنزبور ، ومدينة أرمائيل ثم قصد الديبل وكانت قريبة من مدينة كراجى الحالية ، فحدد للجند مواقعهم وحفر لهم خنادقهم ثم نصب منجنيقًا ضخمًا كان يسمى «العروس» وكان يقوم بتشغيله خمسمائة من الرجال لهم خبرتهم وصنعتهم وتدريبهم العالى ، فأطلق المنجنيق قذائفه التى حطمت معبد البُد ، وهو من أكبر معابد الهنادكة ، وكان يضم الكثير من الأصنام يسمى كل واحد منها بُدًّ ، ثم قام

محمد بن القاسم بمهاجمة الديبل فقاتل المدافعين عنها عندما خرجوا إليه ولكنه ردّعهم فردهم إلى المدينة ثانية ثم أمر بالسلالم فنصبت على أسوارها وارتقاها الرجال ، وكان أول من صعد رجل من بنى مراد من أهل الكوفة ففتحت المدينة عنوة وقد هرب منها عامل الملك السندى «داهر » فأنزل بها محمد أربعة آلاف جندى وبنى بها مسجدًا فكان أول مسجد أقيم فى هذه الجهة .

ثم غادر محمد الديبل إلى النيرون التى تعرف باسم : « نيرانكوت » «وموقعها حيدر آباد السند » الحالية وكان أهلها قد سالموا الحجاج فصالحوه ولقوا محمدً بالعلوفة ورحبوا به فى مدينتهم ووفوا بالصلح وكان أن دخلوا فى دين الله أفواجًا .

ومن نيرون سار محمد فى طريقه فكانت المدن تتساقط فى يده الواحدة تلو الأخرى ، ثم عبر نهر السند فجاءه أهل مدينة سربيدس مصالحين ومسالمين فرحب ثم فرض عليهم الخراج ، ثم غادرهم بعدها إلى سبهان ففتحها ، واتجه بعدها إلى نهر السند ، فنزل بجواره آنئذ اتخذ داهر ملك السند عدته للدفاع عن بقائه ، وهنا كان محمد بن القاسم قد أقام جسرًا على نهر السند فعبره والتقى بداهر وجيشه ، والتحم الجيشان فكان القتال بغير نظير فى ضراوته ووجد داهر نفسه مرغمًا عن النزول عن فيله ليقاتل وظل فى مصاولته حتى لقى مصرعه عند المساء ، فتراجع جيشه وحاقت به الهزيمة النكراء ، وبمقتل داهر تغلب محمد على الكثير من بلاد السند ، ففتح رَوَار عنوة وكانت من المدن السندية الكبيرة ، ثم اتجه نحو الشمال الشرقى حتى وصل إلى مدينة برهمن آباد وكانت على بعد فرسخين من مدينة المنصورة ، وكان الذين فروا عن داهر هم الذين يدافعون عنها ففتحها محمد عنوة بعد أن قُتل من جندها خلق كثير .

ثم قصد محمد مدينتى الرور وبغرور فطلبا منه الأمان فأمنه ، وبعدها عبر المسلمون نهر بياس وهو من روافد نهر السند ، إلى الملتان أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه فصمدت عدة شهور لحصار المسلمين حتى نفذت مؤنة

جندها وأكلوا حميرهم ، ثم جاء إلى المسلمين رجل دلهم على مصدر الماء الذى يشرب منه السكان فقطعوه عنهم ، وصمد الهنود فى قتالهم الذى استمر سبعة أيام ثم خارت آمالهم فتسور المسلمون الأسوار وتمكنوا من فتح الملتان التى كان آخر حصون السند الكبرى ، وكان من العظيم حقًا أن أقبل على محمد بن القاسم كبار رجال المدينة وأصحاب الحول وعدد كبير من سكان الأقاليم الكبيرة من رجال الميد والزط الذين وطئهم البراهمة وبغوا عليهم وذلك لما بلغهم عن تسامح القائد العربى المسلم فأعلنوا ولاءهم فأمنهم على أنفسهم وأموالهم .

ومات الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراقين سنة ٩٥ هـ ، ٧١٣ م ، فما كان من محمد بن القاسم إلا أن رجع من المكران إلى الرور والبغرور ، وكان قد فتحهما فأعطى الناس أمانهم وما يطمئنون به على حياتهم ، ثم وجه جيشًا إلى البَيْلَمان وهى جزء من أرض السند ففتحها صلحًا ، كما سالمه أهل سُرُسْنت وهى مغزى أهل البصرة وأصل أهلها من الميد الذين يعملون فى البحر ، وأتى محمد الكيرج « مدينة بومباى الحالية » وكانت مقدسة عند أهلها فتصدى له الملك ، وكان ذا شأن كبير ، فقاتل محمداً غير أنه تحت ضغط الجيش الإسلامى اضطر إلى الفرار فصالح محمد أهل المدينة وأمنهم .

وبينما كان محمد يحقق نصراً بعد نصر ويجهز قواته ومعداته ليفتح مملكة قَنُّوج أعظم إمارات الهند شأنًا واتساعًا إذا كانت تمتد من السند إلى البنغال فإنه مهد لمشروعه هذا بأن أرسل وفداً إلى ملكها يعرض عليه الإسلام أو الجزية غير أن الملك لم يكن موفقًا فى رده ، فأهان الوفد مما حفز محمداً على فتح قنوج فأعد جيشًا قوامه عشرة آلاف فارس ، وفى الوقت الذى تأهب فيه للانطلاق إلى فتحه الجديد بلغه خبر خليفته الوليد بن عبد الملك بن مروان وكان حاميه وسنده هو وعمه الحجاج بن يوسف الثقفى ، ثم تولى الخلافة من بعده سليمان بن عبد الملك عدو الحجاج وأسرته ، وكان أمراً طبيعيًا أن يعزل عن السند محمد بن القاسم الثقفى ويحل محله يزيد بن أبى كبشة السكسكى . غير أن يزيداً هذا لم يطل به

العمر إذا مات بعد وصوله بثمانية عشر يومًا فولى سليمان مكانه محمد بن المهلب ابن أبى صفرة ، وبسبب هذه الأزمة اضطربت أحوال السند فانتهزها سنك بن داهر فهاجم مدينة برهمن آباد واستولى عليها وعجز حبيب بن المهلب أن يستردها منه ، ثم مات سليمان بن عبد الملك ، فخلف عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه . وقد استهل عمر حكمه بأن كتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة والدخول فى ملكه عل أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فأسرع سنك بن داهر وكثيرون غيره من ملوك الهند بالدخول فى الإسلام ، واتخاذ أسماء عربية .

ولقد ولى عمر بن عبد العزيز عمرو بن مسلم الباهلى أخا قتيبة بن مسلم الباهلى ثغر الهند فحقق بعض الانتصارات ، فى هذه الفترة حاول بعض المهالبة الذين لجؤوا إلى السند فى أيام يزيد بن عبد الملك أن يبسطوا نفوذهم على ما فتحه المسلمون فى الهند ، وبذلك ينشئون لأنفسهم دولة أموية خاصة فما كان من يزيد إلا أن وجه إليهم هلال بن أحوز التميمى فصادمهم فى مواقعهم ، وقتل منهم مدرك بن المهلب بقندابيل وقتل المفضل وعبد الملك وزياد ومروان ومعاوية بنى المهلب . ثم صارت السند لعهد هشام بن عبد الملك إلى الجُنيد بن عبد الرحمن المرِىّ ، فجاء الجنيد إلى الديبل ، ثم نزل شط مهران فما كان من جاى سنك إلا أن منعه من العبور وبعث إليه رسالة قال فيها : « إنى قد أسلمت وولانى الرجل الصالح عمر ابن عبد العزيز بلادى ولست آمنك » فتجنى الجنيد عليه وحاربه وانتصر عليه واسترد منه برهمن آباد ثم قتل ابن داهر غدرًا .

وبعد الجنيد تولى تميم بن زياد العتبى شأن السند ولكنه كان ضعيفًا مترددًا فأضاع بضعفه وتردده ما جاهد من أجله رجال الفتوح ، ثم تولى السند الحكم بن عوانة الكلبى وقد صحبه عمرو بن محمد الثقفى ، وعملا كل ما يقدران عليه لإشاعة الأمن والعدل ، وقد أنشئت فى عهدهما مدينتنا المحفوظة والمنصورة على شاطئ بالقرب من برهمن آباد غير أن الحكم قتل ، فأصبح عمرو بن محمد

القاسم هو الحاكم فسار على هدى أبيه محمد بن القاسم ، فعامل الهنادكة معاملة طيبة كما نشر العدل والأمن ، وبعد عمرو تولى يزيد بن غرار السند غير أن جمهور بن منصور الكلبى خرج على سلطانه الخلافة الأموية فاغتصب الإمارة سنة ١٣٠ هـ ، ٧٤٧ م ، غير أنها لم تدم له طويلاً .

وبعد أن قضى العباسيون على الخلافة الأموية أسند السفاح ، أول خلفائهم، إلى نصيره أبى مسلم الخراسانى الإشراف على الأقاليم الإسلامية ، فكلف عبد الرحمن بن أبى مسلم العبدى بأمر السند ولكنه أخفق فى القضاء على واليها جمهور بن منصور الكلبى ، ولاقى مصرعه على يده . ثم خلفه موسى بن كعب التميمى الذى طار كالثائر حتى أهلكه بالصحراء عطشًا .

على هذا التواتر التاريخى جاء فتح المسلمين للهند وقد أبلوا بلاء عظيمًا ، وبفضل الإسلام انتشر الخير وعم العدل بل فرح الهنود بالإسلام فدخلوه مطمئنين إلى بره ورحمته وإخائه ، ولا يفوتنا ونحن فى هذا المقام إلا أن نقول إن قادة الفتوح كانوا على مستوى الرسالة التى بعثوا من أجلها من حيث الحنكة العسكرية والقدرة القتالية التى تنزهت عن التشفى ، وكان من بينهم من تميز بخصائص العبقرية العسكرية نذكر من هؤلاء فاتح السند وحامل لواء الإسلام فيها محمد بن القاسم الثقفى ولا نجد أفضل مما سجله اللواء الركن محمود شيت خطاب فى تصوير هذه الشخصية العسكرية الفذة فقد قال : « كانت قيادة محمد تتميز[(١)] بالجرأة والمجازفة فقد أقدم على التغلغل فى مجاهل السند غير هياب ولا وجل ، فكان لجرأته النادرة أثرها فى جنوده فأقدم بعضهم على مجازفات بالغة الخطورة كما فعل المرادى من أهل الكوفة فى إقدامه على تسلق السلالم المقامة على أسوار الديبل فأشرف على قِمة الأسوار ، فتابعه إخوانه مرددين النداء الخالد : الله أكبر.

---

(١) كتاب :« قادة فتح السند وأفغانستان » تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب ص(٢٢٥) .

الله أكبر . وكانت خطط محمد تتميز بالمرونة ، يسهل تحويلها عندما تتبدل المواقف ، وكمثال واقعى على مرونة خططه ، الخطة التى قاد بها معركة الديبل ، فقد عالجت تلك الخطة ثلاثة احتمالات : محاصرة المدينة فقط حتى تنفد ذخيرتها وأرزاقها فتضطر على التسليم ، وقبول المعركة خارج الأسوار إذا حاول العدو الخروج من المدينة ، وقبول المعركة داخل الأسوار بمحاولة نصب السلالم وتسلقها وفتح الأبواب عنوة كما حدث فعلاً فى معركة الديبل .

وكانت قيادة محمد متميزة : يدير العمليات بكفاية ويسيطر على المعركة عند الاشتباك ويعد الخطط المرنة الدقيقة ، ويصدر القرارات السريعة الصائبة ، وينتهز الفرص لإنزال الضربة القاضية بالعدو ، ويستفيد من الإمكانات المتوفرة كافة ، ويستعمل الخدع والتضليل فى إيهام الخصم ، وتلك هى أهم ما تتميز به القيادة الفذة .

وكان بالإضافة إلى ذلك يتبع سياسة حكيمة فى معاملة البلاد المفتوحة ، فقد اعتنق قسم من الهنود قبل محمد بن القاسم الإسلام على أيدى قسم من التجار المسلمين ، فوجدوه دين عدل ومساواة وسلام وتوحيد على عكس ما كانوا عليه من التفرقة ونظام الطبقات والعبودية . وقد طبّق الفاتحون تعاليم الدين الإسلامى الحنيف على البلاد التى فتحوها ، فكانت خير دعاية لهم فى حسن المعاملة ونشر العدل والمساواة بين الناس . وكان محمد بالذات يحرص كل الحرص على تطبيق المثل العليا للإسلام نصًا وروحًا على أهل البلاد المفتوحة مما أدى إلى ازدياد عدد جنوده من الهنود المسلمين أنفسهم الذين أسلموا رغبة فى سماحة هذا الدين فعاونوا العرب المسلمين فى كثير من الأحيان معاونة حاسمة لإحراز النصر .

هذه العبقرية العسكرية التى تولت الفتح منذ شبابها الباكر استحوذت على إعجاب وتقدير كل من عرفها أو قرأ سيرتها فنالت حسن الثناء وحسن التعظيم .

قال فيه الشاعر يزيد بن الأعجم :

ساس الجيوش لسبعة عشرة حجة ولداته عن ذلك فى أشغال
فغدت بهم أهواؤهم وسمت به همم الملوك وسورة الأبطال

وقال فيه حمزة بن بيض الحنفى يرثيه :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبعة عشر حجة يا قرب ذلك سؤددا من مولد

ولكن النكبة السياسية لحقته نتيجة للتآمر على منصب الخلافة فَزُج به من أتونها بغير ما ذنب أو جريرة ، فبكى نفسه وهو مقيد إلى العراق فقال :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وكان يهتف فى أعماق سجنه وفى ظلمته وكأنه يذكر الباغين عليه بفضله عليهم فيقول :

أتنسى بنو مروان سمعى وطاعتى وإنى على ما فاتنى لصبور
فتحت لهم ما بين سابور بالقنا إلى الهند منهم زاحف ومغير
فتحت لهم ما بين جُرْجان بالقنا إلى الصين ألقى مرة وأغير
وما وطئت خيل السكاسك عسكرى ولا كان من عك علىّ أمير

وكانت خاتمة ذلك الفاتح العظيم أن مات فى سجنه من التعذيب .

فتح أفغانستان

تقع أفغانستان فى قلب آسيا فى منطقة بعيدة عن البحر وهى تشكل القسم الشرقى من هضبة إيران « فارس » ، وتغلب الصفة الجبلية على سطحها .

ولما كانت حدود أفغانستان هى حدود إيران فقد انطلقت منها الفتوح الإسلامية لفتح أفغانستان .

وبدأت الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، فلما كان قد عقد سبعة ألوية لسبعة قادة عهد إليهم بفتح المناطق الخاضعة للحكم الساسانى «الفارسى» فإنه كان بين هذه الجيوش جيشان توجها نحو أفغانستان وكان الجيش الأول تحت قيادة الأحنف بن قيس التميمى ووجهته خراسان ، والجيش الثانى تحت قيادة عاصم بن عاصم التميمى ووجهته سجستان ، أما خراسان ففتحها الأحنف وهى تقع بين هضبة إيران وسفوح جبال هندكوس وتلال « بلاد ما وراء النهر » وهى الآن تدخل ثلاث دول : أفغانستان ومن مدنها هراة وبلخ ، وإيران ومن مدنها نيسابور ، وتركستان التى كانت تخضع لروسيا ومن مدنها مرو الشاهقان وكانت عاصمة خراسان كلها فى زمن الأحنف ، ومن المعلوم أن الأحنف شهد فتح نهاوند مع أهل البصرة الذين جاؤوا مدداً للفتح وكان يقودهم أبو موسى الأشعرى ، فلما أن فتح نهاوند انصرف عنها أبو موسى إلى « قم » ثم وجه الأحنف إلى قاشان ففتحها عنوة ، ثم صار الأحنف يعد قواته ويجهز بما هى بحاجة إليه حتى إذا أكملها على خير ما يكون فإنه سار بها لفتح خراسان وكان ذلك فى سنة ١٨ هـ ، ٦٣٩ م فدخلها من جهة الطَّبَسَيْن « مدينتين » ، ففتح عاصمتها « هراة » وبعدها أمَّر عليها من ينوب عنه ، ثم اتخذ طريقه إلى مرو الشاهجان ، ولما أحس الملك الفارسى يزدجرد بالخطر المقبل عليه وكان وقتها في مرو الروذ ، فإنه استنجد بخاقان ملك الترك وملك الصُّغْد وملك الصين ليساعدوه على صد المسلمين ، تريث الأحنف بعد أن كان خرج من مرو الشاهجان حتى وصلته إمدادات الكوفة فاتخذ الطريق إلى مرو الروذ خلف مدد الكوفة الذى كان

متجهًا إلى بَلْخ ، وعندما تصادم أهل الكوفة بيزدجرد فى بلخ فإنهم أنزلوا به هزيمة شديدة حتى إذا ما لحقهم الأحنف كان الله قد نصر المسلمين ففتحوا بلخ ، ولم يتوان أهل خرسان ممن خرج منها أو تحصن فيما بين نيسابور إلى طخارستان ـ ممن كان فى مملكة كسرى ـ لم يتوانوا عن طلب الصلح فصالحهم ثم أسلموا .

وعندما توجه الأحنف غزوه بالفتح فإنه كتب إلى عمر بن الخطاب بفتح خراسان وهنا قال عمر عن ابن الأحنف : « هو سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه » غير أن عمر قال : « لوددت أنى لم أكن بعثت إلى خراسان جندًا ، لوددت لو أنه كان بيننا وبينها بحر من نار » ذلك لأنه كان يخشى أن يغرى النصر الأحنف إلى التقدم إلى ما وراء خراسان من أرض المشرق كما خشى أن تستبد الحماسة بجيش المسلمين فينطلق شرقًا ، لهذين السببين فإنه كتب إلى الأحنف يقول : « أما بعد فلا تجز النهر واقتصر على ما دونه وقد عرفتم بأى شىء دخلتم على خراسان فداوموا على الذى دخلتم به يدُم لكم النصر وإياكم أن تعبروا فتنفضوا » .

ولقد كان عمر مصيبًا فى حذره هذا ذلك لأن الفتوح الإسلامية قد ازدادت رقعتها إلى حد كبير إذ أنها ضمت أرض فارس كلها فضلاً عن أن خطوط المواصلات قد طالت وتشعبت ، علاوة على توزع قوات المسلمين بين الشام ومصر، والعراق وفارس ، ومما يشهد على بعد نظر عمر بن الخطاب أنه عندما سار خاقان ملك الترك فى جنده يصحبه يزدجرد وعبر النهر إلى بلخ فإنهما أرغما جيش الكوفة على التراجع عنها إلى مرو الروذ وكان الأحنف قد خرج ليلاً من المدينة وعسكر خارجها ، وعند الصبح جمع الأحنف جنده وقال لهم : « إنكم قليل وإن عدوكم كثير فلا يهولنكم ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة:٢٤٩]ارتحلوا عن مكانكم هذا فأسندوا إلى هذا الجبل فاجعلوه فى ظهوركم واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهم من وجه واحد » .

وكانت قوات الأحنف تقدر بعشرين ألفًا : عشرة آلاف من الكوفة وعشرة

آلاف من أهل البصرة .

وتقدم الترك نحو جيش المسلمين وقد قام منهم عدد قليل بعمليات استدراجية أو مناوشات يفعلونها نهاراً ويتوقفون عنها ليلاً ، عند ذلك خرج الأحنف على رأس رجاله مقتربًا من معسكر خاقان الترك . فلما أصبح خرج فارس من الترك وضرب بطبله فهاجمه الأحنف فتبادلا طعنتين ففاجأه الأحنف بطعنة أردته وهو يقول :

إن على كل رئيس حقـًا أن يخصب الصَّعْدَة (١) أو تندقا
إن لنـا شيخـًا مُلقـى سيف أبى حفص الذى تَبَقـى

ثم خرج إليه فارس تركى ثان ، فوجه إليه الأحنف طعنه نجلاء فقضت عليه فقال مرتجزًا :

إن الرئيس يرتبى ويطلع ويمنع الخُلاء أما أربعوا

ثم فارس ثالث وبطعنة خاطفة أورده الأحنف حتفه ، وقال وهو يرتجز :

جرى الشموس (٢) ناجزًا بناجز محتفلاً بجرية مشارز (٣)

بعدها استدار الأحنف إلى عسكره مهيئًا رجاله للقتال ، غير أن الترك فضلوا أن يعودوا إلى بلادهم لأن بقاءهم قد طال بغير فائدة ترجى فضلاً عن الخسائر البشرية التى تكبدوها . هذا فضلاً عن أن الأمل فى النصر كان ضئيلاً وكذلك لاعتقادهم بأن المسلمين لن يعبروا إليهم النهر لأن الخليفة قد أمرهم بعدم العبور وحدث أنه عندما انسحب جند الكوفة من بلخ ، وانضموا إلى الأحنف « بمرو

---

(١) الصعدة : الرمح ، ملقى : طريح ويقصد به الشهيد ، يرتبى : يصعد الرابية ، الخُلاَّء : جمع خلى ، ربَع بالمكان : أقام .

(٢) الشموس : الفرس تمنع ظهرها .

(٣) مشارز : الشدة والصعوبة والقوة .

الروذ» فإن يزدجر تمكن من أن يفصل بقوة فارسية من بلخ إلى مرو الشاهجان وتمكن من محاصرة المسلمين فى هذا الموقع ليستخلص خزائنه من أماكنها وذلك بغاية أن يلحق بخاقان الترك عندما علم بانسحاب الترك من فارس كلها والعودة إلى بلادها وعندما وصل الأمر إلى هذا الوضع قال أهل فارس لملكهم يزدجرد : «أى شىء تريد أن تصنع ؟ » فقال : « أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين» فقالوا : « مهلاً فإن هذا رأى سوء ، فإنك إنما تأتى قومًا فى مملكتهم ، وتضع أرضك وقومك، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم يلون بلادنا وإن عدوا يلينا فى بلادنا أحب إلينا مملكة من عدونا يلينا فى بلاده ولا دين لهم ولا ندرى ما وفاؤهم» فلما أبى عليهم رأيهم قالوا له : « فدع خزائننا نردها إلى بلادنا ومن يلينا ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها » غير أن يزدجرد تمسك برأيه ، فعادوا إليه وقاتلوه ومن انتصر بهم وأخذوا منه الخزائن ، فاضطر إلى الفرار إلى بلخ ، وكان خاقان قد سبقه إلى الانسحاب منها فواصل فراره حتى وصل إلى فرغانة عاصمة الترك ، عنئذ قال المسلمون للأحنف : « ما ترى فى أبنائهم ؟ فقال : أقيموا بمكانكم ودعوهم » .

وهنا استرضى أهل فارس الأحنف فصالحوه وعاهدوه وسلموا إليه خزائن كسرى وأمواله ، وبعدها سار الأحنف بجند الكوفة من مرو الروذ إلى بلخ فأقاموا بها أما هو فإنه عاد إلى مقر قيادته فى مرو الروذ ، بعد أن استخلف طخارستان بعد أن فتحها عنوة ، وقد كتب إلى عمر بن الخطاب يبشر بفتح أفغانستان باعثًا إليه بالأخماس فجمع عمر المسلمين فقرأ عليهم الفتح ثم قال فى خطبته لهم : «ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرّق شملهم فليسوا يملكون من بلادهم شبرًا يضر بمسلم ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون والله بالغ أمره ومنجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله ، فقوموا على أمره على رجل يعرف لكم بعهده ويؤتكم وعده ولا تتبدلوا ولا تتغيروا فيستبدل الله بكم غيركم فإنى لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قِبَلكم » .

وهكذا جاء فتح الأحنف لخراسان بشارة بزواله دولة الأكاسرة من بنى ساسان وأن ترفرف عليها دولة الإسلام .

نأتى بعد هذا إلى فتح ساجستان فقد حمل لواءه عاصم بن عمرو التميمى وكان جيشه مؤلفًا من أهل البصرة وبجيش من أهل الكوفة . وبعد أن أتم عاصم تجهيز قواته واطمأن على تعبئتها انطلق بها نحو ساجستان وهى أعظم من خراسان وأوسع أرضًا ليقاتل من بها من أهل القندهار والترك وغيرهم ، واندفع عاصم بقواته نحو جيش سجستان الذى كان موجودًا على حدود بلاده غير أنه لم يثبت أمام هجوم المسلمين إذ سرعان ما انسحب إلى زَرَنج عاصمة ولاية سجستان فحاصره عاصم كما أنه بث كتائب فى المنطقة كلها لتخضع جيوبها العسكرية . ولما أيقن شعب ساجستان أن لا طاقة له على احتمال الحرب وما تسببه من ويلات فإن جنح إلى الصلح شريطة أن تكون مزارع سجستان حمى لا يقربه المسلمون . وتم الصلح ، وبذلك أصبح ساجستان دولة مسلمة .

غير أن فتح أفغانستان بأقاليهما أصيب بما يشبه التمرد من جانب بعض الجيوب العسكرية الأفغانية . فبعد مقتل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه فإن من أهل خراسان من نقض وغدر ، وهنا فإن عبد الله بن عامر بعد أن استعاد فتح فارس فإنه غزا خاسان بجيش أمَّرَ عليه الأحنف بن قيس التميمى فوقف الجيش أمام الطبسين وهما حصنا وبابا خراسان فصالح أهلها على الإسلام . ثم تقدم نحو مُهُسْتان فأوقع الهزيمة بالفرس وفتح المدينة عنوة ، ثم توالت الفتوح : فقد بعث عبد الله بن عامر يزيد الجرشى أبا سالم بن يزيد إلى رستاق « زام من نيسابور » ففتحه عنوة ، وأيضًا تمكن بسهولة من فتح باخَرْز من أعمال نيسابور ، كما فتح جوْين من أعمال نيسابور ، أما ابن عامر فإنه فتح بُشْت من نيسابور ، بعدها جاء إلى أَبْرَشَهر وهى مدينة بيسابور فضرب عليها الحصار ، وكانت المدينة مقسمة إلى أربع مناطق وكان على قسم من يقوم عليه ويرعاه ، فتقدم صاحب منطقة بطلب الصلح على أن يدخل المسلمون المدينة بغير قتال فأجيب إلى طلبه

فدخلها المسلمون ليلاً . إلا أن مر زبانها الأكبر كان قد تحصن بأحد الحصون وطلب الأمان لمدينة نيسابور بأسرها فأجيب إلى ما أراد وفتحت المدينة أبوابها للمسلمين .

وفى نفس الوقت كان ابن عامر قد سير جيشًا إلى نَسَا ، وأَبْيَوَرد ، فجاء فتحهما صلحًا . ثم سير فرقة صغيرة إلى سَرْخَس فقاتل أهلها الذين أنقذوا أنفسهم بطلب الصلح والأمان ، ثم سعى مرْزُبان طُوس إلى ابن عامر لطلب الصلح فصالحه على طوس ، بعدها سير ابن عامر جيشًا إلى هَراة ، ولم يكد مرزبانها يسمع بتقدمه حتى إنه هرع إلى ابن عامر طالبًا الصلح على هراة ، وبَاذَغِيْس ، وبُشَنْج .

نأتى بعد هذا إلى الأحنف بن قيس فإن ابن عامر قد وجهه إلى طخارستان فتم الصلح مع أهل رستاق بعد حصار لم يدم طويلاً ، أما مَرْو الرُّوذ فإنه استعادها صلحًا بغير قتال ، ثم التقى الأحنف بأهل طخارستان وقد جمعوا لهم حلفًا تألف من أهل الجُوْزجان والطالقان ، والفارياب ، ومن تشيع لهم لكن الهزيمة القاسية كانت من نصيب ذلك الحلف ، ثم فتح الأحنف الطالقان صلحًا وبعدها توجه إلى بلخ فصالحه أهلها .

وكل تلك الفتوح أو عمليات الاستعادة تمت سنة ٣١ هـ ، ٦٥١ م ، فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ثم قام الجيش الإسلامى الفاتح بعمليات استعادة أخرى : ومنها استعادة فتح سجستان . فلقد فتحت سجستان فى أيام عمر بن الخطاب لكن أهلها نقضوا عهد الصلح ولذلك فإنه عندما توجه ابن عامر إلى خراسان فإنه سَيَّر إلى سجستان من كِرْمان جيشًا يقوده الربيع بن زياد الحارثى فقطع صحراءها حتى وصل إلى حصن زالق فأغار على أهله فى يوم مهرجان أحد أعياد الفرس فوقع دهقانها أسيرًا فافتدى نفسه ثم أتى بلدة كَرْكَوَيْة فطلب أهلها الصلح فصالحهم ، وواصل سيره إلى زَرَنْج فحاصر مدينة هيسون فصالح أهلها على غير قتال ، ثم عبر نهر هِندمَنْد

ثم نزل واديًا يقال له : نُوق حتى بلغ مدينة دوشت فتصدى له أهلها وقاتلوه بشراسة ووقع من جند المسلمين شهداء غير أن المسلمين كروا عليهم وأرغموهم على الدخول فى المدينة وما زالوا بهم حتى أرغموهم على الاستسلام وطلب الصلح وبعدها توجه الربيع إلى ناشروذ ناحية بسجستان فقاتل أهلها وانتصر عليهم، ثم واصل شِرْواذَ بسجستان ، فتمكن منها وسبى ومنها خرج إلى زَرَنْج ، فضرب عليها الحصار وبعد قتال شديد طلب أبرويز مرزبانها الصلح والأمان فأُجِيب إلى ما طلب .

وسار الربيع من زَرَنج إلى نهر سناروز ، وهو نهر سجستان فعبره حتى أتى بلدة قِرْنين فاشتد أهلها فى حربه وفى النهاية انتصر عليهم ، وبعدها رجع الربيع إلى زرنج ، ومما يذكر أنه بعد أن صار معاوية بن أبى سفيان هو الخليفة ، فإنه عزل عبد الرحمن بن سَمُرة عن سجستان وولاها الربيع بن زياد الحارثى ، وكان ذلك فى سنة ٤١ هـ ، ٦٦١ م ، فتمكن من إخضاعها ولما أن صار زياد بن أبى سفيان واليًا على الكوفة والبصرة ، فإنه عزل الربيع عن سجستان ووجه إلى خراسان أميرًا سنة ٥١ هـ ، ٦٧٧ م ، ومعه خمسون ألفًا بأسراهم وعيالهم حيث أسكنهم دون النهر « نهر جيحون » فى خراسان ، وعندما تقدم نحو بلخ ، تمكن من فتحها صلحًا وكانت قد أغلقت أبوابها ، بعد أن عقد أهلها صلحًا مع الأحنف بن قيس التميمى، أما قُهِسْتان ، فإن الربيع فتحها عنوة بعد أن قتل الكثير من أتراكها .

وعلى هذا النسق القتالى المتتابع تمكن الربيع من فتح سجستان وخراسان .

ومما يلاحظ على معارك الفتوح التى قام بها الجيش الإسلامى لفتح الهند والسند وأفغانستان وفارس وغيرها من الأقطار الشرقية أنه كان يستعاد فتح تلك الأقطار بمدنها وقراها فما هو السر فى إعادة الفتح وهو مكلف بغير شك ؟

هل السبب أن شعوب تلك البلاد على اختلاف حظوظها من الرقى الحضارى لم تكن مستجيبة عاطفة وإحساسًا وعقلاً متفتحًا للإسلام فكان أن تمردت وانقلبت

على فاتحيها ؟ لا ، ليس الأمر كذلك إنما كانت استجابتهم للإسلام عن وعى عميق وإدراك صادق الإيمان ، ولكن هناك عدة أسباب فى استعادة الفتح :

أولاً : الطبيعة الجبلية لتلك البلاد فقد كانت جبالها وعرة صعبة المسالك . كما أن أنهارها كانت كثيرة ومتشعبة ومتقاطعة ، فهى من ثم تكلف الكثير من المشاق، فى عبو ِها واجتيازها .

ثانيًا : كاز ت مدن تلك البلاد مقامة على شكل هندسى جعلها صعبة الاقتحام؛ وذلك لأنها كانت محاطة بالكثير من القلاع والحصون والسراديب .

ثالثًا : أنه بدون شك كانت جيوش تلك البلاد تفوق فى أعدادها وعُدَدها ما تملكه الجيوش الفاتحة .

رابعًا : أن قادة الفتوح الإسلامية فضلاً عن جندها كانوا يسيرون فى فتوحهم على هدى من شريعة الإسلام التى تحرم سفك الدماء للإبادة والإفناء والتخلص من الخصم إنما هى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة أى بالتراحم الإنسانى الذى لا يفرق بين الناس بسبب ألوانهم وأجناسهم ومراتبهم الاجتماعية ، وهنا ما نجده واقعًا تاريخيًا إذ كانت الشعوب هى التى تطلب الصلح والأمان من الفاتحين، وكذلك مما يؤيد هذا الواقع التاريخى أن الآلاف من رجال تلك البلاد كانت تدخل فى الإسلام عن حب ويقين ثم تنخرط فى صفوف المسلمين لتدافع عن الإسلام وتنشر الإسلام .

خامسًا : أن الكثيرين من حكام تلك البلاد كانوا يتشبثون بسلطانهم استعلاء على من دونهم وتمسكًا بعقائد وثنية رثة فليس بها أدنى نفع للإنسان فى حاضره ومستقبله .

فتح بلاد المغرب

لقد بذل الأمويون جهدهم لانتزاع مصر من عامل عبد الله بن الزبير ، إذ بادر الخليفة عبد الملك بن مروان قبل أن يقضى على ثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز والعراق بأن أوكل إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بضرورة إعداد جيوش فى مصر وكان ذلك فى سنة ٦٩ هـ ، ٦٨٨ م ، لانتزاع الأراضى المغربية من البيزنطيين وحليفهم « كسيلة » . وتقدمت الجيوش الإسلامية نحو هدفها يقودها زهير بن قيس البلوى ، وذلك لخبرته السابقة بالميدان الإفريقى . وهنا لابد من الرجوع إلى عمرو بن العاص ودوره فى التمهيد للفتوح الإسلامية بالمغرب ، فقد تبين لعمرو ابن العاص أنه مازال للروم نفوذ فى شمال إفريقيا وأنه لا استقرار للفتوح الإسلامية فى شمال إفريقيا ، إلا بالقضاء على النفوذ الرومى . ولقد عاين بنفسه مدى نفوذ الروم عندما كان يزحف على مصر فإن الروم كانوا يعتمدون على قواعدهم ببلاد المغرب وخاصة برقة التى كانت تمدهم بما يحتاجونه . من أجل هذا الهدف فإن عمرو بن العاص أرسل عدة سرايا لتكشف له عن قوام الروم فجاءت له الأنباء بما يؤكد خطورتها على الوجود الإسلامى فى مصر ، ولقد تزعم هذه السرايا الاستطلاعية عقبة بن نافع الفهرى التى شاءت الأقدار أن يكون هو حامل راية الإسلام فى المغرب ، ثم خف عقبة إلى إقليم برقة للوقوف على أخباره وكانت برقة فى ذلك الوقت تتبع مصر إداريًا منذ سيادة الرومان على كل منهما ، ومن هنا فإنها كانت تعد ثغرًا يضمن سلامة مصر من جهة الغرب . وبعد تمام الاستيلاء على برقة شرع عمرو فى اتخاذ الترتيبات فى دراسة بلاد المغرب المجاورة لنشر الإسلام ، ووجد أن أمامه طريقين لتحقيق ذلك الهدف ، الأول يسير بحذاء الساحل إلى طرابلس وما حولها من المدن البحرية مثل سرت ، والآخر يتعمق برًا ويوجد به الكثير من المناطق العمرانية الصحراوية وتتكون من مجموعات متجاورة من الواحات والآبار تحتلها بطون لواتة ، ونفوسة ، ولها علاقة اجتماعية بقبائل جنوب شرق إقليم الزاب بالجزائر ، وتوفر عمرو بن العاص على دراسة هذين

الخطين ، فبعث أولاً عقبة بن نافع ليفتح الواحات الداخلية ليضمن إخلاصها بينما سار هو لفتح طرابلس ثم فتح مدنها ، وقد دلت الخطة على حنكة عمرو بن العاص وبعد نظره العسكرى فقد سار عقبة إلى فزان ففتحها وظل يراقب الجهات القريبة بينما سار عمرو إلى طرابلس بعد أن أمن ظهره ، وكانت طرابلس فى ذلك الوقت جزءًا من ولاية إفريقية « تونس » التى كان الرومان قد جعلوا منها قاعدة لجيوشهم بعد تدمير قرطاجة ، لتكون عينًا لهم على تحركات قبائل المغرب المتمردة المقيمة فى إقليم نوميديا ، ولا سيما فى موطنهم بجبال الأوراس . ثم صار عمرو ابن العاص يكتسب خبرات كثيرة من تجمعات الروم فى تلك الجهة وعملها من حيث التقلبات السياسية لا فى برقة وحدها بل فى جميع بلاد المغرب . فقد كان المصطرعون حول العرش الرومانى يقوون صلاتهم بالحاميات الإفريقية لأهميتها وما لها من وزن عسكرى ، نتبين ذلك جليًا حين استطاع الإمبراطور قسطنطين من أن يقضى على منافسيه سنة ٣١١ م ، وأبدت السلطات الرومانية اهتمامًا كبيرًا بإفريقية لا سيما بعد قسطنطين وتأسيس القسطنطينية سنة ٣٣٣ م ، فقد أصبحت هذه المدينة عاصمة للدولة الرومانية الشرقية التى أصبحت تعرف باسم إمبراطورية الروم أو الإمبراطورية البيزنطية بعد أن تهاوت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦ م ، واهتدت إمبراطورية الروم بالسياسة التى كانت تنتهجها الإمبراطورية الرومانية الكبرى من حيث مساندة قواعدها فى ولاية إفريقية لتبقى على هيمنتها عليها استنزافًا لخيراتها . وكانت ولاية إفريقية « تونس » قبل أن يسير إليها عمرو بن العاص ذات دور هام فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية من حيث تسيير شؤون بلاد المغرب ، فقد جعل منها الإمبراطور قاعدة عسكرية يقوم على أمورها حاكم عسكرى Exarcus ، له السيطرة الكاملة على كل مرافقها وموظفيها ، يقوم بمعاونته فى قضاء اهتماماته حكام عسكريون وظيفتهم إدارة الأقسام الإدارية الجديدة بالولاية ، ولئن كانت هذه القاعدة تعمل على زيادة القوة والرقابة على أحوال المغرب إلا أنها كانت مطمعًا للطامعين فى التمرد على السلطة

المركزية فى القسطنطينية ومن يطمعون فى نفس الآن إلى الاستيلاء على العرش الإمبراطورى ذاته معتمدين على جيوشهم الكبيرة ، وعلى قاعدتهم العسكرية القوية، ولقد تمكن نفر من القادة العسكريين من أسرة جريجوريوس وكانوا تمكنوا الإمبراطور من الاستقلال بحكم إفريقية عن الإمبراطور هرقل منذ عام ٣١٠ م متخذين شتى الحيل والسبل للانفصال عن زعامة القسطنطينية .

وعندما انتهى عمرو بن العاص إلى طرابلس كان جريجور الثانى والذى عرفه العرب باسم جرجير ، وكان من سلالة تلك الأسرة ـ قد تمكن من الاستقلال بولاية إفريقية متخذًا من مدينة سبيطلة عاصمة له ، وكانت من القواعد البيزنطية القوية على خط الدفاع الثانى الذى سبق أن أقامته السلطات الرومانية فى بلاد المغرب .

ولما كان جريجوريوس ينزع إلى الاستقلال الكامل فإنه اتخذ استعدادت حربية واسعة فى إفريقية ، وفى نفس الوقت لم يرغب هذا الحاكم أن يبدأ هو بالتصدى لعمرو بن العاص خوفًا من أن يباغته ملك القسطنطينية ، ومن هنا فإنه آثر التحصن بولايته لكلا الاحتمالين ، وبذلك تمكن عمرو بن العاص من فتح طرابلس سنة ٢٢ هـ ، ٦٤٣ م ، بغير أن يحاول التوغل فى إفريقية إذا استبان له أن إتمام فتح إفريقية يقتضى أعباء جسامًا هذا فضلاً عن أنه فضل العودة إلى مصر مسرعًا وكان ذلك سنة ٢٣ هـ ، ٦٤٣ م ، عندما بلغته أنباء بأن الروم يدبرون لشن حرب على مصر لاسترداد الإسكندرية والعمل على إحباط التوغل الإسلامى نحو المغرب .

غير أن ولاية عمرو بن العاص لمصر سرعان ما استبدلت بولاية عبد الله بن سعد بن أبى السرح بعد أن أصبح الخليفة هو عثمان بن عفان ، وعمد عبد الله بن سعد بن أبى السرح إلى محاولات استطلاعية لما يجرى فى المغرب ، فأرسل سرايا قتالية صغيرة اتبعت أسلوب الكر والفر لاختبار مدى قوة القاعدة التى تحصن بها جريجوريوس ، ولكشف نوعية استعداداته الحربية فى إفريقية ، وقد شارك فى هذه

الحملات الاستطلاعية السريعة عقبة بن نافع الفهرى الذى تدرب على هذا النوع من العمليات القتالية منذ أن كان عمرو بن العاص واليًا على مصر ، وكان عقبة ابن نافع مقيمًا فى برقة منذ أن ترك عمرو بن العاص مصر واتخذ من برقة مقرًّا لنشاطه الحربى فاتبع سياسة التعرف على أحوال القبائل والواحات القريبة من برقة من حيث أحوالها الاجتماعية والمعاشية وقدرتها القتالية ، وكانت هذه الجهات تتصل ببعضها عن طريق الساحل بجنوب إفريقية والنواحى الشرقية لبلاد المغرب، وكانت تعد محيطًا هامًا للاطلاع على أخبار القبائل المقيمة على طول ذلك الطريق، ثم أخذ عقبة بن نافع يدرس أحسن الوسائل لنشر الإسلام بين قبائل تلك الأقاليم ، وفى نفس الوقت يدرس أحوال البيئة المغربية من الناحية العسكرية ، حتى إذا خَلُصت للقيادة الإسلامية صورة صادقة للموقف العسكرى للعدو البيزنطى فإن عبد الله بن سعد وعقبة بن نافع بعثا بهذه الصورة إلى عثمان بن عفان الذى قام بدوره بعرضها على كبار الصحابة ، وبعد أن تدارسوها وافقوا على ضرورة غزو إفريقية وتدمير القاعدة البيزنطية فى سبيطلة .

وتم إعداد القوات وقد شارك عثمان فى هذا الإعداد ، وتم تجميعها فى الحجاز قبل أن تنطلق إلى مصر ، ولم يتوان عثمان على أن يخطب فى الناس ويحثهم على الجهاد فى سبيل الله . وقد اشترك فى هذه الحملة نخبة من الصحابة الأجلاء نذكر منهم عبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن عمر ، عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس . وكان أن أنسبت تلك الحملة إليهم فعرفت باسم « غزوة العبادلة » وبعد أن تم الإعداد واطمأن عثمان على الحملة فإنها اتجهت إلى مصر بقيادة عبد الله بن أبى سعد بن أبى السرح ، ثم غادرت مصر سنة ٢٧ هـ ، ٦٤٨ م متجهة إلى برقة حيث انضم إليها عقبة بن نافع الفهرى الخبير بالقواعد العسكرية للروم وأحوالهم فى إفريقية ، ثم واصل الجيش الإسلامى زحفه نحو إفريقية بناء على خطة حربية تؤمنه وتحقق له هدفه فى نفس الوقت . ومن خطته الأمنية أن الجنود كانوا يسيرون ليلاً ليتقوا حر الصحراء

الشديد ولا يرى جواسيس الروم تحركاتهم ، ثم يستريحوا نهاراً ، وظلوا على هذا المنوال حتى وصلوا طرابلس . ولقد انتهت خطة القادة المسلمين إلى ضرورة الاستيلاء على سبيطلة بأسرع ما يمكن حتى لا بدل أن يبددوا قواهم فى حصار القواعد الساحلية فكان أن غادروا طرابلس وغيرها من الحصون الساحلية متجهين إلى سبيطلة فعسكرت الجيوش فى منطقة تسمى قمونية قريبة من سبيطلة وشرعوا يتخذون أهبتهم للمعركة الحاسمة التى وقعت عندما تصادم المسلمون والروم عند مكان يسمى عقوبة يبعد عن سبيطلة بمقدار يوم وليلة ، وتراوحت الحرب بين الفريقين فكان الروم يحتمون بحصونهم ، بينما كان المسلمون يحتمون بخيولهم وإبلهم ، اتبع المسلمون أسلوب الكمائن المباغتة التى عجلت بنصرهم وقد سقط جرجير قتيلاً .

بهذه النتيجة أسرع عبد الله بن أبى سعد فأحكم الحصار على سبيطلة لمنع الروم المنهزمين من دخولها والتحصن بها ، وهكذا تم الاستيلاء على سبيطلة كما تم تدمير قواعدها العسكرية تمامًا ، وبسقوط سبيطلة أصبح الطريق أمام المسلمين ممهدًا لإرسال سرايا استطلاع إلى الجهات المحيطة بها .

وبلغت قوات المسلمين المغرب الأوسط ، واختلطت بقبائلها فأدرك المسلمون مدى الفرق بين الروم وبين أهل البلاد ، فالروم متغطرسون متكبرون ، بينما أهل البلاد طيبون سرعان ما رحبوا بالمسلمين ، وعقدوا صلحًا معهم وتقربوا منهم عندما وقفوا على مقصدهم وغايتهم ، وجاءت وفود من قبائلهم إلى عبد الله بن سعد تعلن دخولها فى الإسلام ، وكان من زعماء تلك القبائل صولات بن وزمار شيخ قبيلة مغرواة الذى صادق عبد الله بن سعد .

وبعد تحطيم سبيطلة أدرك عبد الله بن سعد أن الروم لن يصبروا على هزيمتهم وتدمير قاعدتهم الكبرى بداخل إفريقية ، وكان عبد الله مصيبًا فى ؛ حدسه لأن سراياه الاستطلاعية أبلغته أن الروم يبنون قوتهم فى المدن الساحلية والقواعد الكبرى ولا سيما فى جزيرة شريك ومدينة قرطاجنة ، وهنا قرر عبد الله بن سعد

الرجوع إلى مصر وكان ذلك فى سنة ٢٩ هـ ، ٦٥٠ م ، بعد أن استمرت حملته ما يقرب من سنة وشهرين ، ولقد صحب صولات بن وزمار شيخ قبيلة مغراوة عبد الله بن سعد فى رحلته إلى الخليفة عثمان بن عفان حيث أعلن إسلامه أمام الخليفة فكأنه بذلك قد نهج الطريق للإسلام فى بلاد المغرب ، إذ أن إسلامه كان عن إيمان مكين وتقبل صحيح . وبذلك جاء الرباط وثيقًا خالدًا بين الإسلام فى الحجاز حيث منشأ الرسالة المحمدية وبين الإسلام فى بلاد المغرب ، فكأن القضاء على قاعدة سبيطلة الرومانية كان مفتاح الإسلام ، فى بلاد المغرب ذلك لأن عثمان بن عفان قد كلف صولات بن وزمار ، بأن يكون رئيسًا لقومه يهديهم وغيرهم إلى الإسلام . ولم ينس أبناء المغرب هذا التقليد الذى سنه ثالث الخلفاء الراشدين فهم يعتزون به ويعملون له .

أما عبد الله بن سعد بن أبى السرح فإنه لم يتمكن من العودة إلى بلاد المغرب للقضاء على باقى القواعد الرومانية ، لأنه انشغل بصد هجمات الروم البحرية على مصر هذا فضلاً عن ترقب نتائج الفتنة التى اندلعت بين عثمان وعلى ومعاوية .

وإذ لم يصبر البيزنطيون على هزيمتهم فإنهم أصروا القضاء على نشاط المسلمين فى شمال إفريقية ولهذا الهدف فإنهم جهزوا حملة بحرية كبيرة غايتها إعادة سلطانهم على مصر التى أصبحت المركز الرئيسى للحملات الإسلامية فى فتح المغرب وإمداد قواتها بما تحتاجه من جند وسلاح ، وأدرك عبد الله بن سعد - والى مصر آنئذ - النتائج الخطيرة لهذه النية الرومية المبيتة ، وذلك لأن الروم يعتمدون على بحريتهم التى كانت لها اليد الطولى فى البحر المتوسط ، وكان صاحب هذه المخاطرة هو الإمبراطور قنسطانز الثانى التى جاءت نشأته وسط عواصف الفتوح الإسلامية فى مصر والمغرب ، فقد تبين له أنه لا نجاة لإمبراطوريته من توسع المسلمين إلا بالهجوم على المراكز الرئيسية للمسلمين فى البحر المتوسط وتتجسد فى مصر والشام إذ إن الهجوم سيكون خيرًا له من الدفاع

لأنه سيحرم المسلمين من طلائع قواتهم البحرية التى يعتمدون عليها فى البحر المتوسط . فبعد معركة « ذات الصوارى » وفرار قسطنطانز إلى صقلية فقد تبين له أن الموقف العسكرى يفرض عليه الاهتمام ببلاد المغرب لتعوضه عن فقدان مصر والشام ، فانتهز فرصة انشغال المسلمين بالفتنة التى وقعت بينهم لإعادة بناء البحرية الرومية بما يكفل لها القوة ، والقوة البرية بما يكفل لها المنازلة والمصاولة فكان لابد من اتباع سياسة جديدة بالنسبة للمغرب ، فاختار صقلية ؛ لتكون قاعدته العسكرية ضد النشاط البحرى للمسلمين وزيادة على ذلك ، فإنه جعل من صقلية عاصمة جديدة له تكون وثيقة الصلة بما تبقى لدولته فى جنوب إيطاليا وبلاد المغرب ، بعد هذا وجه نشاطه البحرى والبرى من مقره الجديد إلى بلاد المغرب بقدر ما يستطيع لاسترداد سلطاته البعيدة فى إفريقية بالقضاء على سلطان المسلمين، فكان أن أرسل أساطيله من سيراكوز بصقلية محملة بالجند إلى إفريقية وكذلك لمساندة القواعد الرومية فى قرطاجة وغيرها من القواعد العسكرية المهمة .

غير أن ميل هذا الإمبراطور إلى الشدة فى سياسته أعطى للمسلمين الفرصة لاستئناف القتال بغية هدم القواعد الرومية فى الجبهة المغربية ، فهذا الإمبراطور قد ساءه أن يتفق زعماء إفريقية وما حولها من قبائل المغرب مع عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، فبعث إليهم الجباة ليحصل منهم الضرائب بغير شفقة أو رحمة فنشب الصراع من جديد بين أهل البلاد وبين السلطات البيزنطية وباتت إفريقية تعانى صراعًا لا زاجر له ، فجعلها معاوية بن أبى سفيان فرصته فصمم على تدمير القواعد الرومانية فى بلاد المغرب فبعث قائدًا كبيرًا من قواده هو معاوية بن خديج إلى إفريقية سنة ٤٥ هـ ، ٦٦٦ م ، وكانت تعليماته إليه أن يدمر القواعد البحرية الرومانية هناك بعدما تبين له أن الإمبراطور قنسطانز وضع اعتماده كله على الأساطيل .

واقتفى معاوية بن خديج نفس الطريق الذى سار فيه عمرو بن العاص، وعبد الله ابن سعد حتى نفس المكان الذى جعله عبد الله بن سعد مركزًا له وهو قمونية

حيث أنزل المسلمون بقوات الروم ـ التى كان قنسطانز قد أرسلها لصد زحف المسلمين ـ هزيمة شديدة ، وعلى إثر الهزيمة التى نزلت بالروم فإنهم انسحبوا إلى سوسة متخذين من حصونها درعًا لهم ، غير أن معاوية بن خديج سار بفرقة من جنده لمطاردة الروم الذين اضطروا إلى مغادرة المدينة والعودة إلى سفنهم التى أقلتهم إلى صقلية ، وكان هذا النصر عونًا للمسلمين على تدمير قاعدة جلولاء الرومية وكانت أهم الحصون بخط الدفاع البيزنطى الثانى لولاية إفريقية ، وأُطلِقت يد معاوية بن خديج فى مهاجمة القواعد البحرية للروم فأرسل بفرقة إلى بنزرت وبفرقة أخرى يقودها الصحابى رويفع بن ثابت الأنصارى ، تمكن بها من فتح جزيرة جربة التى كانت من أكبر القواعد البحرية للروم فى هذه المنطقة . بعدها أعد ابن خديج حملة بحرية أخرى إلى صقلية ومكثت بها ما يقرب من شهر لدراسة قواعدها ثم عادت محملة بالكنوز والغنائم من الجزائر ، وهنا أصبحت القواعد البحرية للروم الموجودة على ساحل سوسة خالية من قوة الجند والسلاح .

وبعد هذه الرحلة الفتحية الكبيرة عاد معاوية بن خديج إلى مصر ، وكان ذلك فى سنة ٤٧ هـ ، ٦٦٧ م ، والفائدة الكبيرة التى جناها المسلمون أنهم استطاعوا كشف طبيعة القواعد البحرية الرومانية مما مكنهم من إخماد قدرتها على القتال ، وهكذا أصبحت ولاية إفريقية والمسلمون على علم جيد بها وعلى علم جيد بالطرق التى تخرج منها إلى سائر بلاد المغرب ، وإذ منى قنسطانز بفشل ذريع فقد أصبح الأهالى حانقين عليه فدبروا مؤامرة لاغتياله بالتعاون مع بعض الساخطين عليه ممن حوله فتم قتله فى عاصمته الجديدة سيراكوز بجزيرة صقلية فى سنة ٦٨٨م .

طبيعة الأرض وتأسيس القيروان

أسفرت سرايا الاستطلاع الإسلامية التى خرجت إلى بلاد المغرب حقيقة عسكرية هامة ، وهى أنه لن يكتب للمسلمين بقاء فى بلاد المغرب ما لم تكن لهم قاعدة رئيسية تمكنهم من التغلب على الطبيعة الجغرافية للمنطقة فيستطيعون من ثم أن يتحركوا فى ثقة بما يمكنهم لا من مواجهة العدو البيزنطى والدفاع عن أهل البلاد فحسب ، بل بما يمكنهم من الاتصال الإنسانى بهم فينتشر الإسلام بينهم وهو الهدف الذى ما خرج المسلمون للفتح إلا من أجله ، ويرجع الفضل فى تجسيد هذه الظاهرة تجسيداً عملياً فعلياً لعقبة بن نافع الفهرى الخبير الواسع المعرفة بالميدان الإفريقى والخبير الواسع المعرفة بأهله وقبائله ، فقد أدرك عقبة أن الجهات الشمالية من أرض إفريقية ذات مظهر جغرافى متميز. إذ تنقسم تلك البلاد من حيث طبيعتها الجغرافية إلى قسمين : الأول : الجهات الساحلية وما بها من فجوت على شكل هلال وتهب عليها الرياح الشمالية صيفاً وبسبب هذه الرياح قلت الموانى الصالحة والآمنة للسفن ولهذا يتعرض من يخرجون من الساحل لهجمات مفاجئة من الخلف يمكنها قطع خطوط التموين بغير رادع تحذره ويلى تلك الجهات الساحلية سلاسل من الجبال حيث توجد الصحراء الكبرى فى جنوبها، وهذا من شأنه أن لا يهيئ مواقع صالحة للاستقرار العمرانى الكبير ، وانتهى عقبة من دراساته بنتائج إستراتيجية هامة عمادها أنه لن يكتب الاستقرار للإسلام فى بلاد المغرب إلا إذا تحقق أمران :

الأول : أن تكون له قاعدة عسكرية دائمة للجيوش الإسلامية وأن تكون هذه القاعدة فى إفريقية على أن يصحب جيوشها أهلهم وأموالهم إذ من تلك القاعدة تخرج القوات المسلمة بفتوحها وضرب قواعد الروم وهى مطمئنة إلى طريق عودتها القصير بدلاً من إضاعة الوقت والجهد بالرجوع إلى الفسطاط فى مصر .

الأمر الثانى : كما أن هذه القاعدة ستكون مقراً لانطلاق جند الفتوح فسوف تكون مركزاً لنشر الإسلام بين أهل البلاد وتحبيبهم فى مبادئه الإنسانية وتعاليمه

الدينية . فكأنما أراد عقبة أن يكون للمسلمين « مصر » فى بلاد المغرب على غرار ما أقامه العرب من أمصار فى الأوطان التى دانت بالإسلام مثل العراق ومصر والشام .

وجاء تطور الأحداث أن يقوم عقبة بتنفيذ رؤيته فتنتهى مرحلة السرايا الاستطلاعية إلى مرحلة الفتوح المنظمة التى تقوم الجيوش الكبيرة ، فالخليفة معاوية ابن أبى سفيان أوكل إلى عقبة بن نافع بأن يكون أميرًا على الجيوش المنطلقة نحو إفريقيا ، فبعد أن عادت حملة معاوية بن خديج ، وبعد أن تمت الدراسات الخاصة عن القواعد الرومية البرية والبحرية ، القائمة فى ولاية إفريقية البيزنطية ، أجل ، بعد تلك الدراسات وإعداد خطة الفتح انطلق عقبة بقواته من برقة سنة ٤٩ هـ ، ٦٧ م ، بعد أن وصلته الإمدادات التى طلبها من مصر والشام . متخذًا من سرت مركزًا مؤقتًا له إذ وجد نفسه مضطرًا إلى أن يأخذ جزءًا من قواته ليفتح المناطق الصحراوية وليؤمِّن ظهره فى نفس الوقت قبل أن يواصل سيره إلى إفريقية ، وتمكن فى هذا الزحف من الاستيلاء على مدن إقليم فزان ، وقد استمرت هذه الحملة خمسة عشر شهرًا رجع بعدها إلى سرت حيث تواجد بها معظم قواته المتأهبة للزحف على إفريقية ، ثم تقدم مفضلاً أن يكون سبيله داخل البلاد متجنبًا الساحل الخاص بالقواعد الرومانية ، وقد عمد عقبة إلى اصطناع تلك الخطة حتى يكفى قواته مشقة السيطرة على الساحل وفى نفس الوقت يكون على اتصال مباشر بأهل البلاد يهديهم إلى الإسلام ، وهذا ما صادفه عقبة وجدهم متلهفين على الدخول فى الإسلام بعد أن ذاقوا الأمرين من ظلم الرومان وبغيهم ، ولهذا لقى عقبة الترحيب من سكان الوحدات الصحراوية ، فكان وصوله إليهم بمثابة مفاجأة لم تكن فى حسبان الحكام الرومان ، ولذلك احتفظت قواته بسلامتها لم يدركها إرهاق ، فكان استيلاؤه على تلك الولاية سهلاً بغير عناء ، ثم أخذ بعدها يتجول متفحصًا نواحيها عله يهتدى إلى الموقع الذى يصلح أن يكون « مصرًا » أو قاعدة رئيسية لجند الإسلام . وقد شرح عقبة خطته لجنده فقال لهم : « إن إفريقية إذا

دخلها إمام تحوموا بالإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أسلم بها وارتد إلى الكفر ، وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة فجعل فيها عسكرًا حتى تكون عز الإسلام إلى أبد الدهر » فكأن عقبة كان مخالفًا لخطة القادة الذين سبقوه فلم يكن لهم « مصر » خاص فى إفريقية ، فكانوا يضطرون إلى الرجوع إلى الفسطاط فى مصر فكانت جهودهم تذهب هباء ، هذا فضلاً عن أهل البلاد لم تكن لديهم الفرصة التى يستطيعون فيها معرفة الإسلام معرفة شافية ، ووقع اختيار عقبة على منطقة قمونية الموجودة وسط ولاية إفريقية لا يخفى أن الحملات الإسلامية تعرفها جيدًا من حيث مميزاتها ، وقد ضمنت تلك المنطقة إقليم قسطيلية حيث يوجد بها أهم الجهات المعروفة بأرض الزاب . وكان هذا الإقليم يضم بين جنباته مدنًا وقرى مزدهرة ، واختار عقبة حصنًا بيزنطيًا قديمًا قرب جنوب سوسة اسمه « كابوت فاد» ليقيم عليه مدينته ، وكان هذا الموقع استراتيجيًا بكل المعانى :

فالمدينة التى ستقام عليه ستكون بعيدة عن أيدى الأعداء تواجههم مشقات جمة إذا أرادوا بلوغها ، ومن ثم فهى لا تتيح للعدو فرصة اقتحامها بغتة كما أن من الصعب على الأساطيل البيزنطية أن تباغت الجيوش الإسلامية ، هذا فضلاً عن أن موقع المدينة يساعدها على أن تصلها الإمدادات لا من مصر وحدها بل من سائر العالم الإسلامى ، وهذا يمكنها من أن تستمر فى نشر الإسلام بين أهالى المغرب وهى مطمئنة لأن الطرق إليها ذلولة عن طريق برقة وطرابلس زيادة على ذلك ، فالمدينة تسيطر على مداخل الهضاب والجبال التى تمتد إلى المغرب الأوسط والتى تقطنها القبائل الوطنية بزعمائها الأمغار وأبنائها الأمازيغ إذ يتمكن المسلمون من الاتصال بهذا العنصر الأبى وضمه الإسلام ، وهناك عنصر له أهميته القصوى فى اختيار هذه المدينة التى عُرفت باسم « القيروان » لتكون مصرًا للمسلمين وهو أنها تبنى فى منطقة غنية بالمياه وفيرة الغذاء ، فهى منطقة زراعية تجود بالغلات المختلفة والفاكهة بأنواعها ، ثم رفع عقبة جدران القيروان فبدأها بدار الإمارة والمسجد . ثم صار الناس بدافع من حبهم للإسلام يقيمون حول المسجد مساكن

لهم لكل جماعة حيًا خاصًا بها يشمل ما تحتاجه من مرافق ومساجد وهكذا بفضل الإسلام تكاملت وامتزجت الأواصر المغربية والعربية .

نحو قيادة جديدة وفتوح جديدة :

لقد تم بناء القيرون فى أربع سنوات بغير أن يواجه عقبة أية مشكلات خارجية أو داخلية ، فالبرغم من وجود البيزنطيين فى قاعدة قرطاجة ، وكانت على بعد ثلاثة أيام من القيروان إلا أنهم لم يجرؤوا على مهاجمة عقبة أو يمنعوه من القيام بعمله الكبير . لأن القوة الحاكمة فى القسطنطينية كانت أثناء بناء القيروان من سنة ٤٩ هـ ، ٦٧٠ م إلى ٥٢ هـ ، ٦٧٣ م ، تعانى أشد ما واجهته فى تاريخها كله إذ ان الأسطول والجيش الأموى فرضا حصاراً شديداً على العاصمة البيزنطية فكان أن عانت الحاميات البيزنطية فى إفريقية من النقص الحاد فى الإمدادات التى تعينها على الصمود ، فكان أن بقيت حبيسة حصونها خوفًا من الهزيمة . وفى هذا الموقف أصبحت القيروان هى المصدر الذى استنار منه سكان المغرب بالإسلام ما جعلهم خير عون للقوة الإسلامية فى أنحاء العالم الإسلامى .

ولقد استبد الخوف بالسلطات البيزنطية من جراء ما حدث بالمغرب من تحولات خطيرة فى غير صالحها ، فقد اكتشفت أن الجماعات العربية الإسلامية أصبحت تشكل الخطر الداهم على وجودها الاستعمارى بالمغرب ، فعملت على عزل القيروان وما حولها من مجتمع إسلامى ناشئ ، فاتبعت خطة يكون من شأنها إيقاف النشاط الإسلامى للقيروان ، وكان صاحب هذه الخطة الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ ـ ٦٨٥ م) فقد وجد هذا الإمبراطور أن سبب ضعف دولته فى المغرب نشوب الخلافات المذهبية المسيحية ، وسياسة البطش والتنكيل التى سار عليها الحكام البيزنطيون فى ولايتها مع الأهالى المخالفين لهم في العقيدة، وقد تجسد هذه الأسباب مجتمعة فى ولاية إفريقية التى نشأت بها مدينة القيروان فمعظم السكان الأصليين من المسيحيين كانوا يكرهون الدولة كرهًا شديدًا ويتمنون زوالها من الدنيا، فما كان من قسطنطين إلا أن تبنى سياسة تعالج ذلك الحال

المتردى ، فتقرب من السكان ليضمن ولاءهم ضد المسلمين ، فكان أن عقد مؤتمر دينيًا سنة ٦٨٠ م ، وفق فيه إلى انتزاع بواعث البغضاء المذهبية التى مزقت الدولة البيزنطية وبين رعاياها بشمال إفريقية وإيطاليا ، وظن الناس أن الإمبراطور مخلص فيما قرر وأذاع ، وكان همه الوحيد فى إفريقية أن يحول بين انتشار الإسلام من القيروان إلى كل أنحاء المغرب العربى ، فاستطاع بدهائه السياسى أن يتصل بقبيلة أوربة المسيحية التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت شخص يسمى « كسيلة » وقد وقع اختيار الإمبراطور على تلك القبيلة بالذات لأنها كانت معروفة بكثرة العدد وشدة البأس ، تنتشر مضاربها فى جبال الأوراس بالقرب من القيروان . وكان لقبيلة أوربة هذه الكلمة العليا على سائر القبائل المجاورة لها مثل : هوارة ، وجراوة ، ونفوسة ، وزناتة . ولذلك اعتقد الإمبراطور أن ضم أوربة إلى جانبه سوف يضمن له ولاء القبائل الخاضعة لها والتى وقفت موقفًا محايدًا من الفتح الإسلامى للمغرب ، ومن هنا نشأت فتنة بين السكان المسيحيين والمسلمين .

فى هذه الآونة وقع تطور له تأثيره الواسع فى الإدارة الإسلامية لإفريقية بعد تأسيس القيروان ، ذلك أن السلطة فى دمشق عزلت عقبة بن نافع الفهرى عن قيادة جيوش المسلمين وعينت مكانه قائدًا جديدًا من مصر وهو دينار أبو المهاجر سنة ٥٥ هـ ، ٦٧٦ م ، ويرجع هذا الفضل فى هذا التحول الجديد إلى والى مصر مسلمة بن مخلد الذى أثبت خبرته الواسعة والعميقة بالشؤون الإفريقية ، فقد تبين لهذا الوالى أبعاد التطورات التى حدثت فى بلاد المغرب بسبب السياسة الجديدة التى انتهجها قسطنطين ، وأن تلك التطورات تقتضى وجود شخصية قيادية جديدة قادرة على إبطال العدو ، لأن عقبة بعد كثيرًا عن الميدان عندما اشتغل بتأسيس القيروان ، ولقد أثبت دينار أبو المهاجر أنه رجل الموقف فعلاً ، كما أنه يعد المؤسس الثانى لصرح الإسلام فى بلاد المغرب ، فكانت خطته على أساس سرعة فض التحالف بين البيزنطيين وأوربة حتى يمنع إمبراطور الروم قسطنطين من إفشاء دسائسه فى تلك البلاد ، وفى نفس الوقت يقوم بشرح الإسلام وغايته

وذلك استمالة لأهل البلاد وحمايتهم من الوقوع فى شباك التضليل البيزنطى ، ومن هنا أصبح الهدف الأول لدينا القضاء على التحالف هذا .

وفور وصول دينار أبى المهاجر إلى القيروان فإنه أعد خطته التى قامت على أساس أن الهجوم خير من الدفاع ، فعليه من ثم أن يفاجئ قبيلة أوربة قبل أن تسرى أكاذيب البيزنطيين إلى القبائل المحيطة بها . وكانت أوربا قد اتخذت من المنطقة المحيطة بتلمسان وجنوبها مقراً للمقاومة بعيداً عن إفريقية ، على حين كانت خطة دينار أبى المهاجر قد اتجهت مباشرة إلى مركز المقاومة لإبطال التحالف البيزنطى وما قُصد منه ، فالقائد المسلم أقام هناك مدة طويلة أثناءها حفر للمسلمين آباراً عرفت فيما بعد باسم « عيون أبى المهاجر » وذلك لتزويد قواته بالمياه اللازمة كما يكون إشارة على إصرار المسلمين على عزل منطقة الخطر البيزنطى وحلفائه ، وبهذه الخطة أحرز المسلمون النصر بغير جهد كبير .

وبعد أن تحقق ذلك النصر وجد دينار أبو المهاجر أن من الكياسة وحسن السياسة استمالة كسيلة زعيم أوربة بشرح صدره لاعتناق الإسلام فتمكن من أن يعقد مع كسيلة صداقة قوية تُوجت باعتناق الزعيم المغربى الإسلام مقدماً غاية ما يمكنه من قوات لخدمة هذا الدين ، فكان دينار بهذه السياسة قد فصم بين السكان الأصليين وبين البيزنطيين وفك التحالف الذى نشأ بينهما ، وكان دينار يظهر دوماً أنه يسعى إلى تحرير أهل البلاد من استبداد الروم ، وبعد ثلاث سنوات أصبح عند دينار خطة جديدة هدفها تدمير القواعد الرومانية القائمة على الساحل. ولهذا توجه من فوره لضرب قرطاجنة لأنه كانت القاعدة التى تمكن منها الروم من أن يحققوا تحالفهم مع قبيلة أوربة ومن ثم يستطيع أن يبدد أسباب التقارب القائم بين الروم وبين أهل المغرب .

وانطلق دينار أبو المهاجر نحو قرطاجنة سنة ٥٩ هـ ، ٦٧٨ م ، بعد أن عاد من تلمسان ، فنشبت بينه وبين البيزنطيين معارك شرسة اضطر فيها الجنود البيزنطيون إلى أن يعتصموا بقاعدتهم قرطاجنة ، فكان أن ضرب دينار أبو المهاجر

على قرطاجنة وغيرها من المدن الساحلية حصاراً شديداً وبعد أن عانى البيزنطيون كثيراً من الحصار اضطروا إلى إجراء مفاوضات مع المسلمين فتعهدوا بالتنازل عن جزيرة شريك شريطة أن يرفع المسلمون الحصار عن قرطاجنة ووافق دينار أبو المهاجر لأنه وجد أن الحصار قد طال أمده هذا فضلاً عن أن المسلمين لم تكن لهم القوة البحرية التى تمكنهم من الصمود فى الحصار وإحكامه تماماً . وهناك سبب آخر فإن جزيرة شريك تعد تعويضاً لا يقل أهمية عن الاستيلاء على قرطاجنة إذ ان هذه الجزيرة بموقعها الحربى تُمكِّن من مراقبة الساحل وكشف ما يدور فى قرطاجنة من تحركات أو تجمعات وإبطال أى محاولة منها للهجوم على القيروان ، ثم عاد دينار أبو المهاجر إلى مقره القريب من القيروان بعد أن حطم التحالف البيزنطى وحقق نشر الإسلام بين القبائل الوطنية وذلك بفضل معاونة كسيلة زعيم قبيلة أوربة .

الفتح الإسلامى فى شرق بلاد المغرب

كانت السياسة العسكرية التى اصطنعها دينار أبو المهاجر من العوامل الحاسمة فى التكوين الإسلامى لبلاد المغرب فضلاً عن أنها أرست المنهاج العسكرى والسياسى لكل من يعمل فى الميدان الإفريقى ، غير أن الوقت لم يكن مهيئًا بعد للاستمرار فى سياسة دينار أبى المهاجر فى فتح المغرب بسبب ما كان يحدث من اختلافات بين ولاة مصر ومدرسة العسكريين من جانب وخلفاء بنى أمية من جانب آخر ، ومن دلائل هذا الاختلاف أن الخليفة يزيد بن عبد الملك قام بعزل دينار أبى المهاجر بعد أن توفى من كان يحميه ويسانده وهو مسلمة بن مخلد والى مصر ، معيداً عقبة بن نافع الفهرى إلى منصب القائد الأعلى فى الميدان الإفريقى وقد أثبت ذلك الإجراء أن الخلافة الأمورية كانت تجهل طبيعة الأحوال فى بلاد المغرب ، وقد انعكس ذلك الجهل على عمليات الفتوح الإسلامية فى تلك البلاد وعلى إعادة تولية عقبة بن نافع قائداً على الجيوش الإسلامية فى بلاد المغرب وكان ذلك فى سنة ٦٢ هـ ، ٦٨٢ م ، وقبل أن يصل إلى مقر قيادته بشمال إفريقية

نصحه الناصحون وأصحاب الخبرة القتالية بذلك الميدان بألا يورط نفسه فى قبول هذا المنصب بل واجهوه صراحة بأن خبرته القتالية أصبحت لا تتفق مع التطور الجديد ، ولكنه لم يعبأ بما قيل فبدافع من شجاعته وإصراره توجه على رأس حملة كبيرة نحو شرق بلاد المغرب وهى التى عرفها العرب باسم « إقليم الزاب » وقد صحب عقبة فى حملته تلك كل من دينار أبي المهاجر وكسيلة زعيم قبيلة أوربة ، وأعد عقبة خططه من غير أن يأخذ برأى الرجلين الكبيرين اللذين صحباه معتمداً على خبرته هو ودراسته هو ، وانطلق عقبة فى طريق السها متجنبًا الهضبة الوعرة منتهيًا إلى مدينة باغاية قرب خنشلة إلى الشرق من حبال الأوراس حيث الأطراف الشمالية لبلاد الجريد ، وفى هذه المدينة كانت توجد فرقة رومانية كثيفة الجند تصدت لعقبة غير أنها باءت بالهزيمة ، وما كان من العدو البيزنطى إلا أن دخل المدينة معتصمًا بأسوارها ، ولم يتلبث عقبة طويلاً فى محاصرته لتلك المدينة فقد قنع بما غنمه منها لا سيما خيول جبال الأوراس التى لم ير المسلمون فى مغازيهم أصلب منها ، ثم سار عقبة فى سهول الزاب متجهًا إلى مدينة لميز «لميس» وهى عبارة عن قلعة بيزنطية حصينة ، واشتد القتال بينه وبين المتحصنين بالمدينة ولم ينل نصره إلا بعد عناء شديد ، ثم والى سيره دخل الإقليم حيث نال بعض الانتصارات وهو فى زحفه من لميز إلى عاصمة الزاب وهى يومئذ على بعد قليل من شرق المنطقة ، دارت فى هذه المنطقة معركة فى غاية العنف تكللت بانتصار عقبة .

هنا لم يجد البيزنطيون مفرًا من الرجوع إلى خطة الأحلاف القديمة مع قبيلة أوربة لا سيما أن زعيمها كسيلة لم يكن على وفاق مع عقبة ، وقد تجمع عند تاهرت وهى حصن رومى قديم جماعات من الروم يؤازرهم بعض القبائل التى كانت تقيم فى المنطقة ، وهنا أصيب عقبة بأول أزمة من جراء عدم الأخذ بالآراء العسكرية التى عرضها عليه كل من أبى المهاجر وكسيلة إذ وجد نفسه مضطرًا إلى الاستماتة فى القتال ، وهنا خطب فى جنده فقال لهم : « إن أشرافكم وخياركم

رضى الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنة بيعة رابحة ، فأنتم اليوم فى دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم فى مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازًا لدينه . فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء تعالى ، وربكم عز وجل ـ يسلمكم . فألقوهم بقلوب صادقة فإن الله ـ عز وجل ـ جعلكم بأسه الذى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

وقد تكلل جهاد المسلمين فى تلك المعركة الشرسة التى قادها عقبة بن نافع بمهارة فائقة بالنصر الكبير ، وإنه للنصر الذى قال عنه المؤرخون : « ذهب عز الروم من الزاب وذلوا إلى آخر الدهر » بعدها قصد عقبة إلى تلمسان ثم صوب إلى المغرب الأقصى حتى بلغ طنجة ، وهناك أدخل فرسه فى مياه المحيط ورفع صوته بنبرة تشع إيمانًا وقال : « يارب لولا هذا النصر لمضيت فى البلاد مجاهدًا فى سبيلك » وبعدها رجع إلى القيروان وفى معيته بعض كبار رجال القبائل المغربية كان منهم بنو عبد الواد الذين حكموا تلمسان بعد ذلك .

يبدو أن عقبة أحس بأنه أخطأ خطأ شديدًا فى حق معاونه السديد الرأى دينار أبى المهاجر عندما وصل إلى مدينة طبنة وهى إحدى مدن الزاب وعلى مسافة ثمانية أيام من القيروان فإنه أذن لجنده بأن يتوجهوا إلى القيروان ليأخذوا قسطًا من الراحة ، وكان ذلك التصريح ظاهريًا فقط . أما الحقيقة فإنه أدركها فى تغير الموقف إذ أحيا الروم وتحالفهم القديم مع كسيلة زعيم أوربة ، وأغروه بأن ينفصل عن صفوف عقبة وينحاز إليهم، وتم ذلك ووجد عقبة نفسه وليس جوله إلا ثلاثمائة من أصحابه كان منهم أبو المهاجر الذى أصر على أن يظل إلى جانب عقبة فى حربه مع البيزنطيين مهما كانت خلافاته مع عقبة ، وفعلاً شن الروم وكسيلة هجومهم على المسلمين سنة ٦٤هـ ، ٦٨٤ م ، ونشبت معركة شديدة عند تهودة

بالقرب من بسكرة فى بلاد الزاب ، وقد استشهد فى هذه المعركة عدد كبير من المسلمين كان من بينهم القائدان الكبيران دينار أبو المهاجر ، وعقبة بن نافع . وبسرعة خف كسيلة إلى القيروان واستولى عليها وظلت تحت حكمه حتى سنة ٥٦٩ م ، أى لمدة خمس سنوات .

غير أن ذلك الانقلاب لم يمح الإسلام من بلاد المغرب فقد ظلت المغرب على دينها الحنيف تجد فى نشره بشتى الطرق غير هيابة ولا متراخية حتى إن بعض القبائل المسلمة تحدت كسيلة ووقفت فى وجهه ، وأكثر من هذا فقد اعتبرت المسيحيين عملاء للبيزنطيين ، على أن كسيلة لم يواجه التحدى بالحرب فقد آثر حسن الجوار مع المسلمين .

ومن المحتمل أن كسيلة لم يرتد عن الإسلام ، ولكنه فعل فعلته من باب العداء الشخصى لعقبة بن نافع .

ومهما يكن فقد ظل الإسلام راسخ الأركان ممتد الجذور فى كيان الشعب المغربى يحدوه الأمل فى أن تعود الجيوش الإسلامية لنصرة الدين الحنيف .

الفتح ينشط بتأمين الثغور البحرية

كان الفرع المروانى من بنى أمية شديد الغيرة شديد الحماسة للفتوح الإسلامية فى بلاد المغرب ، وتمثلت هذه الغيرة حتى تمكن الأمويون من استعادة مصر من عامل عبد الله بن الزبير ، فقد أسرع الخليفة عبد الملك بن مروان قبل أن يقضى على ثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز والعراق بأن أسند إلى أخيه عبد العزيز بن مروان مهمة تعبئة الجيوش فى مصر وكان ذلك سنة ٦٩ هـ ، ٦٨٨ م لاسترجاع الأراضى المغربية من البيزنطيين وحليفهم كسيلة ، انطلقت الجيوش الإسلامية يقودها زهير بن قيس البلوى نحو إفريقية وذلك لخبرته الواسعة بالميدان الإفريقى . وكانت وجهة نظر كل من الروم وكسيلة تختلف بالنسبة للزحف الإسلامى نحوهما. فكان البيزنطيون يفضلون البقاء فى قاعدتهم قرطاجنة بغير أن يمدوا يد المساعدة إلى كسيلة ، لأنهم نالوا منهم ما يريدون ، أما كسيلة فكان يعتبر أن الخلاف بينه وبين المسلمين ليس خلافًا حول الدين بل كان خلافًا شخصيًا منذ سوء التفاهم الذى نشأ بينه وبين عقبة بن نافع الفهرى . فقد ظل كسيلة وهو يعامل جماعات المسلمين معاملة طيبة ، رغم أنه أعد عدته لمواجهة زهير بن قيس البلوى الذى كان نائبًا لعقبة بن نافع على القيروان .

وانطلق زهير وغايته عزل القيروان عن شرق بلاد المغرب حيث توجد أوربة قبيلة كسيلة ، ولما أدرك كسيلة الغاية المقصودة من هذا التحرك فإنه أسرع إلى مكان يعرف باسم « ممس » على بعد نحو يوم من القيروان حتى يكون قريبًا من وطنه إذا اضطرته الأحداث إلى التراجع ، غير أن زهير قد تمكن من تحقيق خطته فعزل ممس عن شرق الجزائر وتحقق له النصر فى هذه المعركة . وبعدها استطاع المسلمون أن يستعيدوا بلاد المغرب الأوسط ، حتى قيل آنئذ : « إن خيل زهير بلغت نهر ملوية وشرب الجند من مياهه » .

وهنا تخوف البيزنطيون من أن يستعيد المسلمون هيمنتهم على بلاد المغرب ، وما كان أمامهم إلا أن يفسدوا فتوح زهير فعمدوا إلى شن الإغارات البحرية من

قواعدهم على شرق المغرب متوسعين فى تلك الإغارات حتى وصلوا برقة ، وأدرك زهير خطورة موقفه وأن الأمر يقتضى أن يطارد تلك الإغارات البحرية حتى يأتيه المدد من دمشق . إلا أن الخلافة الأموية كانت مهمومة بالقضاء على ثورة عبدالله بن الزبير ، وفى هذا الوضع الحرج ظل زهير فى نضاله ضد البيزنطيين حتى لقى ربه شهيداً فى كمين دبره له أعداؤه على ساحل برقة . وكان لهذه الكارثة أثرها الأليم على الخلافة من جهة ، وعلى والى مصر محمد بن عبد العزيز من جهة أخرى .

وفى هذا الوضع المتأزم جاء إلى مصر أحد قادة العرب المرموقين وهو موسى ابن نصير وانضم موسى إلى هيئة المستشارين العاملين مع واليها عبد العزيز بن مروان . وكان أن اتجه هذا القائد إلى الميدان الإفريقى وكأن الأقدار قد ادخرت موسى بن نصير لدوره القيادى الخالد فى الميدان الإفريقى ، ولقد تعاون الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر فى مواجهة الموقف الخطير فى الميدان فقد وقر فى أذهان أصحاب الشأن فى الدولة الإسلامية أن الروم يعملون على تشويه صورة الجيوش العربية فى نظر أهل المغرب بوصمه بأنه عاجز عن أن يتم فتح شمال إفريقية ، هذا فضلاً عن أنه لا ينبغى ألا ينسى أولو الأمر أن قائدين عظيمين راحا ضحية غدر الروم ، وبعد استعراض الحال على هذا النحو وقع اختيار الخليفة على حسان بن النعمان ليكون قائد قوات المسلمين فى الميدان الإفريقى ، وانطلق حسان من مصر سنة ٧٦ هـ ، ٦٩٦ م ، وهدفه المحدد تدمير قواعد الروم فى شمال إفريقيا فتوجه أولاً إلى مدينة قرطاجنة أهم القواعد البيزنطية على الساحل الإفريقى فأرغم قواتها على الفرار غير أن الروم وإن أظهروا الفرار فإنهم أضمروا معاودة الرجوع إليها بعد أن يغادرها حسان بقواته ومما شجع الروم على اتباع هذه الخطة ما كان لهم من حصون كثيرة متناثرة فى المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وهذا ما وقع فعلاً بمجرد أن ترك حسان قرطاجنة قاصداً القيروان ، حتى وصلته الأنباء بأن الروم عادوا إلى قرطاجنة من الجهات التى

حولها فاعتصموا بها مسرعين وأكثر من هذا ، فإنهم أصلحوا حصونها وأسوارها، فكرَّ حسان راجعًا إلى المدينة واقتحمها بعد قتال ضارٍ كانت هزيمة الروم نكراء مما اضطرهم إلى التماس النجاة فى السفن التى أقلتهم إلى الجزر القريبة من الشاطئ ولم يجد حسان بدًا من العودة إلى القيروان ليعطى جنده حقهم من الراحة فى الوقت الذى لم يكن يعلم ، أن للروم مواقع حربية فى بعض المدن الساحلية القريبة من قرطاجنة ، وقبل أن ينال جنده راحتهم وجد نفسه مضطرًا إلى أن يلتحم مع العدو البيزنطى فى معركة كبيرة فى شرق بلاد المغرب ، فقد علم أن هناك امرأة تسمى الكاهنة ، جمعت كثيرين من قبيلتها وهي قبيلة جراوة القاطنة فى جبال أوراس لمواجهة الجيوش الإسلامية .

ولقد جاءت استعدادات الكاهنة كرد فعل للدعاية التى روجها البيزنطيون ضد القوات ، لأن قبيلة جراوة قريبة من الساحل وعلى صلة بالروم هذا فضلاً عن أن الكاهنة كانت قد تزوجت أحد كبار الروم وكان لها منه ولد ، وعلى هذا فما كاد حسان يقصد ملاقاة الكاهنة حتى وجدها مستعدة لملاقاته ، وَنشبت معركة كانت نتيجتها أن هُزِمَ حسان فأرغم عل التراجع بل بالانسحاب لا من القيروان وحدها، بل من معظم بلاد شمال إفريقيا ، وأقام حسان جنده عند أنطابلس القريبة من مصر على أمل أن يأتيه المدد وتعليمات الخلافة . ووصلت أنباء هذه الكارثة العسكرية الفادحة إلى مصر حيث كان موسى بن نصير مقيمًا . وأخذ ذلك القائد يستمع إلى الأسباب التى أدت إلى الكارثة ثم استخلص مما سمع ما يفيد عند ملاقاة العدو ، وبعد خلافات ومداولات أعاد الخليفة عبد الملك بن مروان القائد حسان بن النعمان إلى الميدان مرة ثانية ، وقد استغرق إعداد الحملة الثانية خمس سنوات انطلق المسلمون بعدها إلى شمال إفريقيا سنة ٨١ هـ ، ٧٠٠ م ، وقصد حسان مباشرة إلى الكاهنة ، وكانت قد اصطنعت سياسة حربية جديدة تقوم على تخريب البلاد أمام الزحف الإسلامى وهو التخريب الذى وصفه أحد المؤرخين بقوله : « كانت إفريقية ظلاً واحدًا من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن

منتظمة حتى لم يكن فى أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصونًا من إقليم إفريقية والمغرب مسيرة ألف ميل فخربت الكاهنة ذلك كله» . ورغم اتباع الكاهنة لسياسة حرب الأرض المحروقة فإن حسان انتصر عليها، ويرجع الانتصار فى أسبابه إلى أهل البلاد كرهوا الكاهنة لما جلبته عليهم من خراب ، فابتعدوا عنها مرحبين بالجيوش العربية ، وبعد أن انتصر حسان على الكاهنة فإنه توجه مباشرة إلى مدينة قرطاجنة فطرد من بها من الروم ثم دمرها تمامًا حتى لا يفكر العدو فى العودة ،ولتكون درعًا يحمى القيروان والفتوح الإسلامية .

وبذلك أثبت حسان بن النعمان أن للفتوح الإسلامية غاية واحدة هى نشر الإسلام والتواصل بين الناس على سنة الإخاء والمساواة ، وما كانت الثغور الساحلية إلا لسلامة عمليات الاتصال الاجتماعى وحمايتها من التشويش والتشويه. ثم عاد حسان فى السنة نفسها إلى دمشق ليعرض على الخليفة عبد الملك بن مروان تفاصيل المعارك والوقائع التى دارت فى حملته الثانية .

تحرير إقليم الزاب :

رغم الانتصارات التى حققها حسان بن النعمان فى حملته الثانية إلا أن والى مصر عبد العزيز بن مروان وجد أنها غير كافية فإنه لا تخرج عن أسلوب الكر والفر الذى اتبعه من سبقوه من القادة العرب ، وأن الواجب أن يقتضى أن تتصف الفتوح العربية فى مرحلتها الجديدة بالاستقرار وأن يكون الاستقرار منطلقًا للفتوح الجديدة والمتثبتة ، وهذا الأمر لابد له من قائد صاحب خبرة متميزة بالمجال الإفريقى. ولم يكن صاحب هذه المكانة إلا موسى بن نصير ، وهنا أقال عبد العزيز ابن مروان حسان بن النعمان فى رسالة قال له فيها : « اقعد فى بيتك وسيتولى هذا الأمر من هو خير منك وأولى بك منه فى تجربته معرفته وسياسته ويغنى الله أمير المؤمنين عنك » ولئن الخليفة كان يؤيد أن تكون القيادة فى شمال إفريقيا لحسان إلا أنه استجاب لرأى أخيه عبد العزيز وكتب إليه يقول : « أما بعد،

فقد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك فى عزل حسان وتوليتك موسى مكانه وعلم الأمر الذى له عزلته ، وقد أمضى لك أمير المؤمنين من رأيك ما أمضيت وولايتك من وليت ، فاستوص بحسان خيراً ، فإنه ميمون الطائر والسلام » ثم جاءت إجابة عبد العزيز بن مروان بما يفيد ثقته بموسى بن نصير فكتب إلى الخليفة يقول: « أما بعد، فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى عزل حسان وتوليتى موسى بن نصير وقد كان لمثلها منى منتظراً فى موسى ، ويعلمنى أنه قد أمضى لى من رأيى فيما أمضيت وولايتى من وليت ، وقد علمت أن أمير المؤمنين يتفاءل بحسان الذى فتح الله على يديه ، ولم أعد على نظرى لأمير المؤمنين بأن عزلت حسان ووافيت موسى فى يمن طائره وحسن أثره ، فأما قول أمير المؤمنين قد كنت أنتظرها منك لقد كنت لها فيه مرصداً ، ولأمير المؤمنين أن يسبق بها منتظراً حتى حضر أمر جهدت فيه نفسى لأمير المؤمنين ولنفس الرأى والنصيحة والسلام .

ثم أصبح موسى بن نصير قائداً عاماً للميدان الإفريقى . وقد استهل حياته الجديدة بأن أوضح للجند حين قابلهم للمرة الأولى السبب الذى من أجله حدث ذلك التغيير فوقف بينهم خطيباً وقال لهم : « أيها الناس ، إن أمير المؤمنين أصلحه الله رأى رأياً فى حسان بن النعمان فولاه ثغركم ووجهه أميراً عليكم ، وإنما الرجل فى الناس بما أظهر والرأى فيما أقبل وليس فيما أدبر ، وإنما الأمير «أى عبد العزيز بن مروان والى مصر » صنو أمير المؤمنين وشرائكه ، ولا يتهم فى عزمه ورأيه ، وقد عزل حسان عنكم وولانى مكانه عليكم ، ولم يأل أن أجهد نفسه فى الاختيار لكم ، وإنما أنا رجل كأحدكم فمن رأى منى حسنة فليحمد الله، وليحض على مثلها ، ومن رأى منى سيئة فلينكرها ، فإنى أخطئ كما تخطئون وأصيب كما تصيبون ، وقد أمر المؤمنين ـ أكرمه الله ـ لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً فخذوها هنيئاً مريئاً ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله قضاؤها على ما عز وهان من المؤاساة إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ».

ومن الدراسات الميدانية التى قام بها موسى بن نصير وفي مصر تمكن من أن

يضع خططه بدقة محسوبة موفقة ومما استفاده من دراساته أنه ربط بين طبيعة الأرض وبين الأعمال الحربية . وهذا ما جعل حملاته تختلف عمن سبقوه الذين مردوا على مبدأ الكر والفر . أما هو فإنه اعتمد على أن تكون له قاعدة أصلية ينطلق منها حسب خطط متواترة ومتكاملة . فعمل أولاً على أن يؤمن القيروان فى صلتها بإقليم الزاب بشرق بلاد المغرب ، وذلك على هدى من خطة القائد دينار أبى المهاجر الذى كان يؤمن بأنه ما لم تكسب القيروان عطف أهالى الزاب فلا فائدة ترجى ، وقد تبين رجحان هذه النظرية حين اصطنع الروم من هذه المنطقة مجالهم لإفساد كل تقدم للمسلمين إلى سائر أنحاء شمال إفريقيا ، الأمر الثانى أن موسى ابن نصير أدرك أهمية التقسيمات الإدارية التى وضعها الروم لشمال إفريقية فكانت لها فائدتها الكبرى فى تنظيم خططهم الحربية ، ولقد كانت هذا التقسيم يضم بلاد تونس الحالية مع الأجزاء الغربية من طرابلس ، كما يشمل أيضًا ما امتد إلى التخوم الشرقية لبلاد الجزائر الشرقية الحالية إلى بجاية فى ولاية قسطنطينة ، فكأن إفريقية وأرض الزاب الجزائرية تعد عماد الامتداد الواسع لبلاد شمال إفريقيا كلها من حدود مصر إلى سواحل المحيط الأطلنطى ، وعلى هذا فإن تلك الأرض تعتبر الحلقة بين برقة وطرابلس شرقًا وبين الأقاليم التى أسماها الجغرافيون اليوم والمؤرخون من شمال إفريقيا اسم « المغربين » الأوسط والأقصى ، فإذا رسخت أقدام المسلمين فى إفريقية وإقليم الزاب فإن معنى هذا أن الفتوح الإسلامية كتب لها البقاء فى كل أنحاء شمال ولا سيما فى المغربين الأوسط والأقصى .

ولقد أظهر موسى بن نصير على عزمه على إحداث تغيير جذرى فى تنظيم العمليات الميدانية فى اليوم الأول من دخوله القيروان ، ولقد كشف عن ذلك العزم عندما أعلن أنه سيبذل قصارى جهده فى تطهير إفريقية ، وإقليم الزاب من الروم وعملائهم من أهل البلاد ، وذلك حتى لا نعطى فرصة للعدو على إحداث مفاجآت بين صفوف قادة الفتوح العربية ، ولم يضمر موسى بن نصير هذه الخطة بينه وبين رجاله ، ولكنه أعلنها على الجميع فقال لهم : « أيها الناس ، إنما كان

قبلى على إفريقيا أحد رجلين : مسالم يحب العافية ويرضى بالدون دون العطية ويكره أن يكلم ، ويحب أن يسلم ، أو رجل ضعيف العقيدة قليل المعرفة راض بالهوينى . وليس أخو الحرب إلا من اكتحل بالسهر ، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من النعم لينجو ويسلم دون أن يكلم أو يكلم أو يبلغ النفس عذرها فى غير حزق يريده ولا عنف يقاسيه ، فتوكلا فى حزمه جازمًا فى عزمه ، مستزيدًا فى علمه مستشيرًا لأهل الرأى فى إحكام رأيه متحنكًا بتجاربه ، ليس بالمتجابن إحجامًا ولا بالمتخاذل إجحامًا ، إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذرًا ، وإن نكب أظهر جلادة وصبرًا ، راجيًا من الله حسن العاقبة فذكر بها المؤمنين ورجاهم إياهم لقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩] أى الحذرين . وبعد : فأن كل من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدوًا منه أدنى ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة، ويكون عونًا عليه عند النكبة ، وايم الله لا أريم هذه البقاع ، والجبال الممتعنة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها أو يحكم الله وهو خير الحاكمين .

لقد كان قدوم موسى بن نصير محفوفًا بالخطوب والمهالك بسبب الخراب الذى تسببت فيه الكاهنة وبسبب سياسة عملاء الروم من أهل البلاد . وللتدليل على ذلك أن أحد المؤرخين قال : « إن قدوم موسى إفريقية وما حولها مخوف بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا فى العيدين لقرب العدو منهم ، وكانت جبالها كلها محاربة لا ترام والسهل عامة » .

لهذا الموقف الخطير فإن موسى بن نصير نظم قواته تنظيمًا حربيًا محكمًا ، وكأنه كان ينشد من وراء ذلك أن يوحى إلى أهل : « إفريقية والزاب » أن القيادة العربية مصرة بكل قوة وحزم على إقرار النظام والأمن فى كل أنحاء البلاد ، ولجعل هذا الشعار حقيقة عملية ، فإنه وزع الأعمال الحربية على القادة الذين هم تحت إمرته ويكوِّنون هيئة أركان الحرب . وقد شرط لهم أن تكون ضرباتهم فى

وقت واحد لإشاعة الرعب فى العدو وتمنعه من أن يلتمس طرقًا للهرب أو المرواغة والتحايل . وكانت القيادة العامة التى تعاونت مع موسى بن نصير خير عون على تنظيم خطته وقد تألفت هذه القيادة من أبنائه الأربعة : عبد الله ، ومروان ، وعبد الملك ، وعبد العزيز . وكذلك من مجموعة من كبار المحاربين كان منهم أبناء عقبة ابن نافع الفهرى وهم : عياض وعثمان وأبو عبيدة . هذا فضلاً عن مجموعة من أهل البلاد الذين أسلموا وحسن إسلامهم ولعل أشهرهم جميعًا هو طارق بن زياد. ولم يكتف موسى بن نصير بهذه النخبة الممتازة من القادة بل إنه هو نفسه كان ينزل فى صفوف الجند متنقلاً بينهم ليتعرف على ما قد يكونون بحاجة إليه مشجعًا لهم رافعًا من روحهم المعنوية ، ولا يترك فرصة بغير أن يفيد منها فى هذا المجال ، ومن ذلك أنه تصادف وهو على الجيش الأول أن : « أتى عصفور فوقع على صدره فأخذه موسى فدعى بسكين فذبحه موسى ولطخ بدمه صدره من فوق الثياب ونتف ريشه وطرحه على صدره ونفسه ثم قال : « الفتح ورب الكعبة ، والظفر إن شاء الله » .

ثم تحركت الفرق : تحركت الفرقة الأولى بقيادة عبد الله الخشينى نحو قلعة زغوان وما حولها وهى منطقة جبلية تقع بين القيروان وتونس ، وكان يقيم بها جملة من عملاء الروم كانوا خطراً محدقًا بالقيروان ، كان من دأبهم الإغارة على المسلمين مراقبين لتحركاتهم عساهم يستطيعون إثارة الفوضى بينهم . ولقد تمكنت قوات موسى بن نصير من أن تبيد ذلك الخطر تمامًا . وما هو أكثر من ذلك فإنها بعثت برأس الفتنة إلى القيروان . وفى هذا الوقت أرسل موسى بن نصير أحد أبنائه لقهر بعض الخارجين عن الطاعة فى هذه المنطقة ، أما ابنه الثانى وهو مروان فإنه توجه إلى منطقة أخرى من إفريقيا حيث أنزل بعملاء الروم عقابًا رادعًا مما جعلهم يخضعون للإدارة الجديدة ، وهنا أدركت نواحى إفريقيا والزاب وربما لأول مرة أن قوة الجيوش العربية مما لا يُستهان بها . ولم تغفل عين موسى بن نصير عن القبائل التى سرى بين أفرادها دعايات الروم المغرضة فكان يباغتهم بهجمات تردهم

إلى صوابهم ، وبهذا التأديب المتصل استقر النظام والأمن فى إفريقيا والزاب مما جعل أهلها يدفعون دسائس الروم .

أمام تلك الانتصارات أرسل موسى بن نصير إلى والى مصر عبد العزيز بن مروان يهنئه بالفتوح التى تمت وبما أفاء الله به على المسلمين من مغانم كثيرة ، وكانت سعادة عبد العزيز بن مروان بتلك الأنباء غامرة حتى أنه أرسل رسالة إلى الخليفة قال له فيها : « أما بعد ، فإنى كنت وأنت يا أمير المؤمنين فى موسى وحسان كالمتراهنين أرسلا فرسهما غايتهما فأتيا معًا وقدمت الغاية لأحدهما ولك عنده مزيد إن شاء الله ، وقد جاءنى يا أمير المؤمنين كتاب من موسى وجهته إليك لتقرأه وتحمد الله عليه والسلام وما إن استقرت الأمور تمامًا في القيروان وإقليم الزاب لموسى بن نصير حتى انتقل إلى المرحلة التالية من الفتح فوجه حملاته نحو المغرب الأوسط ولا سيما وقد أصبح ظهره آمنًا تمامًا في إفريقيا والزاب فكلف أحد قادته وهو عياش بن أخيل بالتوجه إلى المغرب الأوسط ، وقد تمكن عياش من أن يدخله في جماعة من المسلمين ، وكانت تعليمات موسى بن نصير إلى هذا القائد وغيره من القواد فى غاية الحكمة والسياسة ، فعليه أن يعامل القبائل التى تطلب الصلح معاملة إنسانية رحيمة ، وأن يسمح لنفر من أهلها بتدبير شؤونها ، ثم استن موسى لقواده أمرًا أن يأخذوا رهائن من تلك القبائل لضمان احترامهم للعهود والمواثيق . وكان من شأن هذه السياسة أن جعلنا نفرًا من تلك القبائل يقيمون وسط الجنود العرب ويختلطون بهم ، ومن ثم تعرفوا على الأهداف الحقيقية للفتح ، وإنها لنشر الإسلام بينهم وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العدل والتعاطف الإنسانى . وكان ذلك سببًا فى أن يدخل أهل المغرب الأوسط فى دين الله أفواجًا . هذا فضلاً عن ، انخراط الكثيرين منهم فى الجيوش الإسلامية .

ولإتمام تطهير المغرب الأوسط من عملاء الروم ، فإن موسى بن نصير توجه إلى منطقة « سجوما » وهى التى استشهد فيها عقبة بن نافع ، وقد أعد موسى

لهذه العملية خطة محكمة التدبير متكاملة الأجنحة ، وذلك بعد أن عين ابنه عبد الله نائبًا عنه فى القيروان ، وتولى هو القيادة العامة ، ثم نظم قيادات الأجنحة على هذا النسق : عياض بن عقبة بن نافع الفهرى فى المقدمة ، وزرعة بن أبى مدرك على الميمنة ، والمغيرة بن أبى بردة القرشى على الميسرة ، ونجدة بن مقسم على ساقة الجيش . وقد حرص موسى بن نصير فى تنظيمه هذا على أمرين :

الأول : أن يجنب جنده أقل خسارة ممكنة .

الثانى : إدراكه أن العملية خطيرة وجسيمة . ثم زحف بجيشه حتى بلغ نهر ملوية حيث تصادم مع فلول العملاء التى عاونت الروم فى التصدى لعقبة بن نافع فأنزل بتلك الفلول هزيمة رادعة كانت نصرًا كبيرًا بغير شك ، ولئن كان موسى بن نصير قد لقى من أبناء عقبة بن نافع معونة صادقة كانت سببًا فى نصره إلا أنه كبح جماح هؤلاء الأبناء حتى لا تكون حربهم عملية انتقامية للأخذ بثأر والدهم . ثم رجع موسى بن نصير إلى القيروان ظافرًا بالنصر بعد أن تحقق إخضاع المغرب الأوسط ، وكانت عودته لإعادة المدارسة من ناحية ، ولدعم فتوحه بالقوات من ناحية أخرى . وذلك للتوجه نحو المغرب الأقصى .

امتداد الفتوح إلى المغرب الأقصى :

وعلى نفس المنهاج سار موسى بن نصير لفتح المغرب الأقصى فقد وزع نشاطه القتالى فى الأنحاء فى وقت واحد ليوقع الرعب فى نفوس أعدائه . وقد اتفقت هذه السياسة مع الطبيعة الجغرافية للبلاد . فمن الحقائق الجغرافية للمغرب الأقصى أن له وجهين ، أحدهما يطل على البحر المتوسط ويعرف باسم بلاد غمارة « أى بلاد الريف حاليًا » والوجه الآخر غربى يطل على البحر المحيط «المحيط الأطلنطى» ويحيط به جبال درن ، وهى جبال أشلس الحديثة . وهذه الواجهة الأخيرة تميز المغرب الأقصى عن بقية البلاد المجاورة له ، وفضلاً عن هذا فإن الجبال تشقها أودية الأنهار التى تتجه نحو المحيط ومن أهم هذه الأنهار وادى سبو الذى يكون منخفضًا فى شمال البلاد عرف باسم السوس الأدنى « خلف طنجة »

تمييزًا له عن المنخفض الآخر الواقع فى الجنوب الغربى للبلاد والذى يشقه وادى السوس « الذى يصب عند أغادير » ويعرف بالنسبة له باسم « السوس الأقصى ».

وإلى تلك الجهات أرسل موسى ابنه مروان يقود فرقة كبيرة قصدت السوس الأقصى ، وفى نفس الوقت أرسل قائده زرعة بن مدرك إلى القبائل التى تقطن جبال أطلس العليا وتمكن القائدان من إحراز نصر عظيم ، فقد كانت الحملتان أشبه بنزهات عسكرية ذلك لأن أهالى البلاد كانوا يفدون أفواجًا للدخول فى الإسلام وهم فرحون ، وكأنهم قد آمنوا بأن انتصارات موسى الباهرة ، وحزمه فى إدارة البلاد وعدله بين الناس جعلهم يؤمنون بأن القيادة العربية جديرة بالطاعة . وهكذا دخلت بلاد المغرب فى طاعة موسى بن نصير وذلك من صحراء درعة إلى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة . ،لم يبق سوى بعض المدن الساحلية بالمغرب الأقصى وكانت تخضع لأحد أمراء الروم اسمه يوليان . وكان المتجه أولاً نحو طنجة وما يحيط بها وتعرف باسم السوس الأدنى وما استيلاء موسى بن نصير على تلك الجهات فى غاية السهولة ، فقد دخلت قبائلها راضية فى دين الله وجاء انتصار موسى فى طنجة محققًا للصورة التى رسمها لنفسه لبلاد المغرب . ولقد أولى موسى تلك البلاد المغربية عناية خاصة فقد وقع اختياره على أحسن رجالها خبرة وكفاية من قبيلة نفزاوة بجنوب شرق بلاد المغرب وإنه لطارق بن زياد فأسند إليه حكم ولاية طنجة . وقد أفصحت تلك الخطوة الكبيرة عن مدى بعد النظر والخبرة السياسية التى كان عليها موسى بن نصير ذلك لأن اختياره لأحد أبناء القبائل سوف يعمل على تأليف أهل البلاد وينقل إلى حياة جديدة فى ظل الإسلام. وقد زود موسى ولاية طنجة بحامية مؤلفة من ١٧٠٠ جندى كما أمدها بمجموعة من فقهاء العرب ليعلموا أهل البلاد أصول الإسلام وشريعته . ولكم نجحت سياسة موسى بن نصير هذه فقد هُرع أهالى طنجة والسوس الأدنى إلى الدخول فى الإسلام ، وأكثر من هذا فإنهم انضموا إلى قوات المسلمين حتى بلغ عددهم اثنى عشر ألف جندى وكانوا على درجة عالية من الطاعة والنظام .

ولم تبق من المدن المغربية بعد ولاية طنجة صامدة عنيدة سوى مدينة سبتة حيث مقر الأمير يوليان ، ويظهر أن موسى بن نصير لم يشأ أن يبدد وقته أمام هذه المدينة التى أصبحت عاجزة تماماً بسبب الحصار المضروب عليها من القوات الإسلامية ، هذا فضلاً عن أن قربها من طنجة جعل من اليسير متابعة ما يجرى بداخلها من تحركات ، هذا فى الوقت الذى وجد فيه موسى إمكانية الإفادة من مدينة سبتة فى مراقبة شبه جزيرة أيبيريا مراقبة أحوال البلاد التى تجاور أرض ولايته. فكأن الإبقاء على سبتة فى حوزة يوليان يتيح للمسلمين دراسة الأحوال السياسية السائدة عن جيرانهم الأوربيين حيث لا يبعدهم عن سبتة سوى مضيق من المياه أسماه العرب بحر الزقاق « مضيق جبل طارق الآن » وقد أثبتت الأحداث صدق فراسة موسى بن نصير لأن إرجاء السيطرة على تلك المدينة جعل منها النافذة التى يطل منها عرب المغرب على غرب أوربا مما مكنه من حمل راية الإسلام إلى ذلك الميدان الجديد .

وبعد أن استقر شأن ولاية طنجة إلى موسى بن نصير فإنه جعل من مدينة تلمسان بغرب المغرب مقراً لطارق بن زياد يحكم منها البلاد ويكون فى نفس الوقت نائبه فى المغرب الأقصى .

ثم رجع موسى إلى القيروان ليعد الخطط التى يأمن بها تأمين النظام فى الولايات التى نشر عليها راية الإسلام . وفى القيروان أيضاً اتخذ اتجاهه الحربى منحنى جديداً فقد عمل على تأصيل البحرية العربية وبعث الحيوية فى الأساطيل الإسلامية ليبعد الروم تماماً من القواعد التى يقيمون بها فى الجزر القريبة من أرض المغرب وأكثر من هذا ليمهد الطريق أمام السيادة العربية الإسلامية على مياه غرب البحر المتوسط .

لقد أبدى موسى بن نصير اهتماماً خاصاً بالبحرية منذ صدر شبابه فقد عمل مع والده فى خدمة معاوية بن أبى سفيان ، إذ إن البيت الأموى قد أبدى اهتماماً خاصاً ببناء الأساطيل ، ومن ثم عمل معاوية على مهاجمة الجزر القريبة من الشام

والتى جعل منها الروم قواعد لتهديد الشواطئ الشامية والمصرية التى أصبحت تحت حكم المسلمين ، ومن هذه البحرية الأولى تعلم موسى أن الامتداد البرى ليس كافيًا لاستتاب الأمن والاستقرار .

فكأن سلامة بلاد المغرب تتطلب الاعتماد على النشاط البحرى فى مياه غرب البحر المتوسط وذلك لوجود قواعد بحرية للروم فى مقدورها أن تقضى على العرب وأهل البلاد من المغاربة ، مما جعل موسى يهتم ببناء بحرية قوية لبلاد المغرب لمواجهة تلك المحاولات الرومية المتكررة فى الإغارة على الشواطئ الشمالية لإفريقيا فكانت تقطع خطوط الإمداد والتموين ولاسيما أيام قادة الفتوح الأولى للمغرب ولم يكن من المستبعد أن يعاود الروم نشاطهم البحرى بعد أن ذهبت دولتهم من شمال إفريقية لأنهم قد نظموا حياتهم على الاعتماد على فتوحات شمال إفريقيا من القمح وغيره .

وكان أمرًا بدهيًّا أن يبدأ موسى بن نصير عمله فى هذا الميدان بتوسيع دار الصناعة التى كان قد شيدها حسان بن النعمان فى مدينة تونس ، وقد خصصت دار الصناعة هذه لبناء السفن الحربية حيث عمل بها عدد كبير من الصناع المصريين المهرة ، وكان عبد العزيز بن مروان قد بعث بهم إلى تلك القاعدة وهى بداية عملها، وفضلاً عن هذا فإن موسى بن نصير نظم حركة الملاحة البحرية فى قاعدة تونس هذه بما يجعل أساطيل العرب فى مأمن من إغارات الروم . إذ إن هذه القاعدة توجد على بحيرة قريبة من شاطئ خليج قرطاجنة وتعبر السفن من تونس فى البحيرة ثم تنطلق منها إلى مياه البحر المتوسط ، وذلك من فتحة البحيرة يقع عليها مرسى يسمى « رادس » ولما كانت البحيرة ضحلة لا تأذن فى بعض الأحيان بمرور السفن فإن موسى بن نصير أمر بشق قناة بين مرسى رادس والقاعدة فى تونس بطول اثنى عشر ميلاً . وقد جعلت هذه القناة من المدينة مشتى للمراكب الحربية إذ تحميها من العواصف والأنواء فى فصل الشتاء يُضاف إلى هذا أنه كان بالإمكان إغلاق هذه القناة عند اتصالها بالبحر عن طريق سلسلة قوية . وهكذا

بفضل تنظيم موسى بن نصير أصبحت تونس مزدهرة العمران فتحقق الغرض من إقامتها وهى : « أن تكون قوة واعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ، وأن يصنع بها المراكب وتجاهد الروم فى البر والبحر وأن يغار منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظرًا التي أصبحت حصنًا للمسلمين ومعسكرًا لهم» وقد نشطت أقوال الحث على المرابطة فى هذه القاعدة فمما يروى أن علماء المشرق كتبوا إلى أهل إفريقية : « من رابط عنا يومًا واحدًا حججنا عنه حجة » ودلالة هذا الكلام أن المشرق العربى كان مهتمًا غاية الاهتمام بشقيقه المغرب العربى بتشجيع النشاط البحرى حماية له .

وبهذا النشاط الحربى البحرى أحرز موسى بن نصير انتصارات متتابعة فى دفع عدوان الروم عن الشاطئ المغربية كما منعت العدو من أن يقوم بقطع مواصلات المسلمين فى تلك النواحى الواسعة ، ولم يكتف موسى بعمليات الدفاع البحرى ولكنه جهز الأساطيل التى قامت بالهجوم على قواعد الروم القريبة من شمال إفريقيا .

وبذلك أثبت للعدو الرومى أن المسلمين قادرون على ملاحقته فى كل مكان من السواحل ، وكانت الغاية الهجومية التى قصد إليها موسى بن نصير الاستيلاء على جزيرة قوصرة لأن تلك الجزيرة موقع ممتاز يساعد على الدفاع عن شمال إفريقيا ويساعد فى نفس الوقت على تهديد الأسطول الرومى فى جزيرة صقلية .

لقد خرج الأسطول المغربى من قاعدته فى جزيرة قوصرة بعد أن استولى عليها فأغار على صقلية فخربها ودمرها ولم يسلم الأسطول الرومى الراقد فى موانيها من التخريب والتدمير ، وكانت من أشهر الحملات البحرية للأسطول تلك التى قام بها عياش بن أخيل ، فقد أغار على مدينة سرقوسة « سيراكوز » وغنم جميع ما بها وقفل سالمًا .

ويتصف النشاط البحرى الذى جهزه موسى بن نصير بوجود تعاون بحرى

صادق ومتكامل بين أساطيل المغرب وأساطيل الأقاليم الإسلامية الأخرى وكان هدفها جميعًا ضرب قواعد الروم فى غرب البحر المتوسط . ولم يكتف موسى بذلك ، بل إنه بعث أساطيله لمطاردة الروم وضرب قواعدهم بجزر ميورقة ومنورقة وهى تقع قريبًا من إسبانيا التى كان يحكمها القوط الغربيون . وتمكنت الأساطيل الإسلامية من السيطرة على تلك الجزر فكان أن أبطلت غارات الروم المتعاقبة على شواطئ شمال إفريقيا .

ثم نقل هذا النصر البحرى الساحق بلاد المغرب من الميدان الإفريقى إلى ميدان غرب أوربا حيث شبه جزيرة إيبريا ،وكان موسى بن نصير يتطلع إلى نشر الإسلام فى أوربا متخذًا من جزر ميورقة ومنورقة القاعدة الجديدة للفتح الإسلامى .

فتح الأندلس

كان موسى بن نصير يشرئب ببصره وبصيرته إلى الاستيلاء على ثغر سبتة ثم يتقدم منه للاستيلاء على شبه جزيرة أيبريا أو إسبانيا وهى البوابة الجنوبية الغربية لأوربا ، ويرجع أهل إسبانيا فى أصولهم القديمة إلى الكلت القدماء Celts ثم استعمرها اليونان زمنًا ، وبعد اليونان استعمرها الفينيقيون ، ثم أصبحت مستعمرة لقرطاجة فى شمال إفريقيا ، ومن إسبانيا خرج القائد العربى الفينيقى هانيبال ليفتح إيطاليا ويسقط الحكم الرومانى غير أن الرومان تمكنوا من إسقاط قرطاجة وأصبحت إيطاليا ولاية رومانية . وكان يسكن إسبانيا فى ذلك الوقت جماعات متفرقة من البرابرة والأجناس المختلفة التى كانت منشرة فى أصقاع الإمبراطورية الرومانية مثل : القوط الشرقيين ، والسويف ، والآلان ، فضلاً عن الوندال «الفاندال » الذين كانوا على شرقى الجزيرة ووسطها ثم تمكن القوط الغربيون الموجودون فى جنوب غالة « فرنسا الآن » من أن يبسطوا نفوذهم على المتبربرين فى إسبانيا ، ولئن أبدى الوندال بعض المقاومة إلا أن القوط الغربيين قهروهم ثم أرغموهم على الرحيل إلى الجنوب ، ولم يجد زعيمهم الوندال آنئذ مناصًا من العبور إلى إفريقيا فى القرن الخامس الميلادى ؛ لأنه لم يستطيع الصمود أمام

ضربات القوط الغربيين .

ولقد عُرِف جنوب إسبانيا فيما بعد باسم فاندالوسيا أو إقليم الفاندال ، ثم أخذ العرب هذا اللفظ وصحفوه إلى « الأندلس » الذى أصبح فيما بعد علمًا على شبه الجزيرة بكاملها . ولقد كان للقوط الغربيين دولة ذات شأن فى إسبانيا ولكنها ما لبثت أن أصابها الانحلال بفعل التطورات الحضارية إلى أن استولى على الحكم الملك غيطشة « تيزا Witiza » وتقول إحدى الروايات التاريخية أن أميرًا من الأمراء واسمه رودريكو Raderic أو لذريق ثار على غيطشة ثم عزله وقتله فكان أن صار هو الملك وكان ذلك فى سنة ٩١ هـ ، ٧١٠ م ، ولم يجد أبناء غيطشة مفرًا من الهرب من إسبانيا إلى إفريقيا ، وفى الحال صادر لذريق أملاكهم متهمًا إياهم بأنهم من المتآمرين الخارجين على العرش . وعندما توجه العرب إلى فتح أسبانيا فإن أبناء غيطشة كانوا خير عون لهم على فتحها .

والأهداف من فتح العرب لإسبانيا كانت متفقة مع الغاية العليا للفتوح الإسلامية ألا وإنها نشر الإسلام في بقاع الأرض على اختلافها ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الغزو الأول للأندلس كان فى خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٧ هـ غير أن جمهور المؤرخين يجمعون على أن فتح إسبانيا وتوطن المسلمين بها كان فى عهد عبد الملك بن مروان ، وذلك كان فى الوقت الذى كان فيه طارق بن زياد ومعه حيشه المؤلف من العرب والبربر على الساحل الغربى عند طنجة وما حولها ينشدون ميدانًا جديدًا فيه يحققون نشر الإسلام ، ومما لا ريب فيه أن حصن سبتة لم يغب عن نظر طارق ، وقد فشل المسلمون مرتين فى الاستيلاء عليه وكانت المرة الأولى بقيادة عقبة بن نافع والمرة الثانية بقيادة موسى بن نصير . وكانت سبتة فى ذلك الوقت تحت سلطان الملك يليان ، ومما نعرفه من أبحاث المستشرق الهولندى دوزى Dozy ، والمستشرق الإسبانى سافدرا Saavedr أن إقليم سبتة كان فى ذلك الوقت فى دائرة أملاك الدولة البيزنطية وليس من أملاك إسبانيا القوطية كما أشيع وأذيع ، ولقد بدأ يليان حكمه وهو فى سن باكرة وهى الفترة التى تمكن

فيها العرب من القضاء على أغلب المستعمرات البيزنطية كما تمكنوا من القضاء على الحكم البيزنطى فى شمال إفريقيا ، واتفق ذلك مع الاضطراب السياسى الذى كان سائدًا فى الدولة البيزنطية مما أقعدها وأعجزها عن تنظيم شؤون ولاياتها القريبة والبعيدة فصارت من ثم نهبًا للمغامرين ، فقد استقل الكونت يوليان بولايته عن الدولة البيزنطية يضاف إلى هذا أنه اتجه نحو قبائل البربر فوثق معها علاقاته الإنسانية والاجتماعية حتى حسبه الناس بربريًا ، بل إن ابن خلدون زعم أنه رومى وآخرين كابن عذارى حسبوه قوطيًا ، ويروى ابن الأثير أن عقبة بن نافع التقى بيليان فى سنة ٦٣ هـ ، ٦٨٣ م ، وعندما غادر موسى طنجة إلى القيروان موليًا طارقًا على طنجة وما حولها ، أدرك يوليان أبعاد خطر المسلمين عليه ، فأخذ فى ممالآتهم ومصانعتهم ، ومما تذكره الروايات أن طارقًا بذل جهدًا للاستيلاء على سبتة غير أنه لم يوفق فاكتفى بأن صادق صاحبها . على أن المصادر العربية تؤكد أن يوليان هو الذى عرض على موسى بن نصير أن يغزو الأندلس كاشفًا له مدى ضعفها وهوان شأنها ، وأيًا كانت الروايات والترجيحات فإن الطموحات الإسلامية فى نشر الإسلام كانت تطمع فى بلاد ما وراء البحر المتوسط .

ومن أجل هذا الهدف فإن موسى بن نصير كتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه فى فتح الأندلس ، فكتب إليه الخليفة أن يقيم المسلمين فى البر ، وإذا كان ، ولابد فإن عليه أن يصطنع الحرص ، فيبعث بسرية تكون لجس نبض لأحوال تلك البلاد ، وفعلاً بعث موسى بسرية يقودها أبو زرعة طريف بن مالك، وهو من البربر ، وكانت مهمته أن يستطلع ويستكشف ، وكانت السرية مؤلفة من أربعمائة جندى ومائة فارس تحملهم أربع سفن قدمها يوليان فعبر عليها المسلمون البحر من سبتة ، ونزلوا بجزيرة سغيرة تسمى بالوماس Palomas وقد عرفت بعد ذلك باسم جزيرة طريف أو رأس طريف أو تريفًا عند الأسبان Tarifa وقد انضمت إلى المسلمين قوة من أتباع يوليان وأبناء غيطشة وكان ذلك فى سنة ٩١ هـ ٧١٠ م ، ومن هذه الجزيرة قام بشن عدة هجمات خاطفة على الساحل غنم من

ورائها المسلمون مغانم كثيرة فضلاً عن كثير من السبى .

ولما وقعت عينا موسى على جملة المغانم وعلم أن الصراع على الحكم فى مملكة إسبانيا محتدم فإنه أخذ يعد حملة كبيرة ليقوم بعملية الفتح الحقيقى . فكان أن وقع اختياره على مولاه طارق بن زياد حاكم طنجة ليكون قائد تلك الحملة ، وقد تألف جيش طارق من اثنى عشر ألف مقاتل معظمهم من البربر كما أضيف إليهم بعض كبار الجند من الأمويين العرب ، ونزلت طارق عند المنطقة التى عرفت باسمه بعد ذلك وهى جبل طارق ، ثم عبر المضيق الذى عرف باسمه ، وعلى إثر العبور قصد طليطلة عاصمة القوط ، وأثناء مسيره إليها هزم جموع القوط الذين تصدوا له ، بعدها مباشرة التقى بجيش لذريق فى سهل شريش Xeres على القرب من قادس شمالى شذونة ، واستمرت المعركة سبعة أيام ، تحقق فى نهايتها النصر لطارق وجنده . وكانت هزيمة القوط فادحة . وكان ذلك فى سنة ٩٢ هـ ، ٧١١ م . وتعرف هذه المعركة باسم معركة شريش أو وادى لكه ، لأنها وقعت بالقرب من نهر وادى بكة أو لكة . ومما يذكر عن عنف المعركة أنه لما كان عدد جيش الأسبان قبل المعركة أضعاف جيش طارق ، فإن طارقًا بعث إلى موسى يطلب منه المدد ، فأرسل موسى إليه خمسة آلاف جندى يقودهم طريف بن مالك إلا أن ذلك لم يرجح كفة المسلمين من حيث العدد ولكن رجحهم العقيدة الإيمانية التى ينافح المسلمون من أجلها ويسعون إلى نشرها ، وأيضًا كان يضم عددًا من أفراد الأسرة المالكة والتابعين لهم الذين يتلهفون على المغانم من أيسر سبيل ، يضاف إلى تلك الأسباب التى على أساسها حقق المسلمون نصرهم الكبير أن طارق بن زياد خطب فى جنده خطبة زادتهم حماسة على حماستهم ، وكان مما جاء فيها : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقوات موفورة ، وأنتم لا وز لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم » .

ولقد ألقت موقعة شريش هذا الرعب فى نفوس القوط ، فاعتصموا بالحصون والجبال وسار طارق فى فتوحه ، وما أن وصل خبر نصره إلى إفريقيا حتى انضمت جموع غفيرة من الرجال إلى جيش طارق حتى أضحى جيشًا كبيرًا جدًا مما حمل طارقًا على أن يوزعهم فى سرايا صغيرة إلى الجهات المختلفة من الأندلس، وكان من آثار النصر أن دخل طارق طليطلة عاصمة القوط ، ثم استمر فى مسيرة الفتح شمالاً حتى عبر جبال أشتوريش « أستورية » ، ثم واصل زحفه حتى اقترب من خليج بسكونية «غسقونية » ثم قفل إلى طليطلة حيث مكث لا يبرح مكانه كما أمره موسى ، ولما أن أتم المسلمون فتح طليلطة عاصمة إسبانيا فإن أبناء غطيشة تقدموا إلى طارق يلتمسون منه أن يحقق لهم ما وعدهم به . ويظهر أنهم كانوا يطمعون فى أن ينسحب طارق وجنوده قانعين بالغنائم التى فازوا بها من حريهم فيعود أبناء غطيشة إلى عرشهم وسلطانهم ، غير أنه خاب رجاؤهم فى طارق فقد أيقنوا أنه ما جاء إلى بلادهم إلا ليقيم بها لينشر الإسلام وأنه يكفى أن تعود إليهم أملاك أبيهم . غير أنهم لم ييأسوا فقد لجأوا إلى موسى بن نصير غير أن موسى أيد طارقًا فى قراره .

ثم أمر موسى طارقًا أن يتوقف قليلاً عن زحفه حتى تتجمع القوات وتتبين المواقع وحتى لا يتعثر المسلمون بين آفاق الديار الإسبانية ، وانتهز الأسبان فرصة تبعثر المسلمين فعادوا إلى التجمع وتوحيد قواتهم لإعادة مهاجمة القوات المسلمة ولما أحس طارق بذلك الخطر فإنه استنجد بموسى بن نصير الذى خف إليه مسرعًا نحو الأندلس على رأس جيش كبير من العرب والبربز ، وكان ذلك فى سنة ٩٣هـ ، ٧١٢ م ، وحدث وهو فى طريقه أن فتح إشبيلية وكانت من كبريات المدن الأسبانية . ثم سار موسى نحو طليطلة حيث اشتركا فى إتمام فتحها من جديد بعد أن كانت قد تمردت على المسلمين ، وبعد إعادة الفتح والتمكن منه فإن موسى بن نصير بعث برسوليه على بن رباح ، ومغيث الرومى ، إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليبشراه بالفتح العظيم .

ومن الجدير هنا أن نذكر خطة موسى بن نصير فى فتح الأندلس : فبعد أن جمع الجيوش فإنه قسمها إلى قسمين : الأول بقيادته ، والثانى بقيادة طارق بن زياد ، وسار طارق بجيشه نحو جبال كنتبريه فاستولى على أمايا ، واشترقة ، وليون . وتوجه موسى نحو إتمام فتوحه فأكملها بفتح إقليم قشتالة مدمرًا المقاومة التى اعترضه فى المقاطعة التى أطلق عليها العرب « بلد الوليد » « فاليدا دوليدا الحالية » ثم واصل سيره شمالاً حتى وصل خيخون Gigon فى أقصى الشمال . بعدها أرسل سرية من فرسانه وصلت حتى البحر عند صخرة بولاى Renade Pe-lay . وعند هذا الخط البحرى كان قد تم فتح أسبانيا عدا الأقاليم الجبلية فى الشمال الغربى فى أقاليم أشتريس وجبليقية التى اعتصم بها نفر من أشراف القوط.

ولقد أطلق العرب اسم الأندلس على الأقاليم التى كانوا يهيمنون عليها كما أطلقوا على الأندلس اسمًا آخر هو الجزيرة .

على أن طموحات موسى بن نصير لم تتوقف عند حد جبال ألبرت «البرانس» فقد اتخذ عدته لفتح بلاد غالة أو فرنسا الحالية معتزمًا الاتجاه شرقًا حتى يبلغ القسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، وهى التى لم يوفق العرب فى فتحها على أن يواصل فتوحه ليصل إلى عاصمة الخلافة ، فيكون بذلك قد جعل من البحر الأبيض بحيرة عربية خالصة . لكن حدث بعد هذا أن استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك كلاً من موسى بن نصير وطارق بن زياد للحضور إلى دمشق وكان ذلك فى سنة ٩٥ هـ ، ٧١٤ م .

وبعدها تولى أمر الفتوح فى إسبانيا كلاً من عبد العزيز بن موسى بن نصير وعبد الرحمن الغافقى ، أما عبد العزيز فإنه استكمل فتح شرق الأندلس وغربه واتخذ من مدينة أشبيلية عاصمة له . أما عبد الرحمن الغافقى فإنه عبر جبال البرانس وحارب حكام فرنسا من الفرنجة فى معركة وقعت بالقرب من مدينة تور ومدينة بواتييه ولم يكن النصر حليف الغافقى . وقد عرفت هذه المعركة فى

المصادر العربية باسم « معركة بلاط الشهداء » وكان ذلك فى سنة ١١٤ هـ ٧٣٢ م ثم رجع الغافقى إلى الأندلس بعد أن أمنَّ أطرافها الشمالية الشمالية وجعل من الأندلس جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الإسلامية وكأنها « الكم من ثوب الإسلام » حسب التعبير الذى جاء فى المصطلح العربى .

وهكذا انتهت الفتوح فى بلاد المشرق والمغرب تعلوها راية الإسلام وتنيرها كلمة: « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

فتوح وسط أوروبا

الأتراك والإسلام :

للأتراك عراقة أصيلة فى الإسلام ، وللأتراك دور محسوب فى الحضارة الإسلامية امتد تأثيرهم إلى وسط أوربا .

فبداية فإن الأتراك يرجع اتصالهم بالدولة الإسلامية إلى الخلافة الأموية حين غزا القائد الأموى قتيبة بن مسلم بلاد ما وراء نهر جيحون سنة ٧٠٥ م ففى تلك البلاد نشأت ومنذ القرن السادس الميلادى عدة دويلات قبلية أنشأها الأتراك الذين هاجروا من بلادهم الأصلية فى وسط آسيا . وصار الإسلام ينتشر رويداً رويداً فى بلاد ما وراء النهر وتختفى الديانة الشامانية الوثنية التى تقوم على عبادة المظاهر الطبيعية الممثلة فى الأصنام .

فلما كان عصر المعتصم العباسى أى سنة ٣١٨ هـ ٨٣٣ م ، أخذ الأتراك يهجرون مواطنهم الأولى إلى العراق ، ولا سيما وأن أم هذا الخليفة كانت تركية ومن هنا صار ميل الخليفة إلى الأتراك شديداً ، حتى إنه اصطنع منهم حرسه الخاص لإعجابه بحسن مظهرهم وجمالهم وشجاعتهم ، وقد أغراه هذا الميل والإعجاب إلى أن يشترى الكثيرين من الأتراك من سمرقند وفرغانة وأتى بهم إلى بغداد ، حتى إذا ما استقروا بالعاصمة فإنهم نالوا عناية خاصة من القائمين بالأمر فتعلموا اللغة العربية وآدابها . فإذا أتم الواحد منهم تعليمه الدينى المقرر أصبح

عضواً فى الحرس الخاص بالخليفة . ثم تطورت أحوال ذلك الحرس بأن زادت نفوذه بأن أصبح مصدراً للكثير من الاضطرابات فى بغداد فلما حدث أن ساءت علاقته بأهل بغداد من العرب والفرس اضطر الانتقال ومعه حرسه وحكومته إلى سامراء .

وقد كانت تلك الأحوال من أسباب انتشار الإسلام بين الأتراك فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى . فقد أقبل شيوخ القبائل التركية على الإسلام بشغف وحمية ، بل إن أفراد قبائلهم اقتدوا بهم . وكذلك عمل خانات القبائل وشيوخها على هداية الأتراك إلى الإسلام ، ففى سنة ٣٤٩ هـ ، ٩٦٠ م ، أسلم الكثيرون من شيوخ القبائل على يد والى قشغر حتى إن عدد الذين أسلموا من الأتراك فى تلك السنة بلغ حوالى مائتى ألف أسرة .

ثم أصبح للأتراك وزن سياسى كبير فى بغداد حتى إن الخلافة العباسية وولايتها انتهت إليهم . ولئن حل البويهيون محلهم فترة من الوقت إلا أنهم سرعان ما عادوا إلى قوتهم ونفوذهم وذلك عندما تمكن الأتراك السلاجقة من الاستيلاء على بغداد سنة ١٠٥٥ م ، حين خضع لهم الخليفة القائم بأمر الله العباسى ولقد استطاع الأتراك السلاجقة أن يُدْخِلوا فى الإسلام الكثير من القبائل التركية من بلاد ما وراء النهر ، وأن يغروهم بالانتقال إلى العراق وغيره من البلاد الإسلامية فى غرب آسيا .

نشأة الإدارة العثمانية :

وعندما نشبت الحروب بين السلاجقة والبيزنطيين فى آسيا الصغرى « بلاد الروم » نهضت مجموعات من القبائل التركية بغزوات مصغرة لنشر الإسلام والاستيطان فى جزء من أجزاء الدولة البيزنطية . وتمكنت الدولة السجلوقية بأرض الروم من الاستقلال عن الدولة السجلوقية الكبرى بعد أن توفى عنها السلطان ملكشاه إذ إن هذه الدولة السجلوقية الكبرى قد تمزقت إلى أجزاء استقر بجزء منها

هو الذى أومأت إليه - أرطغرل وهو أبو عثمان مؤسس الإمارة العثمانية ، وقد خلف أرطغرل ابنه عثمان سنة ١٢٨٨ م ، وكان سنه آنذاك أربعة وعشرين عامًا وهو الذى لقبت به الدولة العثمانية . وقد عمل عثمان على توسيع مساحة إمارته حتى ضمت الإقليم المعروف باسم فريجيا فى التاريخ القديم ، وبدأ عثمان فتوحه التوسعية بالاستيلاء على جزء كبير من مقاطعة بيثنيا البيزنطية المهمة بآسيا الصغرى ثم اشرأبت أطماع عثمان بعد ذلك إلى الاستيلاء على بعض المدن البيزنطية بآسيا الصغرى .

ثم توفى عثمان سنة ١٣٢٦ م ، فى الوقت الذى كانت فيه قوات ابنه أورخان قد استولت على مدينة بروصة حيث دفن بها عثمان وقد اتخذها أورخان عاصمة لمملكته .

الفتوح العثمانية في آسيا الصغرى وأوربا :

بعد أن استولى عثمان على بثينيا وطرد البيزنطيين منها فإنه ابنه أورخان استولى على نيقية « أسنك الحالية » سنة ١٣٣٧ م وبعدها روادت أورخان فكرة الاستيلاء على أراضى الدولة البيزنطية فى أوربا بالتدخل فى شؤونها بشتى الوسائل والذرائع لكنه لم يتعجل هذا الأمر فقد أخذ ينظم دولته الآسيوية تنظيمًا مدنيًا وعسكريًا استغرق معه عشرين سنة ، ومن مظاهر تنظيمه المدنى أنه بنى الكثير من المساجد والمدارس والمستشفيات ، وجعل الزى القومى للرأس طاقية من الجوخ الأبيض ، كما بنى الفنادق للتجار وسك عملة باسمه على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وعلى الوجه الآخر اسم أورخان .

أما الجيش فقد أولاه عنايته الكبرى فأنشأ الفيالق العسكرية التى أثارت بقوة بطشها الخوف فى العالم لمدة طويلة ، وجاء تنظيم الفيالق على هذا النحو : الإيكنجية ، أى الفرق التى تقوم بالمناوشات الخفيفة ، وفيالق الفرسان الإقطاعيين، وفيالق الحرس السلطانى ، وفيالق المشاة التى ذاعت شهرتها وكانت تعرف باسم الينى شريه ، وهى التى أسمتها الكتب باسم الانكشارية .

لكن ما معنى الينى شريه ؟ وما المقصود منها ؟ ومعنى الينى شريه الجنود الجدد ، أما المقصود بها فهم الأطفال المسيحيون الذين أخذهم العثمانيون كنوع من الجزية من مختلف البلاد المسيحية التى دخلت فى دائرة حكمهم . ثم علم العثمانيون هؤلاء الأطفال الإسلام على منهاج ينسيهم كل ما بذهنهم من مسيحية. ثم وظف العثمانيون بعضًا من هؤلاء الينى شريه فى وظائف الصبية بالقصر السلطانى ، كما عينت الدولة جزءًا آخر كموظفين فى الدوائر الحكومية والإدارة المدينة .

أما الغالبية العظمى من الينى شريه فقد تكونت منهم فيالق المشاة التى عرف عنها الاستماتة فى القتال . وترجع تلك الاستماتة القتالية التى أضحت خلقًا عرفوا به إلى أنهم رُبوا نشأتهم الأولى على الصرامة والنظام الذى لا يتغاضى عن هفوة . لقد ربى العثمانيون جنود الينى شريه منذ طفولتهم الأولى على أن ينسى الواحد منهم أباه وأمه وإخوته وكل أقاربه وأن تكون حياته خالية تمامًا من أى أمل من أن يكون له زوجة وبنين وبنات . فدنياه هذه الثكن العسكرية التى تؤويه والعمل الذى يعيش منه وله هو الحرب ، وعقيدته هى الإسلام ممثلاً فى القرآن الكريم . وما عليه إلا أن ينصاع لأوامر قادته فيقاتل أعداء السلطان بروح لا تعرف سوى النصر أو الاستشهاد .

ولقد قلنا إن العثمانيين كانوا يتحينون المناسبات لاختلاق الذرائع للتدخل فى الشؤون البيزنطية والأوربية بصفة عامة ذلك لأن هدفهم كان إقامة إمبراطورية عثمانية أى إمبراطورية تركية ، وقد كان نشوب الخلاف فى القسطنطينية بين المتنازعين على العرش البيزنطى أصلح الذرائع للاستناد إليها . وفعلاً عبرت قوات عثمانية وأخرى غير عثمانية مساندة لها إقليم تراقيا على الشاطئ الأوربى وذلك تلبية لطلب أحد الفريقين المتنازعين على العرش ضد غريمه ، فكان أن بعث أورخان سنة ١٣٥٦ م ابنه الأكبر سليمان بحملة الاستيلاء على تراقيا ، وقام سليمان بعبور مضيق الدردنيل ثم احتل شبه جزيرة جاليبوى وبذلك يكون قد أقام

أول جالية تركية عثمانية قوامها ثلاثون ألفًا من العثمانيين ، ثم تقدم من بعده أخوه مراد فى جيوش عثمانية كثيفة فتحت عدداً من المدن البيزنطية منها أدرنة سنة ١٣٥٧ م ، وبعد بضعة أيام خرج سليمان ليلعب بصقوره فى مرج قريب من بلدة بولير ، لكن لحظه العاثر كبا به فرسه كبوة كانت فيها نهايته ودفن حيث صُرِع ، ويمكن اعتبار سليمان المؤسس الثانى للإمبراطورية العثمانية فهو الذى أرسى الحجر الأول فى بناء الإمبراطورية العثمانية بأوربا ، وأول أمير عثمانى ضمت أرض أوربية رفاته.

بعدها أصبح مراد الأول بوفاة أخيه سليمان هو السلطان وكان ذلك سنة ١٣٥٩ م ، وهنا تنبهت أوربا إلى ضخامة القوة العثمانية التى نشأت فى عهد أورخان فأدركت مدى الخطر المقبل عليها ، وكان هدف مراد الإسراع فى إتمام فتوحه الأوربية مُعْتمداً على النزاع القائم بين أباطرة بيزنطة فوجه جيوشه نحو سالونيكا واستولى عليها وعلى غيرها من المدن . ولما تعددت فتوحه واتسعت اتخذ أدرنة عاصمة إسلامية عثمانية . فكأنه بذلك قد نقل مركز القوة العثمانية إلى أوروبا .

فى هذا الوقت والسلطان مراد دائب فى تنظيم مملكته ودعم أركانها بكل ما استطاع أقام لازراس ملك صربيا فى الشمال الغربى من البلقان حلفًا من الدول المسيحية المحيطة سنة ١٣٨٧ م ، للقضاء على القوة العثمانية ، وقد اكتظت معسكرات هذا الحلف بجنود صربيين وبلغاريين وبولنديين ومجريين ، وفى شهر يوليو سنة ١٣٨٩ م ، تصادم الفريقان فى ميدان قوصورة ، وكان السلطان مراد بنفسه هو الذى يقود جنوده العثمانيين . وكانت المعركة شديدة الاحتدام حيث نزلت بالمتحاربين خسائر كثيرة كما لقى مراد مصرعه على يد جندى صربى . ولكن سرعان ما تمكن العثمانيون من أسر الملك لازارس وقتلوه .

ثم تسلم ولى العهد بايزيد بن مراد القيادة ، وواصل المعركة التى انتهت بهزيمة القوات الصربية .

وتوالت غزوات العثمانيين من نصر إلى نصر فى البلقان . ورغم ذلك الخطر المحدق قام سجسوند ملك المجر بمناشدة ملوك أوربا شرقًا وغربًا بضرورة الإسراع فى وقف الخطر العثمانى الداهم واستجاب لاستغاثة الملك الكثيرون من الملوك وتجمع منهم جيوش كثيرة ، ولكن السلطان بايزيد الأول انتصر عليها عند ليقوبوليس سنة ١٣٤٦ م . وبذلك التقت أطراف الدولة العثمانية بأطراف البلقان شمالاً .

نكبة الدولة العثمانية :

وأثناء ما كان بايزيد يفتخر بانتصاراته من عاصمته أدرنة إذ حلت بدولته كارثة مفجعة أبادت كل الجهود العثمانية وأطاحت بكل ما بنته . وما كانت الكارثة المفجعة سوى الهجوم التترى الذى انطلق به تيمور لنك ، أو الأشيب الأعرج من موطنه فى تركستان متجهًا إلى غرب آسيا وظل فى اندفاعه حتى اقترب من مشارف الدولة العثمانية . وقد لقب هذا الشيطان الرجيم باسم أستاذ التخريب والقدرة على التدمير ، وكانت بدايته الأولى عندما أغار على الدولة الإسلامية مبتدئًا بدولة المغول فى تركستان متخذًا من سمرقند عاصمة له ، ثم انطلق فى إعصاره الدامى حتى أسلمت له العواصم الحضارية برمتها ، أسلمت له دلهى بالهند ، وبغداد بالعراق ودمشق بالشام . ثم عرّج فى إعصاره على آسيا الصغرى. وفى سهل أنقرة حوصر الجيش العثمانى صاحب الانتصارات الكثيرة فى فخ من الفرسان التيمورية كان فيه هلاك معظمه بين قتيل وجريح وقد وقع بايزيد أسيرا فى تيمورلنك . ثم تمكنت فرقة من القوات التيمورية فى آسيا الصغرى من أن تتوغل حتى مدينة بروصة وخربتها وسائر ممتلكات العثمانية حتى شواطئ الدردنيل ورجع تيمور إلى سمرقند ومعه أسيره بايزيد فى قفص من حديد . وانتهى العثمانيون بعد وقعة أنقرة إلى حالة من البؤس الشديد فقد فقدوا أملاكهم فى آسيا وسلطانهم أسير فى قفص من حديد ، والخلافات من أجل السلطنة تمزق أبناء بايزيد ، ولم تبق سوى أدرنة المدينة الإسلامية التى احتفظت منذ أيام مراد

الأول بالمقومات الضرورية على إعادة الحياة للدولة العثمانية .

فقد تمكن السلطان محمد الأول من أن يتغلب على أخوته من أبناء بايزيد ، فيتبوأ هو مقام الحاكم أو السلطان . وأخذ السلطان الجديد فى تنظيم إدارته الحكومية الجديدة فى أدرنة ويؤسسها على قواعد محكمة متكاملة بغير أن يخشى أية أخطار خارجية ولا سيما الأوربية لأنها غفلت عن أن تفيد من الكارثة التى أصابت العثمانيين ، فقد كانت فرصة أوربا كبيرة فى الخروج على العثمانيين ولا سيما حين فقدوا جيشهم وحكومتهم الثابتة .

وبعد وفاة محمد الأول سنة ١٤٢١ م ، تولى السلطة بعده ابنه مراد الثانى الذى عمل على إحياء الإمبراطورية العثمانية فكان أن أعاد تنظيم الينى شريه إلى سابق قوته وسطوته لأنه قد عزّم على القيام بفتوح توسعية فى البلقان .

فتوحات مراد الثانى فى البلقان :

لقد كان أخوف ما يخافه المجريون أن يعود العثمانيون إلى سابق سياستهم من الحصول على جزيتهم من أبناء المسيحيين اللازمين للجيش . وهنا هب المجريون إلى حث البلاد الأوربية على إقامة حلف مسيحى يقوم بصد هجمات العثمانيين ، وقد تألف هذا الحلف فضلاً عن بلاد البلقان من البندقية وجنوة ،والبابوية والإمبراطورية البيزنطية ، ورغم الكثافة الكبيرة لجيوش هذا الحلف إلا أن العثمانيين هزموهم هزيمة نكراء ، وكان النصر الكبير للسلطان مراد الثانى عندما أباد الآلاف من شباب الجيوش المجرية فى موقعة قوصوه سنة ١٤٤٨ م ، بعدها لم تستطع المجر القيام بأية عمليات عسكرية لبعض السنين وكيف تعاود الجيوش المجرية الحرب وقد فقدت إدارتها الحربية .

فتح القسطنطينية :

أصبح محمد الثانى سلطانًا على العثمانيين بعد وفاة أبيه مراد الثانى سنة ١٤٥١ م وذلك قبل أن يتوج قسطنطين الحادى عشر إمبراطوراً على الدولة

البيزنطية بثلاث سنوات ، وكانت الدولة البيزنطية آنئذ قد انكمشت حتى لم تعد تتجاوز أسوار القسطنطينية وإقليمًا صغيراً ، وكان العثمانيون يتطلعون إلى الاستيلاء على هذه العاصمة ليضمنوا سلامة مواصلاتهم بين أملاكهم فى أوربا وآسيا ولتكون العاصمة الجديدة لدولتهم فضلاً عن أنها ستكون خاتمة رحلتهم البحرية التى بدأها عثمان فى داخل آسيا الصغرى .

ورتب محمد الثانى نفسه وجهز قواته العسكرية الكبيرة بغير أن يخفى أمرها أو يموه لها خوفًا من الإمبراطور ، وذلك لأن المجر والبوسنة والبندقية وعدته بأنها سوف تكون على الحياد فى حربه تلك . وفجأة أعلن محمد الثانى الحرب على الإمبراطور فى خريف سنة ١٤٥٢ م ، وكانت خطوته الحربية الأولى محاصرة القسطنطينية ، أما شعب القسطنطينية نفسه فقد بلغ بهم الأمل حدًا أن مدينتهم لن تسقط فى يد أى مهاجم مهما كانت قدرته وقوته وأساليبه القتالية . ولماذا لا يأملون وكم باءت جهود المحاصرين لها والمهاجمين بالخسران المبين ؟

وكان الشغل الشاغل لأهالى القسطنطينية المسائل الدينية المذهبية التى نشبت بين كنيستهم الأرثوذكسية والكنيسة البابوية الكاثوليكية ، ولقد استنجد الإمبراطور بالبابا فى روما عندما بلغته الأنباء عن الاستعدادات العثمانية ووقف اتفاقية الاتحاد بين الكنيستين مقابل إرسال المساعدة ، وبينما كان الأمر يسير على هذا السياق قامت ثورة فى القسطنطينية وذلك عندما أقام الإمبراطور بكنيسة أيا صوفيا صلاة تعبيراً عن الاتحاد المشؤوم بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية .

وخلال هذه المحنة الدينية قال أحد زعماء البيزنطيين : أنه يفضل أن يرى عمائم العثمانيين على أن يرى قلانس رجال الكاثوليك بالقسطنطينية . وامتنعت المدن الإيطالية صاحبة الامتيازات التجارية فى القسطنطينية من أن تمد يد العون للإمبراطور ، وأكثر من هذا فإن راجوزة وجنوة والبندقية رأت أن تقربها من الدولة العثمانية يعينها على اتساع تجارتها ورواجها لذلك لم يخفّ لمساعدة البيزنطيين غير مائتين من جنود البابا ومجموعة من السفن الإيطالية ، أما قوات الإمبراطور فإنها

لم تستطع أن تدافع عن أسوار المدينة ، لأنها لم تكن بالعدد الذى يوهل للتصدى والمدافعة ولذلك فإنها لم تصمد أكثر من شهرين . وفى ٢٩ مايو ١٤٥٣م ، اندفع العثمانيون من الأسوار مخربين ومدمرين ،كما نشب القتال فى شوارع القسطنطينية حتى إن الإمبراطور البيزنطى قتل فى غماره ، وعند منتصف النهار دخل السلطان محمد الثانى العاصمة دخول الفاتحين الظافرين ، ولحظتها أمر الجيش أن يكف عن القتال . وبعد توقف القتال دخل كنيسة أيا صوفيا ثم جعل منها مسجدًا جامعًا ، ثم أمر وقد أصبح يُعرف باسم محمد الفاتح بأن يعاد إصلاح أسوار القسطنطينية مما لحقها من دمار . وبعد الإصلاح والترميم جعل منها عاصمة لملكه . وبهذه الصورة انتهت الإمبراطورية البيزنطية إلى الأبد .

هيبة الإسلام وحماية الدولة

كان أمرًا بدهيًّا وقد امتدت الفتوح الإسلامية شرقًا وغربًا أن تحمى الدولة العباسية حدودها من كل من قد يفكر فى الاعتداء عليها للنهب والإيذاء أو ليقتطع جزءًا منها ويضمها إلى ملكه وكان ذلك أمرًا شائعًا فى تلك العصور . ولذلك عملت الدولة العباسية فى عصرها الأول على أن تكون مرهوبة الجانب ولا سيما عند أقوى جيرانها وأشدهم عداء لشموخها ورغبة فى القضاء عليها ، ألا وأنها الإمبراطورية البيزنطية التى عرفها العرب باسم « إمبراطورية الروم » وكانت هذه الإمبراطورية تنقم على العرب بسبب فتوحاتهم الكثيرة التى ارتفعت عليها راية الإسلام خفاقة وأصبح لأهلها كلمة واحدة وإنها « لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

ولِمَ لا تنقم دولة الروم على دولة الإسلام وقد استولت منها على أقطار متسعة لها شأنها وإنها لأقطار الشام ومصر وشمال إفريقيا . وكان خط الحدود بين الإمبراطورية الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية قد تحدد عندما سقطت الخلافة الأموية عند منطقة الأطراف التى تفصل جنود آسيا الصغرى والتابعة للإمبراطورية البيزنطية عن شمال الشام والعراق التى أصبحت من أملاك الدولة الإسلامية . ومما زاد من قوة خط الحدود بين المسلمين والبيزنطيين أنه كان يتألف من جبال طوروس والجبال التى بعدها ، وكأن الطبيعة هى التى صنعت هذا الحد القوى بين الإمبراطوريتين الإسلامية والبيزنطية . وقد نشبت على هذا الخط من الحدود حوادث اقترفها البيزنطيون لا سيما فى الفترة التى وقعت بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، حتى ما إذا صار الأمر نهائيًّا إلى العباسيين فإنهم أسرعوا إلى تحصين الحدود على مشارف دولتهم . وبذلك كانت الحدود تشكل خطًّا دفاعيًا قويًّا لدولة الإسلام .

وكان من سياسة العباسيين إرسال حملات بين آن وآخر تعبر هذا الخط الدفاعى بما يهدد القسطنطينية عاصمة البيزنطيين فكان أن أصبح البيزنطيون تحت

رحمة الحملات العباسية مما أرغمهم علي دفع جزية سنوية للعباسيين ثمنًا للسلام.

وهذه الخطة الدفاعية ضد البيزنطيين أخذت سياسة منظمة عندما صار هارون الرشيد خليفة للمسلمين فقد حصن المدن الحدودية والمعاقل المواجهة للمنافذ التى يمكن للعدو أن يمر منها من جبال طوروس جاعلاً منها منطقة متميزة أسماها «منطقة الثغور » وقد ضمت تلك المنطقة جانبين ، الأول : سمى باسم « إقليم الثغور الشامية » ومهمته الدفاع عن الشام . والآخر : «إقليم الثغور الجزرية » ومهمته الدفاع عن إقليم الجزيرة بشمال العراق . كما قام الرشيد أيضًا بإعداد سلسلة من الحصون خلف إقليم الثغور جاعلاً منها مجموعة حربية أسماها «العواصم» لأن جنود الإسلام يعتصمون بها إذا اشتدت هجمات البيزنطيين على إقليم الثغور .

ونظمت الدولة العباسية غاراتها على البيزنطيين فى أوقات محددة من السنة صيفًا وشتاء ، وقد عرفت تلك الحملات العباسية على الإمبراطورية البيزنطية باسم « الصوائف والشواتى » وكانت غايتها الدفاع عن الإسلام والإعلاء من هيبة الدولة العباسية وكلمتها وحتى يخشى بأسها المحيطون بها من الجيران . وقد دأب الخليفة هارون الرشيد على أن يقوم هو بنفسه بتلك الحملات ، حتى قيل إنه كان يغزو البيزنطيين عامًا ويحج عامًا آخر وأنه ارتدى غطاء للرأس كتب عليه « غازى حاج» .

وإن أهم الحملات التى شنها هارون الرشيد على الإمبراطورية البيزنطية كانت غايتها تأديب الهيئات الحاكمة البيزنطية لامتناعها عن تقديم الجزية التى كانت تقدمها سنويًا لبغداد ، فقد كتب الإمبراطور البيزنطى نقفور إلى هارون الرشيد يطالبه بإرجاع الأموال التى كانت قد دفعتها له الإمبراطورة إيرينى ، وكانت إيرينى هذه تتولى مقاليد الحكم قبل نقفور ، وكان خطاب الإمبراطور إلى الرشيد خارجًا عن حدود الخلق الفاضل ، فما كان من الرشيد إلا أن أعد جيوشه لتأديب ذلك الإمبراطور وقبل أن يتحرك بقواته بعث إليه بكتابه الشهير : « بسم الله الرحمن

الرحيم من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك . والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام » وانتهت حملة الرشيد على الدولة البيزنطية بأن أرغم الإمبراطور على إعادة دفع الجزية تسليمًا منه وإذعانًا لقوة الخلافة العباسية وأن لها الكلمة العليا فى الخارج .

وعلى نفس المنهاج سار خلفاء العصر العباسى الأول منذ هارون الرشيد كلما شاءت الإمبراطورية البيزنطية أن تخرج على طاعة الخلافة العباسية أو تحاول الاستهانة بها . وقد تمثلت هذه السياسة على أوضح ما يكون زمن الخليفة المعتصم العباسى إذ إن الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل قد تجرأ فأغار على مدينة « زبطرة » الإسلامية بمنطقة الثغور فأشاع فيها السلب والنهب والتخريب ، فأعد له الخليفة المعتصم سنة ٢٢٣ هـ ، ٨٣٨ م ، ثلاثة جيوش زحف بها على آسيا الصغرى ودمر مدينة عمورية مسقط رأس الإمبراطور ثيوفيل ليذله من ناحية وليؤكد له قدرة الخلافة العباسية على أن تبطش به وتهدد بقاءه .

وقد سجل وقائع هذه الحملة العباسية على عمورية الشاعر أبو تمام فى قصيدة تعد من عيون الشعر العربى . قال أبو تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعبِ
بيض الصحائف لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والرِّيَبِ
والعلم فى شهب الأرماح لامعةً ... بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ... ليست بنبع إذا عُدَّت ولا غَرَب
عجائبًا زعموا الأيام مجفلة ... عنهن فى صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دَهْياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبةً ... ما كان منقلبًا أو غير منقلب

يقضون بالأمر عنها وهى غافلة ما دار فى فَلَك منها وفى قُطُبِ
لو بينت قط أمرًا قبل موقعه لم تُخْفِ ما حل بالأوثان والصُّلب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعرا أو نثر من الخطب
فتح تفتحُ أبواب السماء له وتبرز الأرض فى أثوابها القُشُبِ
يا يوم وقعة عَمُّورية انصرفت عنك المنى حُفَّلا معسولة الحَلَب
أبقيت جَد بنى الإسلام فى صُعُدٍ والمشركين ودار الشرك فى صَبَبِ
أم لهم لو رجَوْا أن تفتدى جعلوا فِداءَها كل أمٍ برةٍ وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رضايتها كسرى وصدت صدودًا عن أبى كرب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصى الليالى وهى لم تَشِب
بكر فما افترعتها كف حادثةٍ ولا ترقت إليها همة النوب
حتى إذا مخض الله السنين لها مخض البخيلة كانت زُبْدَةَ الحِقَب
أتتهمُ الكربة السوداء سادرةً منها وكان اسمها فراجة الكُرب
جرى لها الفائل نحسًا يوم أنقرة إذ غُودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجَرَب
كم بين حيطانها من فارس بطل قانى الذوائب من آنى من دم سَرِب
بسنة السيف وللخطى من دمه لا سنة الدين والإسلام مختضب
لقد تركت أمير المؤمنين بها لنار يومًا ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشكُّ وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفةٌ وظلمة من دخان فى ضحىً شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلَتْ … والشمس واجبة من ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصريح الغمام لها … عن يوم هيجاء منها طاهرٍ جُنُب
لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على … بانٍ بأهل ولم تغرب على عَزَب
ما رَبْع مية معموراً يطوف به … غيلان أبهى رُبىً من ربعها الخرب
ولا الخدود وقد أدمين من خجل … أشهى إلى ناظرى من خدها الترب
سماجة غنيت منا العيون بها … عن كل حسن بدا أو منظر عجب
وحسنُ منقلب تبدو عواقبه … جاءت بشاشته عن سوء منقلب
لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت … له المنية بين السُّمر والقضب
تدبير معتصم بالله منتقم … لله مرتغِب فى الله مرتقب
ومُطعم النصر لم تهكم أسنته … يومًا ولا حُجبت عن روح محتجب
لم يغز قومًا ولم ينهد إلى بلد … إلا تقدمه جيش من الرُّعُب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا … من نفسه وحدها فى جحفل لجب
رمى بك الله بُرْجَيها فهدمها … ولو رمى بك غير الله لم تصب
من بعد ما أشبوها واثقين بها … والله مفتاح باب المعقل الأشب
وقال ذو أمرهم لا مرتع صدد … للسارحين وليس الورد من كثب
أمانيا سلبتهم نجح هاجسها … ظبا السيوف وأطراف القنا السُّلُبِ
إن الحمامين من بيض ومن سُمُر … دلو الحياتين من ماء ومن عُشُب
لبيت صوتًا زبطريًا هرقت له … كأس الكرى ورضاب الخُرَّد العُرُب
عداك حر الثغور المستضامة عن … برد الثغور وعن سلسالها الحَصِب
أجبته معلنًا بالسيف منصلتا … ولو أجبت بغير السيف لم تُجب

حتى تركت عمود الشرك منقعرا ولم تُعرِّج على الأوتاد والطُّنب
لما رأى الحرب رأى العين توفَلِسُ والحرب مشتقة المعنى من الحَرَب
غدا يصرف بالأموال جَرْيتها فعزه البحر ذو التيار والحَدَب
هيهات زُعْزِعت الأرض الوقور به عن غزو مُحتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المُرْبى لكثرته على الحصا وبه فقر إلى الذهب
إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السَّلَب
ولىّ وقد ألجم الخَطِىُّ منطقه بسكتة تحتها الأحشاء فى صَخَب
أحذى قرابينه صرف الردى ومضى يحتث أنجى مطاياه من الهرب
موكلاً بيفاع الأرض يُشْرِفُهُ من خفة الخوف لا من خفة الطرب
إن يَعْدُ من حرها عدو الظليم فقد أوسعت جاحمها من كثرة الحطب
تسعون ألفًا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
يا رُبَّ حَوْباء لما اجتث دابرهم طابت ولو ضمخت بالمسك لم تَطب
ومغضب رجعت بيض السيوف به حَىَّ الرِّضا من رداهم ميت الغضب
والحرب قائمة فى مأزقٍ لحجٍ يجثو الكماة به صغرا على الرُّكب
كم نِيل تحت سناها من سنى قمر وتحت عارضها من عارض شَنِبِ
كم كان فى قطع أسباب الرقاب بها إلى المُخَدَّرة العذراء من سبب
كم أحرزت قضب الهندى ومصلتةً تهتز من قُضُبٍ تهتز فى كثب
بيض إذا انتضيت من حُجْبها رجعت أحق بالبيض أبدانا من الحُجب
خليفة الله جازى الله سعيك عن جُرثومة الدين والإسلام والحسب
بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلن ترها تُنال إلا على جسر من التعب

إن كان بين صروف الدهر من رحم موصلة أو ذمام غير مُنْقضِبِ
فبين أيامك اللاتى نُصِرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقيت بنى الأصفر الممراض كاسمهم صُفْرَ الوجوه وجَلَّت أوجه الغَرَبِ

● ● ● ● ●

الفصل السابع

محنة الحضارة الإسلامية بين الصليبية والمغولية

الحروب الصليبية

تمهيد :

ابتليت الحضارة الإسلامية بمحنتين مصيرتين :

الأولى : المحنة الصليبية .

والثانية : المحنة المغولية ، ولكل منهما أسبابها وبواعثها ، ولكل منهما عللها القريبة وعللها البعيدة .

ونبدأ بالأولى التى لازالت موجودة حتى اليوم .. ولئن كانت الثانية قد ذهبت بناسها وزمانها إلا أن علينا أن ندرسها لأنه كان لها تأثير له فاعليته على البناء الفكرى والإنسانى والاجتماعى للكيان الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها. ونبدأ أولا بالمحنة الصليبية فأمر مسلم به لا يمكن تجاهله أو إغفاله أن المسيحيين أو الصليبين فى معظمهم يحقدون على الإسلام والمسلمين ويتمنون زوالهم بكل وسيلة تتاح لهم ومرحبا بالسلاح !!

وبغير وعى أو فهم ، وبحقد شديد الجسارة يرمى الصليبيون أبطال الفتوح الإسلامية بالدموية . والصورة القريبة التى لدينا هى ما افتراه المؤرخ اليهودى : «ول ديورانت» صاحب مجموعة « قصة الحضارة »[١] فهو وإن أفاض فى بعض المواضع فى مدح الحضارة الإسلامية وبعض الشخصيات الإسلامية إلا أنه لم يصبر حتى كشف عن طبيعته النفسية وحقيقة ما يضمره للإسلام والمسلمين أو حقيقة ما يتمناه للإسلام والمسلمين . وكأنه قد فقد موازين التاريخ فى تقدير الحضارات وتقدير رجالها . ونسوق دليلاً واضحًا صارخًا على ما نقول ما وصف به محمود

(١) كتاب « قصة الحضارة .. الهند وجيرانها » تأليف ول ديورانت ، ترجمة : د/ زكى نجيب محمود ص١٢٥ .

الغَزْنَوى الذى أسس إمارة غَزْنَة فى الهند ؛ فهو يقول عنه وعنف الحقد يعتصر قلبه : « لعل الفتح الإسلامى للهند أن يكون أكثر قصص التاريخ تلطخا بالدماء وإن حكاية هذا الفتح لما يبعث اليأس فى النفوس لأن مغزاها الواضح هو أن المدنية مضطربة الخطا ، وأن مركبها الرقيق الذى قوامه النظام والحرية والثقافة والسلام قد يتحطم فى لحظة على أيدى جماعة من الهمجَ تأتى من الخارج غازية أو تتكاثر فى الداخل متوالدة ، فهؤلاء هم الهندوسيون قد تركوا أنفسهم للانقسام والقتال الداخليين يفتان فى عضدهم واتخذوا لأنفسهم البوذية والجانتية دينا . فأخمد هذا الدين جذوة الحياة فى قلوبهم بحيث عجزوا عن الصمود لمشاقها ولم يستطيعوا تنظيم قواهم لحماية حدودهم وعواصمهم وثرواتهم وحريتهم من طوائف السُّكيَّت والهون والأفغان والأتراك الذين ما فتئوا يجوبون حول حدود البلاد يرقبون ضعف أهلها لينفذوا إلى جوفها فكأنما لبثت الهند أربعة قرون (من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ ميلادية) تغرى الفاتحين بفتحها حتى جاءهم هذا الفتح حقيقة واقعة آخر الأمر ، وكانت أول هجمة للمسلمين إغارة عابرة منهم على « ملطان » التى تقع فى الجزء الغربى من البنجاب (سنة ٦٦٤م) ثم وقعت من المسلمين إغارات أخرى شبيهة بهذه ، كان فيها النجاح حليفهم مدى الثلاثة القرون التالية حتى انتهى بهم الأمر إلى توطيد سلطانهم فى وادى نهر السند فى نحو الوقت الذى كان زملاؤهم فى الدين يقاتلون فى الغرب موقعة « تور » (٧٣٢م) ليخلصوا منها إلى فرض سيادتهم على أوربا . على أن الفتح الإسلامى الحقيقى للهند لم يقع إلا بعد نهاية الألف عام الأولى من التاريخ الميلادى » .

فكأن الفتح الإسلامى للهند كان فى زعم ول ديورانت تجارب متصلة للتدمير والنهب وسفك الدماء ، ونترك ما ذكرناه عن الفتح الإسلامى للهند ليرد على مغالطات ول ديورنت ففيه الكفاية وفيه الحجة .

ثم ينتقل بنا ول ديورانت فجأة إلى نهاية الألف عام الأولى من التاريخ الميلادى وتحديدا فىَ سنة ٩٩٧م ، فيقول : « ففى سنة ٩٩٧ تولى شيخ من شيوخ

الأتراك يُسمى محمودًا سلطنة دولة صغيرة تقع فى الجزء الشرقى من أفغانستان وهى دولة غَزْنَة وأدرك محمود أن ملكه ناشئ وفقير ، ورأى الهند عبر الحدود بلدا قديما غنيا . ونتيجة هاتين المقدمتين واضحة فزعم لنفسه حماسة دينية تدفعه إلى تحطيم الوثنية الهندوسية ، واجتاح الحدود بقوة من رجاله تشتعل حماسة بالتقوى التى تطمع فى الغنيمة ، والتقى بالهندوسيين آخذًا إياهم على غرة في منطقة بِهمنًا جار فقتلهم ونهب مدائنهم وحطم معابدهم وحمل معه كنوزًا تراكمت هناك على مر القرون حتى إذا ما عاد إلى غَزْنَة أدهش سفراء الدول الأجنبية مما أطلعهم عليه من « الجواهر واللآلئ غير المثقوبة والياقوت الذى يتلألأ كأنه الشرر أو كأنه النبيذ جمده الثلج والزمرد الذى أشبه غصون الريحان اليانعة والماس الذى حب الرمان حجمًا ولونًا . وكان محمود كلما أقبل شتاء هبط على الهند وملأ خزائنه بالغنائم، وأمتع رجاله بما أطلق لهم من حرية النهب والقتل . حتى إذا ما جاء الربيع عاد إلى عاصمة بلاده أغنى مما كان وفى « ماثورة » (على جُمنه) أزال من المعابد الهندوسية تماثيلها الذهبية التى كانت تزدان بالأحجار الكريمة وأفرغ خزائنها من كنوزها التى كانت تتألف من مقادير كبيرة من الذهب والفضة والجواهر، وأعجبه فن العمارة فى ذلك ضريح عظيم لهم ، ثم قدر أن بناء مثله يكلفه مائة مليون دينار واستمر عملا متصلا مدى قرنين ، ثم أمر به أن يغمس فى النفط، وأن يترك طعاما للنار حتى أتت عليه . وبعد ذلك بستة أعوام أغار على مدينة غنية أخرى تقع فى شمال الهند وهى مدينة « سمنه » فقتل سكانها جميعا وعددهم خمسون ألف نسمة وحمل كنوزها إلى غَزْنَة ولعله فى نهاية أمره قد أصبح أغنى ملك عرفه التاريخ « وكان محمود كلما هم بعمل حربى هام جثا على ركبتيه مصليا يدعو الله أن يبارك له فى جيشه » ثم قال عن سلطان آخر من سلاطين الغوريين غزا الهند : « وجاء السلطان محمود بن طغلق فقتل أباه وتولى العرش من بعده ، وقد أصبح فى عداد العلماء الأعلام والأدباء أصحاب الأسلوب الرشيق فدرس الرياضة والطبيعة والفلسفة اليونانية . ولكنه مع ذلك بز أسلافه فى

سفك الدماء وارتكاب الفظائع ، من ذلك أنه جعل من أسير له ثار عليه طعامًا أرغم زوجة القتيل وأبناءه على أكله » وقال أيضًا : « وكان لبعض هؤلاء الحكام المستبدين العطشى للطغيان ثقافة إلى جانب ما كان لهم من قدرة فرعوا الفنون وهيئوا سبل العيش لرجال الفن والصناعة . وكان للمسلمين مؤرخون يكادون يبلغون عدد ما كان لهم من قادة الجيش ولم يقلوا عنهم فى حبهم لسفك الدماء والحرب » .

يؤخذ مما أوردناه من أقوال « ول ديورانت » أنها افتراءات يهودى مصاب بحمى السباب فى حق الإسلام . وهو فى افترائه يؤكد على ما يلى :

أولاً : أن الحملات الأولى للفتوح الإسلامية كانت تحارب للنهب وسفك الدماء .

ثانيًا : أن الإسلام فى ذاته عبارة عن تقوى دموية يزيدها سفك الدماء شراسة وإجراما وكيف يستقيم هذا مع الارتقاء الفكرى والعلمى والإحساس بالتعاطف الإنسانى الذى كان من صفات القادة الفاتحين ؟

ثالثًا : أن ول ديورانت فى تضليله يغفل أسماء المؤرخين الذين استند إليهم وذلك بقصد التعمية والتمويه ، وما تضليله إلا اختلاق .

أما جريمة سفك الدماء التى لصقها ول ديورانت وغيره من الأوربيين بكل الفتوح الإسلامية على اختلاف مواطنها وعصورها ونتائجها الحضارية فإنا نسوق هذه الوقائع التاريخية من تاريخ الأوربيين :

أولاً : لقد أباد الأوربيون الذين زحفوا إلى الأراضى التى عُرِفت بعد ذلك باسم أمريكا الشمالية ٩٩,٩٩٪ من الشعب الأصلى لتلك الأرض وهو الذى عرف باسم الهنود الحمر ، ثم أقام أولئك الأوربيون دولة كبرى وسط الأشلاء والدماء وإنها للولايات المتحدة الأمريكية .

ثانيًا : عندما كانت الجزائر مستعمرة فرنسية فإن الفرنسيين ارتكبوا أبشع

صنوف الإجرام وسفك الدماء ، من ذلك مثلا أنهم كانوا يعجنون جثث القتلى الجزائريين بالأسمنت ويجعلونها فى صورة قوالب ويتركونها حتى تجف ثم يأخذونها فى طائرات لتلقى بهم فى البحر المتوسط .

ثالثًا : فى هزيمة ١٩٦٧ التى لحقت بمصر نكل الإسرائيليون بأسراهم من المصريين فقتلوا منهم الآلاف . ودفنوا الآلاف وهم أحياء فى حفر أعدوها لهم .

رابعًا : عندما سئل الطيار الأمريكى (فى سنة ٢٠٠٦) الذى ألقى القنبلتين النوويتين على مدينتى هيروشيما ونجازاكى فى الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) عندما سئل : أنادم أنت على عملك ؟ قال : ولماذا أندم . وقد جنبتنا القنبلتان خسائر بشرية أكثر ؟

خامسا : اليهود هم أعرق خلق الله سفكا للدماء ، يقول الكلونيل يئير ما يئر عن مذبحة دير ياسين فى فلسطين : « إن الأوامر قد صدرت إلى القوات المشتركة من الهاجناه والأرجون ولحى لاحتلال قرية دير ياسين واقتحمتها القوات عام ١٩٤٨م إن احتلال القرية وقتل العزل قد تم بسهولة ، وانتهت المعركة بعد مناوشات خفيفة حيث لم يكن بالقرية رجال مقاتلون وهو ما أدى بأهل القرية إلى الاستسلام بسرعة ، بعد الظهر خرجت قوات الأرجون ولحى لتفتيش البيوت وراحت تطلق رصاصها وتستخدم سكاكينها فى أى شىء حى يتحرك بمن فى ذلك المسنون والنساء والحوامل والأطفال كما تم نقل ٢٥ رجلاً عربيًا على لورى إلى منطقة فيها أحد المحاجر ، وأوقفوا وراح الجنود يتسلون بالتنشين على أجسادهم وبإطلاق النار حتى تم قتلهم جميعًا » .

ويقول الجندى الإسرائيلىساميخ يزهار الذى اشترك فى حرب ١٩٤٨ فى روايته : « خربة خزاعة » مشجعا للجنود الإسرائيليين على الفتك بالفلسطينيين : «اقتل جيدا يا ابننا العزيز . اقتل بملء ذراعيك . اقتل من أجلنا بقدر الخير الذى أعطيناه لك عندما ربيناك صغيراً وعلمناه لك . اقتل بوفرة . اقتل كثيرا حتى

نحصل فى النهاية على غالم جميل هادئ ملك لنا . لا تتردد واقتل .. اقتل .. اقتل .. اقتل » .

مراحل الحروب الصليبية

النداء الصليبى للحرب الصليبية :

قبل أن نتناول مراحل الحروب الصليبية بالدراسة فإننا نستهل عملنا هذا بإيراد صوت النعيب اللدود الحقود الذى يجسد الطبيعة النفسية والأخلاقية التى شنت بها أوربا حملاتها الصليبية على المسلمين . . لقد وقف البابا « أوربان » الفرنسى (١) وألقى فى الجموع الفرنسية خطابا يحثهم على النهوض للقتال من أجل الصليب والمسيح وبيت المقدس . فقد قال : « يا شعب الفرنجة . . شعب الله المحبوب(٢) المختار . . لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسًا لعينًا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق ، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أبشع التعذيب ، وهم يقيمون المذابح فى الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم . ولقد قطعوا أوصال مملكة وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم يا من حباكم الله أكثر من أى قوم آخرين بالمجد فى القتال وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم ؟ ألا فليكن لكم من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم ـ أمجاد شارلمان وعظمة وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم . فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا . الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست . لا تدعوا شيئًا يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسراكم . ذلك بأن هذه الأرض

---

(١) كتاب « قصة الحضارة . . عصر الإيمان » ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران .

(٢) كان ذلك فى سنة ١٠٩٥م .

التى تسكنونها الآن والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين تكاد تعجز بما يكفيهم من الطعام ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضًا ،ويلتهم بعضكم بعضًا ، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون في الحروب الداخلية ،طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد واقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم .

إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها . هى فردوس المباهج . إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث أن هبوا لإنقاذها . فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم ، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى فى ملكوت السموات » .

• • •

الإعداد الصليبى للحرب الصليبية :

يمكن القول تاريخيا أن قد كانت هناك ثلاثة عناصر أوربية لها فاعليتها فى إشعال الحروب الصليبية هى : الكنيسة ، والإقطاع ، وتكوين الإمارات البحرية الإيطالية . أما عن الكنيسة فمنذ أن آل بيت المقدس إلى السلاجقة أدركت أوربا وقتها أن الأماكن المقدسة قد وقعت فى يد دولة إسلامية قوية لها طموحاتها . وبينما كانت الدولة السلجوقية قد أصابها التمزق بسبب ما انخرطت فيه من حروب فضلا عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين ، هنا عمدت بعض السلطات الأوربية وكان من بينها الباب جريجورى السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٦م) إلى أن تنشر على الناس أكاذيب عن تلك المعاملة التى وصفوها بأنها إجرامية حتى إن تلك الأخبار بلغت أسماع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع سنة ١٠٧٣م فلم يجد أمامه سوى أن يستغيث بالباب ليحول بين السلاجقة وبين زحفهم على آسيا الصغرى بعد أن حققوا نصرهم فى موقعة منزكرت . ووجد البابا فى تلك الأخبار

فرصته ليرفع من مكانة الكنيسة ويعيد إلها سابق تماسكها الذى كان يؤلف بين الشرق والغرب . ذلك لأن الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية انفصلت عن كنيسة روما قبل أن تقع معركة منزكرت بثمانية عشر عامًا . ومما حفزه على تحقيق هذه الوحدة بين الكنائس المسيحية أن نفرا من البطارقة البيزنطيين صرح بأن من حق الكرسى البابوى أن تكون له القيادة العليا على الكنائس ومن ثم يكون البابا هو الحكم فيما قد يحدث من خلاف بين الكنائس هذا فى الوقت الذى لا يوافقون فيه على ما تزعمه روما بأن لها السلطان المطلق على الجميع .

فكأن الطريق قد أصبح مهيئًا لتحقيق الزعامة التى فقدتها البابوية بسبب الانفصال السابق ، وذلك عندما استنجد الإمبراطور البيزنطى بالبابا جريجورى السابع. فقد أعلن ذلك البابا نظرية السمو البابوى . فعنده أن للكنيسة الكلمة العليا التى تهب الأباطرة والملوك وغيرهم من الحاكمين سلطانهم ونفوذهم . وهنا خطرت فى ذهنه فكرة الدعوة إلى تشكيل حملة صليبية من دول غرب أوربا تنهض بالقيام بمهام متعددة من بينها طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وإرجاع البيزنطيين إلى ممتلكاتهم التى كانت لهم شريطة أن يعود الاتحاد بين الكنيسة الشرقية والغربية . غير أن ذلك المشروع كان سببًا فى نشوب خلاف بين البابا جريجورى السابع وامبراطور ألمانيا هنرى السابع ، فكان أن برز خلاف حول الحق فى تعيين الأساقفة لوظائف الأسقفية مما تسبب فى نشوب حروب بين الجبهتين أدت إلى ضياع استغاثة الدولة البيزنطية . ومع هذا فإن استغاثة الحجاج المسيحيين عادت فأثارت الشعور فى غرب أوربا بضرورة محاربة المسلمين ، من أجل هذا جدد الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين سنة ١٠٩٥م ، دعوة البابا إربان الثانى بعد أن تأكد له أن إمبراطوريته لا يمكن أن تستمر فى حياتها إذا فقدت آسيا الصغرى التى وقعت فى أيدى السلاجقة لأن خيرة جنودها من آسيا الصغرى كما أن سواحلها تمد الأسطول البيزنطى بما يحتاجه من السفن والبحارة ، وهنا آمن أوربان الثانى بما يطلبه امبرطور بيزنطة . . ولذلك فبينما كان فى مدينة كلير مونت

بفرنسا سنة ١٠٩٥م ، لحل بعض المشكلات الخاصة بالملكية الفرنسية فإنه صار يدعو إلى تشكيل حملة تكون وظيفتها طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وإنقاذ الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين .

وبهذه الدعوة تمكنت البابوية من أن تصبح القوة العليا والعامل الحاسم فى أن تصبح الاستجابة لاستغاثة الإمبراطور البيزنطى لا مجرد دعوة فحسب بل حرب حقيقية مقدسة .

وكان أمرا بدهيًّا أن يستجيب الأمراء الأوروبيون لنداء البابوية وهم الذين يمثلون الطبقة الحرة العسكرية علاوة على أنهم أصحاب الإقطاعات الكثيرة من الأرض ، كما أن لهم ثقلهم السياسى الكبير ، والعلة التى يرجع إليها نفوذ هؤلاء الأمراء إلى ما كان يعرف فى غرب أوربا بالنظام الإقطاعى الذى جعل المجتمع الأوربى ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة المحاربين ، وطبقة الفلاحين . فوظيفة رجال الدين تصريف شؤون الكنيسة والعبادة وصيانة الدين . وعمل المحاربين هو الحرب وما تتطلبه من حيازة الجيوش وتدريبها على القتال والإنفاق عليها ، أما الفلاحون فهم الذين يكدحون فى أرض الإقطاع من الأمراء ومن يعاونونهم من الفرسان .

ولقد كان اسم : « الفرسان » يطلق على المحاربين بصفة عامة لأن الخيل كانت عدتهم فى القتال فى ذلك العصر ، وقد كان الفارس يلبس الزرد الثقيلة والخوذات وكذلك الملابس المصنوعة من الحديد ، ومن شروط الاندماج فى طبقة الفرسان أن ينجح الفارس فى شعائر خاصة تقوم عليها الكنيسة والسيد الإقطاعى الذى سوف ينضم الفارس إلى أتباعه ، وعندما يتم التدريب الحربى لشخص ما ويصبح مؤهلا للفروسية ، فإنه يحضر الحفل الذى تنظمه الكنيسة حيث يعلن فيه أنه قد أصبح مؤهلاً للانضمام إلى طبقة الفرسان ، ومن الطقوس التى تجرى قبل الحفل أن المرشح يغتسل بماء تباركه الكنيسة ثم يقضى ليلة فى الصلاة وعندما يسفر الصبح يذهب إلى الكنيسة ليعترف بما اقترفه من ذنوب وآثام ، وبعدها يسمعه

القس ما عليه من واجبات طبقته وفى مقدمتها الدفاع عن الدين وإيواء الأرامل واليتيم ثم القيام بالخدمة العسكرية فى حروب السيد الإقطاعى مهما كانت هذه الحروب حتى ولو كانت ضد الملك . وهكذا يصبح الفارس جنديًا من جنود الله . ومن هنا كان الفرسان الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية ضد المسلمين من هذه الطبقة الإقطاعية المحاربة .

ولما كانت الحروب الإقليمية سائدة بين سادة الإقطاع وملوكهم فى غرب أوربا فقد وجدت الكنيسة أن الحروب الصليبية سانحة لا تعوض لصرف الإقطاعيين ورجالهم من الفرسان عن التناحر والصراع إلى مناصرة الدين وفى نفس الوقت وجدها الإقطاعيون وفرسانهم فرصة ليس لها نظير للتوجه إلى الشرق لممارسة هواياتهم المفضلة فى تأسيس إمارات أو إقطاعات شرقية وبهذه الوسيلة يستطيعون أن يرفعوا عن كواهلهم المشقات الاقتصادية التى عانوها بسبب الصراعات الإقطاعية التى لم تهدأ بين الممالك الأوربية . وفضلا عن سادة الإقطاع وفرسانها فقد وجد عامة الناس فى الحروب الصليبية فرصتهم للفرار من الفقر وضيق الحال أو فرصتهم للتعبير عن خالص حبهم للسيد المسيح والمسيحية .

أما عن دور الإمارات البحرية الإيطالية فى الحروب الصليبية فمن الوقائع التاريخية أن الصليبيين وجدوا من المدن البحرية الإيطالية العون الكبير من حيث تموينهم وحملهم فى السفن إلى الشام ، ولم تكن غاية المدن البحرية الإيطالية لا مجرد مناصرة الدين فحسب ، ولكن جاء تعاونها فى تجهيز الحملات الصليبية للحصول على مغانم تجارية فى نفس الوقت . وهذا ما ظهر جليا فى الطموحات التى أظهرنها كل من البندقية وجنوة وبيزا وأمالغى. ولقد اشتدت حدة الصراعات التجارية بين المدن الإيطالية أثناء اندلاع الحروب الصليبية فقد بذلت كل منها غاية وسعها فى بسط سيطرتها وتأكيد وجودها التجارى فى بلاد المشرق الإسلامى والمسيحى . فالبندقية مثلا أتاح لها موقعها الجغرافى على رأس البحر الأدرياتكى أن تبسط تجارتها فى أنحاء القارة الأوروبية وبهذه الوسيلة أغرت متاجر البلاد

المحيطة بها من التعامل معها ، فكان أن توجهت أساطيل البندقية إلى مصر والشام بذلك استعاضت عن منتوجات أوربا بما ينتجه الشرق من توابل وعطور وغيرها من الحاصلات الشرقية ، على أن هذا النشاط التجارى للبندقية مع الشرق لم يحدث إبان الحروب الصليبية فقط بل كان قبلها بزمن بعيد ، ومن شواهد ذلك تلك المعاهدة التى عقدها الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس الأول مع البندقية سنة ١٠٨٢م، وقد نصت تلك المعاهدة على منح التجار البنادقة حرية التنقل بين أرجاء إمبراطوريته مع الإعفاء من الجمارك والمكوس وذلك شريطة أن تساعد البندقية الإمبراطورية فى حربها ضد النور مانديين وهم الذين كانوا حكام جنوب إيطاليا آنئذ ، لكن أثناء الحروب الصليبية أنهكت كل من البندقية وجنوة وبيزا ، والحل هو سياسة الاتصال التجارى المباشر بالشرق الإسلامى . من أجل هذا فإنها لم تتوان عن تقديم أساطيلها لمعاونة الجيوش الصليبية على احتلال مدن الشام . ولهذا كان بكل من هذه المدن الشامية ومنها الموانى مواقع خاصة للتجارة الإيطالية .

ومن هنا يمكن القول أن الحافز التجارى كان من الأسباب الرئيسية فى إطالة أمد الحروب الصليبية .

• • •

وقامت إمارات لاتينية فى أرض الإسلام :

واتخذ الصليبيون الذين انحدروا من البلاد الأوربية بقصد احتلال الأراضى المقدسة بالشام من مدينة القسطنطينية مركزاً تتجمع فيه جيوشهم قبل أن ينتقلوا إلى آسيا الصغرى ثم إلى الشام . وقبل أن تبلغ الجيوش الصليبية مكان تجمعها حدث أن تجمعت جماهير شتى من الرجال والنساء لا يحكمها نظام وليس لديها خبرة قتالية واجتازت الشاطئ الآسيوى يقودها رجل اسمه بطرس الناسك فأباد السلاجقة معظم الجيوش الصليبية . وأخيرا وصلت الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧م تحت قيادة : جودفرى دى بويون دوق لورين ، وأخيه بلدوين ، وروبرت

كونت فلاندرز ، وريموند التولوزى ، وبوهيموند النورمانى . وما أن تجمع هؤلاء الأمراء حتى أخذ الإمبراطور ألكسيوس كومنين عليهم موثقا أن يسلموا إليه البلاد البيزنطية التى يأخذونها من السلاجقة فى آسيا الصغرى . وبناء على هذا الموثق تمكنوا من أن يعبروا البسفور فى مايو سنة ١٠٩٧م بعد أن زودهم الإمبراطور بما هم بحاجة إليه من المؤن والعتاد وما يلزمهم من بيانات جغرافية ، ولما كان الإمبراطور يخشى فى نفسه من تلك الجيوش فإنه أسرع فأجلاهم عن القسطنطينية لأنهم لم يلتزموا بآداب النظام العسكرى فعاثوا فى المدينة فسادا هذا فضلا عن عبثهم بالبلاد البيزنطية فى البلقان قبل أن يتجمعوا فى القسطنطينية .

ثم اتخذ الزحف الصليبى سبيله نحو آسيا الصغرى والشام ولم تكن هناك أية قوة دفاعية إسلامية فى مقدورها أن تتصدى للجيوش الصليبية فقد أصبحت الدولة السلجوقية الكبرى بعد أن ذهب عنها سلطانها ملكشاه سنة ١٠٩٢م ممزقة إلى عدة دويلات متناحرة لا تتوقف الحروب بينها . فقد كانت دولة السلاجقة الروم ـ أى آسيا الصغرى ـ تحت حكم السلطان قلج أرسلان وكان صغير السن وكان أول من أصابته الضربات الصليبية سنة ١٠٩٧ ، أما الشام والعراق فلم يوجد فى أى منهما حاكم يمكن أن يقال إنه على شىء من قوة النفوذ ، على النقيض ، فإن الخلاف الشديد قد ساد المدن الشامية والعراقية بفضل الأتابكة المتصارعين ، وما كان الأتابكة إلا الموظفين الذين قد عهد إليهم تربية أبناء السلاجقة وعينوا إلى جانبهم فى ولاياتهم حتى إذا ما تمزقت الدولة السلجوقية الكبرى ، قفز أولئك الأتابكة إلى مناصب الرئاسة فى مدن الشام والعراق .

فإذا نظرنا إلى الخلافة العباسية فى بغداد فإننا نجدها وقد خارت تماما ولم تعد تجدى استغاثات المسلمين من كل مكان فى حث الخليفة العباسى المستظهر بالله (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) على أن يتصدى لاعتداءات الصليبيين على ديار الإسلام . كما عجزت الخلافة الفاطمية وقد كانت هى صاحبة بيت المقدس وغيرها من المدن بجنوب الشام ـ عن أن تقوم بأى عمل قتالى يخفف من وطأة الصليبيين ؛ لأن

الخليفة الفاطمى بالقاهرة كان مجرد صورة فلا حول له ولا قوة إذ أن صراع الأطماع قد استحر بين الوزراء الفاطميين ، هذا الحال المتدهور على شاكلة لم يسبق لها مثيل مكنت الصليبيين من أن ينزلوا الهزيمة بالمسلمين ، وما هو أشد نُكرا أن يقيموا إمارات صليبية فى الأراضى الإسلامية .

نذكر من هذه الإمارات إمارة الرها . وذلك أنه عندما انطلقت الجيوش من آسيا الصغرى إلى الشام فقد انفصلت عنها فرقة يقودها بلدوين ، وشنت غارة على مدينة الرها . وفى مستهل عام ١٠٩٨م ، تمكن بلدوين من أن يسقط مدينة الرها فى يده . فكانت من ثم أول إمارة لاتينية أى صليبية فى الشرق ، وقام بلدوين يصرف شؤون هذه الإمارة فترة من الوقت بينما كانت الجيوش الصليبية فى طريقها إلى الشام . وما أن وصل الصليبيون إلى مدينة أنطاكية شمال الشام حتى ضربوا عليها الحصار ، وفى يونيو سنة ١٠٩٨م تمكن بوهيموند النورمانى من اقتحامها بفضل خيانة أحد حراس أبراجها من الجند الأرمن إذ أنه أنزل الحبال ليلا من أعلى الأسوار وبذلك يسر للصليبيين دخولها ، عندئذ أنشأ بوهيموند النورمانى الإمارة اللاتينية الصليبية الثانية من هذه المدينة .

• • •

الاستيلاء على بيت المقدس :

أجل ، انطلق جود فرى نحو تحقيق الهدف الأول للصليبيين ألا وهو احتلال بيت المقدس ، فصادف فى طريقه مدينة الرملة فلم يجد فيها أحدا من الجنود الفاطميين فواصل زحفه حتى انتهى إلى أبواب القدس فى يونيو سنة ١٠٩٩م ، وهنا سارت جموع الصليبيين وهم حفاة يطوفون بأسوار المدينة تعبيرا عن التقوى والخشوع ، وفى نفس الوقت انطلقوا ينفخون فى الأبواق لإنزال الهلع فى نفوس جنود الحامية الفاطمية المصرية التى كانت ترابط بها . وفى اليوم الخامس عشر من يوليو دخل الصليبيون مدينة بيت المقدس بعد أن أعطوا أهلها موثقا بالأمان وحفظ أرواحهم ، ولكنهم سرعان ما رجعوا عن موثقهم فأنزلوا بسكان المدينة مذبحة

كبرى وذلك هو شأن الصليبيين دائمًا .

وقد كان رجال الدين من الصليبيين لا يميلون إلى أن يكون بيت المقدس مملكة ، وكيف وهى البلد الذى قام فيه المسيح مناديًا بأن يترفع الناس عن متع الحياة ومباهجها . وأخيرا انتهى الرأى إلى أن يكون جود فرى رئيسًا وحاميا لبيت المقدس سنة ١٠٩٩م ، لا ملكا فى الدولة الصليبية ، أى بيت المقدس . وبعد وفاة جود فرى حل أخوه بلدوين أمير الرها محله ملكا على بيت المقدس يوم عيد الميلاد فى سنة ١١٠٠م ، وذلك بعد أن حدث تحول فى موقف رجال الدين من نظام الحكم فى المملكة الصليبية . وعلى هذا يمكن اعتبار الملك بلدوين الأول المؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس .

وقد استهل بلدوين عمله بأن زحف إلى المدن الساحلية فأخضعها وذلك لتأمين مواصلاته مع أوربا . وفى نفس الوقت يحول بين الأسطول الفاطمى وبين استخدام تلك الموانى .

ولقد انهالت المساعدات على بلدوين من المدن الإيطالية البحرية مثل البندقية، وجنوة ، وبيزا ، ولذلك فإنه تمكن بفضل أسطول جنوة من الاستيلاء على أرسوف وقيصرية الشام سنة ١١٠١ م ، وبعد ثلاثة أعوام سقطت عكا الحصينة فى يده بفضل المساعدة الكبيرة التى قدمتها أساطيل البندقية وجنوة ، ثم تمكن بلدوين من أن يفرض الحصار على بيروت برًا وبحرًا سنة ١١١٠ م ، وبعد أن دام الحصار أحد عشر أسبوعًا تمكن بلدوين من اقتحام المدينة بعد أن ذبح الكثيرين من أهلها . ثم اتجه إلى ناحية الجنوب توسيعًا لمملكته بقصد الحصول على ميناء على البحر الأحمر ليتسنى له الاشتراك فى التجارة مع الهند ، وتحقيقًا لهذا الهدف فإنه بنى إلى الجنوب من البحر الميت سنة ١١١٥ م ، حصن الشوبك ليتمكن من التحكم فى طريق القوافل من دمشق إلى مصر والحجاز ، وراودت بلدوين فكرة غزو مصر فحاول أولاً عن طريق الطور وثانيًا عن طريق العريش ومات سنة ١١٠٨ م ، داخل الأراضى المصرية فى محاولته الثانية وذلك فى مكان لا زال إلى اليوم وهو

يحمل اسمه ممزقًا وهو « سبخة البردويل على البحر المتوسط شرقي بور سعيد في موقعها الحالى . وبلغت مملكة بيت المقدس غاية امتدادها الجغرافى أيام بلدوين إذا كانت تمتد من العقبة على البحر الأحمر إلى بيروت على البحر المتوسط .

إمارة طرابلس :

وبينما كانت إمارة بيت المقدس تتحول إلى مملكة عندما أصبح بلدوين حاكمها قامت إمارة لاتينية رابعة في طرابلس بالشام فضلاً عن الرها وأنطاكية ، وقد طمع فى تأسيس هذه الإمارة الكونت ريموند التولوزى ، ومن ثم فقد فرض هذا القائد حصاره على طرابلس سنة ١١٠١ م ، وجعلها منقطعة عما حولها من المحيط الإسلامى ، وذلك بأن أقام حصنًا على تل قريب منها . وظل يحاصر المدينة مدة طويلة ، وقد استعان فى حصاره بأسطول من جنوة مكون من أربعين سفينة تمكن من الاستيلاء على ثغر جبيل سنة ١١٠٤ م ، وجنوب طرابلس . ولما كان ريموند قد مات سنة ١١٠٥ م ، فإن ابنه هو الذى استولى على طرابلس سنة ١١٠٩ م .

وهكذا قامت على أرض الشام إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس وكانت تابعة اسميًا لمملكة بيت المقدس .

العلاقة بين بيت المقدس والإمارات الصليبية :

نأتى بعد هذا إلى السياسة التى سارت عليها إدارة بيت المقدس والإمارات الصليبية : لقد وفد الصليبيون إلى الشام من غرب أوربا وهم لا يعرفون سوى النظم الأوربية الإقطاعية وما كان لهم أن يتبعوا سواها عندما استقروا فى إماراتهم بديار المسلمين ،ويمكن القول أن هذه الإمارات لم تتجاوز فى مساحتها الجزء الشمالى من الشام والسهل الساحلى الضيق ويوجد وراءها المحيط الشاسع للأراضى الإسلامية . هذا فضلاً عن أن هذه الإمارات اللاتينية ما كانت تبعد عن أى بلد إسلامى سوى مسيرة يوم واحد على ظهور الخيل ، ومن هذا السلوك الاجتماعى طبق الصليبيون النظام الإقطاعى الأوربى فى ممتلكاتهم فوهبوا أنصارهم

أراضى وإقطاعات صارت فيما بعد ملكًا دائمًا لهم . وكان ذلك مثيرًا لكثير من المشاحنات النحلية والمشاكل الداخلية بين الصليبين أنفسهم بالشام . وقد انحرفت تلك الصراعات إلى أن كان بعضهم يعقد تحالفًا مع المسلمين من جيرانه ضد المتنازعين معه من الصليبيين ، ومما جعل هذه الصراعات تتفاقم حتى أصبحت خطرًا يهدد الوجود الصليبى نفسه أنها أصبحت صراعًا بين الزعماء الصليبيين أنفسهم حول من هو أحق بأن يكون الحاكم ، وهنا انقلبت الإمارات الصليبية إلى أحزاب متناحرة كل حزب يبغى القضاء على الآخر لينفرد هو بحكم الإمارة .

جهاد المسلمين ضد الصليبيين

اليقظة الإسلامية :

كان أمرًا بدهيًّا ألا يركن المسلمون إلى الخنوع أو يرضوا بالهوان فلم لا يدفعون عدوهم عن ديارهم دفاعًا عن عقيدتهم وإسلامهم ونبيهم وكعبتهم ومدينتهم وقدسهم ووجودهم . وكيف وقد أمرهم الله بالجهاد فى سبيله ؟

ومن هنا أخذت اليقظة الإسلامية فى سبيل طرد الصليبيين تتطور رويدًا رويدًا وتأخذ شكل الجهاد في سبيل الله وذلك فى دول الأتابك فى شمال العراق والشام. وقد ظهر من بين أمراء هذه الدول أتابك تميز بالحمية والقوة والغيرة وكذلك القدرة على تأليف الجنود وجمعهم . وبهذه الخصال القيادية استطاع عماد الدين زنكى أمير الموصل سنة ١١٤٦ م أن يقوم على إدارة مدينة واسط ومدينة البصرة ثم استولى على إدارة الموصل وبذلك ارتفع إلى درجة الأتابكية ، بعدها مد نفوذه إلى مدينة حلب فضمها إليه . وبهذا صار صاحب دولة كبيرة لها خطرها على الوجود الصليبى فى شمال العراق والشام .

وكانت بدايته الأولى فى جهاده ضد الصليبيين أن حاصر مدينة الرها وهى الإمارة اللاتينية الأولى للصليبيين فى شمال العراق كما كانت الخطر الأول المحدق ببغداد ، وظل زنكى ضاربًا الحصار على الرها أربعة أسابيع حتى استولى عليها

سنة ١١٤٤ م ، وقد أطلق على هذا التوفيق اسم « نصر الأنصار » إذ نتج عن سقوط إمارة الرها أن زال الحاجز الصليبى الذى كان يشق البلاد الإسلامية نصفين. ثم عمل زنكى على تأمين فتوحاته فى هذه المنطقة المهمة ، فكان أن ترك بها حامية قوية ، بعدها اتخذ سبيله إلى المواقع الصليبية الأخرى القريبة .

وقد ساعد زنكى فى معظم حروبه التى خاضها ضد الصليبيين أخوان من أصل كردى أخلصا فى خدمته بل خدمة الإسلام هما : نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه . ولما مات زنكى قتيلاً سنة ١١٤٦ م ، قام ابنه نور الدين محمود ليتم المرحلة الأولى من الجهاد ضد الصليبيين فسار على الخطة المرسومة التى كان والده قد أعدها له . فعلى هدى من سياسة والده جعل نور الدين محمود بن زنكى من مدينة حلب عاصمة له ، وكانت دولته قد وصلت فى أيامه إلى أكبر اتساع لها وأكبر قوة ومجد ، وما أتاح له هذه المكانة إلا لأنه قد تمكن بعد أن تولى الحكم من أن يقضى فى سرعة خاطفة على مثيرى الفتن الداخلية التي نشبت على إثر مقتل والده ، وما كادت الأمور تستتب حتى نال نور الدين مطامع الصليبيين فى أن يستعيدوا الرها من أيدى المسلمين ، وذلك لأن استيلاء المسلمين على ذلك المعقل المهم قد أدى إلى أن يقوم الأوربيون بحملتهم الصليبية الثانية (١١٤٧ ـ ١١٤٩) من أوروبا يتزعمها كنراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا . ولكن النزاع سرعان ما تفجر بينهم لأنه كان لكل منهم مأرب خاص يريد تحقيقه . فكان أن انقلبت الحرب من استعادة الرها إلى حصار دمشق ، فما كان من الأتابك طغتكين أمير دمشق إلا أن قاوم الحصار المباغت سنة ١١٤٨ م ، وبقى الصليبيون أمام دمشق لا يقدرون على اقتحامها رغم أن فرسان الهيئتين المسيحيتين: الداوية والإسبتارية ساعدوا الصليبيين فى قتالهم ، وبسرعة أرسل نور الدين زنكى جنوده لمساعدة طغتكين ، وكان ذلك سببًا فى إرغام الصليبيين على التراجع عن الحصار مما اضطر لويس وكنراد أن يرجعا إلى أوربا خائبين دون أن يحققا أى شىء من أغراض حملتهم . .

أمام هذه الحملة الصليبية الفاشلة أدرك نور الدين بثاقب نظره أنه من الضرورى أن تنضم دمشق إليه حتى تتحقق الوحدة بين الجبهات الإسلامية ، وهو العمل الذى استهله أبوه خاصة وقد زحفت جيوش الصليبيين نحو مدينة عسقلان. وفى سنة ١١٥٤ م ، أسرعت مدينة دمشق بالدخول فى طاعة نور الدين فقد كان القائد العام لجيوشها وهو نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين من رجال الأتابك زنكى ، ولأن قائد جيش نور الدين هو شيركوه أخو نجم الدين أيوب ، وبسبب هذا التحول العسكرى الكبير راودت كل من نور الدين فى حلب والصليبيين فى بيت المقدس فكرة الاستيلاء على مصر . فقد رأى نور الدين أن معنى استيلاء الصليبيين على عسقلان هو أن يكون الطريق أمامهم لدخول مصر ، بينما تبين للصليبيين أن باستيلاء نور الدين على دمشق فإنه يكون قد طوق مملكة بيت المقدس من الشمال ، وبذلك يتجه إلى مصر ويضمها إلى الجبهة الإسلامية آنئذ يكون قد ضرب الحصار على المملكة الصليبية من الجهة الجنوبية مما ساعد نور الدين على تحقيق أمله فى مصر بالاستيلاء عليها أن الشقاق قد دب فى الخلافة الفاطمية بها فقد طالب الوزير الفاطمى شاور من نور الدين أن يعينه على خصمه ضرغام الذى طلب المعونة من الصليبيين .

وكانت خاتمة ذلك الصراع الذى نشب بين جيوش نور الدين ومملكة بيت المقدس أن تمكن نور الدين من الاستيلاء على مصر ، ومن هنا صارت مصر هى القطب الذى دارت حوله المراحل المستقبلية من جهاد المسلمين ضد الصليبيين إذ إن الخلافة الفاطمية أصبحت فى ذمة التاريخ .

المسلمون جبهة واحدة أمام الصليبيين

١ ـ صلاح الدين الأيوبى :

بدأت الوحدة التى تمكن صلاح الدين من إقامتها بين الأمراء المسلمين من أن تشن حروبها المنظمة والمتوالية على الجيوش الصليبية بقصد اقتلاعها من أرض

الإسلام ، فلما مات نور الدين واستطاع صلاح الدين أن يضم لسلطانه مصر وسوريا سنة ١١٧٥ م ، وتمكن تجار جنوا والبندقية وبيزا من أن يثيروا الاضطراب فى الموانئ الشرقية بمنافساتهم الشديدة وأيضًا فى ذلك الوقت ثار النزاع فى أورشليم بين الفرسان من أجل الاستيلاء على العرش ، آنئذ تمكن جاى دى لوزينان من أن يحقق استيلاءه على العرش بالمكر والخديعة سنة ١١٨٦ م ، فغضب لهذا المسلك طبقة الأشراف حتى أن أخاه جودفرى قال : « إن يكن جاى هذا ملكًا فأنا خليق بأن أكون إلهًا » وفى نفس الوقت أقام ريجنلد أمير شانتيون نفسه أمير مستقلاً فى قلعة الكرك خلف نهر الأردن على حدود بلاد العرب ، وطالما نقض هذا الأمير اتفاقات الهدنة التى كان يعقدها مع صلاح الدين . وفى تهور أحمق أعلن نيته على أنه سيغزو بلاد العرب وأنه سيقوم بهدم قبر النبى ﷺ فى المدينة كما سيقوم بهدم الكعبة المشرفة فلا يبقى حجرًا منها قائمًا . وتنفيذًا لهذه النية السوداء والحمقاء أبحرت مجموعة صغيرة من الفرسان فى البحر الأحمر قاصدة المدينة غير أن سرية مصرية فاجأتها وقتل معظمها وفر الباقون مع ريجلند . ثم أخذ الأسرى إلى مكة حيث قتلوا . فى هذه الأثناء كان صلاح الدين قد اكتفى بشن غارات صغيرة على فلسطين . فلما علم بالفعلة الشنعاء فإنه شرع ينظم قواته التى فتح بها دمشق وواجه بها قوات المملكة اللاتينية فى معركة عند مرج ابن عامر ذى الشهرة التاريخية سنة ١١٨٣ م ، ثم هاجم ريجلند عند الكرك بعد عدة شهور غير أنه لم يفلح فى دخول تلك القلعة الحصينة . وفى عام ١١٨٥ م ، عقد مع هذه المملكة الصليبية هدنة مؤقتة مدتها أربع سنوات . غير أن ريجلند لم يصبر على هذه المدة الطويلة فخرق الهدنة بأن وقف فى طريق قافلة للمسلمين وكانفى سنة ١١٥٦ م ، واستولى على الكثير مما تحمله ، كما أنه أسر عددًا كبيرًا من أفرادها كان من بينهم أخت صلاح الدين ، وفى هذا الموقف قال ريجلند فى وقاحة : « إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم » وهنا ثارت ثائرة صلاح الدين ونادى بأن ينفر الجميع للجهاد ضد المسيحيين وأقسم أن ليقتلن ريجلند بيده.

ولقد كانت المعركة الفاصلة فى الحروب الصليبية كلها عند حطين وكانت قريبة من طبرية وذلك فى اليوم الرابع من شهر يوليو سنة ١١٨٧ م ، وكان صلاح الدين على معرفة تامة بطبيعة أرض المعركة . ولذلك فإنه أقام جيوشه على المواقع القريبة من آبار الماء . أما الصليبيون فإنهم دخلوا ميدان المعركة وقد فعل بهم الظمأ فعله وقد اخترقوا السهول فى حر الصيف الشديد . وما أن هبت الريح نحو مواقع الصليبيين حتى أشعل المسلمون النار فى الأعشاب البرية ، وحملت الريح الدخان مما زاد من عنت الصليبيين .

فى هذا الجو المختلط المحموم ابتعد مشاة الصليبيين عن فرسانهم فقتلوا بكاملهم ، أما الفرسان فإنهم وإن صمدوا للسلاح والدخان ، إلا أنهم سقطوا من شدة الإعياء ، فقتل منهم كثيرون ، ووقع الباقون فى الأسر ، ثم أمر صلاح الدين بأن يجيئوا بالملك جاى ، والدوق ريجلند . فعندما حضروا أمامه قدم إلى الملك شرابًا طيبًا فى إشارة على أنه صفح عنه ، أما ريجلند فإنه وضعه أمام أمرين إما أن يقتل وإما أن يؤمن برسالة النبى ﷺ فلما امتنع عن الإيمان قتله .

ومن الغنائم التى سقطت فى أيدى المسلمين فى معركة حطين الصليب الذى كان علمًا للصليبيين فى المعركة وكان يحمله أحد القساوسة وقد بعث به صلاح الدين إلى الخليفة فى بغداد ، ولما انتهت المعركة ووجد صلاح الدين أن لم تعد للصليبيين قوة يعتد بها فإنه اتجه لتحرير عكا . وفيها أطلق سراح أربعة آلاف أسير من المسلمين كما وهب جنده مغانم كثيرة مما سقطت فى يده من هذا الميناء الكبير. وفى ذلك الوقت كانت فلسطين كلها تقريبًا سقطت فى يد صلاح الدين لعدة شهور .

وعندما اقترب صلاح الدين من بيت المقدس كان كبار رجالها خرجوا إليه يطلبون الصلح فقال لهم : « إنه يعتقد كما يعتقدون هم أن هذه المدينة بيت الله وإنه لا يرضينى أن أحاصرها أو أهاجمها » ثم عرض على أهلها على أن لهم الحرية الكاملة فى تحصينها وأن يزرعوا ما حولها من الأرض إلى ما بعد أسوارها

بخمسة عشر ميلاً بغير أن يعترضهم أحد . وفضلاً عن هذا فإنه وعدهم أن يمدهم بكل ما هم بحاجة إلى المال والطعام إلى يوم عيد العنصرة . فإذا جاء ذلك اليوم ووجدوا لأنفسهم أملاً فى النجاة فإن لهم أن يحتفظوا بالمدينة ويقاوموا المحاصرين مقاومة شريفة . أما إذا فقدوا الأمل فى المعونة فإن عليهم أن يستسلموا من غير قتال ، ثم تعهد فى هذه الحال أن يحافظ على أرواح السكان المسيحيين وممتلكاتهم. غير أن المندوبين رفضوا هذا العرض وقالوا : إنهم لم يسلموا المدينة التى مات فيها المسيح منذ الخلق .

على أن حصار المدينة لم يمتد إلى أكثر من اثنى عشر يومًا ثم استسلمت وباستسلامها فرض صلاح الدين على أهلها فدية قدرها عشر قطع من الذهب عن كل رجل وخمس قطع عن كل امرأة وقطعة واحدة عن كل طفل . أما فقراء أهلها البالغ عددهم سبعة آلاف فقد وعد بإطلاق سراحهم إذا أدوا إليه الثلاثين ألف بيزانت التى بعث بها هنرى الثانى ملك إنجلترا إلى فرسان المستشفى ، ورضيت المدينة بهذه الشروط « شاكرة » كما قال أحد المؤرخين المسيحيين . ثم طلب العادل أخو صلاح الدين أن يُهدى إليه ألف عبد من الفقراء الذين لم يستطيعوا الفداء فلما أجيب إلى طلبه أعتقهم جميعًا . وفى نفس الوقت طلب بليان كبير المقاومين المسيحيين هدية مثلها فأجيب إلى طلبه وأعتق ألفًا آخرين وعلى هذا المثال سار المطران المسيحى ثم قال صلاح الدين : « إن أخاه قد أدى الصدقة عن نفسه وإن المطران وباليان قد تصدقا عن نفسهما وإنه يفعل فعلهما . فكان أن أعتق كل من لم يستطع تقديم الفدية . ثم أعتق كل من لم يستطع تقديم الفدية من كبار السن. ومن بين من افتدوا زوجات وبنات النبلاء الذين قتلوا أو أسروا فى معركة حطين، وهنا أخذت الشفقة بقلب صلاح الدين لدموع أولئك النساء والبنات فأطلق سراح من كان فى أسر المسلمين من أزواجهن وآبائهن ومن بينهم جاى « أما النساء والبنات اللاتى قتل أزواجهن وآباؤهن فقد وزع عليهن من ماله الخاص ، ما أطلق ألسنتهن بحمد الله والثناء عليه على ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة

نبيلة » وهذا ما قاله إرنول ، مولى إربان . وفور العفو وإطلاق السراح أقسم الملك والنبلاء أنهم لن يعودوا إلى حمل السلاح ضد صلاح الدين مرة أخرى . بيد أنه ما كانت أحوالهم تستقر فى طرابلس وأنطاكية الصليبيتين حتى أعفاهم رجال الدين من كل يمين أخذوه على أنفسهم مع صلاح الدين . ثم عكف الملك والنبلاء على وضع الخطط والانتقام من صلاح الدين . ولقد أذن السلطان لليهود بالرجوع لسكنى بيت المقدس كما منح المسيحيين حق دخولها شريطة ألا يكونوا مسلحين ، كما أنه ساعد حجاجهم وأمنهم على أنفسهم .

ثم سار صلاح الدين يقود جيشه لحصار عكا ،ولما وجد نفسه غير قادر على اقتحامها فإنه فضل الانسحاب . ولقد كانت سيطرة الصليبيين على مدن سور أنطاكية وطرابلس باعثًا للأمل فى نفوسهم فى انتصارهم على المسلمين فى هذا الوقت الذى كانت فيه الأساطيل الإيطالية لا تزال لها الكلمة العليا فى البحر المتوسط على استعداد لنقل الجيوش الصليبية إذا دفعوا إليها الأجر المعلوم . ولما عاد وليم كبير أساقفة صور إلى أوربا صار يحكى فى اجتماعاته التى عقدها فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا قصة سقوط بيت المقدس ، فلما كان فى ألمانيا تأثر بدعوته الإمبراطور فريدريك بربرسا حتى عجل بالزحف بجيشه سنة ١١٨٩ م ، فحياه العالم المسيحى وأطلق عليه لقب موسى الثانى الذى شق الطريق إلى الأرض الموعودة ، فلما عبر بجيشه مضيق الهلسبنت عند غاليبولى فإنه توجه إلى فلسطين عن طريق جديد . ارتكبت فيه نفس الأخطاء التى وقعت فى الحملة الصليبية الأولى بكل معانيها حتى إن بعض العصابات التركية اقتفت أثره وحرمته من المؤن فوقع المئات من رجاله صرعى الجوع . ثم مات فردريك غريقًا فى نهر سالف الصغير فى قليقية سنة ١١٩٠ م ، أما القليل الذى نجا من جيشه فإنه انضم إلى حصار عكا .

وكان ريتشارد الأول « الأنكتار » الذى أطلق عليه لقب « قلب الأسد » قد صمم على أن يجرب حظه مع المسلمين متوجسًا فى نفس الوقت من أن يغير

الفرنسيون على الأملاك الإنجليزية فى فرنسا ، فإنه أصر على أن يكون فليب أغسطس معه فى حملته ، ولم يعترض الملك الفرنسى وتلقى الملكان الصليب من وليم كبير أساقفة صور فى احتفال له جلاله . وانطلق جيش ريتشارد الذى كان جنوده من النورمان من مرسيليا ، أما جيش فليب فإنه أبحر من جنوا وكان التقاء الجيشين فى صقلية سنة ١١٩٠ م ، فلما التقيا استسلما للخلافات والعبث الذى استمر نصف عام ، وكان تانكرد ملك صقلية قد أثار حفيظة ريتشارد إلى أن استولى منه على مسينا ، ثم أرجعها إليه بعد أن دفع له تعويضًا مقداره أربعون ألف أوقية من الذهب ، فلما أن توفر له المال اللازم أبحر بجيشه إلى فلسطين ، وحدث أن تحطمت بعض سفنه على ساحل جزيرة قبرص وألقى حاكمها اليونانى القبض على بحارة السفن ألقى بهم فى السجن ، فلم يكن من ريتشارد إلا أن فتح الجزيرة وأعطاها إلى جاى ده لوزينان ملك بيت المقدس الطريد . ثم أبحر ريتشارد إلى عكا فوصلها فى يونيو سنة ١١٩١ م ، فحاصرها ومعه الصليبيون ما يقرب من تسعة أشهر ثم استسلم المسلمون . وقد فرض المنتصرون شروطهم على المنهزمين منها دفع مائتى ألف قطعة من الذهب وأن يسلموا إليهم ٦٠ أسيرًا من كبار رجال المدينة وأن يردوا إليهم الصليب الحق . وقبل المسلمون هذه الشروط وأيدها صلاح الدين ، فى نفس الوقت فإنه أجاز للمسلمين من أهل عكا ما عدا دفع المبلغ الذى أشرنا إليه أن يتركوا المدينة محملين بالمؤن التى تلزمهم . ثم عاد فيليب أغسطس إلى فرنسا لمرضه . وأصبح ريتشارد هو القائد الصليبى الوحيد فى الشام .

غير أن ريتشارد كان على ثقة تامة بأن صلاح الدين لن يقبل الهزيمة فأعاد تنظيم قواته ، واعتزم السير نحو الجنوب محاذيًا لساحل البحر ، ليرفع الحصار عن يافا التى كان يحاصرها المسلمون . وعصا الكثيرون من النبلاء أوامر ريتشارد وفضلوا البقاء فى عكا حيث أغراهم الترف والمجون . ثم التقى جيش ريتشارد بجيش صلاح الدين عند أرسوف وانتصر عليه انتصارًا غير حاسم وكان ذلك فى

سنة ١١٩١ م ، وطلب الاستمرار فى القتال غير أن ريتشارد أخذ جنوده إلى داخل يافا ، ثم عرض عليه صلاح الدين الصلح . وبينما كانت المفاوضات قائمة بين القائدين عرض كنراد مركيز على صلاح الدين أن يصبح حليفه وأن يستولى على عكا ويردها للمسلمين إذا وافق صلاح الدين على أن يمتلك هو صيدا وبيروت لكن صلاح الدين أشار لأخيه على أن يعقد مع ريتشارد صلحًا بمقتضاه يبقي للصليبيين جميع ما كان لديهم من المدن الساحلية ونصف بيت المقدس . وابتهج ريتشارد بهذه الشروط حتى إنه منح ابن السفير المسلم لقب « فارس » لكن ريتشارد سرعان ما تراجع عن الشروط عندما علم أن صلاح الدين يواجه بعض المشكلات فى الشرق ، ثم حاصر ريتشارد داروم واستولى عليها بعدها تقدم فى زحفه حتى أصبح على مسافة قليلة من بيت المقدس . فما كان من صلاح الدين إلا أن دعا جنوده إلى العودة إلى السلاح ، وكان قد تركهم ليأخذوا شيئًا من الراحة فى فصل الشتاء . غير أن الشقاق فى هذه الأثناء قد دب فى معسكر الصليبيين ، كما بلغهم أن الآبار التى فى الطريق إلى بيت المقدس قد سممت ، وعلى هذا فإن الجيش الزاحف نحوها لن يجد ماء صالحًا للشرب ، وبعد تدبر الأمر انتهى قادة الجيش الصليبى أنه من الأصوب أن يرجعوا عن بيت المقدس وأن يوجهوا زحفهم إلى القاهرة . غير أن ريتشارد سئم التردد حتى خيم اليأس على نفسه فرجع إلى عكا، وهو يفكر فى العودة إلى إنجلترا ، غير أنه عندما سمع أن صلاح الدين رجع فهاجم يافا وأنه احتلها بعد أيام قلائل فإنه رفض أن يتراجع وعادت إليه حمية القتال ، فأبحر إلى يافا يقود من استطاع أن يجمعه من جنود حيث تمكن بهم من دخول المدينة وطرد الجنود المسلمين ، وما إن علم صلاح الدين بما وقع ، فإنه قاد الجزء الرئيسى من جيشه لينقذ المدينة . وبسرعة تغير الموقف العسكرى فقد وصلت الإمدادات إلى صلاح الدين فاستولى اليأس كرة ثانية على ريتشارد إذ إن فرسان عكا وصور أحجموا عن مساعدته فعاد يطلب الصلح من صلاح الدين ، وفى اليوم الثانى من سبتمبر ١١٩٢ م ، وقع القائدان شروط الصلح الذى جعلت مدته

ثلاث سنوات ، وقسمت فلسطين قسمين فاحتفظ ريتشارد بجميع ما فتحه من المدن الممتدة على طول الساحل من عكا إلى يافا . وكان للمسلمين والصليبيين الحرية فى الانتقال بين القسمين ، وفى الشروط تعهد السلطان بحماية الحجاج الصليبيين إلى بيت المقدس على أن تبقى المدينة فى أيدى المسلمين .

هكذا كان دور صلاح الدين فى الجهاد ضد الصليبيين .

٢ ـ الجهاد بعد صلاح الدين :

توفى صلاح الدين وهو فى الخامسة والخمسين من عمره وكان ذلك فى سنة ١١٩٣ م ، بغير أن يكون قد أقر نظامًا معينًا لولاية العهد وكانت النتيجة أن دب الشقاق بين أولاده وأحفاده وإخوته وأقاربه . ثم تمكن العادل أخو صلاح الدين من أن يستحوذ على الجزء الأكبر من الدولة الأيوبية بفضل سياسته التى جعلت الجيش فى صفه ومؤيداً له . ومن ثم فقد أصبح فى سنة ١٢٠٠ م ، سلطانًا على مصر وبعض أجزاء الشام لا ينازعه منازع . وقد عمل العادل على أن يكون على علاقة طيبة بالصليبيين كما أنه عمل على إنعاش النشاط التجارى مع الإمارات الصليبية بالشام ، وكذلك المدن الإيطالية ذات الشهرة الواسعة فى التجارة مع الشرق مثل البندقية وجنوة وبيزا .

ولا شك فى أن اصطناع العادل هذا النهج فى السياسة مع الصليبيين يعتبر مناقضًا ، بل مناهضًا للسياسة الجهادية التى أرساها صلاح الدين ضد الصليبيين إذ إن ذلك معناه مسالمة الصليبيين على حساب القضية الجهادية الكبرى ، فقد ظن السلطان العادل ومن عاونوه أن مثل هذه السياسة قد تؤدى إلى أن يخفف الصليبيون من هجماتهم المدبرة ذات الهدف الأشمل على العالم الإسلامى إلا أن الصليبيين وعوا الدرس جيداً من حربهم مع صلاح الدين . فقد استبان لهم أن الانتصارات التى حققها صلاح الدين ترجع إلى أن العماد الرئيسى للجيوش الأيوبية ترجع فى إمدادها بالسلاح والمال ، كان مصر ، إذن فلماذا لا تكون مصر

هى الهدف الذى يجب عليهم أن يستولوا عليه ، لأن من يستولى على مصر يكون من السهل أن يبسط سلطانه على المسلمين فى كل مكان .

بدأ الهجوم الصليبى على مصر :

احتلال دمياط :

كانت المدن البحرية الإيطالية على وفاق تام مع ما ذهبت إليه السياسة الصليبية بل إنها شجعتها ونفخت فيها وخيلت لها أطماعها التجارية أن احتلال مصر سيتيح للسفن الإيطالية أن تصل إلى البحر الأحمر ، حيث يمكنها التعامل مباشرة مع المراكز التجارية الشرقية .

وقد اتفق هذا الانقلاب فى خطط الصليبيين مع ما دعا إليه البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٦ م ، بضرورة القيام بإعداد حملة صليبية جديدة هى التى عرفت بالخامسة حسب التقليد الصليبى المعهود .

وبدأ الغزو الصليبى لمصر بأن دخلت الجيوش الصليبية فرع النيل الشرقى ، وضرب الحصار على دمياط سنة ١٢١٨ م . وبسرعة خف السلطان العادل من شمال الشام إلى مصر لطرد هذه الحملة الصليبية المباغتة ، غير أنه توفى فى الطريق بالقرب من دمشق . وبعد وفاته دب الشقاق من جديد فى الدولة الأيوبية فتولى حكم مصر ابنه الملقب بالكامل ، وبذلك أصبح مسؤولاً عن الدفاع عن مصر وأن يقوم فى نفس الوقت بالسير على سياسة والده العادل فى التعامل مع الصليبيين ، وعندما دخل الصليبيون مصر استطاعوا الاستيلاء على دمياط ، ورغم ذلك فإن الملك الكامل سار على أسلوب المسالمة الذى انتهجه أبوه ذلك بأنه اقترح على الصليبيين أن يسلمهم بيت المقدس وأن يسلمهم المملكة الصليبية إلى ما كانت عليه فى أغلب مساحتها الأولى قبل أن يقوم صلاح الدين بفتوحه باستثناء بضع بلاد صغيرة وذلك كثمن للجلاء عن دمياط والابتعاد عن الشواطئ المصرية ، لكن الصليبيين انتهزوا فرصة ضعف الملك الكامل فرفضوا هذا العرض ظانين أن

بإمكانهم الاستيلاء على مصر بسهولة . ثم شرع الصليبيون بالزحف داخل الدلتا فى الوقت الذى كان فيه الفيضان قد بلغ ذروته غير مقدرين أن السير فى الأراضى المصرية إبان الفيضان أمر شديد الصعوبة وذلك بجهلهم بأحوال النيل وكثرة الترع. هذا فضلاً عن أن المسلمين قد أسرعوا بفتح الجسور والسدود مما أغرق الأراضى . ووقتها وجد الصليبيون أنفسهم وقد أحاطت بهم مياه الفيضان مما أبعدهم كثيراً عن قاعدتهم الحربية الرئيسية فى دمياط فعجزوا تماماً عن التراجع ، فكان أن لحقت بهم هزيمة شديدة على يد المسلمين . وهنا رضخ الصليبيون للتسليم ووافقوا عن الجلاء عن الأراضى المصرية سنة ١٢٢١ م بلا قيد ولا شرط .

ما بعد هزيمة الصليبيين فى دمياط :

لم يواجه الصليبيون بعد هزيمتهم فى دمياط سوى السخرية من ملوك أوربا جميعاً لأنهم فضلوا مدينة دمياط على مدينة بيت المقدس . وقد جاء اللوم اللاذع من فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا . فمن وجهة نظر هذا الإمبراطور أن من الأفضل تنفيذ الفكرة التى عرضها ريتشارد ملك إنجلترا على صلاح الدين من قبل، وهى أن تقوم ثمة تسوية سلمية بين الصليبيين والمسلمين . فكان أن جاء الإمبراطور إلى الشام فى حملة قليلة العدد والعدة سنة ١٢٢٩ م ، فأجرى مفاوضاته مع نواب السلطان انتهت بمعاهدة غريبة غاية الغرابة . فقد نصت شروطها على تسليم السلطان الكامل بيت المقدس للإمبراطور فردريك باعتباره ملك الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرة ، وطريق الحج من بيت المقدس إلى يافا وعكا ، على أن يبقى للمسلمين منطقة المسجد الأقصى فضلاً عن بعض المدن . وفى نفس الوقت أخذ الإمبراطور على نفسه عهداً أن يكون نصيراً للسلطان على كل أعدائه وأن يحول بين الإمارات اللاتينية وبين قيامها بإمداد الصليبيين بما يلزمهم، وعليه فى نفس الوقت أن يخبر السلطان الكامل بأى تحركات صليبية أوربية ضد المسلمين .

غير أن هذه المعاهدة لم تنل رضاء أى من الطرفين المسلم والصليبى فقد

وصفها المسلمون بأنها تعبر عن ذل المسلمين وهوان شأنهم ، وقال عنها الصليبيون: إن الإمبراطور فردريك أهان نفسه وأهان أوربا معه بتنازله بالتفاوض مع المسلمين بدل أن يشن عليهم الغارات تخليصًا للأراضى المقدسة من أيديهم .

ملك فرنسا يجرب حظه مع مصر :

عندما أصبح الصالح أيوب ابن الملك الكامل سلطانًا على مصر قامت جماعة من الخوارزمية المسلمين فانتزعت بيت المقدس من الصليبيين سنة ١٢٤٤ م ، فكان ذلك خرقًا للشرط الأول من شروط المعاهدة التى قامت بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك فأصاب الفزع كل أنحاء أوربا ، وثار أشهر ملوكها لويس التاسع ملك فرنسا والذى عرف فى التاريخ باسم « القديس لويس » ثورة عاتية ودفع بها جموح الغضب إلى أن أعد حملة صليبية كان أغلب جنودها من الفرنسيين ، ثم أبحر سنة ١٢٤٨ م متوجهًا إلى قبرص لقضاء فصل الشتاء . ثم خرجت الحملة من قبرص متوجهة إلى مصر بما يدل دلالة قاطعة على أن العقيدة الصليبية كانت راسخة عند الأوربيين فى القرن الثالث عشر الميلادى أنه من الضرورى لمصلحة أوربا والصليبيين الاستيلاء على مصر لأنها أصبحت تجسد المقاومة الرئيسية للعالم الإسلامى ضد المخططات الصليبية .

أما عن حملة لويس التاسع على مصر فإنها نزلت قريبًا من دمياط واحتلتها بدون أدنى مقاومة وذلك فى يوليو ١٢٤٩ م . ولم يكد الخبر يصل إلى السلطان الصالح أيوب وكان وقتها فى دمشق حتى نهض من فوره إلى مصر غير أنه توفى من قبل أن يقوم بأى عمل دفاعى ضد الصليبيين . وبسبب الوفاة المفاجئة للسلطان واحتلال الصليبيين لدمياط فإن شجرة الدر أخفت وفاة زوجها السلطان الصالح أيوب إلى أن يحضر الوارث الشرعى للبلاد وهو توران شاه .

وجاءت هزيمة الصليبيين على يد هذا السلطان الجديد ذلك لأن القديس لويس ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبته الحملة الصليبية السابقة على دمياط ، ذلك لأنها

صارت تؤجل الزحف حتى حلت أشهر الفيضان وأصبحت الترع والقنوات تطفح بمياه النيل حتى تعسرت جيوش الحملة ، وعجزت عن الزحف حتى تجمع الجيش الأيوبى ، وكان أغلبه من المماليك البحرية عند موقع المنصورة الحالية حيث أنزل الهزيمة النكراء بالصليبيين . ثم كر الجيش الأيوبى على الصليبيين فأنزل بهم هزيمة أخرى عند فارسكور ، وذلك أثناء محاولتهم التقهقر إلى قاعدتهم الرئيسية فى دمياط .

وكانت النتيجة الكبيرة أن دُحِر الصليبيون كما وقع القديس لويس أسيرًا فى أيدى القوات الإسلامية ولم يفرج عنه إلا سنة ١٢٥٠ م ، بعد أن دفع فداء كبيرًا تولت زوجته أمره فجمعت نصفه وتعهد الملك بتأدية النصف الثانى بعد مدة من إطلاق سراحه .

الدور النهائي من الجهاد ضد الصليبيين

تمهيد :

يعود الفضل فى انتصار المسلمين وجلاء الصليبيين عن دمياط إلى الشجاعة القتالية الفائقة التى ظهر بها جنود المماليك فى قتالهم ، وبعد هذا القتال الذى تُوِّج بنصرهم كانوا قد ذاقوا طعم السلطان وحلاوة الحكم فلعب الطموح بنفوسهم، وهنا أدرك السلطان الجديد توران شاه أن أولئك المماليك وقد تزعمتهم شجرة الدر زوجته وهى التى أشرفت على شؤون الدولة سوف يأتمرون به ويقصونه عن الحكم والسلطان نهائيا . فما كان منه إلا أن قابل التآمر فناهضه غير أن شجرة الدر تغلبت عليه فأغرت أمراء المماليك بالتخلص منه بقتله وتم لها الأمر فى سنة ١٢٥٠م ، وهنا أفل نجم الحكم الأيوبى تماما ، وانتقل الحكم إلى المماليك فانتقلت إليهم فريضة جهاد الصليبيين . . فمن قاد ذلك الدور النهائى . . . نذكر :

أ ـ الظاهر بيبرس :

فى تصورنا وتقديرنا أن الظاهر بيبرس يمثل ذورة الجهاد الإسلامى ضد

الصليبيين من حيث الشمول والتنوع وتعدد الجبهات ووحدة الخطة العامة التى حكمت المسيرة الجهادية للظاهر بيبرس ، فمع هذه العبقرية العسكرية نسير لنتعرف على أبعا دها وطبيعة دورها وضرورته . .

لقد كان الظاهر بيبرس على درجة عظيمة من بعد النظر السياسى وهو يعالج حروبه مع الصليبيين . فقد كان يهيئ لحروبه بسياج من المعاهدات والاتفاقيات ليحصن جبهته هو من ناحية ، وفى نفس الوقت يحقق فوزه بالأعوان والحلفاء ليكونوا عونا له على أعدائه والمناوئين له ، ومن الأمثلة على ذلك أنه عمل على محالفة بيزنطة وكانت على عداء متصل بالصليبيين بالشام خاصة ، وأن بيبرس وهو ينوى الاستيلاء على أنطاكية كان يعلم جيداً مدى تطلع البيزنطيين إلى تلك المدينة كما كان يدرك فى نفس الوقت أبعاد النزاع بين أباطرة البيزنطيين وأمراء أنطاكية . . وليس هذا فحسب بل إن السلطان بيبرس عمل على أن تكون السياسة بين حكام مصر وبين حكام جزيرة قبرص قائمة على المودة والتضامن .

هذا عن جانب العلاقات السياسية بين بيبرس وبين من حوله . . أما عن السياسة الجهادية فقد كان على يقين من أنه يواجه تحالفا قويا بين ألد عدوين له وهما الصليبيون ومغول فارس ، ولئن تعارضت الأهداف بين هذين الخصمين إلا أن غايتهما كانت واحدة وإنها لتدمير العالم العربى والإسلامى .

ولنبدأ أولا بالعدو التقليدى للإسلام وهم الصليبيون . . فحيث إن الصليبيين كانوا أقرب إلى يد بيبرس من المغول ، يضاف إلى هذا أن مدنهم وقلاعهم كانت جزرا متفرقة فى محيط عربى كبير سيطر الظاهر بيبرس على أغلبه . يضاف إلى هذا أن بيبرس قد عرك الأساليب الحربية للصليبيين عندما حاربهم عند المنصورة فعرف خصائصها من حيث القدرة والدراية الميدانية ، لهذا كله فإن بيبرس جعل الصليبيين الهدف الذى أولاه غاية جهاده ، واستهل تصادمه بهم بأن قام بعض أمرائه بالإغارة على بعض جهات إمارة أنطاكية سنة ١٢٦٠م . فخشى الصليبيون مغبة هذا الحادث ، فأسرعوا يطلبون الصلح والغفران من السلطان ، غير أن

بيبرس لم يُخدع بقولهم ، فقام بعدة هجمات محلية على الصليبيين كانت غايته منها كشف مواطن القوة والضعف فى مواقعهم ، ثم غادر منطقة الطور إلى عكا نفسها ليتعرف على تحصيناتها بنفسه غير أنه لم يتلبث طويلا أمامها ، فطفق يتنقل بين تحصينات الصليبيين فى فلسطين « وكشفها مكانا مكانا » ، وبعد جولته هذه عاد إلى مصر فى أغسطس سنة ١٢٦٣م .

وفجأة وردت إليه الأخبار بأن المغول أغاروا على البيرة فعاد إلى القاهرة مرسلا الأمير عز الدين إيغان بفرقة قوامها أربعة آلاف فارس ، ولحقه الأمير جمال الدين المحمودى ، بفرقة قوامها أربعة آلاف أخرى ، وفى ٢١ يناير ١٢٦٥م ، خرج الظاهر بنفسه إلى الشام ، وسرعان ما وردت إليه الأنباء بتراجع المغول عن البيرة ، فقرر فى الحال أن يهاجم الصليبيين وبدأ هجومه على قيسارية فنصب حولها المجانيق التى قامت بضربها ثم اقتحمها ، ففر أهلها وسلمت فى مارس ١٢٦٥م . . وحرص بيبرس على هدم قيسارية لأن موقعها كان يهدد مواصلات المسلمين بين مصر والشام فضلا عن أنها تشل تحركاتهم الحربية فى فلسطين ، وبينما كان المسلمون يحاصرون قلعة قيسارية أرسل السلطان بيبرس فرقة من جنوده بقيادة الأمير شهاب الدين القميرى إلى بيسان كما سير جماعة من العربان والتركمان إلى عكا فأسروا بعض الصليبيين ، ثم إنه أرسل جزءا من جيشه إلى حيفا فهرب الصليبيون من المدينة وقلعتها واحتموا بسفنهم ، آنئذ ضرب المسلمون حيفا وقلعتها ورجعوا بالأسرى والغنائم . وأثناء ذلك قصد بيبرس إلى عثليث فخربها وقطع ما حولها من أشجار وكرٍّ راجعا إلى قيسارية .

ثم جاء دور أرسوف وهى قلعة حصينة تقع إلى الجنوب من قيسارية ولها خطرها الكبير على تحركات بيبرس الميدانية . . وقد اعتمد فى مهاجمتها على عنصر المفاجئة فسار اليها من غير أن يعرف أحد قصده ، وضرب حولها المجانيق وقد كانت حماسة المسلمين كبيرة فى حصار أرسوف حتى إن النساء شاركن فى الجهاد وأكثر من هذا ، فإنهم شاركن فى جر المجانيق . ثم أطلقت المجانيق على

أرسوف وتسلق المسلمون أسوارها ورفعوا أعلامهم عليها وأسروا الكثيرين من جند الصليبيين ، ومما يذكر أن بيبرس أرغم أسرى الصليبيين فى أرسوف على هدم مدينتهم وتخريب حصونهم بأيديهم .

ولم يكد بيبرس يعود إلى القاهرة من الشام فى٢٩ مايو سنة ١٢٦٥ ، حتى غادرها فى١٢مايو سنة ١٢٦٦ ، متجها إلى الخليل ، ثم غادرها واتجه إلى عين جالوت ، حيث شن أمراؤه عدة غارات استكشافية على مجموعة من الإمارات الصليبية منها صور وصيدا ، وكان بيبرس قد علم أن بوهيموند السادس أمير أنطاكية شن غارة على مدينة حمص فتصدى له بجيش يقوده الأميران جمال الدين أيدغدى ، وسيف الدين قلاوون الألفى فى حين أن بيبرس زحف إلى عكا ثم قصد إلى صفد حيث تجمعت جيوشه ببلاد الشام . وفى الحال استقدم المجانيق من دمشق إلى صفد ونصبها حولها . . ثم اندلع القتال واشتد ، وقد قاتل المسلمون الصليبيين فى شجاعة وبأس فى الوقت الذى أظهر فيه الداوية ـ أصحاب صفد ـ قوة فى الدفاع عن قلعتهم . ومما ينبغى الإشارة إليه ، أن بيبرس أقام مستشفى ميدانيا مهمته إسعاف الجرحى من جنود المسلمين وعلاجهم ، وكان المستشفى عبارة عن خيمة كبيرة ضمت الكثيرين من الأطباء والجراحين والأدوية ، ثم خارت قوى الصليبيين فسلموا فى ٢٣ يونيه سنة ١٢٦٦ ، طالبين الأمان فأمنهم شريطة ألا يخرجوا بمال أو سلاح وألا يتلفوا شيئا من ذخائر القلعة ، وبتفتيشهم عند خروجهم وجدوهم قد خالفوا الشروط ، بأن حملوا معهم بعض السلاح والمال والأسرى . فما كان من بيبرس إلا أن قتل رجال الداوية جميعا ـ ماعدا اثنين ـ على تل قريب من صفد ، وبعد تخريب القلعة فإنه عاد إليها فى العام التالى فجدد بناءها وتحصيناتها لتكون قاعدة للهجوم على الصليبيين فى المستقبل . ثم زحف بيبرس إلى هونين وتبنين والرملة فاستولى عليها جميعا ، ثم رجع إلى القاهرة فى٣٠ نوفمبر سنة ١٢٦٦ ، وبعد وقت قصير غادرها فى ٢٥ مارس سنة ١٢٦٧م ، متجها إلى غزة ، وفزع الصليبيون عندما جاءهم ذلك النبأ فأرسلوا إلى

بيبرس بهداياهم وعدد من الأسرى المسلمين ، ثم فضل بيبرس فى هذه المرة الهجوم على عكا ، وهنا لجأ لخدعة حربية ليحقق بها عنصر المفاجأة فجعل بعض جنوده يرتدون ملابس فرسان الداوية والبعض الآخر ملابس الإسبتارية ، ونجحت الخطة ففوجئ الصليبيون بالمسلمين وهم على أبواب عكا فأعمل المسلمون السيف فيهم : « وصارت الرءوس تحمل إليه من كل جهة » ، وأصاب الهلع القوى الصليبية فأسرع معظمها بإرسال الرسل طلبا للصلح وكان بيبرس داهية فى الاستجابة إلى هذا الطلب إذ إنه فضل أن يعقد صلحا مع بعضها دون البعض، ليتاح له القضاء عليها واحدة بعد الأخرى ، فقد عقد صلحا مع أمير بيروت وصاحب صور وكذلك مع فرسان الأكراد ، وفى المراقب وكانت مدة الهدنة مع الجميع عشرة سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، ولم يكد بيبرس يعود إلى القاهرة حتى ورد إليه الخبر بأن التتار بدؤوا يتحركون نحو حلب فغادر القاهرة إلى الشام . غير أنه فضل أن يبدأ بالصليبيين فبدأ بيافا فحاصرها ثم استولى عليها ثم أخذ قلعتها وقوضها ، ثم انتقل تجاه الشقيف أرنون ، وهو أحد حصون الداوية الحصنية ، وضرب عليها الحصار ، ومما يدل على ثراء الحيل ببيبرس أنه أثناء حصاره للشقيف وقعت فى يده رسالة من الصليبيين إلى إخوانهم بالشقيف، ينفخون فى عزائمهم على ضرورة الصمود فى القتال حتى لا ينجح المسلمون فى الاستيلاء على الحصن ، وعلى الفور أخذ بيبرس الرسالة وجاء بمن يكتب بالفرنجية، وأمره أن يكتب رسالة إلى أهل الشقيف حذر فيها أهالى عكا مقدم الشقيف من بعض رجاله ، وفى نفس الوقت أرسل بيبرس رسالة أخرى على نفس المنوال إلى أولئك الرجال يحذرهم من مقدم الشقيف ، وبهذه الحيلة اندلع الشقاق بين الصليبيين داخل الشقيف وتحزبوا ، هذا بينما المسلمون يشددون حصارهم عليهم ؛ ولم يجد الصليبيون مفرا من التسليم فتسلم بيبرس الحصن فى ١٥ إبريل سنة ١٢٦٨م ؛ وما إن استولى بيبرس على حصن الشقيف أرنون حتى أخذ سبيله إلى الشمال متجها إلى طرابلس فأغار عليها وما حولها وغنم الكثير منها ، آنئذ استبد الهلع بأمراء الصليبيين والحصون والقلاع القريبة . فبادرت

صافيتا وأنطرسوس بتقديم الولاء كل الولاء للسلطان ، ثم استأنف سيره فمر بحمص وحماه دون أن يعرف أحد حقيقة مقصده إلى أن وصل بجيوشه إلى أنطاكية فضرب عليها الحصار من كل جانب ، وهنا ظهرت حقيقة تحرك السلطان وإنه للاستلاء على أنطاكية ، وقبل أن تبدأ المعركة فضل بيبرس أن يفاوض الصليبيين ولما لم يستجيبوا للتسليم فإنه شن على المدينة هجوما عاما فتمكن رجاله من اقتحامها ففرت حاميتها ـ و كانت تبلغ ثمانية آلاف ـ إلى القلعة ثم طلبوا الأمان من بيبرس فأمنهم .وبذلك تم استيلاؤه على أنطاكية فى أواخر مايو سنة ١٢٦٨م . . ويذكر المؤرخون : « أن استيلاء بيبرس على أنطاكية كان أعظم فتح حققه المسلمون على حساب الصليبيين فى بلاد الشام منذ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧م » . . وبهذه المناسبة أقيمت الأفراح فى جميع الأقطار الشامية والمصرية . . أما بالنسبة للصليبيين فكانت كارثة كبرى إذ إن أنطاكية فضلا عن كونها من أولى الإمارات الصليبية (١٠٩٨م) فإنها كانت تمثل القلعة الكبرى للصليبيين بالشام ، فكان سقوطها علامة واضحة على أن الحركة الصليبية قد آذنت بالزوال ، وأمام هذه الكارثة لم تملك القوة الصليبية القريبة من أنطاكية إلا أن تستسلم وتفر بحياتها ، أما أمير عكا فإنه اتقى الحرب مع بيبرس فطلب الصلح الذى تم على أن تكون أعمال عكا منا صفة بينه وبين بيبرس على أن تبقى حيفا للصليبيين ، ويستولى السلطان على المرتفعات المحيطة بصيدا ، بعدها شن بيبرس غارة على صور فى يوليو سنة ١٢٦٨م وهو فى طريقه إلى القاهرة عن طريق دمشق وفاز المسلمين بمغانم كثيرة ، بعدها قام بيبرس بجولة تفتيشية شملت الشام ومصر، وبعد زيارته للإسكندرية رجع إلى الشام فى ١٨ نوفمبر سنة ١٢٦٩م ، وبعد أن بلغته الأنباء بقيام التتار بغارة على الساجور قرب حلب ، ووقتها علم بيبرس بقيام تحالف بين الصليبيين والمغول ضد المسلمين وسلطة المماليك ، ولم يجد بيبرس مناصا من توجيه ضربة للصليبيين فى شمال الشام ، هنا وجد أن الحذر يفرض عليه أن يهادن الإسماعيلية الذين تحالفوا مع الصليبيين ، فأقام معهم صلحا لكى يؤمن جبهته من ناحية هذه الفرقة الدينية

المضلة وحتى يوحد جهده تجاه الصليبيين والمغول ، وبينما كان بيبرس يجرى استعداداته بدمشق فى ربيع سنة ١٢٧٠م ، وصله نبأ بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد قاد حملة من بلاده إلى جهة غير معلومة، فخشى بيبرس أن يكون لويس يريد أن يكرر تجربته السابقة فى غزو مصر فأخذ أهبته لمواجهته ، غير أنه علم بعد ذلك أن لويس توجه إلى تونس فنهض بيبرس بواجبه الإسلامى فساعد تونس بكل ما يستطيع لدفع الخطر عنها غير أن لويس قتل فى الطريق وتشتت حملته ، وهكذا تخلص بيبرس من الخطر الفرنسى .

بعدها اتجه إلى عسقلان فى ٢٥ سبتمبر ليكمل هدم حصونها خشية أن يستغلها الصليبيون فى معاودة تهديد فلسطين ومصر ، ثم رجع إلى القاهرة ليغادرها مرة أخرى إلى الشام فى ٢٤ يناير سنة ١٢٧١م ، فاتجه إلى دمشق ثم تحول إلى طرابلس حيث بوهيموند السادس أمير طرابلس ، وكان من أقوى الصليبيين فى الشرق ، وإذا كان بيبرس قد انتزع منه أنطاكية فإنه أراد أن يقضى على قوته كلها باستيلائه على طرابلس . ولما كان بيبرس يعلم جيدا أن طرابلس محصنة جيدا وأنها تمثل القاعدة الرئيسية لبوهيموند فإنه أراد أن يقضى عليه فيها ، فكان أن قضى أولا على ما حوله من حصون ومعاقل ليتمكن بعد ذلك من إحكام الحصار عليها ، وفى فبراير سنة ١٢٧١ م ، بدأ بيبرس بمهاجمة حصن الأكراد وكان من أقوى الحصون بالشام ، وكان تابعا لفرسان الإسبتارية ثم تمكن من الاستيلاء على ذلك الحصن باصطناع الحيلة ، فقد زيف على حامية الحصن رسالة من مقدم فرسان الإسبتارية إلى رجال الحامية يأمرهم فيها بالتسليم للسلطان بيبرس، وبهذه الخدعة استولى السلطان على حصن الأكراد ، وكان من أثر ذلك أن مقدم فرسان الداوية فى أنطرسوس طلب الصلح من السلطان ، وذلك ما حدث أيضا من فرسان الإسبتارية فى حصن المرقب فصالحهم أيضا على أن تكون الهدنة بينه وبينهم لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، وعلى هذه الشاكلة صار الحصار يحكم شيئا فشيئا على طرابلس ، وكان أن زحف بيبرس

إلى حصن عكا شمال طرابلس وهاجمه بعنف حتى اضطر الحصن إلى التسليم فى أواخر إبريل سنة ١٢٧١م ، ثم بقيت المرحلة الأخيرة وهي الانقضاض على طرابلس نفسها فما كان من بيبرس إلا أن أرسل إلى بوهيموند السادس رسالة كلها تأنيب وتهديد. ثم شرع فى الاستعداد للهجوم على طرابلس وهنا نمى إليه أن الأمير إدوارد الإنجليزى وصل إلى عكا يقود مجموعة من الفرسان قاصدا الحج إلى بيت المقدس، عندئذ ثارت مخاوف بيبرس من أن يكون مجى الأمير الإنجليزى مقدمة لحملة صليبية جديدة ، آنئذ أدرك بيبرس أن من الحكمة الموافقة على عقد صلح مع بوهيموند السادس صاحب طرابلس ، وجاءت الاتفاقية وكأنها الفصل النهائى فى حركة الجهاد الإسلامى التى قادها بيبرس ضد الصليبيين ، وما كاد بيبرس ينتهى من طرابلس حتى قام بعمليتين عسكريتين لهما أهميتهما .

الأولى : ضد الباطنية (الإسماعيلية) وهى فرقة دينية إسلامية انتسابا فاسدة العقيدة أرادت أن تشيع فسادها فى الشام ومصر فكان لهم بأس شديد . وكان أمرًا بدهيًّا أن يتقربوا من الصليبيين وأن يتحالفوا معهم ، ومع ذلك تمكن بيبرس من أن يقضى على وجود الباطنية فى الشام بعد أن استولى على حصونهم واحدًا بعد الآخر (١٢٧٠ ـ ١٢٧٣م) ، حتى قضى عليها جميعا ، أما الباطنية أو الإسماعيلية أنفسهم فإن بيبرس تخلص منهم بأن أسكنهم بعض الجهات فى مصر، أما العملية العسكرية الثانية فهى غزو جزيرة قبرص ، وكانت هذه الجزيرة على رأس القوة الصليبية فى عدواتها للمسلمين ، ولقد حاول بيبرس أن يشن حملة على الجزيرة غير أن حملته فشلت .

حرب بيبرس مع المغول :

نتقل بعد هذا إلى جهاد بيبرس ضد المغول فى آسيا الصغرى ، فمن الثابت تاريخيا أن الظاهر بيبرس مزج بين حروبه للمغول وحروبه للصليبيين ، فكثيرا ما كان يحارب الجانبين فى آن واحد ، وربما خرج ليحارب أحدهما فإذا به يحارب

الآخر حسب المواقف وتطور التحركات الميدانية . .

لقد قام الظاهر بيبرس بدور له وزنه فى صد المغول وجاهد جهاداً كبيرا فى محاربتهم عند غزة ثم عند عين جالوت . فخلصت له من التجارب القتالية معرفة عميقة بالاتصالات التى نشأت بين مغول فارس من جانب والبابوية ولويس التاسع وملوك أرمانيا الصغرى من جانب آخر . وكانت الغاية من هذه الاتصالات القضاء على البلدان العربية ، وإذا كان مغول فارس بزعامة هولاكو ، ومن جاؤوا بعده وجهوا ضربات قاصمة إلى البلاد الإسلامية فى الشرق العربى فأغاروا على العراق وهدموا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم وتوغلوا داخل الشام حتى بلغوا غزة وعين جالوت فى فلسطين ، وكان إلى جانب هذا الصنف من المغول فرع آخرهم مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية حيث قطنوا المنطقة بين بحر قزوين ونهر الفولجا . وقد اصطنعوا لأنفسهم سياسة مختلفة تماما .فبركة ـ خان مغول القفجاق أعلن إسلامه ومن أجل إسلامه فإنه غضب لما أنزله هولاكو من خراب ودمار ببلاد المسلمين ولا سيما قتله الخليفة العباسى ، وبإسلام بركة انتشر الإسلام بدرجة كبيرة بين مغول القفجاق مما تسبب فى عداء شديد بينهم وبين مغول فارس ، وبعد فترة وجيزة أصبح مغول القفجاق قوة إسلامية كبرى يسرها ما يصيب المسلمين من خير ويؤلمهم ما ينزل بالمسلمين من ألم . وقد رأى بيبرس أن فى إسلام بركة وقومه دعمًا له خطره للقوة الإسلامية الجديدة ، هذا فضلا عن التصدى لما يطمع فيه مغول فارس ، فكان من الطبيعى أن يقوم تحالف قوى بين بيبرس وبركة خان ضد العدو المشترك وهو مغول فارس ، ومن طريف ما يذكر عن العلاقة الطيبة بين القبيلة الذهبية وبيبرس أن بعض رجال القبيلة هاجر إلى مصر فاستقبلهم بيبرس بكل ترحاب وأقنعهم باعتناق الإسلام ففرحوا وسعدوا .

ولقد ظل مغول فارس بعد موقعة عين جالوت وهم فى طمع متصل إلى بلاد الشام بالاستيلاء عليها من جديد ، فكان أن شنوا عدة غارات عليها إلا أن بيبرس لم يكن بالرجل الذى يقبل العدوان عليه ، ولذلك فإنه لم يكد يسوى كل

مشكلاته الداخلية وينتهى منها حتى وصلته الأنباء بأن المغول أغاروا على البيرة (سنة ١٢٦٥م) ، والبيرة قلعة لها أهميتها وتقع على نهر الفرات وكان هدفهم أن يستولوا عليها ، فما كان من بيبرس إلا أن أرسل جيوشه إلى الشام على دفعات. أما هو فقد سار على رأس جيشه الأخير فى نهاية يناير سنة ١٢٦٥م .. ثم حاصر البيرة وأثناء الحصار مات هولاكو خان قائد مغول فارس سنة ١٢٦٥ ، ولكن ذلك الحادث لم يؤد إلى تهدئة الموقف ذلك ، لأن أبغا بن هولاكو وكان مسيحيا نسطوريا متزوجا من ابنة الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس ، وقد عمل على أن تكون صلته قوية بالقوى الصليبية فى الشرق والغرب طمعا فى إنزال انتقامهم بالمسلمين فى الشام ومصر ، وهكذا وجدت البابوية والقوى الصليبية فى الشرق مثل أرمينيا - فى المغول خير قوة يمكن الاستعانة بها فى القضاء على الإسلام واستعادة ما كان للصليبيين فى الشام من أراض ولا سيما بيت المقدس ، وقد وصلت تلك الأنباء إلى بيبرس ، ولكن المشكلات الداخلية والخارجية لمغول فارس شغلتهم كثيرا حتى أن أبغا فضل أن يطلب الصلح من بيبرس غير أن بيبرس أهمل تلك الدعوة ؛ لأنه كان لا يقبل أن يضع يده فى يد أعداء الإسلام . ولما يأس أبغا من مصالحة بيبرس ، فإنه تحالف مع الصليبيين ، وواصل عدوانه على بلاد الشام . فما كان من بيبرس إلا أن يضرب فى أطراف بلاد الشام ، ليكون على استعداد لدفع المغول ، وفى نفس الوقت خرج هو إلى الشام وما كاد يصل إلى دمشق حتى بلغته هزائم المغول وابتعادهم عن بلاد الشام ، غير أن أبغا لم ييأس من الفشل الذى منى به فى هجماته فعاود الهجوم سنة ١٢٧١م ، على عدة مواقع فتلقى هو والصليبيون هزائم متتابعة ، وعندما خارت قوى الصليبيين فى عكا فإنهم أسرعوا بطلب الصلح فعقدت هدنة بينهم وبين بيبرس لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات ، أما أبغا فإنه أصر على عناده فى محاربة بيبرس حتى إنه أغار على البيرة ونصب المجانيق لمحاربتها ، وما كان أسرع بيبرس فى تعبئة جيوشه ثم خف لإنقاذ البيرة ، ثم عبر هو وجنوده الفرات ، وبمجرد وصوله

إلى البر الشرقى فإنه صلى ركعتين شكرا لله ، ثم شن هجومه الكاسح على المغول، فأنزل بهم الهزيمة القاضية وقتل وأسر الكثيرين من جنود العدو .

بين بيبرس وسلاجقة الروم :

وأصبح المغول على يقين من أنهم لن يقدروا على الصمود أمام بيبرس ما لم يتحالفوا مع عدو لبيبرس يكون قويا . فكان أن تحالفوا مع معين الدين البرواناه زعيم سلاجقة الروم ، وكانت بلاد سلاجقة الروم فى ذلك الوقت تحت الرعاية المغولية ، وذلك مما حدا ببيبرس بأن يشن حملة كبرى على بلاد السلاجقة فى آسيا الصغرى سنة ١٢٧٧م . فكان أن فتك تماما بالجيش المغولى عند أبلستين فى ١٨ إبريل ، وبذلك تمكن بيبرس من دخول قيصرية بآسيا الصغرى . ولم يجد معين الدين البرواناه بدًا من إعلان تسليمه الكامل للسلطان بيبرس ، ورغم ذلك فإن غزو بيبرس للأناضول تسبب فى دعم وتقوية التحالف بين المغول والصليبيين . وقد اعتبر أبغا الصليبيين حلفاءه الطبيعيين ، أما المسلمون فهم أعداؤه حتى يقال : إنه قتل من فقهاء المسلمين وقضاتهم ورعاياهم ببلاد الروم ما يزيد على مائتى ألف نسمة ، ولقد كان ليون الثالث ملك أرمانيا الصغرى أول من مديد العون من الصليبيين للمغول ، وقد تواطأ الاثنان على شن حملة كبرى على الشام لانتزاعها من أهلها ، وكذلك بيت المقدس ، وقد اتفقا على طلب المساعدة العاجلة من البابا وملوك أوربا ، غير أن بيبرس أسرع باتخاذ إجراء صارمًا ضد أرمينيا لا سيما وأن ملكها هيثوم الأول فرض حصارا اقتصاديا على مصر والشام وفى نفس الوقت منع تصدير الأخشاب والحديد إليهما من آسيا الصغرى . وكانت فرصة بيبرس عندما وجد أن أبغا خان مغول فارس قد اشتبك فى حرب مع مغول القفجاق فأرسل جيشًا سنة ١٢٦٦م ، يقوده الأمير قلاوون والملك المنصور صاحب حماة فهاجما أرمانيا الصغرى ، وتمكنا من إنزال أكبر هزيمة بالأرمن والصليبيين قرب دربساك فى أغسطس سنة ١٢٦٦م ، بعدها أغار الأمير قلاوون على كبرى المدن الأرمينية وهى المصيصة ، وأذنة ، وطرسوس ، وكذلك ميناء إياس ، أما الملك المنصور صاحب

حماة فإنه زحف إلى سيس عاصمة أرمينيا الصغرى ، واستولى عليها وقد دمرها تدميرا كاملا ، ثم عاد فرسان بيبرس إلى الشام ومعهم أربعون ألف أسير ومن الغنائم ما لا يعد ولا يحصىٰ ، وأخيرا شغل أبغا وليون الثالث بمشاكلهما الداخلية، فآثرا تأجيل مشروعهما بالهجوم على الشام .

فتوح بيبرس فى النوبة :

لم يشأ السلطان بيبرس أن يكون هو البادئ بالعدوان على النوبة ؛ لأنه كان مشغولا أنئذ بتثبيت دولة المماليك وإحياء الخلافة العباسية ، وكذلك انشغاله بمحاربة المغول والصليبيين ، كل ذلك جعل منه ملوك النوبة فرصتهم للعدوان على مصر ، وهذا ما فعله داود ملك النوبة إذا أنه اعتدى على مصر سنة ١٢٧٢م ، فهاجم أسوان وأسر كثيرا من المسلمين . ثم أغار على مدينة عيذاب ونكل بأهلها تنكيلاً شديدا بما يدل على تأصل الروح الصليبية فى نفوس ملوك النوبة وأهلها . . وعندما علم بيبرس بذلك العدوان وأدرك مدى خطورته لا على سلامة مصر فحسب بل على تجارة الدولة نفسها . . وفى يناير ١٢٧٦م ، تحركت حملة بيبرس نحو النوبة يصحبه شكندة ملك النوبة المخلوع ، وقد صادفت هذه الحملة نجاحا كبيرا وحققت كل أغراضها فأصبح شكندة هو ملك النوبة بدلا من داود ، وقد اعترف كثير من المؤرخين بأن حملة بيبرس على النوبة حققت ما لم تحققه حملة أخرى منذ أيام الفتح العربى لمصر فيذكر مفضل بن أبى الفضائل أن ما قام به بيبرس من فتوحات فى بلاد النوبة بعد : « مما يفوق به على كل ملك تقدمه » . . هذا بينما يقارن ابن الفرات بين الغزوات التى قام بها حكام مصر فى بلاد النوبة منذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر بيبرس فيقول : « كل هذه غزوات وإنما الفتح الذى وقع فى يد الملك الظاهر » .

وهنا نجد من الضرورى أن نذكر أنه عندما فتح المسلمون مصر سنة ٦٤٠م ، فكَّر عمرو بن العاص فى فتح النوبة ، فأرسل عقبة بن نافع الفهرى لفتحها وكان ذلك فى سنة ٦٤٢م ، غير أنه لم يوفق فى تحقيق الهدف ، ثم تجددت المحاولات

على يد والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وقد نجح فى التوغل فى النوبة جنوبا حتى دخل دنقلة عاصمة النوبة فحاصرها حتى أرغم ملكها على طلب الصلح فتم الصلح بين الطرفين فى اتفاقية سُميت اتفاقية: « البَقْط ».. وكانت في حقيقتها اتفاقية اقتصادية .

ب ـ السلطان قلاوون :

واستمر الجهاد الإسلامى وتواصل ضد الصليبيين فى عهد السلطان قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠) ، الذى آلت إليه فريضة الجهاد بعد السلطان بيبرس ، فانتهج ما قام به من عقد المحالفات مع بعض الدول الأوروبية ، لإحداث الشقاق بين الصليبيين الذى يؤلب بعضهم على بعض .

ولقد أظهر قلاوون فى جميع معاركه التى خاضها ضد الصليبيين أنه حقا «السلطان المنصور » . فقد بسط هيمنته على حصن المرقب الذى كان تحت سيطرته الإسبتارية سنة ١٢٨٥م ، وبعدها قصد إلى مدينة طرابلس ودمرها تماما سنة ١٢٨٩م ، ومما يذكر أن المؤرخ أبو الفداء حضر هذه المعركة وكتب مشاهداته عنها فقال فى كتابه « المختصر فى تاريخ البشر » ، ثم تساقطت المدن الصليبية واحدة بعد الأخرى فى عمليات متصلة نهضت بها الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان قلاوون إلى أن مات ، ونهض بعدة بالتبعة ابنه السلطان خليل (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣) الذى قام من فوره بفرص الحصار على عكا ، ونصب حولها المجانيق ، ثم أصلاها ضربا لمدة زادت على شهر حتى هدم جميع معاقلها ثم سقطت فى يده سنة ١٢٩١م ، وقد سُدَّت المنافذ فى أوجه الصليبيين فلم يجدوا مفرا من الهروب إلى جزيرة قبرص التى صارت بعد ذلك الملجأ الذى تلوذ به البقايا الصليبية فى الشرق ، وبسقوط عكا لم تجد المدن الصليبية التى لا زالت بالشام بدأ من التسليم ومن هذه المدن صور وبيروت .

وعلى هذا النحو جاءت خاتمة الصراع بين المسلمين والصليبيين فى الشرق ، ولم يبق للصليبيين سوي جزيرة قبرص التى صارت مقرا لملوكها من أسرة

لوزجنان، وجزيرة رودس التى حط بها بقية الفرسان الإسبتارية ، ومملكة أرمينيا الصغرى فى قليقيا بأقصى الشرق من ساحل آسيا الصغرى الجنوبى.

الحرب ضد المغول

أما عن المحيط الأصلى للمغول ، فلقد عاشوا فى الهضبة الأسيوية الواسعة الانتشار فهى تمتد من حدود الصين إلى أواسط آسيا ، ومن جغرافيتها أنها تضم عدداً من خطوط الطول والعرض . وكان ذلك سببا فى أن تنوعت فيها البيئة كما تنوعت فى مناخيها وتضاريسها ، إلا أن الصفة الغالبة عليها هى الصفة السهوبية حيث المراعى المتنوعة ، ولهذه الأسباب فقد عمل المغول بالرعى والانتقال فى سرعة هائلة على ظهور الخيل حتى وكأنهم وهم فى انطلاقهم فى زحف قتالى سريع ، ومن هنا لم ترض قبائل المغول أن تعيش حياة مستقرة فتبنى المدن الكبيرة وتأتى بالأعمال الحضارية التى تفرض الاستقرار ، ولكنها انطلقت تضرب فى الأرض من حدود الصين ومنشوريا إلى بحيرة بايكل القريبة من تركستان الإسلامية، وبعد أطوار من الحياة الاجتماعية تمكن أحد زعماء المغول المسمى جنكيز خان ، أى حاكم الحكام أن يؤلف بين الجماعات المغولية وقبائلها فى دولة مغولية ذات قوة وبأس شديدين اتخذت لها عاصمة فى مدينة قرة قورم . . ولإقامة هذه الدولة ، فإن جنكيز خان أعد لها دستورا خاصا اسمه « اليساق » . . وحدث فى الاجتماع المغولى العام ، وكان يعرف فى اللغة المغولية بلفظ : «قوريتلاى » أن أعلن جنكيز خان دستوره ، وقد اتصف هذا الدستور بالاستبداد الدكتاتورى الصارم . فالخضوع تام لإرادة الزعيم وهو هنا جنكيز خان ، وكذلك الالتفاف برايته وتحت رايته ، وحيثما انطلق فلينطلق معه كل فرد فى أى حرب يخوضها بغير أن يتردد أو يستفسر ، والويل كل الويل لمن يخالفه سواء كان فرداً أو قبيلة . وبهذا الدستور أعد جنكيز خان قواته وجيوشه وشعارها شيئ واحد : الطاعة العمياء . . الطاعة العمياء . . الطاعة العمياء مع الاحترام الكامل لما يتخذه الخان الأعظم من قرارات بهذه القوات المغولية وهى فى كثافتها الرهيبة الرعيبة ، وبعد أن توج جنكيز خان إمبراطورا للمغول فى سنة ١٢٠٦م ، أخذ أهبته لفتح الأقاليم المجاورة له من إمبراطورية الصين . وكان يحكم الصين آنئذ ملوك أسرة

«كين» وعاصمتها مدينة «بكين» ، وبدأ جنكيز خان حروبه فى سنة ١٢١١م ، وتمكن من بسط سلطانه على أجزاء كبيرة من الإمبراطورية الصينية المتهالكة سنة ١٢١٥م ، ثم واصل حروبه المدمرة حتى وصلت جيوشه نهر هوانجهو . ثم قنع جنكيز خان بما استولى عليه من أراضى الصين ، وعاد إلى عاصمته قرة قورم بعد أن أناب عنه أحد رجاله . وترك جنكيز خان الجبهة الصينية ، وتوجه إلى الجبهة الإسلامية مستهلا حروبه بأن أخضع القبائل المغولية التى هربت من وجهه أثناء عملياته التى قصد بها أن يجعل من المغول دولة واحدة ، وصار يقتفى هذه القبائل أثناء فرارها من وجهه حتى وصل إلى بلاد الدولة الخوارزمية فى تركستان وإلى الحدود الشرقية من إيران ، وفى هذا الوقت كان يحكم الدولة الخوارزمية علاء الدين محمد خوارزم شاه . . ولقد كان جنكيز خان دمويًا رهيبًا حين انقض على بلاد الدولة الخوارزمية فى إقليم ما وراء النهر ، وتعرضت بخارى وغيرها من المراكز الإسلامية إلى أبشع صنوف التدمير وسفك الدماء ، فقد حول المغول المساجد إلى إصطبلات لخيولهم ، وبسرعة البرق فر علاء الدين خوارزم شاه إلى جزيرة فى بحر قزوين ، وقد توفى سنة ١٢٢٠م ، حزنًا على ما أصاب بلاد الإسلام من فوادح مدمرات ، ولقد أورد المؤرخ ابن الأثير صورة تدل على بشاعة ما أصاب الناس من رعب وانهيار أمام الجيوش المغولية ، وقد فقدوا إرادتهم تمامًا، فكان المغولى يدخل قرية من القرى وقد تجمع أهلها فى مكان من شدة الفزع ، ثم يأخذ التترى فى قتلهم واحدًا بعد الآخر حتى يقضى عليهم جميعًا بغير أن يجرؤ أحد منهم أن يدفع التترى بيده أو حتى ينظر فى وجهه . «وأن إنسانًا منهم أخذ رجلاً ، ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض ، ومضى التترى ، فأحضر سيفًا ، وقتله به » ثم مات جنكيز خان سنة ١٢٢٧ م ، وقد بلغ الرابعة والستين .

ثم انطلق المغول فى زحفهم متجهين نحو إيران ، فصادفهم قلاع طائفة الإسماعيلية فدمروها وكذلك مدنهم مثل قلعة الموت ، ولم يصادف المغول فى إيران سوى مقاومة يسيرة من أولئك الإسماعيلية . ثم جهز هولاكو نفسه ـ وقد

صار زعيم المغول ـ للزحف على بغداد ، وقد بدأ عمله بأن أرسل إلى المعتصم الخليفة العباسى يدعوه إلى التسليم وفى نفس الوقت أرسل إلى وزيره ابن العلقمى يهدده ويمنيه فحرضه على الخيانة ، وبعد التهديد حاصر هولاكو بغداد معتمداً على ما كلف به ابن العلقمى من حيث التهاون فى القيام بالتحصينات اللازمة والعمل فى نشر الوقت على نشر الذعر والخوف بين الناس ، بحجة أن المغول قوم لا يقهرون ولا تصيبهم الهزيمة أبدًا ، وإنه من الحكمة والعقل أن يخضع لهم الجميع، وخلال ذلك انطلق مجانيق المغول تضرب بغداد فى حصونها وقلاعها مدة أربعين يومًا حتى تسببت فى إحداث فجوة كبيرة فى أسوارها . وهنا لم يجد الخليفة مفراً من التسليم وخرج ومعه أهله ورجاله وقابل هولاكو وسلم مدينة بغداد .

وكانت نفسية هولاكو تنطوى على غدر أسود بالنسبة للخليفة والمدينة ، ومن ثم فإنه أمر بأن يخرج جنود الخليفة إلى خارج بغداد تحت ذريعة إحصائهم . ولم يكادوا يتجمعون خارج المدينة حتى قتلوا عن آخرهم . وفى صباح اليوم التالى جعل هولاكو بغداد مستباحة لجنوده يفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون . فانتشروا فى أنحائها يقتلون الرجال ويأسرون الأطفال ويستحيون النساء ، واستمرت هذه المذبحة قائمة مستمرة لمدة أربعة أيام بلياليها حتى غُصت خيول المغول بالغنائم والأسلاب من ذهب وفضة ونساء فضلاً عن رؤوس القتلى التى جعل منها المغول كرات يتلهون ويعبثون بها على شواطئ دجلة .

وأخيرًا جاءت لحظة الخليفة المستعصم الذى كان هولاكو قد حبسه وأهله فى قفص من حديد ، فجىء به فقتل ومن بعده أهله ورجاله .

وهكذا زالت الخلافة العباسية ولكن إلى الأوان المقدور الذي تحقق بالجهاد ضد المغول والصليبيين . آنئذ ، وإلى أن أذن المؤذن بأن حى على الجهاد صار العراق الإسلامى تابعًا للمغول سنة ٦٥٦ هـ ، ١٢٥٨ م .

ولقد أصاب العالم الإسلامى كله الحزن الشديد لما أصاب بغداد وعم الأسى كل المدن والأقاليم ، ونحن نورد صورة من ذلك الأسى مجسدة فى قصيدة

للشاعر شمس الدين محمود الكوفى قالها فى رثاء بغداد . لقد قال :

إن كم تقرّح أدمعى أجفانى من بعد بعدكم فما أجفانى
إنسان عينى من تناءت داركم ما راقه نظر إلى إنسان
يا ليتنى قد مِت قبل فراقكم ولساعة التوديع لا أحيانى
وإلى وللأيام شتت خطبها شملى ؟ وخلانى بلا خلانى
ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلى ولا جيرانها جيرانى
وحياتكم ما حلها من بعدكم غير البِلى والهدم والنيران
ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم ووقفت فيها وقفة الحيران
وسألتها لكن بغير تكلم فتكلمت لكن بغير لسان
ناديتها يا دار ما صنع الألى كانوا هم الأوطار فى الأوطان ؟
أين الذين عهدتهم ولعزهِم ذلا تخر معاقد التيجان ؟
كانوا نجوم من افتدى فعليهمُ يبكى الهدى وشعائر الإيمان
قالت : غدونا لما تبدد شملهم وتبدلوا من عزهم بهوان
كدم الفِصاد يراق أرذل موضع أبدًا ويخرج من أعز مكان
أفنتهم غِيَرُ الحوادث مثلما أفنت قديمًا صاحب الإيوان
لما رأيت الدار بعد فراقهم أضحت معطلة من السكان
ما زلت أبكيهم وأنتم وحشةً لجمالهم متهدم من الأركان
حتى رثى لى كل من ما وجده وجدى ولا أشجانه أشجانى
أتُرى تعود تجمعنا كما كنا بكل مسرة وتهانى ؟
أن نحن نغتنم الزمان ونجتنى بيد الأمان قطوف كل أمان

وحان وقت الجهاد فى صد المغول :

بعد سقوط بغداد ونهايتها الأليمة البشيعة تابع هولاكو سيره نحو الشام ، وما كاد يصل إلى مدن الموصل وحران والرها حتى أنزل بهم الضرب بسيوفه وفر الجميع أمام التتر ، وكأن السيوف فى رقابهم ، ثم بعث هولاكو برسله إلى ملوك الأيوبيين بالشام ينذرهم ويوعدهم بالقضاء التام عليهم إذا لم يمهدوا بأنفسهم الطريق لزحفه إليهم ، وذلك بالتسليم والإعلان العام عن طاعته ، ولا ريب فى أن يصيب الوجل والخوف بلاد الشام ومصر ، وفى تقدم هولاكو مهددًا ومتوعدًا استولى على حلب ثم دمشق وسائر البلاد الشامية الواقعة بينهما . وفى نفس الوقت أرسل إلى السلطان قطز ، سلطان مصر ، ببعض رجاله يهدده ويتوعده ما لم يعلن الطاعة التامة له . فما كان من قطز الخوارزمى الأصل إلا أن قتل كل من أولئك الرجال المغول انتقامًا لما أجرم به جنكيز خان فى حق الدولة الخوارزمية . ثم وقع لهولاكو ما جعله لا يصبر على البقاء لإنجاز ما كان ينتويه إذ إن أخاه الخاقان مانجو خان قد مات فكان لزامًا عليه أن يغادر الشام لتنصيب الخاقان الجديد، وقام أبغا مكانه فى قيادة الجيوش المغولية التى كانت تحتل بلاد الشام .

أما فى مصر كان السلطان قطز قد أسرع باتخاذ كل الاستعدادت القتالية اللازمة ثم استهل جهاده بأن أرسل مجموعة من طلائع جيشه من القاهرة يقودها الأمير بيبرس البندقدارى على أن يتولى هو قيادة الجيش الرئيسى ، وتمكن بيبرس من أن يرغم الطلائع المغولية على التراجع وكان ذلك قرب غزة . وهذا يشير إلى أن الخطر المغولى قد اقترب جدًّا من مصر ، ثم وصل قطز إلى طلائع بيبرس . ثم قام بحركة تفاوض مع الصليبيين ليأذنوا له أن يخترق أراضيهم الساحلية حتى يكون فى مقدوره من أن يفاجئ المغول من حيث لا يتوقعون ، وكللت المفاوضات بالنجاح ، وإن كان بعض الصليبيين فضل التحالف مع المغول على التحالف مع المسلمين .

وبسرعة خاطفة وصل قطز إلى مدينة بيسان وفاجأ المغول عند عين جالوت سنة ١٢٦٠ م .

وهكذا كانت انتصار قطز عند عين جالوت كبيراً وعظيماً بعد أن كادت الكثرة المغولية ترجح حيلة المسلمين ، وصار المغول يتقهقرون فى اختلاط واضطراب إلى دمشق وحلب فلاحقتهم الفرق المسلمة حتى طردتهم من الأراضى الشامية تماماً .

ألا إن انتصار المسلمين على المغول فى عين جالوت هو من الوقائع التاريخية الفاصلة سواء نظرنا إليه من ناحية مصر فى العصور الوسطى أو تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، ذلك لأن هذا الانتصار تحقق بعد أن فشلت كل من الدولة الخوارزمية والدولة العباسية عن الوقوف فى وجه المغول والتصدى لهم ، وعلى الجانب الآخر فقد عجزت القوة المسيحية فى أن تقف أمام الزحف المغولى وهو يبسط سطوته على أجزاء من روسيا وبولندا والمجر الحالية . هذا فضلاً عن معركة عين جالوت تعد الصدمة الأولى لجيوش المغول وخاناتهم الذين خافهم الناس فظنوا أنهم قوم لا يقهرون . فكانت هزيمتهم القاصمة دلالة على أنه بالإمكان إنزال الهزيمة بالباغى مهما طال الزمن .

ومما له دلالته التاريخية أن موقعة عين جالوت كانت ذات أثر حاسم فى التاريخ الأوربى نفسه ، فقد هدد المغول أوربا بأسرها ، ولو أنهم نجحوا فى زحفهم الانطلاقى لكان فيه القضاء على أوربا ولما وجدت حضارتها التاريخ .

ماذا نقول ؟

بهذا النصر الكبير والعظيم أصبح لمصر زعامتها المرموقة فى العالم الإسلامى.

وبعـــد :

هكذا جاءت العسكرية الإسلامية منذ فجر الإسلام :

فتحت فتوحها بالحق من أجل الحق .

ودافعت عن وجودها بالحق من أجل الحق .

وصدق الحق سبحانه حيث قال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات : ١٣]

المراجـــع

١ - جامع البيان لابن جرير الطبرى .

٢ - مفاتيح الغيب للفخر الرازى .

٣ - الكشاف للزمخشرى .

٤ - تفسير القرآن العظيم ابن كثير .

٥ - تفسير البيضاوى .

٦ - تفسير الألوسى .

٧ - تفسير المنار لرشيد رضا .

٨ - فى ظلال القرآن لسيد قطب .

٩ - تفسير القرآن الكريم .. للشيخ محمود شلتوت .

١٠ - كتب الصحاح الستة .

١١ - المسند للإمام أحمد .

١٢ - رياض الصالحين للنووى .

١٣ - سبل السلام للصنعانى .

١٤ - نيل الأوطار للشوكانى .

١٥ - التاج الجامع للأصول .

١٦ - النهاية لابن الأثير .

١٧ - الفائق للزمخشرى .

١٨ - سيرة ابن هشام .

١٩ - أسد الغابة .

٢٠ - الإصابة لابن سعد .

٢١ - حياة محمد . للدكتور محمد حسين هيكل .

٢٢ - المغنى لابن قدامة .

٢٣ - فتح القدير للشوكانى .

٢٤ - حاشية ابن عابدين .

٢٥ - إعلام الموقعين لابن القيم .

٢٦ - الأحكام السلطانية للماوردى .

٢٧ - رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .

٢٨ - السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف .

٢٩ - لسان العرب : ابن منظور .

٣٠ – الكامل فى التاريخ ابن الأثير .
٣١ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور ابن إياس .
٣٢ – فتوح البلدان البلاذرى .
٣٣ – المسالك والممالك – ابن خرداذبة .
٣٤ – المقدمة ، ابن خلدون .
٣٥ – جامع التاريخ – رشيد الدين الهمذانى .
٣٦ – حسن المحاضرية فى أخبار مصر والقاهرة – السيوطى .
٣٧ – المختصر فى أخبار البشر – أبو الفداء .
٣٨ – تاريخ الدول والملوك – ابن الفرات .
٣٩ – المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس – القيروانى .
٤٠ – السلوك لمعرفة دول الملوك المقريزى .
٤١ – الوليد بن عبد الملك د. سيدة إسماعيل الكاشف .
٤٢ – الوليد بن عبد الملك د. سعيد عبد الفتاح عاشور .
٤٣ – تاريخ العالم الرسلامى (ج ١ ، ٢) د. إبراهيم أحمد العدوى .
٤٤ – النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية – ابن شداد .
٤٥ – دولة الأندلس ، ملوك الطوائف (ج ٣) محمد عبد الله عنان .
٤٦ – تاريخ الطبرى (ج ٦) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى .
٤٧ – الهند وجيرانها ول ديورنت – ترجمة د. زكى نجيب محمود .
٤٨ – عصر الإيمان ، الحوب الصليبية ول ديورنت – ترجمة محمد أمين .
٤٩ – تاريخ الخلفاء الراشدين د. محمد محمد زيتون ، د. محمد جبر أبو سعدة .
٥٠ – قادة فتح السند وأفغانستان – اللواء الركن محمود شيت خطاب .
٥١ – قادة فتح السند وأفغانستان – اللواء الركن محمود شيت خطاب .
٥٢ – قادة فتح بلاد الروم – اللواء الركن محمود شيت خطاب .
٥٣ – تاريخ بغداد الخطيب البغدادى .
٥٤ – الأم « الإمام الشافعى » .
٥٥ – أفغانستان ، باكستان – محمود شاكر .
٥٦ – المعجب فى تلخيص أخبار المغرب المراكشى .
٥٧ – مروج الذهب ومعادن الجوهر – المسعودى .
٥٨ – المسلمون فى الهند – الندوى .
٥٩ – لبحدود الإسلامية البيزنطية د. فتحى عثمان .
٦٠ – المنتخب فى أدب العرب (ج ٢ ، ٣) .

الفهرس

الموضـــوع ..... الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة